الدكتور ابراهيم السامرائي

في شعاب العربية



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

في شعاب العربية

الدكتور ابراهيم السامرائي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الكتاب ١٥
الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م

لبنان - بيروت - ساقية الجنزير، خلف الكارلتون، س. ت ٥١٤٩٧
ص. ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس: FIKR 44316 LE

بين يدي الكتاب

هذه أشتـات ضممت بعضها إلى بعض لما جعلت بينها من وشائج أصيلة، وإني لأوثـر ألا تبقى أشتاتاً متباعدة هنا وهناك.

ولا أرى أن القارىء بعيد عني وهو يستطلع هذا الجمع اللفيف.

الأداء واللغة
في شعر بدر شاكر السياب

لقد قيل في المتنبي شاعر العربية الكبير: لقد ملأ الدنيا وشغل الناس، ولعل شيئاً من هذا يصدق في صاحبنا بدر السياب، ولكن هل كان حقاً أن ينال هذا السياب هذه المكانة، وهل كان له من الشاعرية الفذة ما دعا إلى أن يشيع اسمه فيعرفه القريب والبعيد، ويكتب عنه هنا وهناك في بلاد الدنيا؟

لقد كتب كثير من الدارسين عرباً وأعاجم في شاعرية السياب وخصائصه الفنية التي عدت خصائص للأدب العربي الجديد أو قل المعاصر، وقد ذهبوا إلى أنه فتح أبواباً عريضة للمتأدبين شعراء ومتشاعرين.

لقد ذهبوا إلى أن هذا الأدب الجديد شيء من الفكر العالمي ولا سيما الغربي أفاد منه الفكر العربي المعاصر، فكان مادة الأدب الجديد.

ولا أريد أن أشارك في هذه الحماسة التي تفتقر إلى شيء من العقلانية، فأكتب في هذا الأدب. غير أني معني بلغة هذا الأدب الجديد عنايتي بالعربية الفصيحة وتاريخها وتطورها، وما أفادته من عصرنا الحاضر، وما نالها منه في الوقت نفسه. وقد قصرت بحثي على المادة اللغوية في أدب هذا السياب. .

أقول: لقد قال النقاد القدامى في أبي تمام إنه خرج على عمود

الشعر(١)، لأنه جاء بجديد لا عهد للعربية به نحو (ماء الملام) في قوله:

لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي

وقوله:

يا دهر قَوِّمْ من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

وقوله:

ألا، لا يمدّ الدهر كفًّا لسيّئ إلى مجتوى نصرٍ فتقطع من الزند

وقوله:

رقيق حواشي الحلم لو أنّ حلمه بكفّيك ما ماريت في أنّه برد

ولقد عابوا على أبي الطيب المتنبي كثيراً من شعره وتنقصوه، كما عابوا شعر طائفة أخرى من المحدثين أو المولدين. وظلت حال النقد اللغوي على هذا النحو حتى جاء العصر الحديث، فظهر هنا وهناك أدب جديد. وقد وجد النقاد في شيء من هذا الأدب خروجاً عما ألف الناس في استعمالهم الأدبي. لقد وجدوا في أدب المهاجرين من العرب إلى الديار الأمريكية نمطاً جديداً، يشذ عما درج عليه الأدباء في أساليب العربية الفصيحة. فمن ذلك مثلاً أنهم وجدوا أن (جبران) من أدباء المهجر الأوائل كتب في أحد مصنفاته:

«حبلت رؤوس الأفاعي».

فقال النقاد كيف يكون ذلك، وكيف جاز (للرؤوس الحبل) وهل (الحبل) جائز في الأفاعي؟

---

(١) لقد أسيء استعمال مصطلح (عمود الشعر) في عصرنا هذا فكان (الشعر العمودي). وهذا المصطلح الجديد يعني في استعمال المعاصرين الجدد من الشباب وغيرهم الشعر الذي يخضع للوزن الواحد والقافية الموحدة، وهذا يعني أن هذا الضرب من الشعر أي القصيدة في شكلها المعروف في التزام الوزن والقافية الموحدة تقابل الشعر الجديد الذي أسموه (الشعر الحر).

قلت: لقد أسيء استعمال (العمود) وهو المصطلح القديم الذي أريد به في اصطلاح النقاد القدامى الحفاظ على اللغة في معانيها واستعمالها ومجازاتها وأقيستها. ومن أجل هذا قالوا بخروج أبي تمام وآخرين على هذا (العمود) لأنهم أتوا باستعمالات لم تعرف في العربية قبل تلك الحقبة.

أقول: إذا كنا قد أخذنا على جبران وغيره من أدباء المهجر تجاوزهم على العربية في معانيها ومجازاتها، فماذا نقول في لغة الشعراء الجدد المعاصرين؟

لقد كان لي أن استقريت ثلاث مجموعات في شعر السياب هي على النحو الآتي:

١ ـ المعبد الغريق (دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٢ م).

٢ ـ منزل الأقنان (دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٣ م).

٣ ـ شناشيل ابنة الحلبي (في منشورات وزارة الثقافة والإعلام في بغداد ١٩٦٥ م).

إن شعر السياب في هذه المجموعات الثلاث وفي غيرها، مما لم يشمله استقرائي مثل (أنشودة المطر) نمط جديد دعي (الشعر الحر) من حيث عدم التزامه بوزن واحد وقافية واحدة. وإذا جاز لي توسعاً أن أسمي أي موضوع من موضوعات هذه المجموعات (قصيدة) لزمني أن أقول: إن هذه القصيدة تجري في عدة من أوصالها، ولا أقول أبياتها، على نغم أو وزن أو بحر من بحور الشعر المعروفة، غير أن السياب يبدأ موضوعه على وزن من أوزان الشعر المعروفة، حتى إذا مضى في ترنيمة لا تتجاوز أبياتاً أربعة أو خمسة انبرى إلى شيء يبتعد عن هذا النغم الموزون، فقد يكون وزناً آخر، وقد لا يكون شيئاً في وزن، بل قد يكون نثراً بارداً، فكأنه حين ينتقل هذه الانتقالة المحيرة، أُنشِط من عقال ما يعتلج في نفسه في المضي على الوزن مخافة أن يقال له: وقع في أسر (الشعر العمودي). وإني لأستميح سامعي أو قارئي من أهل العلم عذراً أن أستعمل هذا المصطلح الذي بني على الخطأ والوهم.

ولنسمع شيئاً من هذا النمط الذي يتقلب فيه السياب، فيأتي بأمشاج من أوزان مستقيمة ومتجانفة.

يقول في إحدى قصائده الجديدة أسماها (وصية من محتضر)[1]:

يا صمتُ، يا صمتَ المقابر في شوارعها الحزينة،

---

(١) من مجموعته (منزل الأقنان).

أعوي، أصيح في لَهَف فأسمع في السكينة
ما تنثر الظلماء في ثلج وقار
تصـدى عليه خطىً وحيدات ويبتلع المدينة
أصداءَهنَّ، كأنَّ وحشاً من جديد من حجار
أين العراق؟ وأين شمس ضحاه تحملها سفينة
في مـاء دجلة أو بُوَيب[1]؟ وأين أصداء الغناء
خفقت أجنحة الحمام على السنابل والنخيلِ
من كل بيتٍ في العراء؟

في هذه المقطوعة نغم من مجزوء الكامل يسري في بيتين كاملين يخلفهما شطر أو شيء من شطر ليس من بابته، ثم يعود إلى هـذا الضرب من (الكامل) في خمسة أبيـات ذيلت بشيء آخـر يند عن وزنها. ومثل هذا كثير في شعر السياب وغير السياب، من الشعراء الجدد، أصحـاب هذا الضرب المدعو بـ (الشعر الحر).

وكأن هؤلاء أرادوا أن تـكون هذه المسألة في النيل من الأوزان المعروفة، سمة من سماتهم، فإن لم تـكن هذه سمة لهم! فكيف نفهم أن شيئاً من المتدارك في قول السياب يسلمك إلى ضرب من النثر أو شيء منه:

ظلاً يتماوج كالجرس
يا درباً يصعد للربِّ
لولاك لما ضحكت للأنسام القرية
في الريح عبير
من طوق النهر يهدهدنا. . . . ويغنّينا

وأنت واجد مثل هذا العداء إلى القافية حيثما تهيأت له قافية طيعة مواتية في جملة أبيات تعاصى عليها فانتقض إلى قافية أخرى، أو شيء آخر ليس بقافية، وذلك لأن الشاعر الجديد ينحدر من نغم موزون إلى نثر لا تلمح فيه وزناً أو تناسباً بين فقرة.

---

(١) بويب اسم نهير صغير في أقصى جنوبي العراق.

وكأن هؤلاء الشبان قد تكلفوا هذا الضرب في الالتزام، وراضوا أنفسهم على خلاف من طبعهم؛ ذلك أنك تجد منهم ولا سيما السياب، من يسمح لطبعه أن يتغلب على هذه الرياضة العنيفة، فهو يستمرىء القافية وينساق معها انسياقاً، يشف عن استجابة لطبع أصيل. إنه مثلاً يتخذ من كلمة (درم)[1] وهي المدينة التي أقام فيها السياب حقبة، مادة منحته (الميم الساكنة) التي جعلها قافية والتزمها في قصيدة كاملة، لولا أنه يعاف هذه القافية على طريقته فيأتي بأشياء أخرى في أشطار شبه موزونة وأخرى هي النثر الصريح.

يقول في (دَرَمْ):

دَرَمْ......
بنفسي مما عزاني بَرَم
فمدي ذراعيك ولتحضنيني
إلى هوةٍ من ظلام العدم
فما قيمة العمر أقضيه أمشي
بعكازةٍ في دروب الهَرَم
أهذا شبابي؟ وأين الشباب
ألا حبه، لا زهوَ، لا عنفوان؟
أهذا مشيبي؟ حصدت السراب
إذا كان معنى المشيب الهوان
أعقبى المشيب الأسى والندم
أما من شبابي الذي مر ذكرى؟
أما منه مال وبقيا شَمَمْ
أكان الذي خلفت شعراً
وبيتاً وراء الرياح انهدَمْ
دَرَمْ...
تمنيت لو مت بين الثلوج

---

(١) (درم) اسم مدينة إنجليزية

على جدول جمَّدته النسم

ثم ماذا في هذا اللون من الأدب الجديد؟ إنه حافل بشخوص غير مربية، لا يعرفها إلا الخاصة من الدارسين العرب. إنها شخوص إغريقية، تارة نجدها في الإلياذة والأوديسا وغيرها من هذا الأدب القديم، وهي شخوص رومانية نعرفها في الأدب الروماني في أساطيره وحكاياته، وهي تارة أخرى مواد مسيحية ترمز إلى شخوص نقرؤها في العهد الجديد، وقد تتجاوز هذا إلى العهد القديم. إنك تجد إيزيس وسيزيس وأورفيوس وبيورديس وبرسفون ويسوع والجليل وأيوب (إشارة إلى سفره)، ومثل هذا كثير.

وإذا كان أدب السياب قد حفل بهذه الشخوص الغريبة، فإنه حافل في الوقت نفسه بمادة لغوية هي شخوص واضحة في بيئته الجنوبية البصرية. وهذه الشخوص البصرية تتمثل في النخلة وسعفها وما يتصل بها من أدب النخلة. والبيئة البصرية الجنوبية في العراق بيئة خضرة، ومياه وفيرة تقرب من بيئة الخليج العربي؛ فالأنهار طول الليل والنهار بين مد وجزر، يطغى الماء في المد، ثم ينحسر في الجزر، فيظهر في الشطآن الحصى والرمل والمحار. فإذا قرأت أدب السياب أدركت أن هذا الفتى بصري أصيل أحب بلده وتعلق به أيما تعلق، ومن أجل ذلك حفل هذا الأدب بهذه المواد من الطبيعة البصرية. ثم إنك لتجد مواضع تلك البيئة من أعلام القرى والأنهار والمحال. وقد تعجب من أن السياب يطالعك بأسماء هذه الشخوص الأعجمية، مع مواد بيئته البصرية القروية؛ فهو يقول في مجموعته (المعبد الغريتي) في قصيدة أسماها (حدائق وفيقة):

لم تزل تثقل (جيكور) رؤاها
آه لو روَّى نخيلات الحديقة
من (بُوَيب) كركرات لو سقاها
منه ماء المد في صبح الخريف

إن وفيقة هذه إحـدى فتيـات، صـرح السياب باسمها: ولا نعـلم إن كـان هذا الاسم صريحاً أم مستعاراً. و(جيكور) هي قريته الصغيرة في جنوب العراق من تـوابع البـصرة، و(بُوَيب) هذا اسم نهير صغير في تـلك القرية، ومـا أكثر النهيرات الصغيرة في تـلك الجهات، وهي تتأثـر بالمد، الذي يعم شط العرب مبتدئاً من الخليج، وفي هذه (المجموعة) نفسها نقرأ في قصيدة تتصل بـ (وفيقة) هـذه موضوعها (شبـاك وفيقة) قوله:

(كجـليل تنتظر المشيهْ
ويسوع) وينشر ألواحهْ
إيكـار يمسح بالشمس
ووفيقة تنظر في أسف
. . . .
ظلاً يتماوج كالجرس
ويهـف كحبات النفس
والشمس تكركر في السعف
يـا درباً يصعد للرب
. . . .
في الريح عبير
(عوليس) مع الأمواج يسير

فـأنت تـرى (الجليل) و(يسوع)، وهمـا معروفان، استعارهما السياب من الثقافة المسيحية وشبه بهما شيئاً أشـار إليه في (قصيدته) التي تتصل بـإحدى الفتيات قد سماها (وفيقة) ثم تقـرأ (إيكار) وهـو (يمسح الشمس) إيمـاءة إلى أسطورة إغريقية، ثم (عوليس) وهو بـطل (الأوديسا)، ثم إنـك لتجد القصيدة الواحدة تجمع هذه كلها، فهي مـادة جنوبية قروية من ريـف العراق الجنوبي، تنتصب فيهـا هـذه المواد الغريبة من الأعلام النصرانية والإغريقية والرومانية، في لـوازم الأدب القديم للفكر اليوناني والروماني.

إنه يقول في قصيدته (أم البُروم)[1] في مجموعته (المعبد الغريق):

رأيت قوافل الأحياء ترحل عن مغانيها
يقول رفيقي السكران: دعها تأكل الموتى
مدينتنا لتكبر تحضن الأحياء تسقينا
شراباً من حدائق (برسفون) تعلنا حتى
تدور جماجم الأموات من سكر مشى فينا

و(برسفون) هذه ابنة آلهة الخصب اليونانية، اختطفها (بلوتو) سيد العالم السفلي عالم الأموات فصارت تعيش معه هناك.

وقد تعجب إذا بحثت عن شيء يتصل بالأساطير العراقية القديمة ولا سيما البابلية، فلا تجد منها إلا شخوصاً باهتة، ولا أدري أحَسِب السياب أن الشخوص غير العربية، أو قل غير الشرقية، مما يتصل بعوالم غير عالمنا تزكية لأدبه، وخصيصة لا بد منها لا يأتلق الفكر الجديد في أدب الشباب إلا بها؟ أو قل كأن هذا مما يفتقر إليه أدبنا العربي ليصبح في عداد الآداب العالمية.

قلت: إن الأعلام القديمة التي كان ينبغي للسياب أن يفيد منها في نهجه في الإفادة من (الأسطورة العراقية البابلية أو السومرية) قليلة باهتة لا تكاد تشعر بها، ومن هذا القليل النادر قوله في (شباك وفيقة):

إذا انشق عن وجهك الأسمر   كما انشق عن عشتروت المحار

و(عشتروت) في الآلهة البابلية. وأنت ترى أن حضور هذه المواد الغريبة في الآداب القديمة لم يكن شيئاً متسماً بأصالة وضرورة فنية، فهو شيء لا يتجاوز التشبيه العابر الذي لا يضيء صورة مظلمة ولا يبدع فكرة أصيلة. والمحار وهو الصدف شيء في مادة السياب يرمي إلى تأثره ببيئته الجنوبية.

---

(١) (أم البروم) اسم مقبرة شهيرة في شمالي البصرة قد أزيلت حين اتسعت رقعة المدينة، فبعثرت القبور، وطمست معالمها، وقامت مقامها المساكن والمرافق الأخرى التي تتصل بالمدن الجديدة كالحدائق والمتنزهات.

ولننتقل إلى معجم السياب في هذه المجموعات الثلاث وغيرها لنقول: إنه معجم زهيد القيمة قليل المادة لا غناء فيه، إنه طائفة من ألفاظ نجدها ونسمعها في حديث الناس سحابة يومهم، وإنه مما تضطرب به أقلام الكتبة في صحف هذا العصر. وهذا شيء درج عليه السياب وغيره من هؤلاء الشبان أصحاب المذهب الجديد، الذي أسموه (الشعرالحر). وليس غريباً أن يكون معجم هؤلاء الشبان من رصيدهم اللغوي فقيراً، يفتقر إلى غير قليل من هذه العربية السمحة، ذلك لأنهم لم يطيلوا الوقوف على الأدب القديم، ولم يعرفوا مادته معرفة الدارس المتبصر، ولم يكن لهم أن يشقوا بمعرفة كتب العربية وما اشتملت عليه في الأعلاق النفيسة.

أقول: إذا كانت بضاعة هؤلاء الشبان في المادة اللغوية على هذا النحو من الفقر، فكيف يتأتى لهم أن يبلغوا في أدبهم مكاناً رفيعاً، وكيف يتأتى لهم أن يقيموا بناء ثابت الدعائم مستقر الأصول. لعل أحداً أن يقول: إنهم يعتمدون على الفكر الجديد المعاصر مما يبدعه الفكر الغربي، وما أظن أن شيئاً يستقيم لهم من ذلك، إن لم تكن بضاعتهم اللغوية في العربية سنية مجدية، على افتراض أنهم يحذقون شيئاً في اللغات الغربية، فإذا عرفنا أن هذا الافتراض غير متوفر، وأن أغلب هؤلاء الشباب لا يشدون شيئاً من اللغات الغربية يمكنهم من معرفة تلك الآداب، أدركنا أن ليس من طوق هؤلاء أن يجعلوا من أدبهم شيئاً يحسب له الحساب في الآداب العالمية.

وقد بلغ من فقرهم اللغوي أنهم يغيرون على الكلم العامي الدارج، فيضمونه إلى مادتهم عارفين أو جاهلين أنه ليس من العربية الفصيحة كما ستتبين. وقد يكون من فقرهم اللغوي أيضاً أنهم يسيئون إدراك المعنى الحقيقي للكلمة الفصيحة، فيتوهمون أنها تعني شيئاً لا نعرفه في العربية الأصلية.

ولنبدأ هذه المسيرة الطويلة من مجموعة (المعبد الغريق) فنقرأ قول السياب في (شباك وفيقة):

ظلاً يتماوج كالجَرَسِ

ويهفّ كحبَّات النَّفَس
والشمس تكركر في السعف

إن الفعل (تَمَاوَج) شيء من العامية العراقية، ولعله كذلك في غير العامية العراقية من الألسن الدارجة، وذلك لأن من مادة (موج) الفعل (ماج يموج) و (تموج)، أما (تماوج) فهو صيغة عامية دارجة. وما أحسب أن السياب يدرك أنها عامية. ولعل من نهجه أن (يتماوج) فعل عربي فصيح لأنه جرى على صيغة من أبنية الفعل المزيد.

ثم إن قوله: (ويهف) لـ (حبات النفس) لا يفصح عن معنى الفعل كما هو في العربية، ذلك أن (الهفيف) سرعة السير، قال ذو الرمة:

إذا ما نعسنا نعسة قلت غننا بخرقاء، وارفع من هفيف الرواحل

وريح هفافة: سريعة المر، وهفت الريح هفاً وهفيفاً: إذا سمعت صوت هبوبها، فكيف يتسنى لنا أن ندرك معنى استعمال الفعل في قول السياب؟ وكيف يكون للظل (هفيف)؟ ثم نأتي إلى الشطر الثالث فنجد (الشمس تكركر في السعف) ويخيل إلي أن السياب استعار (الكركرة) هذه من اللغة الدارجة العراقية بمعنى الضحك المتصل، مع أني لا أدرك كيف (تكركر) الشمس في السعف، أي تضحك. وما أظن أن السياب يعرف أن هذا الفعل المضاعف من الفصيح والعامي في الوقت نفسه. ولا أدري كيف يتجه لي أن أعرف أن (الشمس تكركر في السعف)؟ وإذا أردنا أن نحمل الفعل (كركر) على معنى الترديد والإدارة لم نستطع أن نجد له وجهاً في بيت السياب. ولنسر مع الشاعر في (قصائده) فنجد أن (الكركرة) المأخوذة من العامية تفيد الأصوات المترددة والسياب يستعملها كثيراً دون أن يلمح معناها الدقيق، ليقول في مقطوعة أسماها (حدائق وفيقة):

. . . .
آه لَوْ روًى نخيلات الحديقة
من بويب كركرات! لو سقاها

وهـو يقول في قصيدته (أم البروم) التي أشرنا إليها:

....

فتحلم أعين الموتى
بكركرة الضياء وبالتلال يرشها النور

لا أدري كيف يتجه لي شيء من معنى في نسبة الكركرة للضياء! وليس هـذا مندرجاً في نهج الشاعر في إطلاق المجازات والاستعارات التي تنخرم فيها العلاقات بين الألفاظ، فالمجاز قائم دون أية رابطة تسهل هذا التوسع المجازي، بل قل إن العلاقات غير كائنة، وهـذا كثير في شعر السياب، وأكثر منه ما ورد في شعر الذين خلفوا بعده، وفي شعر المعاصرين من هؤلاء الشباب الأجرياء. وسآتي على ذكر هذه المسائل الغريبة التي تقدح في علم الدلالة.

ولا بد من استيفاء ما ورد من الكلم الدارج في شعر السياب، مما يتلقفه من لغة الناس في حديثهم وصحفهم اليومية، يقول السياب في (شباك وفيقة) التي أشرنا إليها:

تمثلت عينيك يا حفرتين
على ضفة الموت بوابتين

أقول: ليس في العربية (بوابة) بمعنى الباب، ولا نعرف الكلمة في العامية الدارجة في العراق، وإنما أخذت سبيلها إلينا من الألسن الدارجة العربية في مصر وسورية وغيرهما. وأنت تجد الكلمة في قصائد أخرى كأن يقول في قصيدة أسماها (دار جدي):

أين حياة لا يحدُّ من طريقها الطويل سور
كشّر عن بوابة كأعين الشباك

ثم كيف تدرك أن (السور كشر عن بوابة كأعين الشباك)!!

ومن الانسياق في المادة الدارجة استعمال السياب للفعل (يلهث) في غير معناه الذي نعرفه في العربية. يقال: لَهِثَ الرجل إذا أخرج لسانه من

شـدة العطش والحر، ولهثَ الكلب إذا خـرج لسانه من التعب والعطش كما في التنزيل العزيز: ﴿كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ [الأعراف: ٧/١٧٦].

ثم لننظر كيـف يقول السياب في قصيدة أسماها (حـنين في روما):

عريـان تزلَّق في أيـد
. . . .
في ليل الشهوة كـل دمي
يتحـرق، يلهث ينفجر

من غير شك أن (يلهث) في قـول السياب من العامية في وصف المتعب المجهد، ثم إننا إذا وجـدنا سبيلاً إلى فهـم هذا الفعل في قوله:

(. . . كل دمي يتحرق، يلهث. . .) بتقريبه من الدلالة الفصيحة، فكيف نفهم قوله في قصيدة (النبوءة الزائفة):

تطفأت الكواكب وهي تسقط فيه كالشرر
ويلهث تحتنا الآجر يزحف تحتنا زحفا

إن الفعل (يلهث) في نسبته إلى (الحجر) شيء غريب بعيد عن الاستعمال الفصيح بل هو عامي دارج.

وفي قصيدة أسماها (جيكور شابت) يقول السياب:

كركرات المياه التي كسر الشمس منها ارتجاف
. . . .
ودرابك في الأرض تنقرهن البذور

في هـذين البيتين نعود إلى (الكركرة) العامية التي تحدثنا عنها والتي توهمها السياب مـادة فصيحة، ومثلها (الدرابك) جمع (دربـكة) وهـي ضرب من الدفوف أو الطبول يستخدمها العامة في الأفراح وغيرها. ومن المفيد أن أشـير إلى أن (الدرابك) لا تعـرف إلا في العامية البصرية.

ومن هذا الكلم قـوله في قصيدة أسماها (صياح البط البرّي):

. . . .
وعند النهار خزامى، أقـاح
وختمية مـالها ذبـول

أقـول: و (الختمية) صنف من الزهر لا يعرفه غير العراقيين.

ويقـول في قصيدة أسماها (المعبد الغريق) وهي اسم المجموعة كلها:

وحدث وهو يهمس جاحظ العينين مرتعدا
يعبُّ الخمر شيخٌ: عن دجى ضاف وأدغال
تلامح وسطها قمر البحيرة يلثم العَمَدا
يمسُّ الباب في جنبات ذاك المعبد الخالي
طواه الماء في غلس البحيرة بين أحراش
معثرة وأدغال

إن الدارس ليجد في هذه المقطوعة شيئاً من تـأثر السياب بالعامية، فـأين الفعل (تـلامح) في فصيح العربية؟

إنـه يعني (بدا باهتاً)، ثم إن (الأحـراش) بمعنى (الشجر مجتمعاً) من العامية، وفصيحه (الأحراج) بالجيم، والأحـراج والحرج بفتحتين. والحرجات واحد، والحرجة واحدة الحـرج كالشجرة والشجر.

ومن التأثـر بالعامية قـول السيـاب في قصيدة أسمـاها (أفيـاء جيكـور):

جيكور مسِّي جبيني فهو ملتهبُ
مسيه بالسَّعَف
والسنبل الترِف

إن وصف السنبل بـ (الترف) هـو تعبير عامي عـراقي، ذلـك أن (تـرف) مثل (فرح) وصف عامي للشيء الطري الجديد نحو خضرة ترفة وفاكهة ترفة

وعيش ترف أي (مترف)، ومن هذا الاستعمال العامي قول السياب في قصيدة أسماها (الوصية):

كما تَخُضُّ نفسي الهواجس المبعثرة

إن الفعل (تَخُضُّ) بمعنى (تهز) من العامية العراقية وليس في الفصيح شيء منها. وهو يقول من هذا في قصيدة (سفر أيوب) من مجموعته (منزل الأقنان):

وزوجة تتمرَّى وهي تبتسم

إن الفعل (تتمرى) مولد جديد في العامية العراقية، وغيرها من الألسن الدارجة من مادة (مرآة) والفعل معناه: استعمل المرآة ونظر فيها ليرى وجهه.

وهو يقول في القصيدة نفسها:

البرد وهسهسة النار

والهسيس والهساس: الكلام الذي لا يفهم، والهساهس: الوساوس وحديث النفس، والهسهسة: كل شيء له صوت خفي كصوت الحلي، وهساهس الإبل في سيرها، وصوت حركة الدرع، وحركة الرجل بالليل. أقول: إذا كانت مادة «الهسهسة» هذا معناها ومساهرها ودلالتها فكيف نفهم (هسهسة النار) في كلام السياب؟

ونمضي في هذه المجموعة فنقرأ قول السياب في قصيدته (أسمعه يبكي) من هذه المجموعة الثانية:

يدعو: أبي، كيف تخلّيني
وحدي بلا حارس

أقول: إن قوله: (كيف تخلّيني وحدي) حكاية لكلام ولده الذي يبكي، وهو يرى أباه مريضاً محتضراً. وهذا من غير شك من العامية العراقية التي لا تعدم أن تجد ما يشبهه في اللغة الفصيحة أو يقرب منه.

ومن هذا النمط العامي استعماله لفظ (الفنار) للإشارة الضوئية في المرافىء والموانىء في قصيدته (رحل النهار):

وكأنَّ ساعدك اليسار، وراء ساعته، فنار.

وما أظن أنه الحاجة إلى التشبيه ضربت السياب إلى أن يجيء بـ (الفنار) لولا شيطان القافية، فهي تتوفر في (نهار) و (قرار) و (انهمار)، فلِمَ لا تأتي (فنار)؟

وننتقل إلى مجموعته الثالثة (شناشيل ابنة الجلبي)[1] فنمضي في سبيلنا في الوقوف على الكلم العامي، ونقرأ في قصيدته هذه التي جعل اسمها اسماً للمجموعة كلها:

وفتّحت السماء لغيثها المدرار باباً بعد باب.
عاد منه النهر يضحك وهو ممتلىء
تكلّله الفقائع عاد أخضر، عاد أسمر،
غصّ بالأنغام واللهف
يا مطراً يا حلبي
عبّر بنات الجلبي
يا مطراً يا شاشا
عبّر بنات الباشا

أقول: أراد بـ (الفقائع) الفقاعات لأن المفرد هو فقاعة مثل درّاعة، وليس (فقيعة) أو (فقاعة) مثل سحابة، ليكون جمعها لو وجد (فقائع)، كما جاء في قول السياب: ثم إن السياب استعار من أغاني الأطفال في العراق وهم يرددون أغنية عند هطول المطر:

يا مطراً يا حلبي
... إلى آخره.

و(الجلبي) في هذه الأهزوجة تعني (الشلبي) في لغة عوام مصر

(١) لا بد من التعريف بكلمة (شناشيل) هذه. أقول: هي كلمة عراقية عامية من أصل فارسي، وتعني غرفة في الطابق (الدور) الثاني من الدار، تشرف على الشارع ووجهها هذا الذي تشرف منه على الشارع مصنوع من الخشب، وفيه منافذ تسد وتفتح مع فتحات كثيرة مستورة بالزجاج الملون، وتؤلف في مجموعها زخارف جميلة معنيّ بصنعها وتزويقها. ولقد أوشك هذا النوع من العمارة أن يزول بعد شيوع العمارة الجديدة.

وغيرهم. ومن المعلوم أن ما يردده الأطفال، قد يكون خلواً من المعنى، ذلك أن المهم أن تتهيأ أهزوجة فيها الوزن والقافية، وإلا فما معنى (جلبي وشاشا)؟!؛ إن كلمة (حلبي) جاءت بـ (جلبي) و (شاشا) استدعتها كلمة (باشا) وهو اللقب التركي الذي استعاره العرب ودلالته معروفة.

ونقرأ في قصيدة (إرم ذات العماد) من هذه المجموعة قوله:

نقوديَ الأسماك لا الفضة والنضار،
والورق والشباك والوهار
في خورها العميق أسمع المحار.

نجد في هذه القطعة مواد بصرية تتصل بالبيئة البصرية ذات المياه والأنهار، وما تشمل عليه من السمك ولوازمه، وهي الشباك من أدوات الصيد، و (الوهار) من أدوات الصيد أيضاً، وهي جملة عيدان تغرس في صدر النهير أو الساقية، فلا تدع السمك يفلت منها فيسهل اصطياده. ولا نعرف في العربية الفصيحة لفظ (الوهار)، وإن كان بناؤها على نحو أسماء الأدوات والآلات، وهو (فعال) المكسور الفاء كالخياط والصمام والسلاح والقناع وغير ذلك.

وأنت تحسُّ أن مادة هذه الأبيات كلم محلي، ومن ذلك (الخور) وهو مصب الماء في البحر، وقيل خليج من البحر. ولا نعرف وجوداً لهذه الكلمة في العربية المعاصرة غير اللغة العامية البصرية، فهناك خؤور عدة، منها خور عبد الله في بعض جهات البصرة الحديثة. وإذا رجعنا إلى مادة (خور) في معجم البلدان[1] نجد عدة مواضع منها خور سيف وهو موضع دون سيراف إلى البصرة. ومن ذلك (خورفكّان) وهو بُلَيْد على ساحل عمان و (خور بروض) وغيرها.

وقال حمزة: وأصله (هور) فَعُرِّب. أقول: وما زال (الهور) وهو الأصل على رأي حمزة معروفاً في جنوبي العراق، وهو مجتمع كبير للمياه فيه القصب والبردي والجولان، وتعيش فيه الأسماك وحيوانات مائية أخرى. وقد سمى

---

(١) معجم البلدان لياقوت ١/٤٨٨ - ٤٨٩، طـ. ليبزك ١٨٦٧ م.

العرب البلدانيون مناطق الأهوار الجنوبية (البطائح). ولقد أشار ياقوت إلى (الهور) فقال: إنها بحيرة يفيض فيها ماء غياض وآجام فتتسع ويكثر ماؤها.

ونقرأ في قصيدة (ليلة في العراق) من هذه المجموعة:

غريق في عباب الموج تنحب عنده الغاقة.

إن القارىء غير العراقي أو غير البصري الجنوبي لا يعرف (الغاقة) هذه، فهي صنف من الطير المهاجر يأتي إلى العراق في الشتاء، ولا يبرح الماء، وريشه أبيض، وكأنه شيء من البط. وقد أطلق عليه أهل تلك المناطق (الغاقة) وهو من باب استعارة الأصوات وجعلها أسماء للحيوان والطير من أصواتها. ومثل هذه الكلمة (الغاق)، وهو في فصيح العربية صوت الغراب، وبه سمي الغراب (غاقاً). ونختم هذه المجموعة فنقرأ في قصيدة فيها أسماها (أجيبيني) قوله:

وتلك كأن في غمّازتيها يفتح السحر

إن (الغمازتين) التي استعملها السياب غير مرة يشير بها إلى شيء من محاسن الفتاة على رأيه، وهما (حفرتان) في خد الفتاة تبدوان عند الكلام والضحك. وهذا من مولدات السياب من غير شك.

لقد استوفيت الكلم العامي في شعر السياب ولا بد أن آتي إلى شيء آخر وهو إساءة استعمال الفصيح أو توهم ما ليس فيه من دلالة.

وسأجتزىء من هذا بذكر مواد معينة منها استعماله تَطَفّأ ويريد بها انطفأ، ومنها استعماله (الرحم) مذكراً فيقول:

تفجر باللظى رحم البحيرة بين أحراش وأدغال
وقرّ عليه كلكل معبدٍ عصفت به الحمى.

ولا أدري كيف يكون للمعبد (كلكل) وهو الصدر، أو ما بين الترقوتين إلى الزور. ونقرأ قول السياب في قصيدة أسماها (في انتظار رسالة) من المجموعة الثالثة:

وذكرت كلّتنا يهفّ بها ويسبح في مداها
قمر تحيَّر كالفراشة، والنجوم على النجوم
. . . .
مثل الحصى تنداح فيه وأنت أول وارديه
. . . .
طال انتظاري وهي لا تأتي وتحترق الزوارق والتخوت

وفي هذه القطعة نعود إلى (هف) الذي مر ذكره، فلا حاجة بنا إلى مزيد من القول. ولا أعرف ما يعني قوله: (مثل الحصى تنداح) وذلك لأن معنى (انداح) اتسع، قالوا: انداح بطنه أي خرج من وزْأ واتسع.

ثم إن (التخوت) جمع تخت وهو مقعد من خشب يتسع لثلاثة يقعدون عليه، وفيه متكأ، ويظن السياب أنه من فصيح العربية.

ويتوهم السياب أن (النجوم) وهي الأجرام السماوية جمع (نجمة) ولا يدري أن (النجمة) تعني شيئاً آخر، فيقول في (المعبد الغريق) في قصيدة (دار جدي):

وفي المساء كنت أستحم بالنجوم
عيناي تلقطانهن نجمة فنجمة وأركب الهلال

وبعد فهذا هو السياب في أدبه من حيث مادته ونظمه، والكلام على هذه المسائل يطول لو اتسع استقرائي فشمل مجموعاته الأخرى.

مع السياب في (ذكراه) ومسائل أخرى

كثر الكلام في (السياب) وأعجب به جمهور من المتأدبين الشباب وغيرهم، حتى انبرى يكتب فيه أساتذة جامعيون. وذاع اسم (السياب) حتى عرفه غير العراقيين من العرب وغير العرب، وكلهم معجب مقرّ أن هذه النبتة البصرية العراقية نخلة باسقة لها طلع نضيد ورطب جنيّ وتمر شهي المذاق.

قلت: لقد أعجب الدارسون بالسياب حتى انبرى جمهرة منهم يدرسونه، ومن هؤلاء نفر من أهل العلم، وطائفة أخرى قد أهمتهم أنفسهم فراحوا يدّعون أنهم أدركوه وعرفوه وكان لهم معه مودة وإخاء ولقاء، فقالوا فيه وخاضوا مع الخائضين وأخطؤوا كثيراً، فذرهم يخوضوا ويلعبوا. ولم يدركوا أن الحقبة غير بعيدة، وما زال في القوم نفر عرف الشاعر وأدركه وكان له معه ما كان من صلات. والناس يشتطّون ويفرّطون في أمر من توفّاهم ربّهم ويُطلقون ألسنتهم مدحاً وقدحاً فيمن أخرسه الموت.

على رسلكم أيها الإخوة الدارسون، فلا تؤتي العجلة إلا ثمرة فجّة، ولا يعجب الناظرين صَرح أقيم على فساد، وكان الغربيون على حق في أنهم لا يُقدمون على درس الأدباء المعاصرين دراسة علمية في الرسائل الجامعية، وحجتهم في ذلك أن درس المعاصرين لم تكتمل فيه الأصول، فليس في طوق الدارس أن يأتي فيه بشيء يرضي أهل الجدّ من العلماء والنقاد.

لقد أحسست أن بي حاجة إلى الكتابة عن شعر السياب، وكنت قد بدأت هذا منذ سنوات طويلة في كتاب لي وسمته بـ (لغة الشعر بين جيلين)، ولكني أعود اليوم لأصحح خطأً وأمحو وهماً عرض له أديب هو السيد حسين علي حسين الذي كتب مقالة صحفية تتسم بالعجلة وتفتقر إلى بعض الحقائق، ونشرها في (صحيفة الشرق الأوسط) في ١٩٨٥/١/١٥ م.

وقد نال السياب من الباحثين الذين انصرفوا إليه - وهم كثيرون - ما ناله فكتبوا وأخطؤوا وأساؤوا التفسير فجاؤوا بما يُرضي العلم والحقيقة، وبما ينفر عنه العلم والحقيقة.

أقول: أجمع النقاد على أن السياب شاعر يحتفظ بمكان بين شعراء هذا العصر ممن عُرفوا بالجديد. وسَمِّ هذا الجديد ما شئت، فلن يَفقد في هذه الأسماء ما استطاع صاحبه أن يودعه فيه. وكثر الكلام في جديد السياب مع كثير من الإعجاب والإكبار، وزاد اللاحقون فيما كتبه السابقون. وما أظن أن في هذا الذي جرى لأدب السياب ما أعان على فهمه ووضعه موضعه حيث ينبغي أن يكون فيه.

قال جمهرة هؤلاء: إن السياب اكتوى بنار السياسة، وطورد وسُجن وعُذِّب وفُصِل من الدراسة، وأنه، كما قال صاحبنا حسين علي حسين، «جاء في وقتٍ القابض فيه على مبادئه كالقابض على الجمر». ولا أريد أن أنفي هذا الذي وقع للشاعر، ولكني أقول: إن السياب جاء إلى بغداد وما كان له في السياسة ودروبها أية معرفة، ولم يكن له شيء من هذا الذي يضطرب به الناس في الأحزاب والجماعات، بل كان على العكس من ذلك بعيداً كل البعد عن الاضطراب. كان مشغولاً بل (مهووساً بشعره وغزله)، وكان يفتقر إلى أي ضرب من علاقة بدنيا المرأة، ومن هنا وجد أن دار المعلمين العالية في بغداد، تُهيىء له بيئةً جديدة غير بيئته البصرية التي ذاق فيها (الحرمان)، فهو هنا في بيئةٍ جديدة عامرة بالطالبات والطلاب، وهو ينظر إلى هذا الجمع الذي فرَّج عنه بعض ما كان، وهكذا دُفع دفعاً إلى أن يجرب حاله في

الدخول إلى هذا الوسط الجديد، وراح يقترب من هذه وينتقل منها إلى غيرها وغيرها ابتغاء أن ترسو سفينته على شاطىء من أمن وميل وحب. وهو في هذه (المرحلة) يستعين بشعره عسى أن تخفَّ له واحدة فيطمئنّ إليها، ألا تراه يقول في (ديوانه) الأول، (بات بين العذارى ينتقل):

ديوان شعرٍ، ملؤه غزَلُ   بين العذارى بات ينتقلُ

. . . .

يا ليتني أصبحتُ ديواني   أختالُ من صدرٍ إلى ثانِ
قد بتُّ من حَسَدٍ أقول له: يا ليتَ من تهواكَ تهواني
ألكَ الكؤوسُ ولي ثمالتها   ولكَ الخلودُ وإنني فانِ؟

هذا هو (السياب) وهو (بدر السيّاب) الذي قال فيه صاحبنا «صاحب قلب مرهف ووجه غير صبوح». أقول: ما كان السياب قبيح الوجه، ولا يعني هذا أنه كان جميلاً، ولكنه كسائر خلق الله، وما كان (للخَذَى) في أذنيه، وهو إقبالهما قليلاً إلى الأمام، ما يُنفِّر عنه الغيد الأوانس. ولم تكن المرأة التي سمّاها بعينها الأخ حسين علي حسين قد صدّت عنه لأنه «فقير وهي من طبقة برجوازية»، بل لعلها ما كانت أكثر ثراءً منه، ولكن الباحث جهل أن تلك الشاعرة (صابئية) الدين وليست مسلمة. لقد فات الكاتب أن يعرف هذا وغيره. ومضى السيّاب في عالمه الخيالي فصحا صحوة هدته إلى أن يلتئم مع القوم، فيجنِّد نفسه جندياً، بل مناضلاً في حومة يلهج أصحابها بالجديد (التقدمي) أو (الشيوعي)، ولِمَ لا يكون ذلك؟ ولِمَ لا يتّخذ من شعره واسطة للإعراب عن مشاهد الفقر ومباذل الغنى ومآسي الظلم والظالمين؟ لقد رمى بنفسه في هذا (الأتّون) وتحرَّق بناره وهو يتقرَّب به، رضي أم كره، إلى عالم فيه للمرأة مكان كمكان الرجل أو أكثر من ذلك. وما كان له أن ينال في هذا المضطرب الجديد غير العذاب والتشريد والسجن، وقد دفعه هذا الذي لقيه في جحيمه إلى الطرف الآخر المضادّ فلهج بالعروبة والقومية، وقال الشعر ونشره في الصحف والمجلات معرِّضاً بالشيوعية بل مهاجماً لها. . ثم ماذا، لقد ذهب إلى أبعد من هذا بعد أن جرَّب تجربته التي لم تكن أسعد حظاً من سابقتها، فراح يلتمس رضا السلطان ويسعى إلى استرضاء الحاكمين، فلم ينل

في هـذا مـا يسعفهِ في سيرته في تـوفير اسبـاب العيش له. وحسبك أن تعـرف أنه انتهى في جماعة (شعر) في بيروت، و(الضمير المستتر) لهذه الجماعة كما يعرف أهل الدراية هو (أجنبي) له مكان في أقصى (الغرب).

وليس هـذا كله بشيء إذا كـان الكلام موجَّهاً إلى أدب السيّاب، فهو شاعر له من الأدوات ومن الدرس الجادّ ما أعانه على أن يـكون شيئاً غير أصحابه الذين عاصروه. لم يكن بين أصحابه من هَيّآته، لهذا الذي بلغه السياب، فقد شقي بالدرس فعـرف الأدب القديم، ووجـد الإنكليزي. . وغيـره، وكان له من جملة ذلك ذخيرة أفاد منها في شعره. وقـد يكون في هذا المنهج شيء من إغراق، وهو أنه أدرك أن الأسطورة في أدب (إليوت) مثـلاً أعانته على الإعراب عن الفن الأصيل، فـراح هو يتخـذ من الأسـاطير الإغريقية التي عرفت في شعر إليوت، مـادة ظهرت في شعره. وما أظن أن الأسطورة التي أفاد منها الشاعر الأمريكي وتمثلها كما يقـال، يمكن أن تؤدي مـا تؤديه في شعر السيّاب، ذلك أنها بعيدة عنه، وهـو غريب عنها، وليس سهلاً أن يتحول المرء هذا التحوّل فيستعير شيئاً لا يملك من آثاره في حياته العامة أيّ أثر. قد يقال: إنه أفاد من الأسطورة العراقية القديمة البابلية، وأنا أقول، ليس للأسطـورة البابلية في حيـاة العراقيين المعاصرين أثر كبيـر. ومن هنا كـان على أهـل الفن الجديد أن يفيـدوا من التراث العربي القديم، الذي مـا كان ليبخل عليهم بالإشارات الأسطورية التي يمكن أن تـدخل رمزاً ولمحاً في أدب جـديد، غير أنـه فطن لهذا الأمر، فـأنت واقف على ذَرْء من هـذه البضاعة العربية.

وإذا كـان لي أن أقـول في أدب السياب شيئاً أنهي به هذا الموجز فـإني لأجـد أن من العلم أن نقـول: إن السياب وحـده بين الشعراء المعاصرين ذوي المنهج الجديد مَن يـملك (الهويّة) الخاصة به، فأنت تقرأ في أدبه مـادة (سيّابية) عرفت بألفاظها وطرائقها في التعبير وأفصحت أيّما إفصاح عن البيئة العراقية البصرية في أنهارها وجـداولها وسواقيها، وفي نخيلها الباسقات، وفي مدّها وجزرها وشطآنها، ومَوجها وما يقذف من صَدَفٍ وَزَبَدٍ ومَحار. وقد يعزّ عليك أن تلمح شيئاً من هويّة تومىء إلى بيئة بعينها في شعرنا الحديث المعاصر ذي النهج الجديد .غير أن من العلم أن أستثني شيئاً من هـذا الحكم العام

فاشير إلى أدب إخواننا شعراء (الأرض المحتلة) الذين يملكون من الإشارات والإيماءات ما يوفّر لهم شيئاً من (الهوية) الخاصة.

وقد يكون من المفيد أن أشير إلى أن الشعر الحديث المعاصر قد قصّر في أن يكون ترجماناً للواقع، بسبب أن هذا الشعر قد لفّه هذا الجلباب من (الغموض) الذي راح ضحيته جمهرة من هؤلاء الذين يكتبون غير الموزون المقفى. ومن هنا بقي الموزون المقفى محتفظاً بهذه الصفة التي جعلته مادة تاريخية تجد فيها ما لا تجده في الوثائق، فكم من قضية من قضايا الفكر المعاصر في بلادنا العربية نعتمد في معرفتها على ما سجله لنا الشعراء في قصائدهم، ولولا ما كان من ذلك لوجدنا أن وثائقنا تضرب صمتاً على أحداث جرت تتصل بأفكار خاصة أو نزعات خاصة.

ومن المفيد أن أختم الكلام فأعود إلى السيّاب لأقول: إنه بدأ كغيره من الشعراء ذوي النهج الجديد (معالجاً) الموزون المقفى، وكأنه شعر أن الطريق موحش، وأنه غير مأمون، وقد يشقى، ولِمَ لا (فالشعر صعب وطويل سُلّمه) ولا أريد أن أتهم السياب فأنسب إليه هذا الذي شقي به واضطرب فيه، وكأنه أصاب خيراً حين أقلع عن النهج القديم إلى هذا الرحب الواسع يتخذ من سعته ميداناً يجول فيه، فتم له ما أراد ورُزِق الشهرة. ولا تأتي الشهرة بضربةٍ من حظّ أو طالع ميمون، ولو كان شيء من هذا لأصاب آخرون من هذا المجد العريض ما أصاب السيّاب الذي عرفه العرب، واهتم به غير العرب، فكان لنا من شعره ظاهرة (سيّابية) ربما تلمح شيئاً من خيوطها في نسج كثير من الشعراء الشباب، وأنّى لهم أن يدركوا ذلك... وهيهات...

قلت: لقد جرّب السيّاب التجربة القديمة وطمحت عينه هنا وهناك يتعقب الكلمة ليوفر لها مكاناً في أدبه يلتقطها من الشاعر العربي القديم، كما يلتقطها من الشعراء اللبنانيين، فليس عسيراً عليك أن ترى في قصائده الأولى أثراً من (المهندس) علي محمود طه أو (إلياس أبي شبكة) أو غير هؤلاء من شعراء العرب.

والسياب مخلص لفنه وأدبه، يشقى له وبه فيكدّ ويجدّ، وللأصالة

والصدق والمروءة مهر غالٍ لا يظفر بـه إلا ذوو النباهة الأذكياء الذين يحتفظون في دخائلهم ببريق من العبقرية ينير لهم الطريق، هـكذا عرفته في صحبة قديمة سقى الله زمـانها...

رحم الله أبـا غيلان في علّيين، فقد قضى شهيد الكلمة، ولولا غواشٍ أطبقت عليه في دنيا رديئة مظلمة، لكان لنا منه سِفْر ناصع مضيء، ولا عجب فهي (أمُّ دَفْر) كما قيل. وأيـن من أصحابنا الذيـن نتملّقهم فنسمهم بالجيل الصاعـد من غَبَر في هذه الدنيا فنطق بما أُوحيَ إليه!!

مع الأدب المسرحي

لقد انضم إلى أسرة الفنون الأدبية العربية في عصورنا الحديثة وليد جديد هو الأدب المسرحي، فتقبّلته بقبول حسن. وقد درج الناس طوال عشرات من السنين على مصاحبة هذا الوافد الجديد وعلى الإلْف معه. وكان أهل الفن والأدب في دنيانا العربية يستقبلون هذا الوليد الجديد من بيئات غربية، حتى إذا أطالوا صحبته حاولوا أن ينشئوه في بيئتهم فجربوا الكتابة في القصة عامرة بالحوار والأحداث غير متكئين على مسند قديم من الحكاية القديمة والخبر الذي يدير فيه الحوار سائل ومجيب.

قلت: لقد وجدوا ضالتهم في الآداب الغربية فعمدوا إلى ترجمتها، فكانت لنا نصوص مترجمة وجدت سبيلها إلى الأدب المسرحي، فعمرت خشبة المسرح بها. غير أن المعنيين بهذا الفن الجديد قد فاتهم أن يتزودوا له بالزاد الوافي من الأصول التي تقوم على الدرس. وإني لأذكر أن أحداً من العراقيين قد بعثته وزارة المعارف في العراق منذ أكثر من ثلاثين سنة إلى فرنسا وإلى جامعة السوربون فيها ليتخصص في (الأدب المسرحي) في دراسة عالية للدكتوراه. وذهب صاحبنا هذا إلى باريس، وقد بدا له أن يقابل رئيس هذه الدراسات في السوربون، ولما تمت هذه المقابلة ووقف على ما كان قد زوّده به هذا الأستاذ الرئيس، خرج وقد أدرك كل الإدراك أنه كان بعيداً عن الأمر، وأن لا سبيل إلى أن يتم له ما أريد له من تخصص حتى يكون مالكاً

لجملة مواد هي الأدب المسرحي عند الإغريق والرومان والأمم القديمة، ثم الأدب المسرحي في القرون الوسطى، ثم ما كان من ذلك في عصر النهضة إلى جانب درس واف في فلسفة الإغريق والرومان وغيرهم. وهذا كله يتطلب أن يحوز الدارس على جملة مواد أخرى في اللغات القديمة والحديثة. ثم إنه محتاج إلى معرفة بالآداب المعاصرة والفلسفة الحديثة.

فهل كان لأصحابنا المعنيين بالمسرح والنصوص المسرحية شيء قليل من هذا؟ أكبر الظن أن عامة العاملين في هذا الميدان يفتقرون إلى كثير من هذه الأدوات.

فكيف عمل أصحابنا العرب وهم يباشرون هذا الفن الوافد؟

لقد اختصروا المسيرة وقصّروا الطريق عليهم، وآثروا أن يسلكوا السبيل السهل على المركب الصعب، فانصرفوا يحكون ما في البيئة الضيقة مما يدعى (الواقع). وليس في (حكايتهم) هذه البيئة ضرب من الاستيحاء أو الاستلهام، ذلك أن حكايتهم وصف للواقع بإيجابياته وسلبياته، مستعينين بضرب من الأداء مما يقتضيه الفن المسرحي. وأنت ترى أن (حكاية) الواقع قد غلبت على ما يدعى (النصوص) المسرحية، ولعل تسميتها بـ (النصوص) هو من باب التجوز والتوسع، فقد عرفنا كثيراً مما يمثل في الإذاعات والتلفزيون لم يكن قد أخذ طريقه إلى النص المحرّر المكتوب.

ومن هنا لم يكن هذا الواقع المحكي الذي هو ممّا تراه وتسمعه في الشارع أو المقهى أو المؤسسات العامة شيئاً من أدب عالٍ ذي رسالة سامية. وإذا كان هذا فليس عجيباً أن يتخذ له أصحابه مادة سهلة يتلقفونها من أفواه الناس، ومن هنا كانت الألسن الدارجة أداة بل هي المادة الأولى والأخيرة. إن مادة هذه النصوص تتناول مشكلة محلية قد تكون عادة سيئة أو غير ذلك، ومن هنا كان أصحابنا المسرحيون حراصاً على أن تكون نصوصهم بالألسن الدارجة. كأن الحديث عن مشاكل الناس لا بد أن يكون موسوماً بسمات شعبية، ومن هنا انطلقوا في عاميّة دنيا، فأنت تسمع في هذه النصوص أحياناً موادَّ وأمثالاً لا تكاد تظفر بها في الأحياء الشعبية إلا بعد جهدٍ وتنقير

واستقصاء، ولا تكاد تجدها إلا في العوام من العجائز والشيوخ. وهم يفعلون ذلك ابتغاء مرضاة العامة واستثارة لانتباههم وعواطفهم.

أما القول بأن الألسن الدارجة تحقق (الشعبية) المزعومة، فأمر ينبغي لنا أن نقف عنده وقفةً خاصة. إن (الشعبية) في هذه النصوص شيء محلي ضيق لا يفي بما ينبغي أن يحقق فناً أصيلاً. ومن المفيد أن نقرر أن ما درج عليه المسرحيون في اعتبارهم أن (الشعبية) ما كان بالألسنن الدارجة، شيء لا يُقرّه العلم التاريخي اللغوي، ذلك أن (الشعبية) سمة بارزة في أدبنا العربي على طول العصور. إن (الشعبية) تعني شيئاً من ملامح (الشعب) في عاداته وتقاليده وسلوكه وممارساته، وهذا شيء نتبينه في الألوان الأدبية والفنية لدى جميع الأمم. إن الأمثال، والأخبار التي تصحبها، أو قل: الحكايات التي (تحاك) لضرب الأمثال شيء من (الشعبية)، وأن ما كان مما يشبه الأسطورة من الأدب القديم مما يدخل فيه الحيوان وسائر المخلوقات من هذه (الشعبية). وليست حكايات (كليلة ودمنة)، وقد كتبت على ألسنة الحيوان والطير والوحوش بقصد ضرب المثل وإفادة العبرة إلا من هذه (الشعبية).

ولا نعدم أن نتلمس (الشعبية) في آيات القرآن الكريمة حين يحكي الله - سبحانه وتعالى - عن أخبار الأمم القديمة، وحين تشير الآيات الكثيرة إلى خرافاتهم وأكاذيبهم فتُنَبِّز فيها بقوله - تعالى - بعبارة ﴿أساطير الأولين﴾. وفي أخبار بني إسرائيل مما يرد في الآي الشريف وسؤالاتهم الكثيرة للنبي موسى شيء من هذه (الأساطير) والأباطيل.. وجملة ذلك (أدب شعبي).

كما لا نعدم أن نجد شيئاً من ذلك في ثنايا (الحديث الشريف).

وإني لأخلص من هذا العرض إلى أن (الشعبية) ليست مقصورة ضرورةً على ما يكتب في الألسن الدارجة (العامية) كما استقر في فهم أصحابنا المعاصرين. على أني لا أنكر أن تكون (الشعبية) متوفرة في الأدب العامي في عصرنا في حكاياتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأمثالهم وسائر ما يترجم عنه سلوكهم وممارساتهم.

ولا أريد أن أتـرك هذه (الشعبية) دون أن أشير إلى تجـارب منها في الأدب الفصيح الذي تقرؤه الطبقات الشعبية في عصرنا، وإن لم يـكن مقصوراً عليها، وهـو حكايات (ألف ليلة وليلة) الذي لا نعدم أن نجـد شيئاً منه في حكايات جدّاتنا وعجائزنا. ومن المعلوم أن لغة هذا الكتـاب شـيء خـاص به، فهي مزيج طريف من عـامية قديمة وفصيح قـديم، أو قـل: إن العامية تصحب الفصيحة في الحكايات. إنك لتجد فيها الفصيحة القديمة إلى جـوار العامية في (حـوار)، وهذا الخليط المجموع قد تستغربه أوّل وهلة، ولكنـك حين تنطلق في قراءتك تألفه ولا تستنكـره.

ولي أن أتذكر تجربة أخـرى أعرق من تجربـة (ألـف ليـلة وليلة) التي ربمـا لـم تـكن قديمة في تـاريخنا الثقافي، تلكم هـي (حكايـة أبي القاسم البغدادي)[1]. وإننا لواجدون في هذه الحكاية أطرافاً شتـى من (المعارف) الحضـارية تتصل بالمجتمع البغدادي في القرنين الرابع والخامس الهجريين. فمن ذلك مثلاً حـديث القيـان في بغداد والمغنين، وأخبـار الظراف

(١) حكاية أبي القاسم البغدادي كتاب نشره آدم متز، وطبع في ألمانيا، ثم أعادت مكتبة المثنى ببغداد نشـره بطريقة الأوفست، وهـو مشهور معروف، وفيه من الأدب القديم الفصيح وطرائف الأدب الشعبي، الكثير. وقـد ظن الأستاذ عبـود الشالجي أن مؤلفه (أبو المطهر الأزدي) وهو نـكرة نجهله اسم مستعار، وصاحبه الحقيقي أبو حيّان التوحيدي صاحـب (الإمتـاع والمؤانسـة)، فعمد إلى إعـادة نشره، وقدّم له وعلق عليه، وغيّر عنوانه وجعله (الحكاية البغدادية)، واعتمد في (جـرأته) هذه، عـلى مـا ورد في ترجمة أبي حيـان التي ورد فيها أن من كتبه حـكاية أو قصة بغدادية. ومن المفيد أن أشير خـدمة للعلم والأمـانة العلمية إلى أن صاحـب هذا الرأي هو الدكتور مصطفى جـواد ـ رحمـه الله ـ فقد كتب مقالة نشرها في مجـلة المجمع العلمي العراقي، كما نشرهـا موجزة في مجـلة محلية اسمها (أهـل النفط) كـان مجلس الإعمار قد أسسها في الستينيات من هذا القرن. وقد جـاء فيها أن مؤلف حكاية أبي القاسم البغدادي، هو أبو حيّان التوحيدي، وقد استبعد اسمه لما وضع فيها من الإحماض وأدب الظِراف والمتماجنين. لم يذكر الشالجي صاحب النشرة الثانية هذا كله، وكان عليه أن يشير إلى سبق مصطفى جواد.

أعود فأقـول: إن الدليل الوحيد الذي اعتمد عليه مصطفى جواد في تصحيح هـذه النسبة أنـه وجـد في (حكايـة) أبـي القاسم كلاماً في (قـيان) بغـداد والمغنين وأخبارهـم وأعدادهم، وأن شيئاً من هـذا بنصه قـد ورد في كتـاب (الإمتـاع والمؤانســة) لأبي حيّان.

أقـول: إني لأرى أن يـكون مؤلف حكاية أبي القاسم الذي جعـل نفسه أبا المطهر الأزدي قد أفـاد هـذه الفوائد من كتـاب أبي حيّان، وذلـك لأن المعروف عن (أبي حيّان) زهـده وورعه فهو من أصحـاب الرأي المتفلسـف، وليس العكس.

والمتماجنين، ولا ييئس المؤلف ـ وهو ممّن لا نعرف له ترجمة ووجوداً ـ من ذكر الكلم البذيء، أو قل مما يدخل في الذي ندعوه في عصرنا (بالأدب المكشوف). ولعلّ جملة هذا يقتضي صاحب الكتاب أن يجمع فيه اللغة الفصيحة العالية والفنون العامية الدارجة مما يقتضيه الخبر الشعبي في السرد والحوار.

وأعود فأخلص ثانية إلى القول: إن الشعبية لا تعني ضرورة أن يكون أداؤها بالألسن العامية الدارجة.

غير أننا في عصرنا قد قصرنا هذه الشعبية على التعبير بالكلام الدارج العامي، وقد أدّى هذا الفهم القاصر إلى أن تكون العامية اللون الغالب على المسرح المعاصر. لقد حمل هذا الفهم الخاطىء الضيم على هذا الفن المسرحي الجديد، وذلك لأن هذا الفن ليس مقصوراً على الأدب الشعبي، وإن كانت الممارسات الشعبية تصلح أن تكون طرفاً مما يمثل على خشبة المسرح. إن الفن المسرحي، كما هو مشهور معلوم، أدب عالٍ وفن رفيع، وإنه الوسيلة للإعراب عن الخطرات الفلسفية في آداب الأمم في العصور القديمة، وفي عصرنا هذا. وما أظن أن أصحابنا المثقفين في هذه الفنون يجهلون هذا، فأصحاب الصنعة والاختصاص منهم يعرفون هذا وقد شَقوا به وخبروا مشكلاته، وفي ذلك كتب ومصادر.

ولكننا في عصرنا هذا كما في كل عصر ابتلينا بالطارئين الأفّاقين المشعوذين الذين حسبوا أن تهريجهم ومخرقتهم وأضاليلهم يمكن أن تكون من هذا الفن، فعبثوا ما شاء لهم العبث، وقد ألحقوا عبثهم هذا بالأدب المسرحي، ووجدوا في دور الإذاعات العربية، وفي مسارح التلفزيون ما أعان على نشر طائفة كبيرة من الأضاليل التي ما كان لها أن تكون من الأدب المسرحي.

لقد بدا لهؤلاء أن الإضحاك وإثارة لهو المشاهدين هما الغاية فعمدوا إلى حكاية الأنماط الشعبية العتيقة من فنون القول، فقد وجدت أن هؤلاء يفتعلون المناسبة ليعيدوا أقوالاً وأمثالاً عامية عفا عليها الزمن. ومن ذلك مثلاً

ما نشهده في سائر هذا اللون المحلي مما يعرضه التلفزيون في بغداد وسائر العواصم العربية. ولا أريد أن أخص واحدة من هذه التمثيليات فهي كثيرة، وحيثما سمعت ضجيجاً وضحكاً متواصلاً أدركت أن هذا من هذه الأضاليل التي لا تمتّ إلى المسرح بوشيجة من نسب كريم.

ولا يفوتني أن اذكر ان الطرفة أو النكتة شيء، يحسن أن تكون باللسان التي قيلت فيه، فَنِكَت العامة لا بد من حكايتها بلفظها العامي، ومتى حوّلتها إلى اللفظ الفصيح افسدتّها، وإلى هذا أشار أبو عثمان الجاحظ في كلامه على أدب العامة في (الحيوان).

ولو أن أصحاب هذه الأضاليل أدركوا هذه الالتفاتة الجاحظية لأحسنوا صنعاً، الا ترى أن صاحب (ألف ليلة وليلة) أو قل مؤلفو حكاياتها قد أدركوا هذا الأمر فجمعوا في حكاياتهم الكلم الفصيح مع الممارسات العامية فبدا ذلك في الحوار الذي أداره المؤلفون بين شخوص الحكاية.

لم يكلف أصحاب هذه الأضاليل التمثيلية عناء تثقيف أنفسهم، ووجدوا أن حكاية ما يدور في الشارع أو السوق أو المحلات العامة بلفظها وسذاجتها يمكن أن يكون (مستغلاّت) تأتي إليهم بالرزق العاجل، ولكن ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرة كما قال الأوائل.

خاتمة:

أردت أن أنبّه في هذه المقالة القصيرة إلى هذا الخطر، ذلك أني وجدت أن هذا التيار الفاسد قد أصاب بعدواه ووبائه طائفة من أصحابنا الأذكياء المخلصين لهذ الفن، فقد اتخذوا العامية وسيلة للإعراب عن الفن، فكأنت مسرحياتهم باللغة الدارجة.

وقد ينبري إليك من لا يدرك نقص هذا المنهج فيقول: وأيّ ضير في هذا؟

والجواب عن ذلك: أن المسرح أدب عال وفن رفيع، وإذا قلت: أنه

أدب عال فهو فكر واعٍ مثقف، وجملة هذا لا يمكن أن يؤدى بهذه العامية. إلا العامية قاصرة، فلا يمكن أن تترجم عن فكر عال يقوم على أساس من وضع فلسفي مثلاً. ولا أريد بـ (الوضع الفلسفي) أن تكون التمثيلية فلسفة أو منهجاً فلسفياً، ولكني أقول: إن اللغة والفكر شيء واحد وليس من مركب مزدوج، فاللغة هي الفكر، وليست هي أداة أو وسيلة كما يقولون. وكيف يتاح لمثقف أن يعرب عن هذا (الفكر) بكلمات قاصرة ضعيفة متهافتة رُزئت بالشيوع والسيرورة، حتى أفقدها ذلك محتواها.

وإني لآمل أن يكون في هذا الموجز الذي بسطته بعض ما يستثير الغيارى على شؤون هذا الأدب الرفيع لينقذوا المسرح من العبث.

من أصول فن التمثيل عند العرب

أجمع الدارسون على أن (التمثيل والمسرح) من الفنون الوافدة من الغرب على الدنيا العربية. لقد عرفها العرب باتصالهم بالغربيين في العصور الحديثة. وقد أجمعوا على أن مصر أول البلدان العربية اقتبست هذا الفن، ويأتي بعدها ما كان من تأثر اللبنانيين والسوريين، ومن ثم عرف العرب الآخرون هذا الفن.

على أن هذه المعرفة المكتسبة قد مرّ عليها ما يقرب من قرن ونصف، ومن غير شك أن هذه الحقبة كفيلة أن تكسب العرب خبرة فنية لها تقاليدها. على أن التأثر بالغرب ما زال قائماً رغم هذه الأصالة التي صقلها الاقتباس.

ومن هنا كان لا بد لنا أن نسأل: ألم يكن لنا في تراثنا الأدبي الفني شيء من هذا؟

والجواب عن هذا ما أنا ذاكره في هذه الإلمامة القصيرة فأقول:

لم يعرف العرب في عصورهم القديمة مادة التمثيل مما نعرفه الآن من معناها الفني. ومن المفيد أن أقول: إنها مادة جديدة بهذا المعنى الفني، وذلك لأن التمثيل في العربية مصدر (مثَّل) فيقال: مثَّل القاتل بالقتيل، أي قتله وقطّع في أعضائه تقتيلاً وتشويهاً، والاسم منه (المُثلة)، وهي مما حرّمها الإسلام أيّاً كان القتيل كافراً أم خائناً.

ومن هنا كان (التمثيل) كلمة جديدة بهذا المعنى الاصطلاحي، والكلمة من غير شك ترجمةٌ للكلمة الفرنسية أو الإنكليزية (Représentation). وقد انصرفت كلمة (التمثيل) للفن وغيره، ومن ذلك التمثيل السياسي أيضاً.

ولنا أن نسأل: فأين أصول (التمثيل) الفني في التراث القديم؟

والجواب عن هذا: هو (الحكاية).

جاء في معجمات العربية:

حكيتُ عنه الكلام حكاية، وحكيت فعله وحاكيته، إذا فعلت مثل فعله، والمحاكاة هي المشابهة. يقال: فلان يحكي الشمس حسناً ويحاكيها بمعنىً[١].

أقول: وقد توسعوا في دلالة (الحكاية) من معنى المشابهة أو القَصَص إلى ما يمارسونه مما ندعوه (تمثيلاً) في عصرنا، وخصوا هذه (الحكاية) الفنية بما يتصل بالألوان الهزلية التي يراد بها الإضحاك المجرد أو الإضحاك الذي يرمي إلى غرض ناقد. وهذا يخوِّلنا أن نلحق هذا الفن التمثيلي أو الحكاية بالنوع الكوميدي من فنوننا المعاصرة.

ونستدل على هذه الفوائد الفنية بما ذكره ابن الداية إذ قال:

كان «حسين»[٢] بن شعرة مضحك المتوكل قد انضوى إلى ابن المدبّر فحمى به ضياعه وأملاكه، ووقف الحسين على استثقال ابن المدبّر لأحمد بن طولون وأخرج[٣] حكايته في تزمته وكلامه، فيضحك ابن المدبّر ومن حضره[٤]، واتصل فعل ابن شعرة بابن طولون فحذّره وأنذره، فانصرف ابن شعرة إلى ابن المدبّر وقال له:

«يا سيدي لو شاهدت ابن طولون يؤنّبني، فقال له: ما قال لك؟ قال:

---

(١) انظر (الصحاح) للجوهري، مادة (حكي).

(٢) الحسين بن شعرة من أصحاب الحكاية التي أطلق عليها (السماجة) وأصحاب السماجات هم الممثلون الهزليون.

(٣) أقول: وقوله (أخرج حكايته) يعني من بعض وجوه الشبه فن الإخراج للمسرحية في عصرنا.

(٤) المكافأة وحسن العقبى لابن المدبّر ص ٨٦ (ط الاستقامة)

اصبر حتى أريك (حكاية) صورته ومعانبته، ثم تلبّس وجلس يحكيه ويقتصّ ما لقبّه به»[1].

ومن غير شك أن قوله: (أخرج حكايته)، و(حكاية صورته) و(يحكيه) تدلّ على معنى التمثيل في أيامنا.

وقد سمّى الزمخشري (الممثل) (الحكّاء)[2]، وعلى هذا يكون (المحكَى) هو (المسرح) و (المحاكاة)، هي التمثيلية.

وقد أطلقوا على هذه التمثيليات الهزلية التي يقصد بها الإضحاك كما يقصد ما جاوز الضحك من النقد ذي الهدف، لفظ (السّماجة) وأصحاب السماجة هم الممثّلون الهزليون، وسنرى ما يؤيد هذا.

ومن أخبار هذا الفن التمثيلي الذي عبر عنه بـ(الحكاية) ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني في قصة القاضي عبد الله بن محمد الخلنجي فقال:

«... وشُهرت الأبيات والقصة وعمل له علّويةُ (حكاية) أعطاها للزفّافين والمخنثين فأخرجوه فيها»[3].

ومن هذه الحكاية الهزلية التمثيلية ما ذكره الثعالبّي من حكاية أبي دبّوية فقال:

«... كان زنجياً... وكان يحكي كل صوت وكل هيئة وكل مشية، ويحكي أصوات الدوابّ والبهائم والطير فلا يفرق بين صوته وأصواتها»[4].

وإلى مثل هذا أشار الجاحظ في فوائده التي وقفنا عليها في كتابه (البيان والتبيين)، قال:

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٧
(٢) أساس البلاغة للزمخشري، مادة (حكي)
(٣) الزفّاف بمعنى الراقص، الأغاني ١١/ ٣٣٩، ط. دارالكتب
(٤) المضاف والمنسوب ص ١٢٢

«. . . ومع هذا إنا نجد الحاكية من الناس يحكي ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً. وكذلك تكون حكايته للخراسانيّ والأهوازيّ والزنجيّ والسنديّ . . . وغير ذلك. نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم، وإذا ما حكى كلام الفَأفاء فكأنما قد جُمِعَت كلّ طرفة في كل فأفاء في الأرض في لسان واحد. وتجده يحكي الأعمى بصور ينشئها لوجهه وعينيه وأعضائه، لا تكاد تجد من ألف أعمى واحداً يجمع ذلك كلّه، فكأنه قد جَمَعَ جميع طُرَف حركات العميان في أعمى واحد.

ولقد كان أبو دبوّية الزنجيّ مولى آل زياد يقف بباب الكرخ بحضرة المُكارين فينهق، فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعَب بهير إلاّ نَهَق. وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبعث لذلك، ولا يتحرّك منها متحرّك حتى كان أبو دبوّية يحرّكه. وقد كان جَمَعَ جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد، وكذلك كان في نباح الكلاب»[١].

ومن حديث (السماجة) ما ذكره أبو حيان التوحيديّ في وصف الصاحب بن عباد يهجوه وينال منه:

«. . . وهو في ذلك يتشاكى . . . ويتفاتل ويتمايل، ويُحاكي المومسات، ويخرج في أصحاب السماجات»[٢].

أقول: هذا ما ورد في باب (الحكاية) و (السماجات) من الفن الهزلي الكوميدي في تراثنا القديم. وأعود فأقول:

إن فننا المسرحي التمثيلي المعاصر هو ما اكتسبناه من الغرب، وليس من صلة بينه وبين هذا الذي بسطته من أخبار التراث، ولكني آثرت أن أعرض له لأدلّ على ما كان لنا من الفن التمثيلي القديم.

---

(١) البيان والتبيين ١/٦٩ - ٧٠ (بتحقيق هارون)
(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/٥٦

مع الأدب الشعبي

قد أكون غير مستريح إلى وصف التراث بـ (الشعبي) لما حمل هذا الوصف من الضيم على كلمة (تراث). لقد انصرف التراث بهذا الوصف إلى نماذج ضيقة يقول بها المعنيون بمادة (التراث الشعبي)، فهو حكاية وأسطورة ومَثَل ورسوم وتقاليد وعادات ولعب ولهو، وهو شعر وزجل وأغنية، وحرفة وصنعة وسحر وألاعيب ودَجَل ونحو هذا. وكأن هؤلاء الدارسين صرفوا هذه الأشتات من المعارف المختلفة إلى ما هو معروف منها في عصرنا، أو ما بقي شيء منه في طريقه إلى الزوال. كما صرفوه إلى كل ما كانَ بالألسن العامية الدارجة من مثل وشعر وزجل ونحو هذا من فنون القول.

قلت: إن الوصف بـ (الشعبي) حمل الضيم على مادة (التراث)، لأن الدارسين في عصرنا فهموا أن (الشعبي) ما عاد على سواد الناس من العامة، ومن يقترب منهم من بعيد أو قريب.

وأقول: إن جملة المعارف التي أشرنا إليها عرفها أدبنا القديم، ومن هنا لم يكن (الأدب الشعبي) مقصوراً على ألوان من الزجل والشعر الذي اتخذت فيه العاميّة الدارجة مادة. إن الأدب الشعبي أدب يتجاوز هذا التحديد الضيق، وذلك لاشتماله على أفكار الناس وعاداتهم وأسلوبهم في الفهم، وهؤلاء الناس هم السواد الأعظم غير العلية من القوم، وهو الأدب الذي عرفه أهله ممن لم تطبعهم الحضارة بوسم خاص يجعل صاحبه غير منحاز إلى الجمهرة

الواسعة. ولـيس لازماً أن يـكون هذا الأدب مما لا ينسب إلى قـائل بعينه.

هـذه كلمـات يسيرة بـدأت بها لأخلص منها إلى أمـر شغلني منذ أكثـر من ثـلاثين سنة، وهـو درس قـديم امتُحنت به وأخـذت به نفسي، وهو البحث في لغة البداوة ولغة الحضارة. وقـد كـان علي أن أستقري الشعـر الجاهلي، فوقفت من بيـن ما وقفت عليه على شعر الشنفري، وأخـص منه الـلامية المشهـورة التي عرفـت بـ (لاميـة العرب). وكـان علي أيضاً أن أعرف مـا قال فيها أهـل العلم من القدمـاء والمحـدثين، فقد شرحها المبرّد كما شرحها الزمخشري، وتكـلم عليها أبو عـلي القالي في (أماليه). وقـد انـصرف إليها جماعة من المستشرقين فقد ترجمها إلى الألـمانية المستشرق الألماني جـورج يعقوب وألحق بها ترجمة روكرت التي ظهرت سنة ١٨٤٦ م، كما ألحق بها أيضاً ترجمـة رويس التـي ظهرت سنة ١٨٥٣ م، كما ترجمت إلى اللغات الإنكليزية والفرنسية والإيطالية. وقد عني بدرسهـا تيودور نولدكه، وكـارل بروكلمان وغيرهما. وقد أُعجب بها هؤلاء الدارسون وأشاروا إلى البنـاء الملحمي فيها.

وقـد عـرض لهذه القصيدة غير واحد من الدارسين العرب، وأشـار نفر منهم إلى أنهـا منحولة وصاحبها خـلف الأحمر، وهـذه المقولة اتخـذت من إشـارة أبي علي القالي في (أمـاليه) أسـاساً. وكان الدكتور بديع شريف آخر من بحـث في هذه القصيدة في كتابه الذي نشر فيه (القصيدة)[1] فقدّم لها بمقدمة ضافيـة أشـار فيها لما نـالت هذه القصيدة من عنـاية الدارسين، كمـا أشار إلى بنائها، والأفكـار التي اشتملت عليها مؤكداً الصور الشعرية التي حفلت، وقـد احتفل الأستـاذ الدكتـور بديع بالهيكل الملحمي في القصيدة مقرِّباً بينها وبين بعض أحـداث إليـاذة هوميروس أو مغامرات روبين هود، ولـم تفته ملحمة كلكامش، فقـد قرَّب بين شيء من شخوصها وشخوص هذه اللامية.

أقـول: لا يهمني أن يعقد الدارسون قـرابة بين القصيدة والبنـاء الملحمي في الملاحم الإغريقية، ليس من ضير ألا تكون هذه القصيدة العربية قريبة في بنائها من ملاحم وأساطير أعجمية. ولا أشعر أن حافزاً يدفعني إلى البحث عن هذه

(١) لاميـة العرب، دار الحياة، بيروت

العلاقات لأخلص منها إلى الزهو بعبقري الشنفري الفنية. ومن العلم أن يظل الدارسون للقصيدة في حيّزها الموضوعي، وليس لهم أن يظلوا أسارى لما يهجس في نفوسهم من هذه الهواجس التي لا تقدم فائدة كبيرة[1].

قلت: وقفت على هذه القصيدة متخذاً منها مادة بحث لغوي أخلص منه لمكان البداوة فيها، فلم أجد ضرورة أن أعرض لتوثيق نسبة القصيدة إلى الشنفري مثلاً. لقد استوقفني فيها أنها تجمع بين بداوة صميمة وشيء آخر لا يمكن أن يكون بدوياً بل هو أقرب إلى المنطق الحضاري وما يفرضه من سلوك وعادات.

وقد كان لي وأنا أستقري هذه اللغة القديمة أن ألمح في إنسانية الشنفري أنماطاً تدخل في حيز ما ندعوه اصطلاحاً في عصرنا بـ(التراث الشعبي). وكأني بهذا القدر الذي قدمته أمهد إلى هذا الدرس الذي أخذت به نفسي. وها أنا ذا أجتزىء من هذا البحث الطويل بشيء يفي بحاجة المجلة، ولا يخرج عن القدر الذي تتسع له رقعتها. ويحسن بي قبل أن أبدأ هذا الدرس أن أعرض لما ورد في القصيدة مما لا يمكن أن يكون من لوازم البداوة، بل هو أقرب ما يكون لنمط الحياة المتمدينة فأقول:

إن استقراء أبيات القصيدة يوقف الدارس على جملة أبيات تشير إلى أفكار تدخل في حيز الآداب العامة والسلوك، كقوله مثلاً:

وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى   وفيها لمن خافَ القلى متحوَّل

أقول: المعنى واضح، وهو معنى يدل على أن صاحبه مفكر مدرك لأمره وسلوكه، وما ينبغي له أن يتخذ من طرائق في العيش. وقد يقال: إن هذا

---

(١) أقول: يدخل هذا في حيز الكلام على (الأساطير) الذي شاع في هذه الأحقاب المتأخرة لدى نفر من الدارسين الذين تأثروا بالدراسة الغربية الحديثة، فراحوا يجرون على مثالها في الثقافة العربية جارين على تقليد الغربيين. وليس من ضير في هذا التقليد، ولا أقول إنه حرص على أن يوسم البحث والباحث بالمعاصرة، ولكني أقول: إنه يتنكر لموضوعية العلم، وذلك لأن الموضوعية هي الفيصل والمعيار في كل هذه المسائل، وهي وحدها تفرض ما يجب أن يكون.

العرض الذي يواجه الإنسان في هذا البيت يشعر أن صاحبه في بيئة غير بدوية.

وقد يقال أيضاً: أن مادة البيت اللغوية قريبة من الفهم ليس فيها شيء من غريب، كالذي ورد في أبيات أخرى من هذه القصيدة. وقد يقال: إن الشعر الجاهلي ليس مقصوراً على الغريب والشوارد من مادة العربية القديمة، وذلك لأن الدارسين يجدون من اللفظ السهل قدراً غير قليل في شعر امرىء القيس وشعر زهير مثلاً أو معنى هذا ليس غريباً أن نجد كلاماً سهلاً في لامية الشنفري.

أقول: وهذا الاعتراض وجيه، غير أن فيه شيئاً قد أغفل وهو أن «الشنفري» ليس كامرىء القيس وزهير وغيرهما ممن عرفوا المجتمعات القروية والذين استقروا في بيئة تبتعد قليلاً أو كثيراً عن البوادي الجافية التي أسهب في وصفها الشنفري. وقد نستدل على بيئة زهير البعيدة عن البداوة بما ورد في مطولته من فكر نيّر يتصل بالإنسان وصلته بأخيه الإنسان، كما يتصل بعلاقة الإنسان بالخَلق ومبدع الخَلق، ومثل هذا يقال في كثير من شعر لبيد قبل أن يدرك الإسلام. على أننا نعرف من بيئة الشنفري ومما عرض له من أحداث في سيرته الصاخبة أنه بدوي انقطع إلى البداوة فأدرك من خواصها وصفاتها ما جعله متميزاً عن كثير من الشعراء الجاهليين فضلاً عن أنه كان نموذجاً خاصاً بين أقرانه من الشعراء الصعاليك العدائين، وهو أحد أغربة العرب كما قيل.

ولا أريد أن أقول إن الأبيات التي تنأى عن النماذج البدوية في قصيدة الشنفري منحولة، وأنها ليست من القصيدة، فليس من منهجي أن أبحث في الصحيح والمنحول. ولا أريد أن أقول: إن القصيدة كلها منحولة بسبب من هذا التباين في مادتها بين بداوة منقطعة خالصة ولون آخر هو أقرب ما يكون إلى الخط الحضري.

لا أريد شيئاً من هذا ولكني أمضي في الوقوف على هذه النماذج لأتحول منها إلى النمط الخاص بالبداوة أشير إلى خصائصه «الشعبية».

قال الشنفري:

لعمركَ ما في الأرض ضيقٌ على امرىءٍ   سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل

والبيت واضح في بنائه ولفظه ومعناه، وأنت تقرؤه فتحسب أن طائفةً من أبيات المتنبي شيء من هذا.

وتمضي مع الشاعر في قوله:

هم الأهلُ لا مُستودَع السرِّ ذائعٌ   لديهم ولا الجاني بما جَرَّ يُخذَلُ
وكلٌّ أبيٌّ باسلٌ غير أنني   إذا عَرَضَتْ أولى الطرائد أبسَلُ
وإنْ مُدَّت الأيدي إلى الزادِ لم أكنْ   بأعجلهم إذ أجشعُ القوم أعجَلُ
وما ذاك إلّا بسطةٌ عن تفضلٍ   عليهم وكانَ الأفضَلَ المتفضِّلُ

هذه جملة أبيات تبدو غريبة كل الغرابة في هذا السياق الذي انقطع إلى البداوة. وقد يقال في تعليل ذلك إن هذه المعاني عامة، وعموميتها تأتي من إنسانية جبل عليها كل خَلق سويّ.

ولنعد إلى سائر اللامية لنقف على هذا الأدب الأصيل، وأصالته من غير شك تقوم على «شعبية» صادقة.

لقد حملت البيئة البدوية الشنفري إلى أن يضرب في الأرض، فيأنس إلى الوحوش، بسبب من هجرانه عشيرته لأنهم لم يستجيبوا له وقد حفزهم إلى الجد وعظيم الأمر، فإن قصّر قومه وتقاعسوا فلِمَ لا تحمله إنسانيته على أن يستبدل بهم غيرهم، ذئباً «عَمَلّس» ونمراً أرقط وضبعاً عَرفاء. لقد أنس بهذه الأسرة وأنسوا به، وأدركوا من خُلُق الأناسي ما لم يجده بين أهله وعشيرته، فلِمَ لا يكون هذا اللفيف من الوحوش أهلاً للشاعر يحمون الجار ويرعون الذمة ويحفظون السرّ، وهم شجعان[1]...

أقيموا بني أمّي صدورَ مطيِّكم   فإنّي إلى قوم سواكم لأميَلُ
فقد حُمَّت الحاجاتُ والليلُ مقمرٌ   وشُدَّت لِطيّاتٍ مطايا وأرحُلُ

لقد حفز قومه واستنفرهم إلى الجد والخروج لبلوغ أمر عظيم، وهو

---

(١) أجزت نفسي استعمال ضمير العاقل في الكلام على هذه الوحوش، وذلك لأن الشاعر أنزلهم منزلة العاقل كما تشير الأبيات.

هنا يذكِّرهم أن في الأرض سعة يسلم فيها المرء من الأذى فيكون في مأمن من الشَّنَأة، ولن يُحسّ المرء بضيق في هذه الأرض الفضاء، إذا سرى إليها راغباً أو خائفاً:

وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى   وفيها لمن خاف القِلَى مُتَعزَّل
لعمرُك ما في الأرض ضيق على امرىءٍ   سرَى راغباً أو راهباً وهو يعقِلُ

ولم يستجب قومه لندائه، فتحوّل إلى أسرة جديدة هي جملة من الوحش كما بيّنا، وهو في هذا الاستبدال يفرغ إنسانيته على هذه الوحوش، وهكذا كان العربي الجاهلي يسلك مع هذه البهائم فيألفها وتألفه ويحبها وتحبه، ويخاطبها مخاطبة أهله وذويه، ألم يقل القائل منهم:

شكا إليّ جَمَلي طول السُّرَى
يا جَمَلي ليس إليَّ المشتكى
صبراً جميلاً فكلانا مبتَلَى

وأنت تجد نظير هذا لدى كثير من شعراء العرب جاهليين وإسلاميين، فهذا الفرزدق يخاطب ناقته قائلاً:

إلامَ تَلَفَّتينَ وأنتِ تحتي   وخير الناس كلِّهمُ أمامي
متى تَرِدي الرصافةَ تستريحي   من التهجير والدَّبَرِ الدوامي

أقول: تعلّق الشاعر البدوي القديم ببيئته فأفرغ عليها من إنسانيته، فتوهم أنها تعاني ما يعانيه فجعل منها رفيقاً يناجيه ويحن إليه، وليس فرقاً بين شخوص البيئة الجامدة من وادٍ أو سهل أو عين ماء أو ثنيّة أو علم من الأعلام، وبين الوحوش التي ألفها كحمار الوحش والثور الوحشي والناقة والجمل والذئب والنمر والضبع. وقد يصعب أن ترى أدباً قديماً شغلت منه الحمامة والرئم مكاناً كالأدب العربي القديم.

وليس بدعاً أن تجد هذه الأشتات التي عمرت بها تلك البيئة القديمة حاضرة في أدبنا الحديث، ولا سيما ما كان منه بالألسن الدارجة محاكاة وتقليداً.

ومن هنا كان طبيعياً أن نقرأ قول صاحبنا الشنفري:

ولي دونكم أهلونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ وأرقطُ زُهْلولٌ وعَـرْفاءُ جَيْـأَلُ

وأهـل الأدب يعرفون هـذه الألفاظ البدوية، واجـدني مضطراً إلى أن أشرح هذه لجمهـرة القرّاء من غير أهل الصنعة فأقول:

السِّيد هو الذئب كما في مطوّلات المعجمات، وكذا كان في شرح اللامية للمبرّد، وكـذلك في (شرحها) للزمخشري. وقـد يـكون من المفيد أن أثبت أن (السِّيـد) هـو الأسد في لغـة هـذيل.

و(العَمَلَّس) هو الخفيف السريع.

والأرقط: صفة للنمر.

والزُّهلول: الأملس.

والعَرْفـاء: الضبع الطويلة العُرف، وهي في الأصل صفـة، ولكن الشاعر قـدمها على الموصوف (جيْأل) وهي الضبع.

قـلت: لقـد أنـس الشنفري بهذه الوحوش فاستبدلها بقومه، واتخذها أهلاً له فقال:

همُ الأهلُ لا مستودَعُ السرِّ ذائع لديهم ولا الجاني بما جَرَّ يُخذَلُ

وإذا تحوّلت هذه الوحوشُ إلى (أهـل) فلا بـد أن تتصف بالكمالات، فهـي مستودَع سره تحفظه وتكتمه، وهـي ملاذ للمستجير الجاني الذي يجـد في جوارها أمناً فـلا يمكن أن يناله أحـد ممن يطلبون منه ثأراً لهم.

قـلت: لقد أفرغ على جملة هذه الرفقة من الوحش صفات الأنـاسي فوصفهم بالشجاعة والإبـاء والبسـالة. ثم عـاد إلى نفسه فافتخر في أنه أبسـل من أفراد هذه الأسـرة حين تعرض له الخيل فيلاقي الشجعان فقال:

وكـلٌّ أبيٌّ بـاسـلٌ غيـرَ أنني إذا عَرَضَت أُولَى الطرائدِ أبسَلُ

قـلت: لقـد تحول الشاعر فافتخر، ودعاه هذا الفخر إلى أن يطري صفاته الحميدة فقـال:

وإنْ مُدَّت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلِهم إذ أجشَعُ القوم أعجَلُ
وما ذاك إلا بسطةً عن تفضُّلٍ عليهم وكانَ الأفضَلَ المتفضِّلُ

قلت في مقدمة هذا البحث: إن هذه الأبيات ربما كانت غير ملتئمة في سهولتها وفكرها مع بيئة البادية، ولا أريد أن أذهب في هذا إلى أن البداة لا يملكون شيئاً من هذا، ولكني أقول إنها لا تلتئم مع خشونة تلك البيئة وقسوتها، وهي أقرب ما تكون إلى بيئة أهل الحواضر. غير أني لا أملك أكثر من هذا، فلا أستطيع أن أقطع بهذا الذي بدا لي.

وإذا كان الشنفري قد استمرأ هذه البيئة القاسية، فهو من الفئة القليلة التي أحسنت التعامل مع شخوص البادية، يقوّيه في نضاله الشاق أصحاب له من جيرته غير تلك الوحوش وهم ثلاثة: قلب جريء مقدام، وسيف (إصليت) صقيل جُرِّد من غمده، وقوس طويلة، فهو يقول:

وإني كفاني فقد من ليس جازياً بحُسنَى ولا في قُربه متَعَلَّلُ
ثلاثة أصحابٍ: فؤادٌ مُشَيَّعٌ وأبيض إصليت وصفراءُ عَيْطَلُ

لقد كفاه هؤلاء «الأصحاب» عن أولئك الذين هجرهم وهم أهله الأدنون الذين لم يعملوا خيراً ولم يجد في العيش معهم ما يتعلّل به.

وهو يمضي في وصف قوسه (الصفراء العيطل) فيقول:

هَتوفٌ من المُلْسِ المُتونِ يَزينُها رَصائعُ قد نيطت إليها ومِحْمَلُ

فالقوس (تهتف) كالحمامة، وذلك إذا أنبِضَ فيها وهي (ملساء) تزينها سيور نيطت إليها، ومِحمل يتقلّد به صاحب القوس.

ويمضي في وصف حاله في حماسة، وهو في وصفه وحماسته يبرز من أدوات هذه البيئة البدوية ما كان شيئاً من مواد حياته اليومية، قال:

ولست بمِهيافٍ يُعَشّي سَوامَه مُجَدَّعةً سُقْبانُها وهي بُهَّلُ
ولا جُبَّأٍ أكهَى مُرِبٍّ بعِرْسِه يُطالِعُها في شأنِهِ كيفَ يفعَلُ
ولا خَرِق هَيْقٍ كأنّ فؤادَه يظَلُّ به المُكّاء يعلو ويسفُلُ

ولا خـالـفٍ داريَّـةٍ متـغـزِّلٍ يـروحُ ويغـدو داهنـاً يتكَحَّـلُ
ولستُ بعَـلٍّ شـرُّه دون خيـره أَلَفَّ إذا ما رُعتَه اهتاجَ أعزَلُ
ولست بمِحيارِ الظلامِ إذا انتَحَت هُدَى الهَوْجَل العِسِّيف يَهْماءُ هَوْجَلُ

يـقول الشنفري في هذه الأبيـات: أنـه غير مهياف أي أنه لا يبتعد في إبـله يرعـاها على غـير عـلم فيعطشها، ولا يحـسن رعيهـا فيتـرك سقيـانها (مجدَّعة) تطوي جوعاً، وأمّهاتها «بُهَّل» أي مُخَلّاة لا صِـرار عليها لعدم وجود اللبن في ضروعها. وكأن الشاعر يمتدح نفسه في أنه غير مهياف من أمره كيت وكيت فهو عـارف بصنعته . . .

وأنـه ليس جباناً (جُبّأ) ولا (أكهى) أي كـدر الخلُق بليد، مقيم على عرسه لا يفارقها، وهـو غير (خَرِقٍ) مأخوذ من الخوف يرتجف فؤاده ذعراً كالمُكّاء، ولا يتخـلف عن صنع الخير، غـير ملازم لداره همّه التغزّل بالنساء يتقلّب مزهواً بزينته، وهو غير (عَلٍ) أي مسنّ صغير الجرم، (ألفّ) لا يحسن خوض الحرب جباناً هيّاباً تأخـذه الحيرة كالمتسرّع السائر في الظلام، لا يـدري أين يولّي وجهه إذ اعترضته فـلاة (هوجـل)، لا يعرف كيف يذهب فيها.

ثم يمضي يصـف آلامه ومعاناته غير شاكٍ ولا بـرمٍ ، بـل إنه يـذكر نمطاً مما ألفه من السلوك في بيئته هذه فيقول:

إذا الأمعَزُ الصُّوّان لاقَى مناسمي تـطايَـرَ منـه قـادحٌ ومفـلَّلُ
أديمُ مِطالَ الجوع حتى أُميتَـه وأضربُ عنه الذكر صفحاً فأذهَلُ
وَأَسْتَفُّ تُربَ الأرض كيـلا يَرَى له عليَّ من الطَّولِ امرُؤٌ مُتْـطوِّلُ
. . . .
وأطوي على الخُمص الحوايا كما انطوّت خيـوطـةُ مـاريٍّ تُغـار وتُفتَـلُ

قـلت: في هذه البيئة ألف الشنفري حيـاة عسيرة، فهو يجوب القفر ذي الحجـارة فلا تنـال من قدميه، حتى إذا مسّتا الحجر تطاير منه شـرر وحجارة شظايا، يريد أن يقول: إن قدميه صلبتان، فكأنهما الحجارة حين تمس الحجارة. وهو يعاني الجوع فيغلبه بل يميته ويذهل عنه، وهو هنـا يغلّب نفسه

على حاجاتها (لا ليجعلها) صاحبة هذه البيئة، بل ليكون ذا سلطان عليها فيهيىء منها طبيعة تذل لهذا الصنف من الرجال الذين يسّروا هذه البيئة العسيرة بشيء من أدب النفس بل ترويضها على نحو ما تعلو النفس عن حاجاتها، بل ربما دفعه الأمر إلى أن يستف تراب الأرض استبعاداً منة متطوّل عليه فيطوي الأمعاء (الحوايا) على جوع، وكأنه يفعل بها فتلاً كما يفتل الفاتل خيوطه.

وكأنه من طول إلفته لأحواله في معاناته للجوع وغيره يدعو صحابته من الوحش، فتستجيب له وهي أشباه له فيما يعانيه.

أقول: هذا النموذج الأصيل من الأدب القديم يبسط أمامنا أدباً كان له في بيئته أصول تذهب بعيداً في هذه الطبيعة، وهو فوق ذلك معبّر صادق عن ممارسات البداة، مع إقرارنا أن الشنفري نموذج من صفوة الرجال. إن شخوص هذه البيئة البدائية تفرغ على هذا الأدب القديم (الشعبية) التي ندركها نحن في عصرنا هذا. ولعل من المفيد أن أعيد ما قد كنت ذكرته في فصول كنت قد نشرتها في هذه المجلة أشرت فيها إلى أن الشعبية لا تعني هذا الذي يمارس من ألوان الأدب بالألسن الدارجة. كما أشرت إلى أن طائفة مما ينظمه جماعة في عصرنا بالألسن الدارجة بعيد عن (الشعبية) بسبب أنهم متعلمون ينقلون إلى الألسن الدارجة الأنماط الجديدة من الشعر الحر ونحوه في ألفاظه وطرائقه وغموضه.

وأجتزىء بهذا القدر من (مقدمة) لي في (البداوة والحضارة).

مع الشاعر القديم

كثر الكلام على الشعر في عصرنا هذا، فقد ذهب النقّاد ومؤرخو الأدب في كلامهم على (صفة) الشاعر مذاهب صعبة، نخلص منها إلى أن ثقافة الشاعر زاد مختلف ألوانه، فهو أديب ملم بالأدب والآداب قديمها وحديثها، عارف بكثير من ألوان الثقافة التاريخية وغيرها، مدرك لتطور الفكر والحضارة. ثم إن له مما وهبه الله قدرة على الإبداع، وجملة هذا هي (الشاعرية). فأنت ترى أن أدوات الشاعر وخصائصه تفوق أدوات الأدباء الكتّاب والنقّاد وسائر أهل الفكر من قبَل أن الشاعر جُبل وفي نفسه شيء يمنحه القدرة على التجويد والإبداع. ومن هنا كان (الشعراء) عدة قليلة في كل عصر وفي كل أمة من أمم الأرض، وهذا يعني أن جمهرة من يضطربون في صوغ الكلم وتنظيمه، لا يمكن أن يكونوا من هذه الصفوة التي رزقت دون سواها أن تأتي بالفن الأصيل.

وإذا كان هذا شيئاً يسيراً موجزاً مقتضباً مما يقال في (الشاعر) الجديد في عصرنا، فإن ذلك ليدفعنا إلى أن نتبين شيئاً من (صفة) الشاعر القديم. ولا بد أن نقف على الشاعر الجاهلي فنجده من صفوة خاصة. وهذه (الصفوة) تحفل بالمشاهير وغير المشاهير، ولكنهم جميعاً ليسوا كسائر معاصريهم، يدلنا على ذلك أن القبيلة تحتفل بميلاد شاعرها وظهوره في مناسباتها، وما تقتضيه المنافرة والمفاخرة والدفاع عن حقها والإشادة بمجدها ومآثرها.

ومن أجل ذلك كان للشاعر منزلة عظيمة، وحكاية بنات (المحلق) اللواتي لم يتقدم إلى الزواج منهن أحد، حتى إذا أشاد الأعشى بكرمه وفضله ومنزلته يقول فيه:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة   إلى ضوء نار باليفاع تَحَرَّقُ
تُشَبُّ لمقرورَيْن يَصطليانها   وبات على النار الندى والمحلَّقُ

لم ينقض العام إلا وكلّهن خُطبن وتزوَّجْن.

ولا يفوتني أن أذكر ما كان أمر الفرزدق القائل:

فَهبْ لي خنَيْساً واحتسِبْ فيه منّة   لحَوْبة أم ما يسوغ شرابُها

قال الشيخ ابن برّي: : والسبب في قول الفرزدق هذا البيت أن امرأة عاذت بقبر أبيه غالب، فقال لها: ما الذي دعاك إلى هذا، فقالت: إن لي إبناً بالسند في اعتقال تميم بن زيد القيني، وكان عامل خالد القسري على السند، فكتب من ساعته إليه:

كتبتُ وعجّلتُ البرادة إنني   إذا حاجة حاولتُ عَجَّتْ ركابُها
ولي ببلاد السند عند أميرها   حوائج جَمّات وعندي ثوابُها
أتتني فعاذت ذات شكوى بغالب   وبالحرّة السافي عليها تُرابُها
فقلت لها: إيه اطلبي كل حاجة   لديّ فخفّت حاجة وطلابُها
فقالت بحزن حاجتي أن واحدي   خنُيساً بأرض السنْد خَوّى سحابُها
فهبْ لي خُنَيْساً واحتسِبْ فيه مِنّة   لحَوْبة أم ما يَسوغ شرابُها

....

فلما ورد الكتاب على تميم، قال لكاتبه: أتعرف الرجل، فقال: كيف أعرف من لم يُنسَب إلى أب ولا قبيلة، ولا تحققت اسمه، أهو خنُيْس او حبُيْش؟ فقال: أحضِرْ كلَّ من اسمه خنُيَس أو حبُيَشْ، فأحضرهم فوجد عدَّتهم أربعين رجلاً، فأعطى كل واحد منه ما يتسفّر به، وقال: اقفلوا إلى حضرة أبي فراس[١].

(١) اللسان (حوب).

أقـول: إن هـذا، وغيره كثير، يـظهر مـا كان للشاعر في المجتمعين الجاهلي والإسلامي من مكـانة عالية.

ومـن أدوات الشاعر معرفـة واسعة بمآثـر العرب وأيـامها ومنافراتها ومفاخراتها، بـل قـل: تمـام العلم بالتـاريخ القديم، وبالأدب القديم من مثـل وقـول مأثـور ونحو ذلك. وامتـلاك واف للعربية ومـا لها من غـريب وأوابد. وجملة هذا ثقافة علمية وافية تـكون معيناً ثرًّا يتزود منه الشاعر موادّه.

ولـيس عجيباً أن الشاعر كـان يفد إلى المحافـل والأنديـة التي هي شيء من (أسواقهم) فينشد وكأنه في إنشـاده يشـارك في (مباراة) شعريـة كما نفعل في عصرنـا، وكما نتخـذ في الصحف والمجلات وغيرها أدوات للإعراب عن التبريـز في الميدان الأدبي.

وطبيعي أن الشاعر القديم الجاهلي والإسلامي، كـان يقصد في تصديه للمناسبات أن يـأتي بـأحسن مـا حصل له من الشعر الذي جهد في إتقـانه وتجويده وإحـكام مـادته. ولـيس عجيباً أن دعيت قصائد زهـير بن أبي سُلمَى بـ (الحوليات) لما كـان يفرغ فيها من جهـد في البنـاء والصقل والتجويد. فيتم له جملة ذلك في (حـول) كـامل.

وهـذا يعني أن الشعر القديم كما كان وليد اللمحة العابرة والإيحـاءة السريعة في مقطعـاته الموجزة، فـذاك لـيس بمانع أن يـكون في جملتـه وليد الفكر الناصب والعمل الجاد، والعناية بالشعرِ وإحـكام نـسجه ليأتي محـكم البناء. يعني ذلك كـله أن يسعى الشاعر فيجنِّب شعره (العيوب)، وإلى ذلك أشـار ذو الرمـة:

وشعر قد أرقتُ له غريب أجنِّبـه المسانـد والمحـالا

وهـذا كالقائل وهو دائب في إحـكام (قصيدته) التي (قوَّمَ مَيْلَها وسِنَادَها)[(١)].

---

(١) قـالوا: السنـاد في عيـوب الشعر وهو اختـلاف الأرداف، كقـول عبيد بن الأبرص:

فقـد ألـج الخبـاء على جـوَار كـأن عيـونَـهـن عيـون عيـنِ

فأنت ترى أن الشاعر ذا الرمة قد (أرق) لشعره مجتهداً أن يجنّبه (المساند) و(المحالا)، وهذا يعني أنه لم يأته شيء منه عفو الخاطر مما تسمح به قريحة مواتية سمحة. على أني لا أنكر أن يأتي شيء قليل من هذا، غير أن ما أثر من المطولات والقصائد، لا بد أن يكون فيها قدر من جهد ناصب، وفكر مبدع وصنعة لا يوصل إليها إلا بالكد والسعي، مع طبيعة سمحة مواتية.

ولولا الطبيعة السمحة المواتية، ما كان للجهد الناصب من أثر كبير في الإبداع، ولولا ذلك لكان كل أديب شاعراً، ولم يكن شيء من هذا فيما نعلم من تاريخ الأدب العربي وغيره من آداب الأمم الأخرى.

ونقف ها هنا قليلاً فنقول ونردد قول الراجز القديم:

الشعرُ صَعْبٌ وطويلٌ سُلَّمُهْ   إذا ارتَقَى فيه الذي لا يفهمُهْ
زلَّتْ به إلى الحضيض قَدَمُهْ

وهذه الوقفة تفرض علينا أن نقف على (**الشاعرية**) أو ما يُدعى في عصرنا بـ(**الموهبة**) فنقول: عبّر الأقدمون عن هذه (**الموهبة**) في مصطلح أهل العصر في طرائق نخلص منها إلى أن الشاعر قد يؤتى له من (شيطانه)، وشيطانه هذا من عالم خاص هو عالم الجن. وقد كان لهذا النظر في الجاهلية عقيدة وإيمان. فقد قال **الجاحظ** في الكلام على قول الشاعر:

بنت عمرو وخالُها مسحَل الخيـ   ـر وخالي هُمَيْمُ صاحب عَمْرو

فإنهم يزعمون أنَّ مع كل فحل من الشعراء شيطاناً يقول ذلك الفحل على لسانه الشعر، فزعم **البهراني** أن **هذه الجنية بنت عمرو صاحب المُخَبَّل**، وأن

= ثم قال:

فإن يك فاتني أسفاً شبابي   وأضحى الرأس مني كاللجَيْنِ

وقد عرض السناد للشعراء الجاهليين كما في قول عمرو بن كلثوم:

شربنا من دماء بني تميم   بأطراف القنا حتى رَوينا

وقوله فيها:

ألم تَرَ أن تغلبَ بيت عز   جبال معاقل ما يُرْتَقينا

فكسر ما قبل الياء في (رَوينا) وفتح ما قبلها في (يُرتَقينا).

خالها مسْحَل شيطان الأعشى. وذكر أن خاله هُنَيم، وهو هَمَّام. وهمام هو الفرزدق. وكان غالب بن صعصعة إذا دعا الفرزدق قال: يا هُنَيم.

وأما قوله: (صاحب عمرو) فكذلك أيضاً يقال: إن اسم شيطان الفرزدق عمرو. وقد ذكر الأعشى مسْحَلاً حين هجا جُهُنَّام فقال:

دعوت خليلي مسْحَلاً ودَعوا له جُهُنَّام جَدْعاً للهجين المُذَمَّم

وذكره الأعشى فقال:

حبَاني أخي الجنّي نفسي فِداؤه بأفيحَ جيَّاش العشيّات مِرْجَم[1]

وجُهُنّام هو اسم عمرو بن قَطَن من بني سعد بن قيس بن ثعلبة، أو اسم «تابعته»[2].

وقال أعشى سليم:

وما كان جنّي الفرزدق قدوة وما كان فيهم مثل فَحْل المُخَبَّل
وما في الخوافي مثل عمرو وشيخه ولا بعد عمرو شاعرٌ مثل مسْحَل

وقال الفرزدق في مديح أسد بن عبد الله:

ليبلُغَنَّ أبا الأشبال مدحتنا من كان بالغور أو مَرْوَى خُراسانا
كأنها الذهبُ العقيان حبَّرها لسان أشعر خَلْق الله شيطانا

وشيطان الشاعر أمير الجنّ، وإلى هذا يشير الراجز:

إني وإن كنتُ صغير السنِّ وكان في العين نبوٌّ عنّي
فإن شيطاني أميرُ الجنِّ يذهبُ بي في الشعر كل فَنِّ[3]

وجاء في رسائل المعري: أن أبا بكر ابن دريد ذكر لأصحابه أنه رأى فيما يرى النائم أن قائلاً يقول: لِمَ لا تقول في الخمر شيئاً، فقال: وهل ترك أبو نواس مقالاً، فقال له: أنت أشعر منه حيث تقول:

---

(١) الحيوان، ٦/٢٢٥/٦ - ٢٢٧
(٢) اللسان (جهنم)، والمؤتلف، ص ٢٠٣
(٣) رسائل أبي العلاء، وانظر ثمار القلوب للثعالبي، ص ٥٦

وحمراء قبل المزج صفراء بعده أتَتْ بين ثوبي نرجس وشقائقِ
حكَتْ وجنة المعشوق صرفاً فسلَّطوا عليها مزاجاً فاكتسَتْ لونَ عاشقِ

فقال له أبو بكر: من أنت؟ فقال: أنا شيطانك، وسأله عن اسمه، فقال: أبو زاجية، وخَبَّره أنه يسكن الموصل(١).

ولأبي العلاء طرائف في (رسالة الغفران)، مما يتناقلها العرب عن عالم الجنّ، فهو يتحدث على لسان هذا الذي تنقل في رحاب (النعيم) فيقول:

فيركب بعض دوابّ الجنة فيسير فإذا هو بمدائن ليست كالمدائن فيقول: ما اسمُك أيهاالشيخ؟ فيقول: أنا الخيتعور أحد بني الشيصبان، ولسنا من ولد إبليس، ولكنّا من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم - ﷺ - فيقول: أخبرني عن أشعار الجن فقد جمع منها المعروف بـ (المرزباني)(٢) قطعة صالحة(٣).

ويمضي هذا الخيتعور يتحدث عن شعر الجن الذي سبقوا فيه الإنس بقرون، وكان لهم من بحوره خمسة عشر فيها الرجز والقصيد، وأنه يكنى «أبا هَدْرش» وأن الجن فيهم المؤمنون أصحاب الجنة، وفيهم الكفّار أصحاب النار... وفي أثناء كلامه عن الجن طرائف كثيرة يختمها بقوله: (وهي قصيدة تنيف على العشرين بيتاً) وفيها:

حَمدتُ من حطِّ أوزاري ومزِّقها عنّي، فأصبح ذنبي اليومَ مغفوراً
وكنت آلَفُ من أتراب قرطبةٍ خوداً، وبالصين أخرى بنت يغبورا
....
....

(١) رسائل أبي العلاء.
(٢) المرزباني (صاحب الموشح وغيره)، محمد بن عمران بن موسى أبو عبد الله، المتوفى سنة ٣٨٤ هـ، (انظر الفهرست ص ١٣، ط أوروبا)، وقد أشار أبو العلاء إلى كتابه (في أشعار الجن)
(٣) رسالة الغفران، ص ٢٨٩، إلى ص ٢٩١

فيقول: للّه درّك يا أبا هَدْرَش[1]! لقد كنت تمارس أوابد ومنديات[2]، فكيف ألسنتكم؟، أيكون فيكم عَرَب لا يفهمون عن الروم، وروم لا يفهمون عن العرب، كما نجد في أجيال الإنس؟ فيقول: هيهات أيها المرحوم! إنّا أهل ذكاء وفِطَن، ولا بد لأحدنا أن يكون عارفاً بجميع الألسن الإنسية، ولنا بعد ذلك لسان لا يعرفه الإنسي، وأنا الذي أنذرت الجن بالكتاب المنزل[3].

ثم يمضي (أبو هدرش) يجيب سائله عن أسئلته، فيأتي بكلام على شعر المتقدمين من الجاهلين كأوس بن حجر وغيره، ثم يروي قصيدة طويلة في حديث (الرَّجم) أولها:

مكّة أقوَتْ من بني الدردبيس   فما لجني بها من حَسيسْ

ويمضي في روايتها، وهي تنيف على الستين بيتاً[4].

فإذا تبيّنا (عالم الجن) في تصور العرب في جاهليتهم، وما بقي من آثار ذلك في أوهامهم فيما بعد الجاهلية، أفلا يكون أمر (شيطان الشاعر) شيئاً غير غريب، وأنه وسيلة لتفسير إبداع الشاعر وإجادته في فنّه مما يطلق عليه في عصرنا بـ (الموهبة الشعرية)؟

---

(١) كنية الجني (الشاعر).
(٢) كذا في رسالة الغفران، ولا وجه لها، أقول: لعلها: متبدّيات.
(٣) رسالة الغفران، ص ٢٩٦
(٤) المصدر السابق، من ص ٢٩٧، إلى ص ٣٠٤

وقفة على العصر الذهبي

(العصر الذهبي) مصطلح حديث استعمله الكتاب الباحثون في حضارة الدولة العباسية في الكلام على الحقبة المتقدمة في أيام الرشيد والمأمون، وربّما توسعوا قليلاً فأطلقوه على ما أثر من تراث حضاري في حقبة المعتصم والمتوكل. وقد يتوسع في هذا فيكون منه ما كان في القرن الرابع الهجري. وكأن هؤلاء الدارسين قد أحبوا هذا المصطلح الجديد، وليس من شك أنهم استعاروه من لغة أعجمية إنكليزية أو فرنسية. ما علينا فالعصر الذهبي يراد به العصر الذي ازدهرت فيه المعارف والعلوم والفنون تأليفاً وترجمة وإبداعاً.

وجملة هذا كله يؤلف أبواباً مهمة من الإرث الحضاري حتى إذا اجتمعت هذه الألوان المشرقة ذهب الدارسون إلى الكلام على (أصالة) هذه الحضارة. والأصالة مصطلح جديد أمسك به الدارسون فحمّلوه ما أرادوا له أن يحمل مما يدخل في الجدّة والإبداع، وكأنهم أرادوا أن يكون مقابلاً لـ (Originality). ليس في ذلك ضير فكثير من المولّد الجديد تفرضه حاجات جديدة جدّت في عصرنا.

وافترق الدارسون في أمر (الأصالة) فرقتين، فذهبت جماعات كثيرة من العرب والمسلمين إلى أن العرب أهل إبداع، وأن الحضارة العربية لها من سمات الأصالة قدر عظيم، وأنهم أسّسوا أسساً شادوا عليها صروحاً لم يسبقوا إليها. وذهب آخرون من مستشرقين وغيرهم إلى أن حضارة العرب أقيمت

على أصول غير عربية، وأن العرب والمسلمين اقتبسوا ما كان للأمم القديمة من ألوان حضارية فوسموها بسماتهم. ولا نعدم أن نجد جماعة من هؤلاء الأعاجم مستشرقين وغيرهم يوافقون الفريق الذي يذهب إلى أصالة حضارة العرب والمسلمين.

إن الكلام في هذا الباب معروف، وهو قديم وليس في طوق الباحث في عصرنا أن يضيف شيئاً جديداً في هذه المسألة فقد أشبعت درساً.

وإذا كان لنا أن عرفنا هذه الألوان الحضارية التي أفرغنا عليها غطاء العصر الذهبي، فإننا نجد أنفسنا مضطرين أن نقف وقفات أخرى على هذا التاريخ القديم لنحمل أنفسنا على النظر فيما يقتحم العين من مشاهد قد تنأى قليلاً أو كثيراً عما يمكن أن يندرج في (العصر الذهبي)، إن مجالس اللهو والعبث والشراب مثلاً تحمل إلينا من أمر السخف والمجون وحديث الجواري والغناء وما يعرض له من العبث ما ليس في طوق الباحث الجاد أن يحمله على ما يمكن أن يزهى به من أشتات الحضارة. وليس لنا أن نقول إن هذه الجوانب لا تمس حياة المجتمعات القديمة، ذلك أنها مقيدة بأسلوب خاص ينحدر إليه علية القوم من خليفة ووزير ورئيس وكاتب وجماعة أخرى يقوم عليها هذا اللهو العابث يندرج فيها الشاعر والمؤدبون من حملة الأخبار والآثار ورواد السمر. إن كتب الأدب القديم لتزخر بهذه الأخبار التي تتصل بأدب السمر، وما يشتمل عليه من أشتات الغناء والشعر والرقص، وحواش أخرى يعمر بها هذا الأدب اللاهي الذي لا يتنكر للمجون. وأخبار أبي نواس والحسين الخليع ابن الضحاك وأضرابهما كثيرة، وليس لنا أن نحمل جملة هذه الألوان على الكذب، وإن كانت لا تخلو من شيء منه. لقد اشتملت الأخبار في كتاب (الأغاني) لأبي الفرج وكتاب (طبقات الشعراء) لابن المعتز في ترجمة هؤلاء الشعراء على كثير من العبث والمجون واللهو. ولشهرة أبي نواس مثلاً في هذا أفردت له مصنفات خاصة كان منها أخباره التي جمعها أبو هفّان، ونظير ذلك ما صنعه ابن منظور صاحب (اللسان).

ولقد عمرت مجالس الخلفاء العباسيين بهذا اللهو والعبث والمجون،

وكأن الخلفاء والوزراء والكتاب لم يجدوا في هذا الذي كان يدور في مجالسهم ضيراً وحرجاً وخروجاً على المألوف من الخلق وما ينهى الدين عنه من المنكر.

والباحثون الدارسون في هذه الأحقاب التي دعيت بالعصر الذهبي بين منكرٍ لهذا الضرب من السلوك، وبين مغضٍ عنه لا يمسه من قريب أو بعيد. وكأنّ هذه الأنماط السلوكية لا تقدح فيما دُعي بالعصر الذهبي. وجل هؤلاء من الفريقين ممن أخذوا أنفسهم ببركة التراث يكبرونه بل يقدسونه، وهم في هذا الإكبار والتقديس يبعدونه عن المسيرة المتصلة للحضارة. ومن عجب أن هؤلاء الذين يحملون أنفسهم على أنهم حملة للتراث يرون فيه الخير كل الخير، وأنه من هنا بديل للوافد الجديد من الأنماط الحضارية الجديدة. وعجيب ألا يفطن هؤلاء إلى أنهم يحيون حياتهم بنِعَم هذا الوافد الحضاري الجديد. وما الشر الذي نزل بالإنسان من التكنولوجيا الجديدة إلا شيئاً لا يمكن أن تقابل به فضائل العلم الجديد مما عاد على بني الإنسان خيراً وأمناً وبركة.

ولا بد من إطالة الوقفة مع هذا النفر الذي تعلق بالتراث وأحبّه بل قدّسه، لنتبين أن للتراث بريقاً يغشي العين، وقد قالوا: حبّك الشيء يُعمي ويُصمّ. لقد أبصر أصحابنا هؤلاء أن التراث منهل ثرٌّ عذب، لم يُرنّق صفوَه كدر، وأنه خير وبركة، وأنه سحر حلال، وقد فاتهم أن الشر قديم، وأنه لازم الإنسان منذ أن كان على وجه الأرض، ولم تسلم جنة آدم من مغريات الشر. أقول: كأن ما ندعوه في عصرنا من المظاهر السلبية ليس من التراث، ذلك أن الذين عنوا بالتراث قد ضيّقوا من رقعته الفسيحة، فصرفوه إلى كل ما هو إيجابي، فقد غضّوا الطرف عن ألوان من سلوك السلف لا يمكن أن تُحمَل إلا على الشر كالظلم والعبث ونحو ذلك. ولعل الأوائل كانوا أسدّ نظراً وأبعد فهماً وأرحب صدراً، فلم يُحرَجوا في شيء من هذا، فقد كتبوا في مثالب العرب كما كتبوا في مباذلهم ولهوهم وعبثهم. وكأنهم أدركوا أن العلم يقضي أن يعرض أهله في درسهم للشيء لوجوهه كافة، وليس من العلم أن نتكلم في خير الأوائل، ونغضي عما جنحوا فيه إلى الشر. وليس من العلم أن نحمل

نحن أهل هذا العصر أبا عبيدة وهو مَن هو في العلم بتاريخ العرب وأيامهم وأوابدهم، على الشعوبية لأنه كتب في (مثالب العرب) كتاباً لم يصل إلينا، مع علمنا أن من أخلص إلى لغة العرب فكتب في (إيجاز القرآن) و (مجاز الحديث) لا يمكن أن يكون من أعداء العرب ممن حُمِلوا على الشعوبية الآثمة. ولا يمكن أن يكون صاحب (جمهرة الأنساب) من هذه الفئة الضالة لأنه كتب في (مثالب العرب). هذا بعض ما فرّطنا فيه في حق أولئك الرجال وفي حق العلم.

قلت: لقد أدرك الأوائل خيراً منا حقيقة العلم والمنهج العلمي، وبسبب من ذلك وجدناهم قد استوفوا من حقائق العلم المختلفة أفانين شتى، وأنهم أثبتوا من الصدق والأصالة ما نحن نفتقر إليه في عصرنا، ألا ترى أن الجاحظ الذي كتب في عصر اشتد فيه طغيان الشعوبية، قد تجرّد للعلم النزيه فكتب في فضائل الأمم كافة، ولم يتأثر بظلم لحق العرب من الشعوبية فيكون خصماً تنسيه الخصومة حرمة العلم.

ولعل من رحابة الصدر ألا يتحرَّج أهل الجدّ من العلماء والفقهاء من قراءة شعر الحسين بن الحجاج وجلُّه مجون وعبث وبذاءة. وإنه لأمر ذو دلالة أن يتغالى الناس في ثمن ديوان ابن الحجاج فيبلغ في عصره خمسين ديناراً ذهباً عيناً، وإنه لأمر ذو دلالة أن تتحدث الآثار أن هذا الديوان اقتناه أهل الجد من الفقهاء.

وكأني أميل إلى أن أخبار العبث واللهو والمجون وسائر ما يحمل على غير الجد من أبواب الحياة يندرج فيما كان لنا من ماضٍ زاهر دعوناه (العصر الذهبي)، وليس من العلم ولا من العقل أن نصرف هذه الوجوه عن حقيقتها ونبعدها عن حيّزها الإنساني. ولِمَ نحتفل بيوم عمورية في عصر المعتصم ونراها تطبيقاً رشيداً للشهامة العربية الإسلامية، وننكر بعض مظاهر الحياة اللاهية التي وقعت في عصر هذا الخليفة بل في قصره، فكان له مع الحسين الخليع مجالس خلت من الجد وعمرت بالعبث واللهو.

ومن هنا كان علينا أن نقف من جملة هذه الآثار التي تفصح عن أخبار

الحياة اللاهية موقف المؤرخ العالم، وألا نقشعر منها فنحسب أنها تنال من قداسة التراث. ومن حق العلم علينا أن نقرأ هذه الصفحات ولا نصطنع عفّة كاذبة في معاهدنا العلمية، فنرفع هذه الأشتات من كتب ومصادر علمية طبعت في عصرنا، أو أننا أعدنا طباعتها. ألا ترى أن الذي طبع أو حقّق ونشر أخبار أبي نواس لأبي هفان قد اقترف إثماً كبيراً في طمسه الأشعار والأخبار وأثبت في موضعها من الكتاب نقاطاً؟ أليس هذا من العبث في اصطناع هذه العفة مع علمنا أن جمهرة منا لا تتحرج في حديثها عن ذكر العبث واللهو وترداد الكلم الماجن؟

إن أهل الجدّ من الدارسين ليبرؤون من هذه الصنعة البائرة، لأنهم يدركون أن من (الإنسانية) ألا نلبس لبوساً كاذباً.

ولعل من هذا أن يثبت أحد المحققين لكتاب من كتب (التراث) اسم قرية قديمة هي (طِيزناباذ) التي قال عنها ياقوت: إنها بين الكوفة والبصرة، وهي قرية ذات كرم وبساتين كان أهل الشراب والطرب يقصدونها، وهي التي ورد ذكرها في شعر أهل الخمر والمجون. فقد قال فيها أبو نواس:

في طِيزناباذ كَرْمٌ ما مررتُ به إلّا تَعَجَّبتُ ممَّن يشربُ الماءا

أقول: شاء هذا المحقق أن يثبت اسم القرية بالراء «طيرناباذ» هرباً مما ظن هذا المحقق ـ عفا الله عنه ـ أن الكلمة بالزاي تُذكِّر بكلمة عاميّة دارجة يستقبح ذكرها. لا أدري كيف تحملنا هذه العفة الكاذبة على أن نعبث بالعلم، وفي أنفسنا من الكذب والدغل والكدر قدر لا يمكن أن نستره بهذه الألاعيب.

وأذكر من هذا أن أحداً من العرب قد تقدم لنيل درجة جامعية في مطلع هذا القرن برسالة في عادات أهل بلده وطبائعهم وأوابدهم فحمل صنيعه هذا على أنه إساءة لبلده لأنه ذكر في جملة ما ذكر شيئاً مما يدخله في طائفة عادات البلاد المتخلفة. وذهب هذا الفريق المستنكر إلى أن صاحبنا الدارس متعصب أراد النيل من الإسلام، فما أقسانا وأسرعنا إلى اللحاق بالشر.

وأعود إلى أصحابنا المزهوين بالتراث الذين لم يحملوا عليه إلّا الضيم

بسبب من ضيق نظرتهم الـذي ضيقوا به رحاب التراث الفسيحة فأنعتهم بأصحاب اليمين، لأقابل بينهم وبين فريق آخر رأى في الأثر القديم صحائف سوداً كلها عبـث وظلم وممارسات كان وقودها جمهرة سواد النـاس غير عِلية القوم ومن والاهم، وأنا أنعت هؤلاء بأصحـاب الشمال، وهم جمهـرة الدارسين في عصرنا الذين نـدعوهم اليساريين أو الماركسـيين.

أقول: أقابل بين الفريقين، لأقول إن أصحاب اليمين أخطؤوا وجاروا عن السنن، وأن أصحـاب الشمال من ذوي التطرّف (اليساري) قـد أخطؤوا أيضاً، وكمـا ضاق أولئك فـلم ينظروا بعيداً، ضـاق اليسـاريون أيضاً فأخـطؤوا في تفسير حركة التاريخ.

أليـس من الكبائر أن نحمـل على المجتمع الإسلامي القديم أنمـاط تفكيرنا الحديث، فنوزّع المجتمع توزيعاً نفيده من عـلم الاجتماع المعاصر، فندّعي مثلاً أن (البورجوازيـة) الأموية كـانت ترمي إلى كيت وكيت...... وأن (البروليتارية) الجماهيرية من القرامطة والزنج شعرت بالظلم فكـان مـا كان من ثورات وحروب.

لـيس هذا كله من العلم، وإن العلم يفرض علينا أن نفهم المسائل فهماً موضوعياً، وأن (التراث) بخيره وشرّه من وشي (العصر الذهبي). وأن هذا (العصر الذهبي) يتجاوز التحف والأثار والعاديّات والمخطوطات التي نزهى بها ونوشّي بها واقعنا الأليم. أقـول يتجاوزه إلى حيـاتنا المعاصرة، فنواجـه به روافد العلم المعاصر ومبتدعات التكنولوجيا، مواجهـة لا أريـد منها المقابلة المتشنّجـة، بـل مواءمة نـستعين بكليهما في حضارة معاصرة. ولـيس لنا أن نظل كما يقال سلفيين نعمل على القطع والانفصام.

بين التعريب والترجمة

التعريب مصطلح قديم وهو غير الترجمة، ذلك أنه يعني أخـذ الكلمة الأجنبية وضمها إلى اللغة العربية. وقد جـروا في أخـذهم هـذا على شيء من أصـول هي أن الكلمة تـؤخذ كما هي في لغتها إن كـان وزنها يوافق وزناً من أوزان العربية، وإن أصواتها هي كالأصوات العربية، فـإن لم يتوفر هـذا فقد درجوا على تغيير الوزن الأجنبي ليكون موافقاً للأوزان العربية، وعلى الإبـدال بشيء من حـروفها حروفاً عربية. وقـد تم بهذه الصنعة توفـير جمهرة من الكلم الجديد المعرب مما يشتمل على قدر وافٍ من المصطلح فكان من ذلك: الدرهم والدينار والجِهْبَذ وهو الناقد العارف بوزن الدرهم والدينار و (ضبط جودة) الفضة والذهب فيهما، وكـان من ذلك الفلسفة والموسيقى والجغرافيا والغرامطيقا والبولتيقـا (ويـراد بهما grammar و Poletic) ومـثل هذا مئات بـل ألوف من الكلم المعرَّب[1].

هذا هو (التعريب) القديم، فأما التعريب في عصرنا فقد صار مرادفاً للترجمة، وتعريب التعليم الجامعي يعني جعل لغة التعليم في قـاعات المحاضرات، ولغة الكتاب الجامعي (العربية)، ومن أجل ذلك عمدت

(١) انظر كتاب (المعرَّب) لابن الجواليقي، طبع طبعة أوروبية قديمة، ثم طبع بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر في القاهرة سنة ١٩٤٧ م، ثم أعيد طبعه بالأوفست غير مرّة.

جهات عدّة على ترجمة الكتب الجامعية من الإنكليزية، والفرنسية لتكون بين أيدي الدارسين العرب.

وقد بدا لي وأنا أقرأ في (التقييس) (المجلد الرابع، العدد ١٠) أن أكتب شيئاً أبسطه في هذا الأمر، وذلك لأني قرأت في العدد المشار إليه مقالة وُسِمَت بـ (أهمية ضبط الجودة في المقادير والمحاجر. . .).

أعدّ المقالة الدكتور روحي الشريف والمهندس حسان السعودي.

والمقالة مفيدة فقد أعدّها اثنان من أهل الخبرة والعلم، ولكني سأقف في هذه المقالة وقفات خاصة، الأولى: قول الكاتبين:

وتشكل قيمة المواد التي تدخل في هذه الإنشاءات حوالي ٨٠٪ من التكاليف وهي تتمثل في الحصمة (كالحجارة والرمل والإسمنت والخرسانة و(الطوب). . . (ص ٤).

أقول: إذا جاز لنا أن نستعمل (الطوب) وهو الطين المجبول على هيئة خاصة ثم (يُشْوَى) بل يُحرق حتى يتحول إلى شيء آخر هو (الطوب) في لغة المصريين، أو (الطابوق) في لغة العراقيين وغيرهم، إذا جاز لنا هذا الاستعمال، فليس لنا أن نستعمل (الحصمة) وهي عامية خاصة ببلاد الشام دون غيرهم من العرب، وهي تعني الحصى الصغار (الحَصْباء).

وهذه الكلمة العامية أصلها (الحَصَب) كما ورد في قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنّم﴾ [الأنبياء ٢١/٩٨].

وعلى هذه فالكلمة العامية الشامية (حصمة) من (حَصَب) الفصيحة، والميم تبدل من الباء، وهذا الإبدال كثير في الفصيحة والعامية، وسبب الإبدال أن الصوتين كلاهما شفوي (Labial).

والثانية: أن أهل الاختصاص سبقوا اللغويين في صنع المصطلح الجديد. وهذا أمر طبيعي فالحاجة تدعو إلى ذلك، وصاحب الحاجة يسعى إلى ضالّته. وهذا في قول الكاتبين الفاضلين:

أما (المرامـل) فإننا كنـا نحصـل عليها. . . (ص ٤).

أقول: و (المرامل) جـديدة مولّدة، وهو شيء حسن، فهي جمع (مَرْمَل) لموضع الرمل. وإذا كـان في العربية (محـاجر) لموضع الحجر، و (مقـالع) لموضع القلع للمواد المقلوعة فلِمَ لا يـكون (مـرامل) والحاجة تـدعو إلى ذلك؟ والقياس على الكائن المستعمل مقبول.

وعـلى هذا نستطيع أن نولّد (مَرخَم) للموضع الذي يـوجد فيه (الرُخـام)، وقِس على هـذا سائر الأحجار ونحوها مما يستخرج من بـاطن الأرض.

والثالثة: وهي المهمة، وتـدخل في بـاب التعريب والترجمة للمصطلح الجديد وهي:

(ضبط الجودة) وهي تقابل في الإنكليزية (Quality Control)، وعندي أن المصطلح العربي، وهو (ضبـط الجودة) غير سـديد، وأحـسن منه لو أنّا قلنا: (السيطرة على النوعية) وربما درج العراقيـون على (السيطرة النوعيـة)، ولكن كـيف لنـا أن نغيِّر ونبدِّل، وقـد ورد (ضبـط الجودة) مـن مـواد علم المصطلح الحديث، وكان لضبط الجودة قـدر كبير من المصطلحات يؤلف معجماً بـرأسه؟

والرابعة قول الكاتبين في مقالتهما المفيدة في (ص ٩):

. . . ثم تفحص العيّنات وتدوّن النتائج على الاستمارة وتوقّع من الفنيين الذين قاموا بإجراء الفحوصات. . .

أقـول: و (الفحوصات) في قـول الكاتبين من بـاب جمع الجمع مثلهما: مثـل البيوتـات والرجـالات وغيرهما من هـذا الضرب من اللغة القديمة. وقد جدّ في عصرنا استعمال المعاصرين لجمع الجمع في مجـالات عـدة كالمجال الصيرفي، فأنت تجد: الدفوعات جمع الجمع لـ (دفع)، و(القبوضات) جمع الجمع لـ (قبض) و (الحسومات) جمع الجمع لـ (حَسْم) وغير هذا.

وليس من حاجة إلى هذا الجديد المولّد، وذلك لأن الجمع وحده يكـفي، وعـلى هذا تـكون (الفحوص)، وهـي جمع (فحـص)، أحـسن من

(الفحوصات)، وكذلك (الدفوع) و (القبوض) و (الحسوم) أحسن من (الدفوعات) و (القبوضات) و (الحسومات).

ثم إن (جمع الجمع) في العربية لا يفيد الجمع الكثير بل العكس، فهو يفيد القلّة والخصوصية، فالرجالات لا تعني الكثير من الرجال، بل تعني جملة قليلة من الرجال ذوي المكانة العالية، وكذلك (البيوتات) فهي تعني قليلاً من الأسر من أصحاب المكانة المرموقة.

وأختم هذه العجالة بالكلم الشريف من الذكر الحكيم:

﴿سخَّرَها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حُسُوماً﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٧].

وبعد فهذا شيء من فضائل هذه (المنظمة) - حرسها الله - التي عرفتها فاهتديت إلى هذه المشاركة الموفقة، وما كنت لأهتديَ لولا أن هداني الله - جلّت عظمته -.

مع المصطلح بين قديمه وجديده

سبق العرب غيرهم من الأمم في توفير (المصطلح العلمي) حتى كان لهم في (علم المصطلح) طرائقهم الخاصة وتقاليدهم التي أفادوها في هذه الممارسة العلمية. لقد ترك لنا السلف من تلك المصطلحات الكثير الذي يتوزع في شعب المعرفة كافة، فكانت من ذلك معجمات خاصة بكل علم من العلوم. وقد أتيح للعرب أن يجدوا في لغتهم وسائل مفيدة في توفير المصطلح منذ أن أظلهم الإسلام بظلّه، فقد تحولت العربية بظهور الإسلام إلى لغة علمية حفلت بكل ما يقتضيه العلم من (مصطلح). وليس أدلّ على ذلك من أن غير العرب من العلماء المسلمين قد اتخذوها لغة لهم كتبوا بها مصنفاتهم العلمية حتى عدَّهم المؤرخون من علماء العرب. لقد اتخذ أولئك العلماء العربية لغتهم في العلم لاطمئنانهم أنها الوسيلة المفضلة للإعراب عن المعارف الكثيرة، وأن لا سبيل إلى العدول عنها إلى لغاتهم القديمة التي تفتقر إلى عناصر العلم.

فإذا كان لنا من تراثنا تلك المواد النافعة، فعلينا أن نفيد منها ونستدرك بها ما فاتنا. غير أن الحضارة المعاصرة قد ألقت بثقلها علينا، وقد وجدنا أنفسنا أمام هذا الوافد الجديد الذي يحفزنا على أن نهيىء مادة غزيرة من المصطلح الجديد لنواجه به الحضارة المعاصرة التي نصل إليها ببرامج معدّة إعداداً حسناً في حقول (التنمية) الصناعية والزراعية. ومن هنا نشطت منظمات المواصفات

والتقييس في الإعداد لهذه (التنمية) فكـان عليها أن تولي (المصطلح) و (علم المصطلح) عنايتها الفائقة.

ومن هنا كان علينا أن نفيد من الموروث المختزن الذي يقوم على الإفـادة من طاقـة اللغة العـربيـة، ثم مـن الترجمة، ثم مـن التعريب. والمراد بـ (التعريب) أخـذ المصطلح الأجنبي بصيغته حيناً وبإجـراء شيء من التغيير في أصواته وبنـائه حيناً آخـر، ليتهيأ لنا من ذلك مـا نحن في حـاجة إليه. وقـد سلك الأوائل جمـلة هذه الوسـائل فأفادوا فوائد كثيرة.

وهنـاك وسيلة أخـرى جـرى عليها الغربيون في أحـوال خاصة، وهو ابتكار المصطلح ابتكاراً جديداً، أو قـل خلقاً جديداً لم يـكن له شيء من أسـاس قـديم، كأن يتخذ مـن اسم رجـل مادة لمصطلح، أو أن يولّد المصطلح ارتجالاً بوضع جملة من الحروف على هيئة مخصوص فيكون من ذلك مصطلح جديد.

وأود أن أقـف في هذه الإلمامة الموجزة على فـوائد وتجـارب عرضت لي وأنا أمـارس هذه الممارسة اللغوية في (المنظمة).

لقد سألني أحـد الإخوة العاملين في المنظمة عما يمكن أن نضع لكلمة «Easel» الإنكليزية من مقـابل في العربية؟

والشيء المسؤول عنه (أداة) تتألـف من خشبتين طويلتين تلتقيان في زاويـة حـادة من الأعـلى تقفان مع خشـبة ثالثة من خلفهما، تلتقي بهما من الأعلى أيضاً، ويصـل بين الخشبتين الأماميتين لـوح من الخشب يتخذ منـه مسنداً يوضـع عليه ورقة من المقوّى (الكرتون) ويكتب فيها شيء من إعـلان أو دعوة أو بيـان كأن يقـال: هنا يبـاع كذا وكذا مع سهـم يشير إلى المحل أو الحـانوت، أو أن نقرأ مثلاً: هنـا مقر الاجتماع مع سهـم يشير إلى المبنى الذي يعقد فيه الاجتماع. وهـذا هو «Easel»، فكيف نقول في العربية؟

توقّفت قليلاً وفكّرت، قـلت في نفـسي: هل أقول (شاخـص) أو (شاخـصة) وتذكّرت أن (الشاخصة) الخشـبة التي يشخصها في الأرض العاملون

في المساحة. ثم قلت: أيكون ذلك (حاملاً) فقيل لي: إن (الحامل) عمود أو خشبة قائمة تحمل شيئاً آخر من جهاز ونحوه نحو (الحامل) لماكنة التصوير ونحو ذلك. فكيف إذن نقول فيما يُدعى «Easel»؟.

قلت: أليس لنا أن نؤسس جديداً فنقول إن هذه (الأداة) التي وصفناها شيء يلفت النظر لينتبه المعنيون إلى ذلك، فإذا كان هذا، أليس لي أن أقول: إنها «لافوت»؟.

فإن قلتَ: لِمَ اخترتَ هذه الصيغة الغريبة (فاعول)؟ قلتُ: إن (فاعول) من الصيغ التي تفيد الآلة، وقديماً قالوا: ساطور وشاقول، وناعور وغير ذلك. ومن هنا كان على حق الأستاذ أحمد الأخضر غزال في اعتماد (الحاسوب) للكومبيوتر. وربَّما فات العاملين في المنظمة أن يجعلوا (فاعولة) صيغة أخرى من أوزان الآلة ومنها الطاحونة والناعورة، والقاصوصة وغيرها.

وسألني أحد الإخوة العاملين في (المنظمة) أيضاً: كيف نقول فيما هو «Caption» في الإنكليزية؟

أقول: وهذا الذي يدعى «Caption» هو ما يكتب من (بيان) تحت الصورة في الكتب والصحف وغيرها، أو تحت الخارطة أو تحت أي شيء مرسوم أو مخطط.

قلت: وكيف ترى أنت أن يقال؟ فقال: أقول: إعلان خاص أو عنوان خاص، قلت: وهذا لا يفيد كثيراً، وحجتي في ذلك: أن (المصطلح) ينبغي أن ينصرف إلى الشيء بعينه، وعلى ذلك فلا بد أن يبتعد فيه عن ألفاظ العموم التي تنصرف إلى مدلولات عدّة. ثم أن يكون مفرداً لا مركباً من كلمتين كالصفة والموصوف، والمضاف والمضاف إليه.

وإذا كنت قد استبعدت (الإعلان الخاص) للمصطلح الذي هو موضوع البحث، فكيف أقول؟

وفي هذه الحال لا بد أن أصير إلى كلمة (بكر) لم تشتهر باستعمال

معين، أو أنها ذات دلالة ولكنها هجرت في الاستعمال، وفي هـذا أقف على كلمة (عِـلان) بـكسر العين فأتخذ منها مقابـلاً لـ «Caption» و (العِلان) مصدر للفعل (عالَنَ) وهـو فعل هُجر في الاستعمال، وحـل محله (أعلَنَ)، وبسبب من تـركه وإهمـاله حَسُن استعماله في هـذا المصطلح.

ثـم إني قـد قصدت إلى (عِلان) لفـائدة أخـرى، هـي أن وزن (فِعَال) في العربية القديمة وإن كـان مصدراً لـ (فَاعَلَ) الربـاعي وهو كالمفاعلة أيضاً نظير (سابَق) سِباقاً ومسابقة، فهو في الوقت نفسه من أوزان الآلة القديمة في العربية نحو:

(الخِيـاط) بمعنى المِخيَط أي الإبـرة، ومنه قـوله تعالى: ﴿حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياط﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٠]. و (سِـلاح)، و (نِقـاب) و (لِثام) و (صِمـام) وهو ما يُسَدّ القنينة ونحوها، وقـد غلط المعاصرون فجعلوه (صَمّام) بالفتح فالتشديد. ولو أردت أن أستوفيَ مـا جـاء على (فِعـال) مـن أسمـاء الآلات والأدوات لكـان لي منـه قـدر كبير يُربي على المئات.

وسـألني أحـد الإخـوة كـيف نقـول فيما يُسمَى «Nouveauté» للمحـلات التي يـبيع أصحـابها فيهـا الملابس الأنيقة للرجـال أو النسـاء ومـا يتبع الملابس من حـاجات أخـرى.

أقـول: والكلمة الأجنبية فرنسية وهي تعني (الطرفة) أو الشيء الجـديد المتسم بمـا يـكون في الجديد من صفـات يتقبّلها الناس لطرافتها وجدّتها، فكأنها على غير مثال سابق.

ويحضرني في هـذا أنا كنا نقرأ في كتـب التراجم والرجـال من كتـب التراث التأريخي أن طائفـة من المترجمين عرفـوا بشهرة خـاصة، كأن تـكون الشهرة حرفـةً لهم فنجد فـلاناً (الفرّاء) لبـائع الفراء حينـاً وللعامل في صناعته، و(الزجّاج) للعامل في الزجاج فقد ذكروا أن (الزجّاج) النحوي المعروف كان (يخـرط) الزجاج، وخِـراطة الزجـاج حرفته، وفـلان (الرَفّـاء) وهـو الذي يـرفو الثيـاب، ومـن هؤلاء (الرزّاز)، و (الخيّاط) و (البنّـاء) وغير هـذا كـثير.

ثم إن هذه هذه الشهرة قد تكون بنسبة الرجل إلى حرفته فنجد (القدوري)

وهـو صانع القـدور، و(الجـلودي) للعامل في دبغ الجلود أو بيعها، و(الطيـوري) لبـائع الطير والحمام ونحـوها، ومن هـذا (الطوابيقي) لصـانع الطابوق أي الآجـر، وكـذلك (الآجُرّي) و(القراريطي) لصانـع الموازين، و(الأنماطي) لبـائع النسيج المنقوش من الفرش وغيرها.

ويـدخل في هـذا (الطرائفي) وهـو بـائع (الطرائـف) أي الأشيـاء الجديدة الظريفة الأنيقة كالملابس والعطـور ونحـو ذلك. وهـذا يقـابل بـائع الأشيـاء الجديدة في عصرنـا التي يسميها التجّار (Nouveauté).

وسـألني طـالب في كلية الآداب في الجامعة الأردنية من قسم الترجمة، كيـف أقول في (الطَعْج) لمـا يعرض للسيّارة تضربها سيـارة أخـرى فيحـدث انخساف في صفيحها، وهـذا شيء لا بـد من إصلاحـه، ويـطلق عليه في الألسن الدارجة (طَعْج) فيقال: طُعِجَت السيارة أو انطعَجَت، أي حـدث فيها (طَعْج).

أقـول: حقيقة (الطعج)، وهو الكلمة العامية، أن صفيح السيـارة ينخسف مـن جـراء الصدمة أو الضربة من سيّـارة أخـرى. .ولهذه الدلالة أي (الإنخسـاف) كلمـات كثيرة في العربية الفصيحة ولكنها غير مستعملة لهذا الذي يحدث للسيارة، فهـل لنا أن نستعمل شيئاً منه؟

إذا كنـا نستعير مـن تلك المواد القديمة لنجعله شيئاً خـاصاً بما يحـدث للسيارة من أذى فربّما لا نوفق في اختيارنا، وذلـك لأن هذه الكلمة التي اخترناها غير معروفة لـدى سائقي السيارات ولـدى العمال الذين يُصلحون هذه الأعراض.

والذي أراه أن الأولى أن نـأخـذ الكلمة العامية لشيوعها في عـدة أقطار عربية وهي (الطَّعْج) لتكـون المصطلح العلمي. ثم إنها كلمة أهل الحرفة في هـذا الشأن.

وقد أقَرَّ مجمع اللغة العربية في القاهرة أخـذ الكلمات العامية الإصطلاحية التي اصطلح عليها أهـل الحرف والصناعات وإدخـالها في (المعجم) الجديـد.

وهـذا البـاب يدفعنا إلى (تعـريب) المحيط، وذلـك أن المحيط أو البيئة تشيـع فيها الكلمات العامية أو الأجنبية، للتعبير عن مصطلحات الحرف والصناعات وغيرها، فـلا بـد من التعريب للتغلب على حـالة من الفوضى مصدرها أن أصحـاب الحرف والباعة والتجّـار يـدخلون الجديد الأجنبي ليفاجئوا به الناس فيكسبوا الأربـاح، لأن الناس يندفعون وراء الجديد في كـل عصر.

و(تعريب المحيط) حركة دائبة في القطر الجزائري لشيوع المصطلح الفرنسي في كـل شيء، غير أن هـذا التعريب لم يـكن سياسة محكمة، فقد كـان شيء منه متروكاً إلى النـاس، فجرّبوا ذلك فـكان من صنيعهم أنـك تجد في واجهـة ما يُسمّى في الفرنسية «Douche» أحـدهـم يكتب كلمة (مِرَشّ) من الفعل (رشّ) لأنه يفيد ما تفيده الكلمة الفرنسية، وإن كان (الرش) أعم من الـ(douche)، في حين تجد آخر يتقن المقابلة فيأتي بكلمة (مِشَنّ) وهو أدل على حقيقة الـ (douche).

وينبغي ألا يفوتنا النظر إلى أن كـلا الكلمتين قـد جاءتـا على وزن (مِفعَل) للدلالة عـلى المبـالغة، ولم يشيرا إلى المكان.

والكلام في هـذه المسائل كثير ورُبّمـا قد يتـاح لي أن آتـي على كثير من (لـطائف) المصطلح قديمـه وحـديثه.

وقـلت مرة لأحـد الإخـوان كيـف تقـول فيما يـدعوه الفرنسيون (Imperméable) والإنكليز (Raincoat) وهـو مـا يلبس كالمعطف يُتّقى به المطر؟ فقـال: لا أدري، وإنما يُسَمَّى في العراق وربما في سورية (مشمَّع) وهو من الكلم العاميّ الدارج.

أقـول: إن عـدم وجود الكلمة الفصيحة لهـذه الحاجة المهمة جعلنا أحيـاناً نستعمل الكلمة الفرنسية كما في أقـاليم الشمالي الإفريقي، ونستعمل الكلمة الإنكليزية كما في أقطار الخليج واليمن الجنوبي وغيرها ،وربمـا مصر.

ولقد فات أهل العلم بالمصطلح الجديد أن يقفوا على (المِمْطَر) وهو كلمة قديمة ذكرها أصحاب المعاجم القديمة، وهو الثوب أو الرداء الذي يرتديه المرء يتقي به المطر.

لقد أخذ العربيّ القديم هذه المادة المفيدة من لفظ المطر فأحسن الصنع.

ولو استقرينا هذا الضرب من الكلم القديم لوقفنا منه على نفائس لا نعرفها في عربيتنا المعاصرة مع حاجتنا الشديدة إليها.

مع الكلم المترجم والأساليب الصحفية

كثر الكلم المترجم عن الإنكليزية أو الفرنسية حتى غدا سمة من سمات العربية المعاصرة. وقد حصل شيء من هذا في أكثر اللغات المعاصرة، ذلك أننا ممتحنون بما يكون في اللغات الأجنبية، ولا سيما الغربية، من جديد وافد.

ولا أذهب في عرضي للعربية المعاصرة مذهب الخطأ والصواب. إن شيوع هذه العربية المعاصرة وغلبتها، وكثرة موادها وطرائق القول فيها ليحملنا على النظر إليها بعيداً عن مسائل الخطأ والصواب. لقد نبز متقدمونا في أوائل هذا القرن مواد الجديد اللغوي فجعلوها (لغة جرائد). وكأنهم نظروا إلى أن ما يكتب في الصحف والمجلات شيء عارض، وأنه بعيد عن الصواب، ولا بد من التنبيه عليه والرجوع إلى أساليب الفصيحة.

وقد صنفت كتب في غلط الكتّاب والمعربين أثبت فيها أصحابها الصواب، ولم يكن دأب هؤلاء سليماً جارياً على العلم. لقد أعاد هؤلاء ما ذكره الأوائل كالحريري في (درة الغواص)، وما كان من هذا لدى الذين عنوا بتقويم اللسان والقلم ممن سبقوا الحريري كابن قتيبة في (أدب الكاتب) وغيره.

لقد أعاد المعاصرون ما ذكره أولئك المتقدمون، ولو أنهم عمدوا إلى استقراء الكتب وحصر ما ورد فيها من فنون القول، وما خرج عليه المعاصرون، لصنعوا خيراً.

أقـول: كـان عـلى المعاصرين[1] الذيـن تصدّوا إلى إصـلاح الخطأ استقـراء كـلام المتقدمين من أربـاب الفصاحـة، ومـا ورد من هـذا في القرآن والسنة، ومـا كان من كـلام الخلفاء الراشديـن ومن خلفهم، مستمرّين في استقرائهم مصنفـات البلغـاء كابن المقفع والجاحظ وأبي حيّـان التوحيدي.

أقـول: لو كـان المعاصرون قد درجوا على شيء من هـذا لكـان لهم أن يقفوا على الصواب.

انتهـت هذه الحقبة في تصحيح الخطأ، ومـا زال شيء منـه نسمعه في الإذاعات المسموعة والمرئية، ونقرؤه في الصحف وغيرها. لـو أدرك أصحابنـا هؤلاء أن هـذا المنهج لا يوصلنـا إلى شيء من (الإصلاح) المنشود، ذلـك أن الجديد خطأً كـان أم صوابـاً قـد ثبت وشـاع واكتسب سيرورة عجيبة في عربية معاصـرة (خـاصة).

أقـول: هي (خـاصة) ذلـك أن طائفة مـن أهـل الحفاظ مـا زالت آخـذةً بالفصيح المليح، وإن تأثـرت بعض التأثر بالجديد الوافد.

لقد نبّه أهـل العلم في مطلـع هذا القرن إلى أن كلمة (التطور) جـديدة لا سنـد لها في أسـاليب العربية، وأعادوا هـذا في كتبهم، ولكن هذا (التنبيه) لم يفـد، وبقيت الكلمة وشاعـت، ووجـد فيها الناس حاجتهم، حتى أقلع المنبهون عن الإشارة إليها.

أقـول: ومثـل هذا طائفة كثيرة من الكلم أصبحت من مـلاك العربية المعاصرة، وكأنهـا اكتسبت الأصالة، وسنعرض لشيء مـن هـذا.

ولنعرض للكلم الجديد الذي كـان له أصـول أعجمية، ومـن هـذا كلمة (التدخّل) أو (التداخل) أو (المداخلـة). هـذه الكلمة تومىء إلى الكلمة الفرنسية، أو قـل هي عينها، والكلمة الفرنسية هي (intervention)[2] أقـول: إن

(١) لعـل الدكتور مصطفى جـواد كـان من فئة قـليلة أدركت المنهج القويم في التصحيح القائم على استقـراء النصوص في الآية الكريمة والحديث الشريف وكـلام الفصحاء البلغـاء.

(٢) إن الكلمة عنـد الفرنسيين تعني مـا يقوله أحـدهم، وهـو يشـارك مع غيره في إبـداء رأي أو منـاقشة حكم، فهو (يـدخل) في هذه الممارسة الكلامية، ومن هـنا كـان (التدخل)...

الترجمة دقيقة، ولكنها ولدت غرابة واستغلاقاً، وذلك لأن (التدخل) في العربية لم يؤلف استعماله على هذا النحو، وإن كان من الجائز أن يقول الرجل: وقد تدخّلت في مناقشة الرأي الذي أبداه المحاضر. وعلى ذلك لا يمكن لقارىء في المشرق العربي أن يفهم (التدخل) الذي يقرؤه في صحيفة تونسية أو جزائرية، على أيّ وجه إن لم يدرك ما للكلمة الفرنسية من أثر في اختيار ما اختاره التونسي أو الجزائري.

وقد ترجموا الكلمة الفرنسية المذكورة أيضاً بـ (التداخل) أو (المداخلة) كما أشرنا، وهذا التعدّد في الاختيار يفصح عن قلق المثقف التونسي أو الجزائري في اختيار الكلمة المناسبة. إنك لتقرأ في كلام إخواننا أهل الشمالي الإفريقي أن عريف ندوة ما ينبّه الحاضرين فيقول: ينبغي أن تكون (المداخلات) موجزة.

وليس أمر هذا الجديد المولد الدخيل غريباً في هذه العربية الإقليمية، فهو كثير يتجاوز الحصر. وفي هذه العربية شيء آخر، فإذا كنا في المشرق العربي نلتزم بمصطلح (العمل) لما يقوم به العامل في المصنع، والموظف في المكتب وغيرهما، فإن إخواننا في الشمالي الإفريقي قد اتخذوا (الشغل) مصطلحاً لهم، فيقال عندهم مثلاً: الاتحاد العام للشغل.

ونقرأ في صحف هذه البلدان مثلاً: (الكونفدرالية العام للشغل). و (الشغل) هنا هو (العمل) والأمر متصل بـ (العمال). ولا أريد أن أقف على (الكونفدرالية) التي تعني (الاتحاد) على نظام يعرفه أهل هذا الفن في السياسة والاجتماع، ولكني أقول:

إن أهل الحاجة من أصحاب الاختصاصات قد عرّبوا المصطلح الأجنبي بيسر وخفّة دون ضجّة أو جعجعة، أو السؤال من المجامع اللغوية، فقد أخذوا المصطلح الأجنبي وكسعوه بالياء المشدّدة مع التاء على طريقة توليد المصدر الصناعي كالماديّة والمثالية والنوعية والكمية ونحو ذلك، فقالوا: الديمقراطية والأرستقراطيّة والفدرالية والكونفدرالية وغير ذلك، ولم ينتظروا رأي أهل الصنعة من أعضاء مجامع اللغة العربية، وحسناً فعلوا.

أقول هذا؛ لأني أشعر أن أصحابنا أعضاء المجامع قد يتجاوزون الحدود ويكثرون المناقشة ويظلون في خلاف في أمر مصطلحات سلاح الطيران مثلاً، وقد اصطلح عليها أهل الاختصاص من العسكريين ليقابلوا بها المصطلح في اللغة الإنكليزية، وهم أعرف بها وبحقائقها، ولكننا في مجامع اللغة العربية لا نقرهم في الغالب ولا نرضى بما أنجزوا، بل نحاورهم ونناقشهم لنصل إلى ما أرادوا وما نريد.

وقد يحسن أعضاء المجامع صنعاً لو أنهم اقتصروا على التنبيه إن كان في شيء من هذا المصطلح تجاوز على قواعد اللغة في أبنيتها واشتقاقها، مع علمنا أن هذه المصطلحات موافقة أو قريبة أحياناً مما سُمِّي المصطلح الموحّد في (المعجم الموحّد) الذي قام به الخبراء العسكريون في الجامعة العربية منذ سنين.

لو أن أصحابنا أدركوا صنيع اليهود في أرضنا المحتلة في المصطلح الجديد، لعلموا أنهم اهتدوا إلى الطريق في المئات من الآلاف من المصطلحات العلمية في العلوم الجديدة.

لقد أدخل اليهود المصطلح الجديد من اللغات الغربية ولا سيما الإنكليزية، ولم يغيّروا فيه شيئاً، وذلك لأنهم مدركون أن لغتهم قديمة ناقصة لا تفي بمطالب العصر. ومن هنا أدركوا أن الوقوف إزاء هذه المشكلة يقتضي عدم التردد في الأخذ من اللغات الأجنبية. وقد كان لهم بهذا أن يتغلبوا على المشكلة.

إن تلكّؤ المجمعيين في الاتفاق على المصطلح الجديد، دفع أهل الاختصاصات إلى أن يتخذ كل فريقٍ منهم مصطلحاته، فكان من ذلك أن وقعوا في خطأ لغويّ لم يكونوا على علم به، ذلك أن العربية على سعتها وسماحتها لا تقبل ما خولف فيه وجوه القياس في أبنيتها.

ألا ترى أننا نقرأ كلمة (استبيان) وهي مقابلة لكلمة (questionnair)، ووجه المخالفة أن الفعل (استبانَ) لا يمكن أن يكون مصدره إلا (استبانة) مثل (استقامة)، وفعلها (استقامَ) لمكان الألف وهو عين الكلمة.

لـم يهتـد هؤلاء إلى هـذه المسـألة اللغوية فاستحدثـوا جديداً فاسـداً من النـاحية اللغوية. ولا أدري لِمَ هربـوا من المصدر (استطلاع) المقابل للكلمة الأجنبية؟ ربّما كـان ذلك بسبب شيوع (استطلاع) وعموميتها وذلك يبعدها عن خصوصية المصطلح.

وقـد انتهيت مما وقفت عليه في صحيفة (الاتحـاد الاشتـراكي) المغربية، غير أنـي وجدت أن من الخير أن أمضي في هـذه اللغة الصحفية التي حفلت بالجديد الغريب، وهـو كـثير. ولنقـف قليلاً على جملة من الكلم المجموع فنقرأ منها مثلاً:

«... الانتهاكات والخروقات في انتخاب اللجان الثنائية بقطـاع الصحة».

ومـن المفيد أن أقـف على الكلم المجموع في لغـة صحـف هذه الأيـام، فقـد كثر حتى غـدا شيئاً يسترعي النظر. أقـول: إن هـذه الجموع هي في الأعمّ الأغلب جموع لمصـادر، وليس في جمع المصدر من ضير، فقد ورد في العربية نحو جمع (الخير) على (خـيرات) في لغـة التنزيل كما في قـوله تعالى: ﴿فيهن خـيرات حِسـان﴾ [الرحمن ٥٥/٧٠]. ولـيس لنا أن نقـول إن كـلمة (خـير) ليست من المصادر، فقد صرفت في الاستعمال إلى المصدر عن أصلها كما صرفت (الشرّ). وقـد سهـل في العربية جمع المصدر، وهـو من أسمـاء المعنى في الأصـل، حتى تحوّل به المعربون إلى اسم من أسمـاء الذات، فـإذا قيـل: (لقـاءات) و(نـزاعات) فكأنهـم أرادوا ما يتجسد في الواقع من (اللقاء) أو (النزاع)، وذلك أن يلتقي أحـدهم بغيره ويـكون كذا وكذا، وكذلك النزاعات والاجتماعات وغير ذلك، بغير هذا التحول إلى المعنى الحسيّ الماديّ لا يمكننا جمع المصدر، وهو من أسمـاء المعاني.

ومثـل هذا (الانتهاكات) التي وردت في عبـارة (الصحيفة) التي أثبتنـاها. غير أن كثـرة ورود هـذا الكلم المجموع في صحفنا قـد كـان بسبب الترجمة، فقـد قـالوا: (النجاحات) وأرادوا بهـا جمـع الاسم وليس المصدر، أي مـا تمّ النجـاح فيه من الأعمال التي أنجـزوها.

وهـذا يومىء مـن غير شـك إلى أن المحرر العربي قـد نظر إلى الكلمة الأجنبية وهي (Succes) وهـي مجموعة في الفرنسية دائماً مختومة بعـلامة الجمع، وكذلك هي في الإنكليزية.

ولنقـف على (خـروقات) بمعنى (الانتهاكات)، وهـي من (خَرْق) المفرد، وقد جمعت على (خـروق) بعد تحولها إلى الاسمية وابتعادها عن المصدرية. غير أن المحرر لم يشعر بجمعها هذا فأراد أن يؤكد الجمع، فـذهب إلى جمـع الجمع فقـال (الخـروقات). إن بـاب جمع الجمع مقيّد محدود، ولـيس لنـا أن نتوسع فيه، فقد قالوا: (رجـالات)، ولم يـريدوا بها الجمع الكثيـر بـل أرادوا القلّة وأدنى العدد، وذلك أن (الرجـالات)، تعني الجماعة القليلة من الرؤساء والوجهـاء والأعيان، وليس الكثير من الرجـال. ومثـل هذا (البيوتات)، و (البيوت) جمـع (بيت)، وهو معروف، فأمـا (البيوتـات)، وهـي جمع الجمع، فالمـراد بها جملة قـليلة من (البيوت) أو الأسر ذات الوجاهة.

وقـرأت أيضاً في حـديث من أحـاديث الصحف خُصص للعمارة الحديثة فكـان فيه مـا أنا مثبتـه:

«إن (المعمار) الحديث يقوم على (تقنيات) العصر المعقّدة...».

وإطـلاق (المعمار) على (العمارة) جهـل بالعربية، لأن (المعمار) من ألفاظ المبالغة كالمِطعان والمِطعام ونحو ذلك، وليس فِيه شيء من المصدرية أو نحو ذلك.

ولمـا كـان الكلام على مـادة (عمـر) وجـدت أن المناسبـة تـدعو إلى الوقوف على (الاستعمـار) الذي صـار من مصطلح العصر، ودلالته علمية فنية تاريخيـة يطول الحديث عنها.

أقـول: إن هذه الدلالة جـديدة، ولـيس من ضير أن تعطى هذه المعاني لكلمة (الاستعمـار)، وهـذا يعني أن من طرائق توليد المصطلح أن تؤخذ الكلمة ذات الدلالة الخاصة القديمة وتعطى دلالة اصطلاحية جـديدة.

إن كلمة (استعْمَر) في معناها القديم وثيقة الصلة بكلمة (عَمَر)، فقد ورد

في لغة التنزيل: ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [هـود ١١/٦١]. وهـذا المعنى لـيس بعيداً من قـوله تعالى: ﴿كانـوا أشدّ منهـم قوّةً وأثـاروا الأرض وعَمَروها﴾ [الروم ٣٠/٩].

ومـن غـير شك أن إرادة الجـديد لكلمة (استعمار) كـانت بقصد أن تـكون الكلمة ذات دلالـة اصطلاحيـة خـاصة. ولنعـد إلى عبـارة الصحيفة التي أثبتنـاها لنقف على (التقنيّات) فنقول:

يـشاء المعنيون بالتعريب الحريصون على العربية أن يـكون المصطلح من العربية، شعوراً منهم أن العربية تشتمل عـلى الفوائد الجمّة. ومن ذلـك كـانوا مدفوعين إلى أن يـكون المصطلح الجديد كلمة عربية، ولا يصـار إلى الكلمة الأجنبية إلا عنـد الاضطرار.

لقـد أرادوا بـ (التقنيات ـ Les Technologies) وتشبّثوا بمادة عـربية وهي (تِقْن) بـكسر التاء، وتـفيد العارف الماهر في صنعته.

أقـول: ولا يمكن أن تـكون (التقنيّات) تعريباً للكلمة الأجنبية، والقـاف فيها تقـابل الكاف. هـذا غير صحيح لأنّ (التِقن) بمعنـى الماهر في صنعتـه هو من الفعل (تـقن) الذي جـاء منه (أتقن). وعلى هـذا لا يمكن أن يـكون هذا المصطلح العربي مؤدياً مـا تؤديه (التكنولوجيا)، وكأن المعرّبين لـم يهتدوا إلى وجـه (التقنيّـات) وصيغتهـا، وذلك أن منهم من ينطقها بتشديد النون، ومنهم من يخفّف النون.

ثـم مـا لبث أن كـان هذا المصطلح من الكلم المهجور، وعـادت (التكنولوجيا) مستعملة شائعة، ولم يغيّروا فيها شيئاً.

وإذا كـانوا قد قبـلوا (التكنولوجيا) ولم يغيّروا فيها شيئاً، فقـد قبلوا موادّ كثيرة نجـدها في الصحف وغيرها، فما زلنـا نـرى (التلفاز) إلى جـانب (التلفزيون)، وربمـا قـالوا (التلفزة) ولو أنهـم صـرفوا هذه الأخيرة إلى المصدر لكـان ذلك حسناً. ومثـل هـذا مصطلح (السينـاريـو) في فن (السينما)، ونجـد غير هـذا وهو كثير ومنه (الأوتوستـراد) و (الاستـاد) القومي لكـرة القـدم.

وبعض هـذا قد فرض علينا وإن كنا في غنىً عنه، والأمثلة كثيرة في هـذا الباب.

وشـيء آخـر نجـده في الصحف مما يتّسم بالجدّة والطرافة، وهـذه الجدة تقوم على استحـداث دلالـة جديـدة لكلمة عربية عـرفت معانيها، ومـن ذلك:

١ ـ أننا نقرأ في صحـف هذه الأيـام أن السلطة الحاكمة قد (تَحَفّظت) على أحـدهم...

و (التحفّظ) هنا لا يتصل بمادة (حفظ) ذلك أن المراد بـ (التحفّظ)، في لغـة الصحف الجديدة هو الحكم على فـلان من النـاس بلزوم داره مثلاً لا يبرحها.

أقـول: كأنهـم ابتعدوا باستعمال (التحفظ) عن الكلمات الصريحة التي يـكون لها وقع غير محمود، وهـذه طريقة في الإيمـاء إلى معنـى خـاص لا يحسن التصريح بـه.

وهـذا العدول عن الحقيقة بالإيمـاء إلى شـيء آخر، لا بـد أن يـكون المعربون من أهل الصحف قد أفادوه مما هو جارٍ في اللغات الأجنبية.

٢ ـ ونقرأ في صحـف هذه الأيـام قـول القائلين: (ينبغي «ترشيد» الاستهلاك).

أقـول: و (الترشيد) مصـدر الفعل المضـاعف (رَشّد)، ولا بـد أن يـكون في (الترشيد) شيء من معنى (التقليل) في استهلاك الغذاء والماء وما يتصل بالطاقة ونحو ذلك. ومن هنا كان المراد بـ (الترشيد) هو تقليل الاستهلاك. وكأن (التقليل) لو استعمل هنا يؤدّي إلى استياء، ومن أجل ذلك اصطنعوا هذا الضرب من الإيماء والتعمية.

٣ ـ ونقرأ أيضاً مـا يشبه هـذا من حـيث الإيمـاء إلى المعنى المراد وهـو قولهم: (لجأت السلطات إلى «تحـريك» الأسعار).

أقـول: و (التحريك) مصـدر للفعل (حـرّك)، ولكن هـذا التحريك لا يعني صراحـة معنى الحركة، بـل إنـه يعني (رفـع الأسعار)، ولمـا كان

(رفـع) الأسعـار مما يمكن أن يثير الجمهور ويزعجه، لجأ أهـل الرأي إلى الاستعـانة بضرب من التعمية والإيمـاء فقـالوا: (تحريـك الأسعار) هَرَبـاً مما تؤدي إليه كلمة (رفع).

٤ ـ ونقرأ أيضاً:

إن جهـات عدة قد عملت على احتواء حـركة التمرد في فصائـل المنظمة: والمراد بـ (الاحتـواء) هنا السيطرة والغلبة والوصول إلى حـلّ في الأزمة مثـلاً.

أقـول: وإعـطاء (الاحتواء) هـذه الدلالة هـو شيء جـديد عرفنـاه في لغـة الصحف، وأصـل الاحتـواء معروف، يقـال: احتـوى الكتاب عـدة أبـواب أي اشتمل عـلى.

٥ ـ وقد نجـد أفعالاً ذهـب بها المعربون من حيّزها إلى حيّز آخـر ومنها:

الفعل (ركّز) المضاعف الذي ذُهب به إلى معنى يقرب من التأكيد فيقولون: ركّز فـلان على فكـرة الاتحـاد والتضامن. و (التركيز) هنـا ربمـا كـان منقولاً من حيز العلم في الكيمياء. وكأنهم ضمنوه معنى (ألَحَّ) بـدلالة تعديته بالحرف (عـلى). ولو رجعنا إلى الركـز لوجـدناه شيئاً آخر، يقـال: (ركز) لعمـود في الأرض، ومن هـذا ذهبوا إلى (المركز) الذي أريد بـه بـادىء ذي بـدء (ركـز) العلم أو الراية أو نحـو هـذا، وهو المركز الذي تـدور عليه الدائرة.

ومن هذه الأفعال (بَلْوَر) وهو فعل مولّد من (البلّور)، وأصله من الكيمياء. يقـال حبيبـات بلّورية، ومـن هنا قالـوا: بـلور الحامض الفلـز الفـلاني أي صـار فيه حبيبـات كالبلّور. ثم نقـل الفعل إلى حـيّز آخـر فقـالوا (بلورَ الفكرة)، و (بلورَ المشروع) أي أنهم انتهوا فيه إلى شـيء واضح.

ومـن هـذا قـولهم (كثّف) الفكرة أي جعلهـا معروفة محـدودة، والفعل أخـذ من (الكثافة) في العلوم الطبيعية.

ومن هـذا أيضاً (تفـاعل)، و (التفاعل) كالتشارك يتطلّب طرفين. وكأنّ المعربين ذهبوا إلى هـذا الفعل من معناه في الكيميـاء كتفاعل العناصر

الكيمياوية، وتفاعل الأحماض مع العناصر. وقد نقل هذا إلى حيّز آخر. كما نقرأ مثلاً إن الشعب الكويتي (يتفاعل) مع القضية الفلسطينية. ويعني هذا (التفاعل) التعاطف، أو التأثر على نحوٍ مّا.

ومن هذا أيضاً (التوتر) وأصله من شدّ الوتر، ولكن (التوتر) في العلاقات مثلاً تأزّمها واشتدادها الذي يؤول إلى القطع.

وأكثر هذا متأت من اللغات الأجنبية، وأستطيع أن أقرر أن لغة الإعلام عامة لغة جديدة تستمد مادتها من اللغات الأجنبية فتعطي العربية المعاصرة مجازات جديدة.

ومن هذا الجديد الفعل (استهدف) فهو في عصرنا معروف يراد به اتخاذ الهدف. يقال مثلاً: (استهدف) الكاتب في أسلوبه الوضوح والبيان، أي أنه سعى إلى ذلك. على حين أن الفعل (استهدف) في فصيح العربية القديمة معناه صار هدفاً، لقد قالوا: (من ألّف فقد استهدَف) أي صار هدفاً للناقدين.

ومن هنا، فالفعل هذا كان قاصراً لا يتعدى في حين هو متعدّ في الاستعمال الجديد. ومن هذا الجديد الفعل (أسهَمَ) بمعنى شارك، وهو مما ولّده المعاصرون ظنّاً منهم أن الفعل (ساهم)، متصل بالأصل الاسمي وهو (سهم)، ولذلك قالوا: شركة مساهمة. وإن المشاركة التي لا تتصل بـ(سهم) ينبغي أن يكون فعلها غير (ساهَمَ) وهكذا جاء الفعل (أسهم)، وهو غير معروف في العربية القديمة ولا وجود له في (المعجمات).

أقول: إن ظن المعربين في (ساهم) الذي أشرنا إليه غير صحيح، فالمساهمة مشاركة سواء كانت في (رمي السهام) أو مشاركة أخرى عامة.

لقد جاء في إحدى رسائل الشريف الرضي إلى أبي إسحاق الصابيء يعزّيه بفقد ولده قوله: «وأنا المساهم لك في تحمّل النائبة»[1].

ومن هذا الجديد الفعل (طَرَحَ) وأصل (الطرح) إخراج شيء ورميه

---

(1) رسائل الشريف الرضي، طبع وزارة الإعلام في الكويت.

ونبذه. ومن هنا كان (الطرح) في الحساب. غير أن المعربين في عصرنا جنحوا بالطرح إلى معنى الوضع والإثبات، قالوا: طرحت الحكومة مشروع التعليم الإلزامي، بمعنى وضعته موضع نظر ودرس. ومثل هذا توليدهم (الأطروحة) للرسالة الجامعية، وكأن صاحبها (يطرح) أي يثبت فيها رأياً جديداً أو فكرة أو نحو هذا.

واستعمال حروف الجر في عصرنا يشير إلى استحداث المعاني الجديدة فقولهم: (حدا به إلى أن يقول كذا) متضمن معنى الدفع، وهو استعمال جديد، والأصل الفصيح القديم: هو (حداه) يتعدى بنفسه وكأن المعنى (ساق) وهو يومىء إلى الأصل وهو (الحُداء) وهو الصوت والغناء يصحبه المشي، ومن هنا دلّ على (السَّوق).

ومن هذا الجديد الذي ولّده المعاصرون فأحسنوا الصنع هو الفعل (يهاتف) أي التكلم بالهاتف. و (الهاتف) هو جهاز التلفون.

قلت: لقد أحسنوا صنع الفعل من الجهاز كما هي الحال في اللغات الأجنبية.

ومن هذا الجديد ما نقرأ من أن فلاناً (لعب) أوراقه كاملة، بمعنى أحسن العمل وأجاد التصرف. إن أصل هذا المجاز هو (لعب الأوراق) في المقامرة في عصرنا.

على أن الفعل (لعب) قد استعمل استعمالاً آخر مأخوذاً من (التمثيل) المسرحي والسينمي، فقالوا: (لعب دوره) أي قام بما يجب أن يقومَ به.

ووجه الجدة أيضاً أن الفعل (لَعِبَ) في الأصل فعل قاصر، في حين قد تحول إلى فعل متعدّ في الاستعمال الجديد. ومن الظلم أن نقرأ: (الدور الذي لعبه الأزهر...).

ونقرأ في الصحف: «والاتجاه إلى تكريس واقع الدولة الفلسطينية المتنقل عبر التأكيد على الشخصية الفلسطينية هو ما يميّز استراتيجية منظمة التحرير الفلسطينية».

في هـذا النص جملة مسائل هـي:

١ ـ (التكريس) هنا هو التثبيت والتعيين، والكلمة جـاءت إلى العربية من الثقـافة النصرانية، والتكريس فيها رسم من رسوم الممارسة الدينية. وقـد أفادت التخصيص في الفصيح المعاصر الدارج.

٢ ـ كلمة (عِبر) ويـراد بها مـا يـراد من كلمة (خـلال) ودلالتها الظرفية، وكأنهـم لمحوا فيها معنى (العبـور). وليس في (العِبر) بالفتح أو الكسر معنى، بـل هو الشاطىء، ولكن المعربين فهموا منه مـا أرادوا، وشـاع هـذا الفهم القائم على أساس باطل. وكأني ألمح في (عبر) في قول المعاصرين الكلمة الإنكليزية (Through). إن هذه الكلمة الأجنبية دفعت المعربين إلى كلمـة (عبر) كما دفعتهم أحيـاناً كثيرة إلى استعمـال الظرف (من خـلال) كما في قولهم مثلاً: إننا وصلنا إلى قرارنا (مـن خـلال) التجربة القاسية.

إن استعمالهـم (من خـلال) لا يـراد به الظرفية المكانية، ولو أنهـم قـالوا: (إننا وصلنا إلى قرارنا في التجربة القاسية) لَم لهم ما أرادوا، وأن (في) تؤدي الظرفية المكانية على طريق المجاز.

٣ ـ «التأكيد على الشخصية الفلسطينية».

وهذا ما ورد في العبارة المتقدمة وفيه أن الفعل (أكّد) قد عُـدِّيَ بـ (عـلى)، وهـو متعد في العربيـة. إن تعديته بـ (على) قد جـاءت من التأثر باللغة الأجنبية، والفعل (أكّد) في الفرنسية يتعدى بـ (عـلى)[1].

٤ ـ وجـاء في العبارة نفسها: «وهو ما يميّز استراتيجية منظمـة التحرير الفلسطينية».

أقـول: إن (الاستراتيجية) مصطلح عسكري في الأصل، وهو مـا أراد به العسكريون (السَّوق)، ثم استعـير في السياسة والاقتصاد للإعـراب عن مفهوم الخطة الخاصة المبنيـة على النظر والتقدير.

---

(١) انظر مبحـث (تعابير أوروبية في العربية المعاصرة) في كتـاب (فقـه اللغة المقارن). وقـد يتعدى الفعل (أكـد) في الأسـاليب المعاصرة بالباء كقولهم: ومـن هنـا جـاءت تصريحات الملك فهد لنؤكـد بـأن القمة التاسعة ناجحة.

ومن الجديد في العربية المعاصرة التزامها بالأساليب الأجنبية في بناء الجملة، ووضع مفردات الجملة مطابقاً لما درج عليه الغربيون، ومن ذلك مثلاً قولهم:

«ومع اتفاقية عدم الاعتداء على المنشآت النووية في كل من الهند والباكستان لم يعد السباق النووي بينهما مصدر تحريك دائم للحرب الباردة الإقليمية...».

لقد بدئت هذه العبارة بقولهم: «ومع اتفاقية عدم الاعتداء...» والجملة فعلية، وقد تأخر فيها الفعل من دون سبب ملزم، وهو شيء لا نعرفه في العربية، ذلك أن التقديم لما حقه التأخير في العربية مفيد لغرض من الأغراض كالحصر والقصر والعناية بما قُدِّم، وليس في هذه العبارة شيء من هذه الأغراض يوجب التقديم.

وجاء في هذه العبارة «لم يعد السباق النووي بينهما» (أي الهند والباكستان) مصدر تحريك دائم للحرب الباردة الإقليمية».

أقول: كنت قد أشرت في مكان غير هذا إلى أن استعمال الفعل (يعود) في حيز النفي بأداة الجزم (لم) أسلوب غير عربي، ولا تعرفه العربية الفصيحة القديمة، وهو منقول من أسلوب أجنبيّ من الفرنسية أو الإنكليزية. والمراد منه أن السباق النووي بينهما غير ممكن بعد عقد الاتفاقية بين الطرفين.

وأما حديث (الحرب الباردة) فهو معروف، والمصطلح مقابل لنظيره في الإنكليزية، والفرنسية، والترجمة حرفية.

ومثل هذه العبارة المتقدمة في تركيب أجزاء الجملة مما لا تعرفه العربية شيوع الكثير الوارد في لغة الصحف كقول أحدهم:

«تحت شعار (المرأة العربية عنصر فعّال في مجابهة التحدّيات وتحقيق تنمية المجتمع العربي في القرن الحادي والعشرين) انعقد المؤتمر الحادي عشر للاتحاد النسائي العربي العام».

إن الجملة الفعلية هذه قد تناولها تقديم ما ليس منها من الزوائد التي

حقهـا أن تلي الفعل بعد استيفائه للفاعل والمفعول إن كـان متعدّياً.

وفي هـذه الجملة جـاءت كلمة (التحديات) التي جمعت، فتجاوزت أصلها المصدري، وكثر استعمال (التحديات) حتى صـار (التحدّي) مجاوزاً أصله، وهـو (لـزوم الحدّ) إلى شيء آخـر يظهره المرء في سلوكه وكلامه يتجاوز الحـدّ.

ثـم إن (التنمية) مصطلح جـديد أريـد له أن يقـابل الأجنبي (developement). ومـن هنا فهي غير مصدر الفعل المضاعف (نمّى)، وهي استغـلال مـوارد البلاد واستثمارها في مصلحة الناس ورعايتهم الجسمية والعقلية. . .

ومن الأساليب الوافدة استعمال كاف التشبيه في العربية المعاصرة لغير التشبيه، وهذا كثير كقولهم:

«وعلينـا (كأمة) عربية أن تـستمرّ كـامل عـلاقات الصداقة مع الأمة الإسلامية».

أقـول إن قـولهم: (كأمة) لا يـراد به التشبيه، والفصيح في هـذا أن يقال: (وعلينا أمةً عربية ـ بنصب (أمّة) على الحال ـ أن تستمرّ كامل علاقات. . .).

أقـول: وفي هـذه العبارة تجد أن المعرب لا يـراعي في الفاعل المذكر مـا يلـزم، فقد أثبت الفعل (تستمرّ) مشيراً إلى أن الفاعل مؤنث، والفاعل هو كلمة (كـامل) وهـو مذكر، فالصواب أن يقـال: (يستمرّ).

وتبـرز مشكلة النسبة إلى الكلم الذي ينتهي بالألف أو الياء نحو (الحياة) والنسبة إليها برد الألف إلى الأصل الواوي، وهكذا درج المعربون فقالوا مثلاً العنصر الحيويّ، والمادة الحيويّة.

ولشيوع (الحيويّ) و (الحيويّة) واستعمالهما الكثير غفل المعربون عن أصلهما وهو (الحيـاة)، حـتى إذا جـدّ شيء يستدعي النسبة إلى (الحيـاة) قـالوا: (المشكلات الحياتية)، وكأن (الحياتي)، شيء غير (الحيويّ). وأنت

في هـذا تشعر أن القائلين بالحيوي والحياتي لم يـدركوا أن الحيويّ نسبـة إلى (الحيـاة).

إن (الحياتـي) بنـاء من أبنية الخطأ، ولكنـه شـاع في العربية المعاصرة، ولا أريـد أن ألتمس له وجهاً للقبول، ولكني أقـول ان شيئاً مـن هـذا قـد حـدث في القرون المتأخرة من عصـور الدولة العباسية، فقد عرفنـا من المدارس الإسلامية في بغـداد المدرسة (الجهتيـة).

إن (الجهتيـة) منسـوبة إلى (الجهة)، وكلمة (جهـة) في العصور العباسية المتأخرة كنـاية عن زوج الخليفة، و (المدرسة الجهتية) هـذه منسوبة إلى جهـة الناصر لدين الله، الخليفة العباسي[1].

لقـد تجـاوزوا القاعدة اللغوية في نسبـة ما هو مختـوم بتاء التأنيث، والقاعدة تقضي بطرح التاء ثم تجيء ياء النسبة نحو: بصرة وبصريّ.

ومن العجيب أن الخطأ يشيع، فيـكون التنبيه على الصواب ضربـاً من العبث، وأن القائل بالصواب متزيّد بـل متحـذلق. ألا تـرى أن لا سـبيل إلى القول بالصواب، فننسب إلى (الوحدة)، فنقول (وحـديّة) ولا نقـول: (وحدويّة)، فـكيف العمل وقـد شـاع الخطأ حـتى صـار هو القاعدة؟ ولا أدري كـيف جـاز للقائلين بالجديد من أهـل النقد فينسبون إلى (البنية) فيقـولون: (البنيوية) وحـق الياء من (بنية) أن تـرد إلى أصلهـا الياء. ومن هنـا كان المغاربة عـلى حـق في هربهـم من (البنيوية) والتزامهم بـدلاً منها بـ (الهيكلية).

وأنـت تجـد العرب عامة مختلفين في ألفاظ كان ينبغي أن تـكون موحدة، ألا تـرى أن بـلداً يستعمـل (الموازنـة) لموازنـة الدولة، وبـلداً آخـر يستعمل (الميزانية) وكلاهـما جـديد كـان ينبغي أن يـكون موحـداً.

وقـد تشيع الكلمة في تجاوزها على الكثير الفصيح المليح فتقرأ مثلاً:

«يحـق للمنظمة المشاركة على قـدم المساواة مع الدول الأخرى، وأن تـوجد لها بـدائل مفيدة...»، أقـول: و (البـدائل) هنـا جمع بـديل، والذي

---

(١) يـراجع: الحوادث الجامعة (عصر الناصر لدين الله).

أعرفه أن البديل قد جمع في فصيح العربية على (أبدال)، وشاعت (البدائل) فلم يكن للأبدال مكان. ومثل هذا فصائل المقاومة جمع (فصيل) والشائع أن (الفصائل) جمع فصيلة، ونظائر هذا كثيرة.

ثم إن (قدم المساواة) تركيب معروف أخذ من الفرنسية، وقد أشرت إلى هذا في غير هذا الموجز.

وكما أشرنا إلى (الموازنة) و (الميزانية) لا بد أن نشير لى (المظاهرة) و (التظاهرة)، ولا أريد أن أعرض للمفاضلة بينهما، إذ لنا أن نقول إن دلالتهما واحدة على سبيل التجوّز والتوسع، فكيف نقول بالتزامهما معاً ونحن أحوج إلى إحداهما؟

أقول: إن الكثير من مواد العربية المعاصرة ينبغي أن يشار إليه في (المعجم) إذا كان لنا أن نصنع معجماً حديثاً.

إن (الظاهرة) التي بنيناها على اسم الفاعل أصبحت مصطلحاً معرفياً كقولنا (ظاهرة التسوّل، وظاهرة خرق قوانين المرور، والظاهرة الفلسفية) وغيرها، وهي من غير شك أريد منها أن تفي بما تفي به (Phenomène).

ومثل (الظاهرة) (الموضوع) الذي صار يقابل (Sujet) الفرنسية، وقد بني على اسم المفعول.

وقد يغلب علينا التقليد فيقلد أهل بلد منا أهل بلد عربي آخر، ألا ترى أن (البوّابة) لا مكان لها في العربية، وأنها مؤنث (بوّاب) الذي مهمته (البِوابة). ومن هذا اشتهر بـ (البوّاب) ابن البوّاب الخطّاط البغدادي.

وإذا كنا نخطىء فنجعل (البئر) عميقاً وحقه (عميقة) لأن البئر مؤنث، ونجعل (السوق) كبيراً، وحقه (كبيرة) لأنه مؤنث، فإننا نجعل (اللوحة) مؤنثةً، وحقها التذكير (اللوح)، وفي لغة التنزيل: ﴿اللوح المحفوظ﴾.

قلت: وقد يشيع الخطأ حتى يكون الصواب غريباً مهجوراً، ألا ترى أن (العوينات) خطأ، والصواب: العُيَينات، ولنا أن نتذكر سفيان بن عيينة من محدّثي التابعين.

والغرابة في العربية المعاصرة أنها لغة لا يضبطها المعربون من أهل المعرفة، فبينا تجد نثراً يقول: المشكلات الرئيسية نجد آخرين يقولون: المشكلات الرئيسة.

والذي أراه أن كليهما صحيح وأن المنسوب كغير المنسوب في المعنى، والرئيسيّ هو المنسوب إلى الرئيس وليس خطأً وقد دأب الفصحاء على زيادة الياء لتقوية المعنى، قال رؤبة:

«والدهر بالإنسان دوّاريّ».

وكلمة (دوّار) صفة كافية، ومن هذا كان الألمعيّ واليلمعيّ ونحو ذلك. ولا أدري لِمَ ذهب المعربون إلى (القاعدة الأساس)، وعندي أن أحسن منها (القاعدة الأساسية) مع إقراري أن الوصف بالإسم (أساسي) جائز ووارد في العربية كقولنا (كأس ذهب وخاتم فضّة).

قلت غير مرة أن الذي نقرؤه في اللغات الأعجمية قد وجد طريقه إلى العربية المعاصرة، ومن هذا قولهم:

فوق تراب فلسطين...

إن استعمال (تراب) مراداً به الأرض قد استعير من اللغات الأجنبية، ولو أن المترجم لكلمة (Territoire) الفرنسية قد فطن إلى أن كلمة (تراب) لا تستعمل في هذا الخصوص في العربية، وأن المقابل للكلمة في العربية هو الأرض.

وأنت تقف كل لحظة وأنت تقرأ صحيفتك اليومية على شيء لم يمتَّ إلى العربية بوشيجة من نسب ومن هذا، وهو كثير، قولهم:

«إن قرارات الجمعية في مستوى المسؤولية» إن قولهم «في مستوى المسؤولية» من هذا الجديد الذي حملناه على العربية.

ومن هذا ما نقرؤه ونسمعه من «الانفتاح الاقتصادي»، ولكننا لا نسمع ما يقابله من «الإنغلاق...».

وليس عجيباً أن يكون كل هذا، ونحن لم نتفق على أسماء الشهور الشمسية فيضطرنا الأمر إلى أن نقول: سينعقد المؤتمر في الخامس عشر من شباط (فبراير) المقبل!

وقد يطيب لي أن أختم هذا الحشد بشيء ولدّته جرأة الكتاب في عصرنا، فقد اطمأنوا إلى أنهم يملكون هذا الحق. لقد قرأت في مجلة (الحوار العدد ١٨ من سنة ١٩٨٨ م) كلمة لجورج طرابيشي يرد فيها على نقد نوال السعداوي له فيقول:

«إن نوال السعداوي تتصدّى في ردّها للدفاع عن بطلاتها بحرارة وحماسة لن تكونا مفهومتين ما لم نفهم أن ما أملاهن هو (التماهي) معهن...».

وقد ترددت كلمة (التماهي) مرتين.

أقول: لقد توقفت إزاء (التماهي) وتدبّرت أمرها لأعلم من أين جاء بها جورج طرابيشي فاهتديت إلى أنه ولّدها بل نحتها من (ماهية). وحقيقة (الماهية) قد جاءت من قولنا (ما هو) أي: الذي هو فدلت بعد الاستعمال إلى شيء يشبه المولّد المنحوت الآخر وهو (الهُويّة).

أقول: ما أغنى السيد جورج طرابيشي عن كل هذا، إنها لجرأة وسم بها أبناء العصر.

المصطلح بين البدائية والحضارة

لا بد لي أن أوضح قبل البدء بعرض مواد هذا البحث دلالة المصطلح فأقول: غلب لفظ (المصطلح) على ما يتصل بالعلوم سواء في ذلك الإنسانية منها والعلوم الصرفة. غير أن هذه (الغَلَبة) غير صحيحة فالمصطلح اليوم، وفي علم المصطلح الحديث (Terminology)(١)، هو شيء أوسع من أن نضيّق عليه فنحصره في مفردات العلوم.

إن علم المصطلح يبحث في مصطلحات العلوم والفنون وما يتصل بشؤون الحياة، وهذه العبارة تجعل أن ما يدخل في أدوات البيت عامة من المصطلح، وما يستعمله أهل المهن والحرف من المصطلح، وما يدخل في الصناعة والزراعة من المصطلح، وما يعرض للبضاعة من صفات هي محاسن أو عيوب من المصطلح.

ومن أجل ذلك كان في المؤسسات العالمية أجهزة خاصة ومنظمات خاصة تعنى (بالمواصفات) وأريد أن أقف قليلاً على لفظ (المواصفات) هذا الذي أحرز بريقاً وهاجاً في عصرنا فكان منه (منظمات المواصفات والمقاييس) في كل بلد.

---

(١) إن علم المصطلح في عصرنا من الاختصاصات المهمة، وله مكان في الجامعات المتقدمة يعمل فيه دارسون وفيه درجات علمية كالدبلوم والبكلوريوس والماجستير والدكتوراه. وهذا ما نجده في جامعات كندا وأمريكا وربما غيرها في أوروبا.

أقول: (المواصفة) إنجاز أو قل بحث يشتمل على ما يدخل في صفات مادة صناعية أو مصنّعة أو مادة زراعية ونحو ذلك وبيان ما يتصل بهذا من خصائص. وهذه (المواصفات) شيء لا بد منه في عملية التنمية الصناعية والزراعية، وهي شيء آخر يستهدف حماية المستهلك من الغش في البضاعة وغيرها من الأغذية والأشربة. ومن هنا كانت الحاجة فيما يتصل بالمواصفات إلى الجانب اللغوي الذي يدخل في (علم المصطلح)، وكيف يوفّر هذا المصطلح الجديد في هذا السيل الآتي من مواد الحضارة المعاصرة.

لقد فطنت المنظمة العالمية للمواصفات والمقاييس إلى هذا، فوضعت مواصفة ذات رقم ١٠٨٧ وهي في (علم المصطلح) وكيف يهيّأ ويوفّر، وقد عملت منظمة المواصفات للأقطار العربية على ترجمتها وتعديلها. ومن اهتمام المنظمة العالمية بهذا الباب جعلها متخصصة بما يتصل بـ (المعجم) الأحادي اللغة، وبالمعجمات ذوات اللغات المتعددة. وكان هذا دافعاً إلى التفكر بما يسمى (المكنز)، وعبارة (المكنز) جديدة في العربية، وهي تقابل Tresaurus وفي (المكنز) هذا ضرب من عمل معجمي للمداخل الكبيرة التي يندرج تحتها فصول، وهذه الفصول المعتمدة على (المداخل) تشير إلى معجمات المواصفات الدولية. وما أبعدنا نحن في العالم العربي عن هذه المساعي التي اقتضتها الحضارة المعاصرة. والمكنز شيء من عمل نظري هو في حقيقته مجاميع ذات أجزاء تشتمل على فوائد، وهي غير المعاجم التي تنصرف إلى ذكر الألفاظ عامة.

ومن هنا لا بد أن تستعين منظمات المواصفات بـ (الحاسوب - الكومبيوتر) في تنظيم المعاجم المتخصصة.

وكان لي أن شاركت في مؤتمر عقد في مدينة الرباط حاضرة المغرب في مادة (المصطلح الحديث)، وقد شاركت في المؤتمر جهات عدة هي منظمة المواصفات والمقاييس في إقليم (كيوبك) الفرنسي في كندا، مع معهد بورقيبة للغات الحية في تونس، ومعهد التعريب للدراسات في

الرباط، والمنظمة العربية للمواصفات والمقاييس، وآخرون من غير هؤلاء، كلهم من المعنيين بالمصطلح وتاريخه وطرائق توليده، وكنت بين جماعة المشاركين من هذا النفر الأخير، وكان لي في المؤتمر بحث في (المصطلح القديم).

أقول: كانت فرصة لي أن أحضر هذا المؤتمر، فقد عرفت أن هذه المنظمات الموسومة بـ (المواصفات والمقاييس) تقوم بعمل جليل هو حبيب إلي، ذلكم هو النظر في المصطلح، وكيف نوفره؟ لنقابل الحضارة المعاصرة التي يجدّ فيها في كل سنة بين ستة آلاف وسبعة آلاف مصطلح في مختلف شعب المعرفة وما تفرضه من حاجات العصر.

وقلت في نفسي: أين كنت إذن وأنا في بغداد من هذه المنظمة؟ ما كنت لأعلم أن (المنظمة) يؤرّقها من العمل اللغوي ما يؤرّقني، ولم تعمل (المنظمة) شيئاً يشعر المعنيين باللغة أنها ماضية في سبيلها وأن شيئاً من مهماتها هو هذا الجهد الناصب في خدمة العربية وإعلائها، لتكون وافية بمتطلبات الحضارة المعاصرة، ربما كانت مقصرة، بل لعلنا نحن المقصرون.

وأذكر أني كنت أمرّ في الحي الجنوبي من شرقي بغداد وأنا متوجه إلى حي الكرادة الشرقية متبعاً الطريق الخارجي، بمبنىً شاهق شاخص كالأبلق الفرد، لعله كان داراً للسكن ثم تحول إلى مركز للمنظمة، وأقرأ في اللوح المثبت على بابه (منظمة المواصفات للمقاييس...)، وقد حفزني شيء من حب المعرفة بحقيقة هذه (المؤسسة) وأعني بها (المنظمة)، فسألت أحداً كان يعمل فيها، فأفادني أنها مهتمة بالصناعة وأصنافها، وما تحتاج إليه عملية التصنيع، ثم أضاف أنها تنظر في ضبط الموازين والمكاييل والمقاييس ونحو ذلك، فاكتفيت بذلك، ولكني لم أكن أعلم أن الجواب ناقص كل النقص، فلم أهتد منه إلى أن للمنظمة دأباً هو دأبي، وعملاً أحب ما أكون إليه.

ثم تحولت بي الدار فكنت في (عمّان) حاضرة الأردن وعرفت فيها الأمين العام لمنظمة المواصفات والمقاييس، وقد كنت لقيته في (الرباط)، وعرفت منه ما تضطلع به (المنظمة)، وأشهد أني فوجئت بما كان لهم وما

أنجزوا، وما هم فيه عاملون، وطلب إلي بعض العون، فغبرت ثلاثة أشهر أتردد على المنظمة ثلاثاً في كل أسبوع، وكان لي أن أفدت منها، وعرضت للعاملين فيها آرائي في جمهرة من مصطلحاتهم وكنت أحسب أن لفظ (المواصفات) هو هذا الذي نقرؤه في الصحف كأن يقال: ثُبِّتت المواصفات النهائية التي ستكون في المشروع الفلاني، والذي أفهمه من (المواصفات) هذه خصائص المشروع مما يتصل ببنائه وأجهزته وصفاتها وغير ذلك. وكنت أقول في نفسي: إن لفظ (المواصفات) من الجديد الذي ولّده المعنيون بالعمل الجديد في عصرنا، وهو اشتقاق جديد، فليس في العربية القديمة الفعل (واصَفَ) الذي نصير منه إلى المصدر (مواصفة) مثل: (سابَقَ) و(مسابقة) ولكن ذلك دليل جرأة العاملين من أهل العلم في اللغة، وحسناً فعلوا.

والمواصفة تقابل اليوم «Standard» الإنكليزية أو (Norme) الفرنسية.

وبعد اطلاعي على المواصفات الخاصة بكثير من أشتات الصناعة والزراعة أدركت أن عملية التنمية ولا سيما في بلادنا التي صنِّفت من العالم الثالث محتاجة إلى عمل لغوي كبير يتصل بالمصطلح بأوسع معانيه.

أقول بأوسع معانيه لأننا محتاجون إلى أشياء كثيرة لا نملكها في لغتنا، وللغربيين فيها أسماء خاصة تشير إليها معجماتهم. ولا بد لي أن أذكر من ذلك شيئاً أدل به على عظم حاجتنا، وهذا الشيء الذي سأذكره ليس من الصنف المعقد الذي يدخل في باب العلوم الحديثة التي تقذف بالآلاف من الكلم الجديد في كل فن وعلم.

هذا الشيء هو مما سألني عنه أحد الإخوة العاملين في المنظمة في (عمّان) فقال كيف نقول في اسم الأداة المؤلفة من خشبتين تلتقيان من الأعلى بزاوية حادة، تمسكهما خشبة بطولهما من خلفهما ويتكون من الخشبات الثلاث شيء يقف على الأرض تلصق عليه ورقة (من الكارتون) يكتب فيها إعلان عن محاضرة أو وصول بضاعة مع سهم مرسوم يشير إلى المكان الذي فيه المحاضرة أو البضاعة:

هذه الأداة هي في الإنكليزية (Isel) فهل شيء من ذلك في عربيتنا المعاصرة؟ قلت: لا، ولكن هل لنا أن نطلق عليها (شاخص) أو (شاخصة)، فقال: لا، لأن (الشاخصة) أخذها العاملون في المساحة أولئك الذين يقفون في الشوارع أو الأرض الخلاء لغرض المساحة حاملين (شواخصهم) قائمة عمودية. وعلى هذا لا يمكن أن نطلق (شاخصة) على الأداة التي وصفناها.

وقلت أيضاً: ألا تكون هذه (الأداة) حاملاً، فقيل لي: إن الحامل قد يكون عموداً واحداً كذاك الذي يحمل الأجهزة أو نحو ذلك.

قلت في نفسي: لا بد من إعمال الفكر في توفير الأسماء الجديدة والمصطلحات المستحدثة.

أما طريقة توليد الجديد فهناك عدة طرائق منها أن يصار إلى شيء من الكلم القديم لمشابهة بينه وبين الجديد، ومنها ترجمة الجديد الوافد إلى العربية بما يشير إليه من دلالته، ومنها إحداث جديد. وفي جملة هذا تراعى الأبنية العربية المعروفة في باب الاشتقاق.

وأريد أن أقف على مسألة (إحداث الجديد) الذي لم يكن له وجود، وهذا باب واسع استعمله الغربيون، كأن يكون المصطلح الجديد باسم رجل في عصرنا أو هو من القدامى، وكأن يختار من كلمة قديمة مهجورة لم يكن في الناس حاجة إليها، ومثل هذا كثير.

واختيار (الحاسوب)لما هو (كومبيوتر) اختيار حَسَن وموفّقْ، وذلك لأن الأستاذ أحمد الأخضر غزال وجد أن الجهاز الحديث يعتمد على مادة (حسب ـ Compt)، فلا بد إذن أن يكون في الاسم الجديد هذه الدلالة فجعله (حاسوب)، وقد تقول: لِمَ جعله على هذا البناء والجواب: أن (فاعول) كثيراً ما كان في الأدوات والآلات. وهكذا صارت (حاسوب) الكلمة المفضلة، وتركت: الحسّابة، أو الحاسب الإلكتروني، أو العقل الإلكتروني، أو الرتّابة، أو نحو هذا.

وكنت قد فعلت شيئاً نظير (الحاسوب) ليكون مقابلاً لـ (Isel) التي

تحدّثت عنها، فقلت: (لافوت) إفـادة من أن هذه (الخشبات) القائمة يلصق عليها شيء من ورق أو نحـوه يكتب فيه شيء، والمراد به لـفت النظر.

قـد تقـول: ولِمَ لم تقل (لافتة)، والجواب: أن (اللافتـة) غلبـت على قطعة القماش التي في الشوارع بين جهتي الشارع تنبىء عن شيء.

ومـن هـذا أيضاً مـا سألني عنه أحـد الإخوة العاملين في (المنظمة): كيف نقول في جملة الكلمات التي تكتـب تحت صورة في كتـاب أو صحيفة أو تحـت خـارطة أو تحـت أي رسم أو مخطط تعرِّف بالصورة أو الخارطة أو نحـو ذلك، وهو في الإنكليزية يقـال لـه: (Caption)؟

فقـلت له كيـف تـرى أنت أن يقـال، أو مـاذا خـطر لك أن يـكون هذا الشيء، فقـال: كنا نـقول عنوان صغير.

قـلت: وكلمة (عنـوان صغير) غير ذات دلالة خـاصة، ففكرت قـليلاً، وقـلت في نفسي: لا بدّ من إحـداث شيء جـديد.

لقـد وجدت هذا الذي نـريد أن يقـابل الكلمة الإنكليزية في كـلمة عربية هجِرت في الاستعمال، وهو مصدر الفعل (عَالَنَ) وهو (عِلان)، ولما كـان (عالَنَ) قد هُجِرَ في الاستعمال وحـل محـله الفعل (أعلنَ)، صِرتُ إليه ليـكون (عِلان) مقـابلاً لـ (Caption).

أقـول: هـذه مقـدمة في حقيقة المصطلح، وكيف كـان؟ ويكون.

ولا بـد لي الآن من الشروع في البحث فأقـول: إن المصطلح ليس شيئاً خـاصاً بالحضارة، وإن كـان هو من مظاهرها، وذلك لأن المصطلح شيء حـاصل لـدى الأمم في مراحـلها الحضارية المختلفة. وهـذا يعني أن الحيـاة البدائية، ومنها مرحـلة البداوة والرعي حـافلة بمصطلح خـاص، وكـذلك مرحـلة الزراعة والاستقرار، ومثلهـا مـراحل الحضارة المتطورة، إلى أن صـارت: حـضارة صناعية.

وسأعنَى بالوقوف على نماذج من مصطلح قـديم يـدل على بـدائية أو تطور في أول مراحله وهذا المصطلح البدائي القديم نلتمسه في أسماء الأدوات

التي استعملوها فكان لها معجم خاص. ولا بد من التنبيه إلى أني لا أفصل بين ما هو بُدائي وما هو بدوي في هذا الحيِّز اللغوي، وذلك لأننا لا نملك من مواد العربية شيئاً يسبق (البداوة)، ومن هنا كانت (البداوة) في المادة اللغوية شيئاً من لوازم (البدائية)، وهذا شيء من موادها:

١ - الإباض:

وهو عِقال يُنشَب في رسغ البعير وهو قائم، فيرفع يده وتثنى بالعقال إلى عضده وتُشَدّ:

وأبضتُ البعير آبِضُه، قال الفقعسيّ:

أكلفُ لم يَثن يَديه آبِضُ

٢ - الإتاد:

وهو حبل تضبَط به رجل البقرة إذا حُلِبَت..

أقول: هاتان المادتان تشيران إلى شيء من لوازم البيئة القديمة، فأنت ترى أن هذه الحاجات البدائية لم تبق على مادة (حبل) وما تعنيه من عمومية، ولما كان في (الإباض) و (الإتاد) شيء خاص جدت الحاجة إلى وضع اسم خاص. وهذا كله دال على بداية التفكير بالمصطلح.

ومن المفيد أن نشير إلى السعة التي تميزت بها العربية، فقد كان فيها وهي لغة بداوة أبنية خاصة. ومن هذه الأبنية الخاصة مادة (فِعال) بكسر الفاء التي يُدَلّ بها على الآلة قبل شيوع الأوزان القياسية.

ألا ترى أن (الخِياط) قد وردت في الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿... حتى يلجَ الجمل في سَمِّ الخِياط﴾ [الأعراف ٧/٤٠]. ولعل (الخِياط) بهذا المعنى قد سبق (الإبرة) لعلاقته بالعمل الذي يؤدَّى بالآلة.

ولعل من المفيد أيضاً أن أشير إلى أني اقتصرت في بيان ما أريد من مفهوم المصطلح البدائي على أسماء الأدوات التي تتصل بالبيئة البدوية، وهذه الأدوات ترمز إلى حاجات كثيرة تدخل في سلوك البدوي القديم في نشاطه

الحيوي وما يقوم به من عمل خاص يتصل بالعيش، وآخر يتصل بعلاقته بمن يعايشهم في المجتمع البدوي القديم.

٣ ـ الأُثفِية:

هي الحجر الذي توضع عليه القدر، جمعها أثافيّ، قال زهير:

أثافي سُفْعاً في مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ونُؤْياً كجِذْم الحَوض لم يَتَثَلَّم

وثالثة الأثافيّ: القطعة من الجبل يُجعَل إلى جنبها أُثفيتان، ويكنى بها عن الداهية، يقال:

رماه بثالثة الأثافي، أي بالشرّ العظيم.

أقول: والأثفية بدلالتها على الحجر الذي توضع عليه القدر تفيد أن العرب في بدايتهم أدركوا أن الحاجة تدعو إلى أن يكون اسم لهذه المادة القديمة. وربما يكون من المفيد أننا لم نَرَ شيئاً من ذلك في جميع لغاتنا العامية قبل خمسين سنة، وقد كنا نفيد من هذه المادة ونستعمل الحجارة في المواقد، ولكننا لا نعرف لها اسماً.

٤ ـ الآخيّة:

عود يُعَرَّض في الحائط ويُدفَن طرفاه فيه، ويصير وسطه كالعروة تُشَدّ إليه الدابّة. وقال ابن السكّيت: أو يدفَن طرفا قطعة من الحبل في الأرض، ويظهر منه مثل عروة تُشَدّ إليه الدابّة، وجمعها: أواخيّ وأواخٍ، ويقال: أخيّ للدابّة، أي عمل لها آخيّة.

أقول: ولعل الآخيّة بالتشديد صيغة أخرى، والأصل هو المخفف، والدليل هو الجمع بكليهما. وقد بقي شيء من هذا في العامية المعاصرة في العراق فيقال: (خِيّة).

٥ ـ إداوة:

إناء صغير من جلد، وجمعها أداوَى.

أقول: وقد رأينا من أوزان الأدوات شيئاً لا نعرفه في كتب الصرف،

وكان على اللغويين أن يشيروا إلى هذه الأبنية السماعية، فالأُثفية وزان فُعلية وأفعُولة، وذلك لأننا نقول في الفعل أثّفتُ القِدرَ، والفعل مضعف، ونقول: ثفّيتها، والفعل معتل يائي.

وأما (الآخية) بالتخفيف فهي (فاعلة) وهي من أوزان الآلة السماعية التي أفدنا منها في عصرنا، فقلنا القاطرة والحافلة والشاحنة والبارجة ونحو ذلك.

وأما (الإداوة) فهي (فِعالة) وهذا الوزن كثير في العربية كالعِمامة والعِلاقة والحياصة والجِبارة وغيرها.

٦ ـ الإراض:

البساط الضخم من صوف أو وَبَر، وسُمّي (إراضاً) لأنه يلي الأرض.

٧ ـ الإسار:

الحبل والقِدّ، أو هو السَّيْر الذي يُشدّ به الأسير، ويقال: أسَرَه أي شدّه بالإسار.

أقول: إن المواد القديمة التي دخلت في حياة البدوي مما اقتضتها حاجاته كانت أساساً لألفاظه التي اتسعت في الأفعال والمصادر وغيرها من الأبنية اللغوية. والإسار وهو الحبل الذي يُربَط به السجين مثلاً هو الذي أعطانا (الأسر) وهو المصدر، فكان الفعل (أسَرَ) وكان (الأسير) بمعنى السجين المقيد، خصصه الاستعمال بالذي يؤسر في الحروب.

ومن هنا وجدنا أن الأصل البدوي القديم وهو مادة (الحبل) أمد العربية بألفاظ أصبحت ذات مكان في اللغة المعاصرة معبرة عن حاجة من لوازم الحضارة.

٨ ـ الإصار:

وتد الطُّنْب، ومثله الأيصِر، وجمع الإصار أُصُر وآصِرة، وجمع الأيصر أياصر. ويطلق الإصار أيضاً على كساء يحتشّ فيه، وعلى زبيل المتاع.

ومثل هذا (الآصرة) وهي مفرد للحبل الصغير الذي يُشَدّ به أسفل الخباء، وأنشدوا:

لعمرك لا أدنو لوصل دنيةٍ ولا أتصبّى آصرات خليل

أقول: وقوله: «آصرات خليل» تحول في المعنى من الحقيقة إلى المجاز. ومن هنا كانت الإشارة إلى أن العربية ذات أصول بدوية لم تبق على بداوتها بل تحولت إلى معانٍ أخرى، وذلك قبل تحول المجتمع العربي القديم من بداوة إلى حضارة في عصور الإسلام وربما قبله.

و(الأواصر) وواحدتها (آصرة) هي كالأواخي التي سبق الكلام عليها، وهو شيء من مادة البداوة، غير أنها تحوّلت في العربية إلى العلاقة التي تربط ما بين أفراد الأسرة مثلاً، ثم تجاوزتها إلى عامّة العلاقات.

وقد تعجب من هذه العربية البدوية القديمة، فإنك تجد فيها الحاجة فتجد لها أسماء عدّة يتصرفون بها وينقلونها إلى استعمالات أخرى كما رأينا في (الأواصر). ومثل هذه في معناها الحقيقي (الأواري) جمع (آرية) بمعنى (الأواخي) التي تقدمت. قال النابغة:

وقفتُ فيها أصَيلالاً أسائلُها أعيَتْ جواباً وما بالربع من أَحَدِ
إلّا أواريَّ لأياً ما أبيِّنها والنؤيُ كالحوض بالمظلومة الجَلَدِ

ومن المفيد أن أشير إلى أن الآريّة أو الآخيّة لا بد لها من حَلْقة، وهذه الحلقة تُسمَّى (الأُربة) فانظر إلى هذه اللغة القديمة العتيقة كيف تناولت الأشياء فحفلت بجمهرة من الكلم تتناول الشيء وأجزاءه.

٩ - الإرار:

ككتاب، غصن من شوك، أو قَتاد يُضرَب بالأرض حتى تلين أطرافه، ثم يُبَلّ بالماء ويُذَرّ عليه ملح، ثم يدخل في رحم الناقة، إذا مارنت فلم تلقح، وممارنتها أن يضربها الفحل فلا تلقح.

أقول: وفي هذا جملة فوائد تكشف عما كان العرب الأقدمون في بواديهم يضطربون فيه من شؤونهم الخاصة، فهم يتخذون من هذه المواد البدائية علاجاً وموادّ للعلاج ووسائل بل قل آلات للعلاج. وفي طريقة ما

يمارسون مع غصن الشوك شيء من عمل علمي أو فني هو من الطب البدائي يستعينون به على ما هم في حاجة إليه.

ولا تعدم أن تجد مع (الإرار) هذا لفظ (الممارنة) دالةً على حقيقة من حقائق علمهم البدوي.

١٠ ـ الأليلة:

هو الهودج الصغير.

أقول: (الهودج) وما يتصل بهذا من المواد التي تدخل في باب المترادف مع الفرق في الصفة أو السعة، من مراكبهم. ورُبّما حصل لنا من هذا معجم صغير.

١١ ـ الأَنَة:

بالفتح، ومثلها المَثِنَّة، بفتح فكَسْر، حديدة يستخرج بها الدلو من البئر مثل العَدَقة.

١٢ ـ الأحصد:

هو الحبل المحكم الفتل، ودِرْع حصداء أي ضيقة الحلق محكمة.

أقول: والإفادة من (الحبل) في عربية الإعراب كثيرة في المواد التي يستخدم فيها الحبل، وهي داخلة في لوازم البيت (الخباء)، وداخلة في صنع مواد أخرى كالحِبالة والأُحبول والأُحبولة.

وكأنّ بناء (أفعول) شيء يكثر في الأدوات والآلات، ومثله (أفعولة) وسنقف على مواد كثيرة مما يتصل بالبيئة البدوية من هذا.

١٣ ـ الأخدور:

هو الخِدر، وهو ستر يُمَدّ للجارية في ناحية البيت.

أقول: وصوغ (الأخدور) من (الخِدر) رُبما أريد به أن يكون وزان المواد التي تدل على الأدوات أو نحوها، ورُبّما كان هناك إحساس في أن (أفعول) ربّما أفاد التصغير، وفي العربية غير قليل من هذه الألفاظ الدالة على التصغير كالأظفور، والأصبوع لغة في الأصبع، وربما أفاد التصغير.

١٤ ـ الأُرْعَوَة:

هـو نير الفدّان.

والنِير من أجـزاء الفدّان.

أقول: ورُبمـا يحسن أن نقف قليلاً على (الفدّان)، فنقـول: لعـله من بـاب التسمية بالمثنى، فالفدّان كأنـه مثنًى (فدّ) وهو (الفَرْد). ولا بـد أن يـكون الراء في (الفرد) قـد ولّده فكّ الإدغام في الدال. والفرد واحد. وكون الفدّان دالاً على الاثنين لأنه في الأصل دابّتـان، غير أن لمح هذا الأصل المثنى قد ابتعدت به الشقة، واتصلت الكلمة بدلالتها على الآلة فنسي الأصل وهو المثنى، وحسب مـا نعرفه الآن من الكلمة مفرداً.

وعـلى هـذا ليس بعيداً أن يـكون (الفذّ) بالذال المعجمة شيئاً من (الفدّ) القديم المهجور الذي استبدل به (الفرد) بعـد فك الإدغـام. ودلالة (الفذّ) على التفرّد يقوّي هـذا اللمح للأصل المهجور.

١٥ ـ الأُخسُوم وكذلك الأُخصوم:

وهو عُروة الجُوالَق.

ولنقف قليلاً على (الجُوالَق)، بضمّ ففتح وهو الكيس.

أقـول: والجوالَق معرّب للفارسي (جِـواله) بمعنـى الكيس.

وقـد دأب العرب في تعريبهم للكلم الأعجمي أن يختموا المعرّب بالقاف لتكون هذه القاف بعد الفتحة الممالة في الأصل الأعجمي، فقالوا: فستق وبندق وفندق وقربُق وغيرها.

ومن المفيد أن (الجوالق) وجـد سبيله إلى لغـات غربية فصـار (جـوال) أو (شـوال) بمعنى الكيس.

ومـن الطريف أننا أخـذنا هذه الكلمة الغربية (شـوال) للدلالـة على ضرب من الثياب تلبسـه النسـاء في عصرنـا كأنـه الكيس في قطعه أي مستطيل غير مخصّر في وسطه.

وفي أخـذنا لهذا الجديد الغربي نـكون قد جهلنا الأصل العربي القديم الذي هو تعريب للكلمة الفارسية.

وهـذه الرحـلة نهذه الكلمة عـرضت لكلمات كثيرة، فكـان لي مـن ذلك مـادة درس جعلتها رسـالة صغيرة وسمتها بـ (رحـلة الألفاظ).

١٦ ـ الأدهم:

هـو القيد تقيّد به الرجل، جمعه أداهم، ومنـه:

أوعدني بالسجن والأداهمِ

أقول: ومن سعة هذه العربية القديمة أن (الأدهم) قيد في الرجل، فإذا كان في اليد أو العنق فهو الغُلّ بالغين، وجمعه الأغلال، قال تعالى:

﴿ وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ﴾ [سبأ ٣٤/٣٣].

١٧ ـ الإسكابة أو الأُسكوبة:

وهي الفَلْكة تـوضع في قِمَع الدُّهن ونحوه، وقيل: قطعـة خشب تدخل في خـرق الزِّقّ ويُشَدّ عليه بهـا، لئلا يخرج منه شيء.

أقـول: كلمة تؤدي غرضاً هو السدّ والإغلاق، والكلمة في مادتها تدلّ على بدائية في تيسيرالمواد الضرورية.

١٨ ـ الإشـرارة:

هي الخَصَفة يُشَدُّ عليها الأَقِط ليجفّ.

أقـول: كأنّ بنـاء (إفعـالة) من الأبنيـة التي انصرفت إلى الآلة والأداة.

وكأنّ المتأخرين قد صاغوا عليها (الإسـقالة) للأخشـاب المربوطة بالحبال بعضها فوق بعض، يتخذ منها العاملون في البناء ونحـو ذلك وسيلة للوصول إلى المواضع العالية في المبنى. وكأن المعاصرين قد جعلوهـا في عاميّتهم (سقّالة) بالتشديد.

ومثل هـذا مـا أُخِذَ من (الطُّنْب)، وهو الحبل الذي يـكون من لوازم الخِبـاء، فقيل: (الإطنابـة) وهو سَيْر يعقد إلى الإبزيـم، و(الإطنابة) من أعـلام النساء، ومن شعرائهم عمرو بن الإطنابـة.

وجـاء في (الإطنابة) هـذه (الإبزيم) وهـو معروف، ومـا زال مستعملاً.

أقول: وكأن (إفعيل) من أبنية الآلة أيضاً، فقد جاء منه الإزميل والإقليد، والإكليل وكذلك (الإضريج) وهو كساء أصفر أو أحمر من الخزّ، ومنه قول النابغة:

وأكسية الإضريج فوق المشاجِبِ

١٩ ـ الأنيث:

وهو الحديد غير الذكر، وسيف أنيث، أي ليس بقاطع، وضدّه: سيف ذكر.

أقول: وشيوع الصفة في شيء واختصاصها به ينزلها منزلة الموصوف، وهـذا كثير في العربية ومنه (الأنيث) الـذي هو من مادة (الأنثى) خلاف (الذكر).

ومن ذلك مثلاً من موادهم القديمة (الأُطُوم) وهو القوس اللازق وترها بكبدها.

ومن ذلك: (الأبتر) وهو ما لا عروة له من المزاد والدلاء.

و (الأبرَق) للحبل فيه لونان، وكل شيء اجتمع فيه بياض وسواد.

و(الأبهر) من القوس ما بين الطائف والكُلية. والطائف والكلية من أجزاء القوس.

وهـذه المواد في الأصل نعوت لمنعوتات معلومة، فاختصت بها ولم تنصرف إلى غيرها، فأنزلت منزلة الأسماء، ألا ترى أن الصارم والمخذم والحسام والمهنّد، وغيرها كلها من نعوت السيف، ولكنها لاختصاصها به في وجه من الوجوه صارت من أسماء السيف.

ويحسن أن أشير هنا إلى أن (فَعِيل) و (فَعول) قد انصرفا في طائفةٍ من الكلم إلى أبنية الآلة والأداة.

وبعد، فإني أكتفي بهذا الموجز آملاً الرجوع إليه مستقرياً ما بدا لي أن أقف عليه مدرجاً المواد بحسب حروف المعجم.

عود إلى التذكير والتأنيث ولوازمه

عرضت لهذه المادة التاريخية غير مرة وما زلت أجد فيَّ حاجة إلى الرجوع إليها. إن المذكر والمؤنث من المسائل اللغوية التاريخية التي شغلت قسطاً غير يسير من اهتمام اللغويين النحاة الأقدمين. ومن أجل ذلك حفلت كتب الفهارس القديمة بتصانيف أولئك الأئمة في مادة (المذكر والمؤنث)، فقد شغل باب (المذكر والمؤنث) أو (التذكير والتأنيث) مكاناً كبيراً من (كشف الظنون) مثلاً.

ويعني هذا أن المشكلة واضحة وضوحاً كافياً في أذهان أولئك المعلمين العلماء، وأن فيها شيئاً ينبغي الكشف عنه وتوضيحه وتثبيته، ولذلك عمدوا إلى ما يعمد إليه المعلم الذي يريد إيصال المعرفة إلى طلابه، فقد صنفوا المؤنثات فكان من ذلك (المؤنثات الساعية) فكتبوا فيها رسائل ما زلنا نقرؤها في أيامنا. وكان من ذلك ما أشاروا إليه في باب (ما يستوي فيه المذكر والمؤنث).

ولقد ظفرت العربية بمادة علمية مفيدة حين شارك النحويون اللغويون في ضبط هذه المسألة. ومن أجل ذلك فقد عرفنا عن هذه المسألة في العربية أكثر مما نعرفه عنها في سائر اللغات السامية.

لقد برزت مشكلة المذكر والمؤنث في العربية بشكل واضح على نحو يثير كثيراً من المسائل، بخلاف ما تكون عليه هذه المشكلة في اللغات السامية

الأخرى. ولعل السبب في كل ذلك أن العربية لغة كتبت لها الحياة وظلت قائمة طوال العصور حية متطورة، ولم يحدث شيء من هذا لتلك اللغات السامية شقيقات العربية، فقد اندثر أغلبها وعفا عليه الزمان، ولم يبق منها إلا شيء يسير قليل الاستعمال، وذلك لأن هذه العربية الفصيحة قد طغت على تلك اللغات.

قلت: إن هذه المشكلة تثير كثيراً من المسائل، وذلك لأنها تبرز شيئاً من التاريخ اللغوي. كأن العربية القديمة كانت قد مرّت بمرحلة تاريخية لم يكن (الجنس Genss) فيها واضحاً تمام الوضوح بقسميه المذكر والمؤنث. وسنعرض لما يدلّنا على وجود هذه الرحلة، كما لا نعدم النظر في اللغات السامية لنتبين ذلك.

ذكر النحويون الأقدمون أن الصفات على بناء (فعيل)(1) و (فعول) مما يستوي فيها المذكر والمؤنث نحو: جديد، وجريح، وطريد، وكذوب، وصبور، وعدّو. غير أن اللغة في تطورها خلال العصور احتاجت شيئاً من التمييز ين المذكر والمؤنث، فظهر ذلك في هاتين الصيغتين، كما تدلّ على ذلك الشواهد الكثيرة، فكان لنا من ذلك: صديقة، وعدوّة وقتيلة(2)، قال المتنبي:

لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصما

وإذا كان المعربون قد وجدوا أن الحاجة تدعو إلى التمييز، ولا بد من التفريق بين المذكر والمؤنث بالعلامة، فإنّ هذا يعني أن اللغة ماضية في هذا

---

(1) ذكروا أن (فعيل) بمعنى (مفعول) مما يستوي فيه المذكر والمؤنث. والذي دلّ عليه الاستقراء أن (فعيل) بمعنى (فاعل) يدخل في هذا الباب، قال الشاعر القديم:

فديتك أعدائي كثير وشقّتي بعيد وأشياعي لديك قليل

ومنه قوله تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ [الأعراف ٧/٥٦].

ومنه قول جميل:

ألا ليت أيام الصفاء جديد ودهراً تولّى يا بثين يعود

(2) وقد درج المعاصرون على إلحاق التاء في (عجوز) فقالوا (عجوزة)، كما وردت كذلك في كتب الأدب المتأخرة. ومما ينبغي أن نشير إليه: أن (العجوز) و (العجوزة) خاص بالمرأة دون الرجل في عامية بعض البلدان العربية ومنها العراق.

الطريق من التطور الحتمي. ومن أمثلة ذلك كلمة (عروس)، وهي نعت يستوي فيه الرجل والمرأة ما داما في أعراسهما، كما جاء في معجمات العربية فيقال: رجل عروس في رجال أعراس وعرس، وامرأة عروس في نسوة عرائس. وكأن التمييز قد حصل في جمعي المذكر والمؤنث لهذه الكلمة.

وفي المثل: (كاد العروس يكون أميراً). وفي الحديث (فأصبح عروساً)[1]. غير أن المعاصرين ختموها بالتاء في المؤنث اتقّاء اللبس، وهذا ما نسمعه في عدد من بلاد العرب في عصرنا، كما نقرؤه في صحف لبنان وسورية ومصر، فيقال: (عروسة)[2] توخياً للتأنيث. وقد دفعهم الحرص على التمييز أنهم ابتدعوا (العريس) على (فعيل) وكأنهم بهذا أمنوا اللبس. وهذه الأخيرة هي (عريس) في العراق وبلدان الخليج. على أن هذا من العامي الدارج، وإن اجترأ المعاصرون فاستعملوه في كتاباتهم. وفي العربية جمهرة من الصفات مما يُجرى للمؤنث والمذكر على السواء دون أن يختم المؤنث بعلامة التأنيث.

قال اللحياني[3]: ما كان على (مفعال) فإن كلام العرب والمجمع عليه بغير هاء في المذكر والمؤنث إلا أحرفاً جاءت نوادر قيل فيها بالهاء نحو: رجل معطاء، وامرأة معطاء. ومن ذلك: ناقة مرقال أي شديدة العدو، وناقة مرسال أي سهلة السير. ويجري هذا على المذكر فيقال: جمل مرقال ومرسال.

ومن ذلك أيضاً قولهم: فرس ممراح، وناقة ممراح، أي نشيطة، كما

---

(١) انظر لسان العرب (عرس).

(٢) إن بناء (مفعول) في طائفة من المواد يكون من صفات المؤنث، ومن ذلك (العروب) وهي الحسناء المتحببة إلى بعلها، ومن ذلك قوله تعالى ﴿عرباً أتراباً﴾ [الواقعة ٥٦/٣٧]. ومنه (الكسول) وهي التي لا تكاد تبرح مجلسها، وهو مدح لها عندهم، وكذلك (المكسال) أي (الكسلة)، وأما (الكسلانة) فقد سمعت، وقيل: أنها لغة بني أسد. ومن ذلك أيضاً قولهم: (هي نؤوم الضحى)، وكذلك (اللقوح) و(اللبون) من صفات الناقة. على أن العلامة قد ألحقت ببناء(فعول) فقد قالوا: (ناقة حلوب) أي ذات لبن، فإذا صيّرتها اسماً قلت: هذه (الحلوبة) لفلان. وقد يخرجون الهاء من (الحلوبة) وهم يعنونها. ومثل هذا (الركوبة) و(الركوب) لما يركب من الدواب.

(٣) لسان العرب (عطر).

يقال: فرس مِمْرح[1] ومَروح. ويقال: سيف مِئْناث، أي حديدته لينة، وسيوف مئناثة.

أقول: هذا شيء من جملة ألفاظ أخرى ختم فيها بناء (مفعال) بالعلامة، فقد ورد أيضاً: رجل مِعطار، وامرأة مِعطار ومِعطارة.

تعليق:

كأني ألمح أن علامة التأنيث في هذه الألفاظ قد لحقت الاسم في حقبة لاحقة، وكأن الأصل هو بناء المذكر. وهذا ما لمحه النحاة حين ذهبوا إلى أن المؤنث فرع على المذكر.

وإذا استقرينا أبنية الصفات التي لا تلحقها علامة التأنيث وجدناها كثيرة، فمن ذلك ما كان على (مفعل) نحو: (مغشم)، و(المغشم) من الرجال الذي يركب رأسه لا يثنيه شيء عمّا يريد ويهوى من شجاعته، قال أبو كبير:

ولقد سريت على الظلام بمغشم جلد من الفتيان غير مثقّل

وما كان على (مفعل) من صفات المؤنث نحو (مطفل) وهي ذات الطفل من النساء، ومنه (مغيل)[2] كقول امرىء القيس:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم مغيل[3]

و(المِطفل) من الإبل ما كان معها أولادها، والجمع (مطافل) و (مطافيل). وجاء كذلك (مطفلة) بالعلامة[4].

---

(١) قولهم: (مِمرح) مثل (ممراح) والتوسع بفتحة الراء قليلاً يفضي إلى المدّ، وهذا يعني أن بناء (ممرح) مثل بناء (ممراح) في المبالغة، ومثل ذلك ما كان من أبنية الآلة كقولنا: مثقب ومثقاب. ولعل هذا شيء من اختلاف اللهجات، ومعنى ذلك أن (مفعل) لغة قوم، و (مفعال) لغة قوم آخرين.

(٢) و (المغيل) بكسر الياء وكذلك (مغيل) مثل (مفيد): المرأة ترضع ولدها. (الغيل)، و (المغيل) هو اللبن ترضعه المرأة ولدها وهي تؤتى، أو وهي حامل.

(٣) من مطولة الشاعر المشهورة (قفا نبْكِ).

(٤) انظر لسان العرب (طفل).

أقـول: وأكبر الظن أن (مطفلة) بالعلامة قـليلة الورود، وذلك لأن العلامة لا تفيـد شيئاً، كما أنها لا تـدلّ على خصوصية خـاصة، والصفات الخاصة بالأنثى والمرأة غير محتاجة للعلامة مثـل حـامل وطالق وناشز وغيرها، وإذا ورد شيء من ذلـك مقترناً بالعلامة فذاك في الأغلب الأعـم في لغة الشعر(١).

ومـن ذلك أيضاً (مرضع) كما في بيت امرىء القيس، وهي التي ترضع ولدها، وكأنها تختلف عن (مرضعة) التي تنصرف إلى الأم مطلقاً كما في لغة التنزيل: ﴿يـوم ترونهـا تـذهل كل مرضعة عمّا أرضعت﴾ [الحج ٢٢/٢]، وقوله تعالى: ﴿ وحرّمنا عليه المراضع ﴾ [القصص ٢٨/١٢]. وهذه جمع (مرضعة)(٢).

ومن ذلـك قولهم: (امرأة محيل)، و (نـاقة محيل ومحول)، وهـي من النساء من ولـدت غلامـاً على إثـر جـارية، أو جـارية على إثـر غـلام.

ويقـال: (نـاقة مبلم ومبلام)، وهـي التي لا ترغو من شـدة الضبعة.

ويقـال: (امرأة مملص) وهي التي رمت ولدها لغير تمـام، فـإن كـان ذلك عادة فيها يقال: (مملاص). وكذلك يقال: (ناقة مملص) في المعنى نفسه(٣).

ويقـال: (جـارية معصر)، وهي التي دنا حيضها، قال عمر بن أبي ربيعة:

وكـان مجنّي دون من اتّقيهم ثـلاث شخـوص كاعبان ومعصر

---

(١) قـال الأعشى:
أيـا جارتا بيني فإنّك طالقة... (لسـان العرب ـ طلق)، وديوان الأعشى.

(٢) أقـول: لعل هذا خير شاهد في مجيء جمع (مفعلة) مثل (مشكلة) على (مفاعـل)، ذلك أن أهـل التصحيح اللغوي ذهبوا إلى خـطأ قولنـا (مشـاكل) جمعاً لـ (مشكلـة) وقالوا: إن (مفعلـة) وهي اسم فاعل لا يجيء جمعها على (مفاعل)، وقد تأوّلوا (مصائب) وذهبوا إلى قول سيبويه أنها شاذة، والوجه أن يقال (مصاوب).
أقـول أيضاً: وفاتهم مجيء (مراضع) في الآيـة التي تحـكم بصواب الجمع.

(٣) أقول: قوله في (المملاص): إن كان ذلك عادة فيها يدل على أنها من أبنية الكثرة أي المبالغة، وهي أكثر من (مملص).
أقـول: مـا زال هذا معروفاً في بعض الألسـن الدارجة.

ومن أقوالهم: (ما بالدار من عريب ومعرب)، أي أحد، والذكر والأنثى سواء، ولا يقال في غير النفي.

ويقولون: (ناقة مصرج)، إذا ألقت ولدها بعدما صار غرساً ودماً[1].

ومن الأبنية الخاصة بالمؤنث بناء (فاعل)، والاستقراء يدلّ على هذا، وهذا البناء عار من علامة التأنيث إلا في أحرف قليلة كما سنتبين ذلك. فمن صفات المرأة حامل، وكاعب، وطالق، وناشز، وعانس[2]، وعاتق[3]، والاستقراء يدل على مادة أوسع من هذا الموجز.

ومن صفات الناقة: حائل، ولاقح وغير ذلك، كما يقال: نخلة حائل.

ومن صفات الفرس: سابق، ولاحق، وهما للذكر والأنثى.

وفي العربية أبنية تجري مجرى النعوت والأسماء، وهي ممّا يستوي فيها المذكر والمؤنث، فمن ذلك ما جاء على (فعال) نحو:

(حصان) للعفيف من الرجال والنساء، و(وقاح) للرجل والمرأة كذلك.

ومن ذلك أيضاً لفظ (قدم) لمن يتقدم، وهي للرجل والمرأة، وكذلك نساء قدم[4].

وجاء في الحديث: «حتى يضع ربّ العزّة فيها قدمه»، أي الذين قدّمهم من الأشرار، فهم قدم الله للنار، كما أن الأخيار قدمه إلى الجنة[5].

---

(١) أقول: كان على المعنيين بالمصطلح الفني أن يفيدوا من هذه السعة في العربية.

(٢) سبق لنا ان أشرنا إلى هذا البناء الخاص بالمؤنث، ولكن قد سمع شيء من هذا في الرجل، فقالوا على الندور: رجل عانس، إذا طال مكثه ولم يتزوج، والأصل في المؤنث. كما قالوا (أرملة) للمرأة مات زوجها، بالعلامة، مع اختصاصها بالمرأة، وقد سمع على الندور: رجل (أرمل)، وهذا من النوادر لابتعادهما عن بناء (أفعل وفعلاء).

(٣) وهي التي في بيت أبويها ولم يقع عليها اسم الزوج.

(٤) أقول: وليس منه قوله تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا أنّ لهم قدم صدق عند ربهم﴾ [يونس ٢/١٠]. والمعنى: سابقة فضل سابقة. معجم الفاظ القرآن الكريم ٢/٣٧٩

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير(قدم).

وكـذلك قولهم (طفل) للمذكر والمؤنث[1].

ولعـل بنـاء (مفعيل) أكثـر مـا ينصـرف للمذكر نحو: معطير، ومنطيق، على أن (مسكين) للمذكر، و (مسكينة) للمؤنث[2].

وعـلى العكـس مـن ذلك نجد (الأتـراب) في قوله تعالى: ﴿عرباً أتراباً﴾[3] [الواقعة ٥٦/٣٧] فتنصرف (الأتراب)، وهي جمع (تـرب) إلى المؤنـث أكثر منها إلى المذكر. فقد قيل: تـرب الرجل الذي ولد معـه.

وكـذلك (الظئر) للعاطفة على غير ولدها المرضعة له من الناس والإبـل، وقالوا أيضاً: الذكـر والأنثى فيها سواء.

ويبـدو مـن هذا العرض لهذه الأمثلة أن المؤنـث لا يميّز عن المذكر تمييزاً تـاماً بالعلامة. وليـسـت العلامة إلا شيئاً لحق الاسـم في ألفاظ يـسيرة من هذه الأبنية التي أشرنا إليها. وأغلب الظن أن هـذا اللحاق قـد حصـل في حقبة لاحقة للحالة الأولى التي لم تـكن فيها هذه الأبنية قد عرفت العلامة.

ولعـل هـذا يتضح من البحث في المسـائل اللغوية التاريخية، فمن ذلك:

أنهم قد ذكروا أن (زوج) المرأة بعلها، و (زوج) الرجل امرأته. وقد أثبت اللغويون هذا، وقـال به الأصمعي وأنكر (زوجة) بالهاء. وزعم الكسـائي عن القاسم بن معن: أنـه سـمع مـن (أزد شنوءة) هذه الكلمة بالهاء وبغيرها. واحتـج الأصمعي لقوله بـأن الكلمة وردت بغير هـاء في لغة التنزيل، كما في قـوله تعـالى: ﴿ويـا آدم اسكن أنت وزوجـك الجنّة﴾ [الأعـراف ١٩/٧]، وفي

---

(١) وقـد تـدل كلمة (الطفـل) عـلى الجمع كما في قـوله تعالى: ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عـورات النسـاء﴾ [النـور ٢٤/٣١]. وهي هنـا من أسـماء الجمع، وقـد يـكون منه قوله تعالى ﴿ثم نخرجكم طفلاً﴾ [الحج ٢٢/٥]، وهي بمعنى (أطفال) الجمع الصريح الذي ورد في لغة التنزيل أيضاً. ولنـا أن نلحق (الولد) الذي دل على المفرد والمثنى والجمع في أغـلب آيـات الأحكام لعمومه وإبهـامه، كما في قـوله تعالى: ﴿ولا تضـارّ والدة بولدها، ولا مولود له بولده﴾ [البقـرة ٢/٢٣٣].

(٢) قـولهم: (مسكينة) فشبّهوها بـ (فقيرة) فلحقتها العلامة: انظر (اللسـان ـ سكن).

(٣) (العرب) جمع (عـروب)، وهـي المتحببة لزوجها، ومن المفيد أن نشـير إلى أن جمع (فعـل) للمذكر والمؤنث، فجمـع (صبـور) للمذكر هو (صبر) وكـذلك جمع (غفـور) (غفر). وللمؤنـث (كسـول) وجمعها (كسـل) و (كواسل) أصـالة في التأنيث.

قوله تعالى: ﴿أمسك عليك زوجك﴾ [الأحزاب ٣٣/٣٧]، وفي قوله تعالى: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾ [النساء ٤/٢٠]. وقالوا: هي بالهاء لغة بني تميم، وبهذا قال الفرزدق:

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي ... كساح إلى أسد الشرى يستبيلها[1]

وقال ذو الرمة:

إذ وزوجة بالمصر أم ذو خصومة ... أراك لها بالبصرة اليوم ثاويا[2]

ولا بد من العودة إلى علامة التأنيث لنتبين أصالتها واختصاصها بالتأنيث.

لقد ذكر الأقدمون من اللغويين والنحويين أن علامة التأنيث: الهاء والألف المقصورة والألف الممدودة. أقول: وقولهم: (الهاء) يشير إلى أنها العلامة الأولى للتأنيث، وأنها تصبح (تاء) في درج الكلام. ومثل هذا موجود في العبرانية مثلاً، فإن الكلمة (شانا) العبرانية تعني (سنة) في العربية كلمة مؤنثة مختومة بالهاء حتى إذا وقعت في درج الكلام تحوّلت إلى (شنت). والهاء في العربية والعبرانية ترسم لإفادة التأنيث ولكنها لا تظهر في النطق.

وعلامات التأنيث في العربية كعلامة التأنيث في اللغات السامية تقضي أن يكون ما قبلها مفتوحاً. وإذا كانت الهاء لا تنطق إلا إذا صارت تاء في درج الكلام، فإن العلامة التي تجمع بين العلامات الثلاث هي الفتح في آخر الاسم. وإذا علمنا أن الناس يتفاوتون في مطل الفتح في آخر الاسم أو في أوله أو حشوه، فإننا نستطيع أن نقول: إن الألف المقصورة[3] تتولد من مطل

(١) لسان العرب (زوج)، وديوان الفرزدق.
(٢) المصدر السابق، وديوان ذي الرمة.
(٣) تظهر الفتحة في آخر الاسم المؤنث قبل، وهذا أمر ثابت في المؤنثات كافة، يستثنى من ذلك ما كان ثنائياً، أحادي المقطع نحو: بنت وأخت، والنون والخاء ساكنان. أقول: وليس لي أن أقبل ما قاله اللغويون الأقدمون من أن التاء هذه ليست للتأنيث، لأنها لا تكون هاء في الوقف، بل هي عوض عن الواو المحذوفة، أقول: إنهم لم يروا في هاتين الكلمتين بقية ثنائية تجاوزتها الكلمة العربية في تطورها، وأما الواو التي تزيل بها هاتين الكلمتين وتظهر في الجمع والنسب وغيرهما، فهي صوت ثالث يتحول به الثنائي إلى ثلاثي، ليكون مادة مفيدة يحسن التصرف بها في وجوه عدة من القول. أما قولنا في عدم تحول (تاء) بنت وأخت إلى (خاء) في الوقف فذاك متأتّ من مشكلة ثنائيتهما.

الفتحة الأخيرة إلى قـدر معين فتتولد الألف المقصورة، وحيث اكتسبت هذا القدر من المطل رسمت ألفاً، وقد يذهب المعرب في المطل قدراً أطول مما كـان في الألف المقصورة، فيصـار منها إلى الألف الممدودة، وليست الهمزة إلا صوتاً يؤتـى به للوصول بالمطـل إلى حـد معين(١).

غير أن الألف المقصورة للتأنيث لا تـكون في الوصف إلا في مؤنث (أفعل) مفيدة التفضيل نحو أفضل وفضلى، وأعلى وعليا، وأقصى وقصوى، وقد أميت التفضيل نحـو: أوّل وأولى، وآخـر وأخـرى، وليس في طوقنا أن نلمح أصـالة هذه الألف للتأنيث، أو قـل اختصاصها به.

ولـيس لنا أن نعد اختصاص هذه الألف بالتأنيث ذلك أنها تـرد في أسمـاء كثـيرة لا يمكن حملها على التأنيث نحو: عـدوى، وسلوى، وسأوى، وضيزى(٢)، وهي ليست للتأنيث في آخـر جموع التكسير، وإن كـان الجمع يشير إلى التأنيث، وسنأتي إلى هـذا، فهي في: مرضى وسكـارى ويتامى وغيرها شيء مـن تمام أبنية التكسير.

وإن الألف الممدودة لا يمكن اعتبارها مقصورة على التأنيث، فهي تـرد في آخـر كثير من الكلمات ممـا لا يمكن أن ينصرف إلى التأنيث، وذلك في

(١) قـلت: إن الألف المقصورة تتولد من مطل الفتحة، ومـا يندرج في هـذا نجد طائفة من ألفاظ العربية يتـردد فيها الفتح والمطل، فيـكون بـذلك للكلمة صورتان نحـو: يمن ويمان، وزمن وزمان، وتير وتيـار (جمع تـارة) وغـير هـذا كثير. وأود أن أشـير إلى أن مصطلح (الألف المقصورة) مصطـلح صوتي، وإذا كـان كذلك فينبغي أن يـكون ذلك واضحاً لـدى أهـل العربية أن الأمر لا يتصـل بالرسم، أتـرسم هذه الألف، وهي صوت، يـاء أو ألفاً نحـو: رمـى ودعا، ونحـو ذلك من الأفعال والأسمـاء ذلـك أن الألف في (رمـى) و (دعـا) مقصـورة، وليس الرسم إلا أمـراً عـارضاً اضطرب فيه المتقدمون، ونحن نحتمل في عصرنا نتيجة اضطرابهم في مسيرتنا التربوية.

(٢) إن الألف المقصورة في (ليلى) من أعـلام الإنـاث، قـد تولدت من مطـل الفتحة في (ليلة)، ذلـك أن إطـلاق العلم مستفاد من الأصل وهـو (ليـل) و (ليلة) عـلى التشبيه. إن (ليـلى) العلم المؤنـث يذكرنا أن الكلمة في العبرانية مؤنـث وهي (ليـلا).
ثم إن هذه الكلمة قـد يمطل فيها الفتح فتتحول إلى الممـدود (ليـلاء) وهـي صفة، وليس لها (أليـل) على (أفعـل). وقـد يكون مفيداً أن نتذكر: البؤس، والبؤسى والبأسـاء، وكـذلك: النعم والنعمى والنعمـاء. وقـد يـكون من هـذا مـا ذهب ئيه المعربون في (سمحـاء)، وهـو خطأ شـائع، والفصيح (سمحـة).

بنـاء (فعـلاء) وبناء (أفعلاء) من أبنية جموع التكسير، وإن كـانت أبنية التكسير مؤنثـات في الأغلب الأعم بسبب من بنـائها على هـذا الجمع، وليس بسبب هذه الألف الممدودة[1]. وقـد يـأتي المفرد المذكر مختوماً بهذه الألف نحو: (قـوبـاء)، و (خشـشـاء)[2] و (الجمـاء) مـن قولهم: (جـاؤوا الجمّاء الغفير)، ومنه (الحربـاء) للمذكر والمؤنث[3].

وأريـد أن أخـلص مما قدّمت إلى أن العلامة، ولا سيّما التاء، غيرمختصة بالمؤنث. وهـذا يعني أنها ليست ذات أصـالة في التأنيث، وذلـك بسبب من أدائها معاني تتجاوز التأنيث. إننا نلمح هذه التاء في طائفة كبيرة من الأسماء فـلا تخطر فينا فكرة التأنيث كالتاء في: الراوية والداهية والعلامة والفهامة ونحو ذلك...

لـست أدري إلى أن أقول: إنها لزيادة المعنى توخياً للمبالغة[4]؟

ثـم إن هـذه التاء تـكون في طائفة من أبنية جموع التكسيـر نحو (المارة) أي (المارون) و (السيـارة) كما في قوله تعالى: ﴿يلتقطه بعض السيّـارة﴾

---

(١) لقد حمـل النحـاة جموع التكسير على (فعـلاء) و (أفعـلاء) في عـدم تنوينها على أن الألف فيها ألف ممدودة، وهـذه عـلة عندهم.

(٢) و (القوبـاء) داء يـصيـب الجلد فينقوّب أي يتقلّع، و (الخشّاء) و (الخشـشـاء) عظم بـارز خـلف الأذن.

(٣) ورد تأنيث (الحربـاء) على (حـربـاءة) والـذي أراه أن (التـاء) تفيد الواحدة كالتـاء في شجـرة واحدة الشجر.

(٤) ذهب اللغويون إلى أن الزيـادة مطلقاً تقوّي المعنى، وقـد يـكون شيء من هـذا في (العلامة) و (الفهـامة) لأن الأصل وهو (العلام)، و (الفهـام) مفيـد للمبالغة، ثـم زيـدت التاء، ولكن مـا القول في (الراوية) و (الداهيـة) أأحملها على الزيـادة والمبالغة أم على مـا ذهب إليه جماعة من أهـل العلم الأعاجم من أن عـالم الإنـاث عالم انساقت إليه الأساطير لـدى الشعوب القديمة، وقـد يـكون هـذا مدركاً في (الداهيـة) التي لا تعـرف حقيقتها، بـل هـي شيء من عـالم خـفي محفوف بالمخاوف والرهبة، ألا تـرى أن العربية احتفظت بمئـات من نـوادر الألفاظ للداهيـة، وأن قـسمـاً كبيراً منها مختوم بهذه التاء! وقـد يـكون لنا أن نحـسب (التاء) التي قـالوا: إنهـا للعجمة كما في (مـلائكة) و (جهـابذة) و (جـلاوزة) وغيرها من هذه التاء التي تـشير إلى الخفاء والغموض!

وقـالوا في التـاء في المغاربة والمشارقة والبغـادذة: إنهـا تـاء عوض عن يـاء النسـب لأنهـا جمع المنسوب و (هـو مغربي ومشرقي وبغـدادي).

[يوسف ١٢/١٠]. والتاء في (النسوة) و(صبية) و(باعة). إنها لا بد أن تكون في الأصل تاء التأنيث، غير أن العربية عدت هذه الجموع مؤنثات، ومن هنا صارت التاء من تمام الأبنية وتجاوزت وظيفتها في الأصل(١).

والتاء في جمع المؤنث نحو (شجرات) ونحو ذلك تومىء إلى أنها كانت للتأنيث في المفرد(٢)، ومن أجل ذلك وقف عليها بالهاء في بعض لغات العرب، فقد سمع من كلامهم: (كيف الإخوة والأخواة)، وقالوا: (دفن البناة من المكرماة...)(٣).

وقد تومىء التاء إلى معنى القلة والصغر، وذلك في الأسماء المصغرة للمؤنثات التي لا تلحقها العلامة وهي مكبّرة مما أطلق على طائفة منها (المؤنثات السماعية). ومن ذلك يقال: (سويقة) مصغر (ساق)(٤) و(عيينة) مصغّر (عين)، و(أذينة) مصغّر (أذن) ونحو ذلك.

إن هذه التاء التي لحقت المصغّر تشير إلى أن الأصل مؤنث وإن

---

(١) قلت: (المارّة) من أبنية التكسير، وهو من الجموع القديمة، وما زال شيء منه شائعاً في الألسن الدارجة، ومن ذلك استعمال العراقيين (العمّالة) للعمال في بناء الدور، وإن كانوا لا يشيرون إلى المفرد وهو (العامل).

قلت: إنه جمع قديم، وقد ورد منه كما أشرنا (السيّارة) في الآية الكريمة، وكأنه فشا استعماله في الألسن الدارجة، ومن المسموع: (السمّاكة) لباعة السمك، و(الحجّارة) للعاملين في الحجارة، ومنه (الحصّانة) لأهل الخيل، و(الجمّالة) لأهل الجمال، وغير هذا كثير. ومن هذه الجموع ما كان على (فعلة) من الأصول الجوف نحو: (الصاغة) و(الباعة) و(الراضة) وغيرها وهي جمع (صائغ وبائع ورائض).

ولعل من خلوص أبنية التكسير للمؤنث أنها تجيء فيما كان مفرده مؤنثاً بعلامة التأنيث، وتعرى عن العلامة في الجمع نحو: (الساح والساع والراح والهام) وغيرها، والمفرد هو: (ساحة وساعة وراحة وهامة).

(٢) وجمع المؤنث بالألف والتاء قد يكون لمفرد مذكر غير العاقل نحو: (معلوم ومعلومات)، وما كان من جمع المصدر الذي ذهب به إلى الاسمية نحو: (إعلان وإعلانات) ومثله: (فتوحات ونزاعات)، وما كان من الخماسي الذي لم يسمع فيه جمع تكسير نحو: (حمّام وحمّامات). ومن غير شك أن التاء في هذه المواد تفيد التأنيث. وعلى هذا فهي للتأنيث أقرب من كونها شيئاً من تمام البناء الجمعي.

(٣) أقول: والوقف بالهاء هذا يؤكد قيمة العلامة ودلالتها على الجمع.

(٤) أقول: و(سويقة) أيضاً تصغير (سوق)، وفي معجم البلدان لياقوت مواضع عدة صدرت بـ(سويقة) ومنها: (سويقة خالد) بباب الشمّاسية ببغداد، و(سويقة العباسية ـ أخت الرشيد) وغيرهما.

عـري من العلامة، وهي في بعض المواد تفيـد القلة والصغر مع الإشارة إلى التأنيث، وهي هنـا كذلك، لأن التأنيث معروف في (عين) و (أذن) فلحـاق الهاء بها في المصغّر يقوي معنى الصغر[1].

وكـنت قد قـدمت في هـذا البحث ما يومىء إلى قـدم المذكر وسبقه، والمراد بالمذكر أن يعرى الاسم من العلامة، وكأن حـاجة المعربين دفعتهم إلى بيـان الفرق، فـلزمت العلامة لتقرّ للمؤنـث حقيقته، فالتأنيث بالعلامة طارىء في العربية، كما هي الحال في اللغات السامية كما سنـرى. وعـلى هذا نستطيع فهم كثير من أبنيتهم التي عريت عن العلامة، ومـن ذلك مـا جاء من نعوت المؤنث:

امرأة رداح، ورداحة وردوح، وهي الثقيلة العجيزة.

وقـوس ركوض، ونـاقة مـراوح، وهي التي تبرك وراء الإبـل، ونـاقة مشمعلّ، أي سريعة، كما قالوا: مشمعلّة. وأكبـر الظن أن هذه الأخيرة حـادثة وليست قديمة.

وقـالوا: نـاقة شائل، وهي التي تشول بذنبها للفحل، وهـذه الصفة خـاصة بالناقة، فـليس من حاجـة للعلامة.

وقـد رأينا كثيراً من نعـوت الناقة قـد عـري من العلامة.

ومـن المفيد أن نعرض لاتصـال الفعل بتـاء التأنيث بسبب فـاعله المؤنث فنقول:

إن اتصـال الفعل بالتاء يجـب في أحـوال ويجـوز في أخـرى، والعلامة ليست شيئاً لازماً. إن ذلك يوضح شيئاً من التطور التاريخي في تقـرير هذه المادة اللغوية. ولنتخذ من لغـة التنزيل مـادة في هذه المسألة، ولنقرأ قـوله تعـالى:

---

(١) وقـد نلمح إفـادة الصغر في كلمـات عامية تظهـر في لحـاق الهاء بالمصغـر، فأهـل العراق يصغرون (الدرب) عـلى (دربونـة)، ومن المعلوم أن أداة التصغير هي الواو والنون كما في فصيح العربية نحـو (حمـدون وزيـدون) وغيرهما، فأمـا مجيء الهاء بعـد أداة التصغير فلإفادة الصغر، ويقـولون: (شويّونـة) تصغير (شـيء) والهـاء فيهـا لإفـادة القلة.

﴿وقـال نسوة في المدينة﴾ [يـوسف ١٢/٣٠].
﴿يـا أيهـا النبي إذا جـاءك المؤمنـات﴾ [الممتحنـة ٦٠/١٢].
﴿لقد جـاءت رسـل ربنا بالحق﴾ [الأعراف ٧/٤٣].
﴿قـل قد جاءكم رسل من قبـلي بالبينات﴾ [آل عمران ٣/١٨٣].
﴿ولقـد جـاءتهم رسلنا بالبيّنـات﴾ [المائدة ٥/٣٢].
﴿فـإن زللتم من بعد مـا جـاءتكم البيّنات﴾ [البقرة ٢/٢٠٩].
﴿وجـاءهم البيّنـات﴾ [آل عمران ٣/٨٦].
﴿فـإذا بـرزوا من عندك بيّت طائفة منهم﴾ [النساء ٤/٨١].

وإني لأجتزيء بهـذا القدر من الآيـات لأتخـذ منها أمثلة على عـدم لزوم هذه التاء لبيان التأنيث لزوماً مطلقاً مطرّداً، وفي هذا دليل على حدوث هذه الظاهرة اللغوية وعدم أصالتها.

غير أن النحويين قد قرّروا ما استقروه في العربية وجهدوا في وصف ما ورد، مثبتين ملاحظـاتهم في قواعـد مقررة، وفي وجـوب لحـاق التأنيث بالفعل وجـواز ذلك.

ولنعرض لطائفة من الكلم في العربية القديمة لنقف على التأنيث والتذكير فيها ناظريـن في ذلك مـا وسعنا الأمر في اللغات السامية.

ولنعـرض لأجنـاس الحيوان فنقول:

(الجمل) وهو مذكر، والمؤنـث فيه الناقة، ولتغليب العرب للمذكر جعلوا (الجمل) اسماً عامـاً يصـدق على عمـوم (الجمل) مذكراً ومؤنثـاً مفرداً ومثنـى وجمعاً، شأنـه في ذلك شأن (الولد) كمـا رأينا. وقـد سمع من قـولهم: (لبن جملي)[١].

و (الجمل) في العبرانية Gamla يـدلّ على المذكر والمؤنـث، وكـذلك في السريـانية Gamla. ومثـل (الجمل) مرادفه (البعير) مما ينصرف إلى المذكر

(١) لسـان العرب (جمل).

والمؤنث، وهو في العبرانية (بعير) مذكر، و(بعيرا) في السريانية، ويراد به فيهما عامة الدّواب العاملة.

ولا بد أن يشار إلى أن جميع ما يتصل بالناقة من صفات ونحو ذلك عار عن العلامة في الأغلب الأعم.

و (الحصان): وهو مذكر في العربية، وأما (الفرس) فيطلق على الذكر والأنثى. وذكر سيبويه: أنه يقال في العدد (ثلاثة أفراس).

وقال ابن سيده: إنها أكثر ما تنصرف إلى المؤنث.

و(الفرس) في العبرانية (Parash) مذكر، ومثله (سوس Sous) للدلالة على الحصان، ومؤنثه (سوسا)، وهو في السريانية (سوسا) ومؤنثه (سوستا).

و (الكبش) مذكر، وهو كذلك في العبرانية (كبش)، و(كبشا) في السريانية، وهو مذكر أيضاً، وفي السريانية كلمة أخرى هي (نقيا)، وقد ذهب احتمال العلماء فيها إلى أنها من الآشورية لوجودها في نقوش متأخرة مع لوازم أخرى تشير إلى هذا الأصل.

ونجد في العبرانية (راحيل) للنعجة، ولعلها تقابل في العربية (رَخل) أو (رُخل) للأنثى من أولاد الضأن، وقد عريت عن العلامة في العبرانية، غير أنها في العربية قد لحقتها على الندور فقيل: (رَخلة) و(رُخلة).

و (الحمار) مذكر، والمؤنث (أتان)، وجمعه (أتن).

وهو في العبرانية (خمور) مذكر، ومؤنثه (أتون). وفي السريانية (حمارا) للمذكر، و(أتانا) للمؤنث. على أن (حمارا) هذه قد تنصرف إلى المذكر والمؤنث. على أنه قد جدّ في السريانية (حمارتا) بالعلامة للمؤنث، وهذا حادث بالنسبة إلى ما ورد في الأصول القديمة.

وقد يكون لنا أن نقول: إن (الحمار) في العربية مذكر ومؤنث لعموم الجنس، ثم قيّده الاستعمال. ونستدل على ما ذهبنا إليه من قولهم: (حمار

جمزى)[1] أي سريعة، وهـذه الصفة أقـرب إلى أبنيـة المؤنث، كما قالوا: (حمـار حيدى)[2]، أي أنـه يحيد عن ظله لنشاطه. ولكنهم قـالوا أيضاً (حمـارة) بالعلامـة، ولعلهـا حـادثة بالنسبة إلى مـا ورد من قولنا فيه، كمـا قالوا: (أتـانة) للمؤنـث.

أقـول: إن إلحـاق العلامة بالاسم بعد شيوعه وقـد عـري منهـا كـان في عصور متأخرة بالنسبة إلى السابق منها، ولعل ذلك قد جرى لأمن اللبس.

و(الضبع) مؤنـث في العربية، والمذكر (ضبعـان)[3]. وقـد صرفوا (الضبع) أيـضاً للمذكر والمؤنـث.

وهـو في العبرانية (صبـوع) للمـذكر والمؤنـث، وأمـا في السريـانية فهو (أيـعى) وهـو مؤنث. أقـول: والذي في السريانيـة بحرف (P) يقـابله (أفعى) في العربية وهو دال على الحيّة. و(السّبع) مذكر، والمؤنث (لبؤة)، على أن العربية عرفت (الأسـد) وطائفة أخـرى من أسمائه، ولعل أغلبها في الأصل صفـات الأسد وشهرة له. و(الأسـد) في العربية مذكر ومؤنث، ولكننا لا نعـدم من قولهم (أسـدة) ولعـل هذه من صنع اللغويين، إذ لم تـرد في نص قـديم.

و(الليث) هـو الأسد في العربية مذكر، والمؤنث (لبأة).

و(السبع) معـروف في العبرانية (شبيع)، ومثلـه في السريانيـة. عـلى أننـا نجـد (لايـش) في العبرانية، وهـو مذكر ومؤنثـه (لابيـأ).

ومـن المفيد أن نعرض لما دعـي (خـلق الإنسان) لنتبين طائفة من المـذكر والمؤنـث نـاظرين في ذلـك إلى اللغات السامية مـا وسعنا ذلك:

---

(١) لسـان العرب (جمـز).

(٢) المصدر السابق (حيـد). قـال الأصمعي: لا أسمع (فعـلى) في المؤنث إلا في الهـذليّ.

كـأنـي ورحـلي إذا رعـتـهـا على جمـزى جـازىء بـالـرمـال

وخطّأ الكسـائي استعمال (جمـزى) صفـة للجمـل مؤيـداً قـول الأصمعي فيه. وجـاء أيضـاً ممـا جـاء على هـذا: جمزى، وبشكى، وزلجى، ومرطى، وكلها من صفـات الناقة لا الجمل (لسان العرب ـ جمز).

(٣) في العربيـة طائفة من هـذه الألفاظ المختومة بالألف والنون، وهـي من أسمـاء الحيـوان، وكلهـا مذكرة ومنها: ثعلبـان وأفعوان وغيرهما.

(اليـد) مؤنـثة في العربية، وهـي كذلك في العبرانية إلا مـا ورد شـذوذاً، فـأما في الآراميـة الإنجيلية فهـي مذكر ومؤنـث.

و(الرّجـل) مؤنـثـة في العربية، وهـي كذلك في سـائر اللغات السامية.

و (الكتف) مؤنـثة في العربية وكذلك في العبرانية (كتـب) وهي (كتبـا) في السريـانية.

و (الذراع) مؤنـثة في العربية والعبرانية، وأمـا في السريـانية (ذراعا) فهـي مذكر.

و (الأذن) مؤنـثة في العربية وهي كـذلك في سـائر اللغات السامية.

و (السّن) مؤنثـة في العربية والسريـانية، فـأمـا في العبرانية فهـي تتردّد بين المذكـر والمؤنث.

فـائدة:

قـد تفيـد من عرضنا إلى عـامة المذكر والمؤنـث في العربية وغيرها من اللغات السامية أن التذكير والتأنيث مـادة لا تخضـع إلى كـثير من الضبط، وليست العلامـة واضحة كل الوضوح في طائفـة كبيرة من الألفـاظ. ونستطيع أن نقـرر على هـذا مـا كنا أشرنا إليه فنقـول:

إن المؤنـث قـد اكتسب صورته الأخيرة بلحـاق العلامة بـه بعد أن مرّت هذه المواد بسيرة نظورية قضت أن تكون العلامة فرقاً بين المذكر والمؤنث.

ولنـا أن نعرج على قـول النحويين وضوابطهم في هـذه المسألة. لقـد أرادوا حـصر مـا استقروه من كـلام العرب في قـواعد أخـذت من الأغلب الأعم، فـأمـا ما خـرج عن ذلك فقـد حملوه على الشـذوذ أو الضرورة إن كـان الأمر متعلقاً بالشعر.

قـالوا: إن كـان الفاعـل مؤنثـاً أنّث فعلـه بتـاء سـاكنة في آخـر الماضي، وبتـاء المضارعـة في أول المضارع(١)، ويجـب ذلـك في مسألتين:

(١) أقـول: إن قـول النحويين: (أنّث فعله . . .) مـن بـاب التوسع، إذ لا يصح أن يقـال: أن الفعل مؤنـث بسبب من التـاء السـاكنة.

إحداهما: أن يكون الفاعل ضميراً متصلاً نحو: (هذه قامت) أو (تقوم)... بخلاف المنفصل نحو: (ما قام إلا هي)[1]. ويجوز تركها في الشعر إن كان التأنيث مجازيّاً كقول عامر بن جوين الطائي:

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل أبقالها

وكقول الأعشى:

فإمّا تريني ولي لمّة فإنّ الحوادث أودى بها[2]

والثانية: أن يكون الفاعل متصلاً حقيقي التأنيث نحو: (قالت فاطمة) أو (تقول فاطمة). وزعموا الشذوذ في قولهم: (قال فلانة)[3].

ويجوز الوجهان في مسألتين: إحداهما: المنفصل، كقول جرير:

لقد ولد الأخطل أمّ سوء

ومن ذلك ما صنعوا من مثال: (حضر القاضي اليوم امرأة) وقالوا في هذا المثال الطريف: والتأنيث أكثر. فإن كان الفصل بـ (إلا) فالتأنيث ممتنع، وقد ورد في الشعر كقول الراجز:

ما برئت من ريبة وذمّ في حربنا إلا بنات العمّ

وجوزه في النثر كقراءة من قرأ: ﴿إن كانت إلا صيحة﴾ [يس ٣٦/٢٩] وكقوله تعالى: ﴿فأصبحوا لا ترى إلّا مساكنهم﴾ [الأحقاف ٤٦/٢٥].

والثانية: المجازي للتأنيث، وأدرجوا في هذا ما كان اسم جنس واسم جمع وجمعاً نحو قوله تعالى: ﴿كذّبت قوم نوح﴾ [الشعراء ٢٦/١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿قالت الأعراب﴾ [الحجرات ٤٩/١٤]. وقوله تعالى:

---

(١) لعل هذا من أمثلتهم المصنوعة، ولم يرد مثل ذلك في فصيح كلام العرب!

(٢) أقول: إن اتخاذ الشعر شواهد، غير سديد، وذلك لأن الشاعر مضطر أن يأتي في شعره ما لا يكون له أن يأتي به في كلامه، ذلك أن في الشعر سعة.

(٣) لا أدري أين وجد هذا الذي زعموا!

﴿وكذّب به قومك﴾ [الأنعام ٦/٦٦]. وقوله تعالى: ﴿وقال نسوة﴾ [يوسف ١٢/٣٠]. وقوله تعالى: ﴿إذا جاءك المؤمنات﴾ [الممتحنة ٦٠/١٢][1].

غير أننا نجد من طرائف العربية مما ورد في قوله تعالى: ﴿إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ [يونس ١٠/٩٠].

أقول: والفاعل في الآية ﴿بنو إسرائيل﴾، وكلمة (بنون) من باب ما سمي ملحقاً بالجمع السالم نحو: سنون وعالمون وغصون ونحوها. و (بنو إسرائيل) هنا داخلة في الفاعل الذي يجب فيه ألا يلحق فعله العلامة، ولكن اللغويين والمفسرين تأولوه على التضمين، وقالوا: بنو إسرائيل أريد بها طائفة وجماعة فجاءت التاء في الفعل.

على أن جهد النحويين القدماء لم يتجاوز الوصف للنصوص التي استقروها فأثبتوا ذلك في القواعد المعروفة في هذا الباب[2].

وقد أسلفت أن التأنيث في العربية بالعلامة غير مطّرد، وأن التأنيث والتذكير في طائفة من المواد موضع خلاف بين اللغويين، وهي كذلك بين

---

(١) ملاحظة: هذه الفوائد النحوية موجودة في جميع الكتب النحوية القديمة موجزة ومطولة.

(٢) وذكر النحويون في باب الإضافة: أن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف إليه، واستشهدوا على ذلك بمثال مصنوع وهو قولهم: (قطعت بعض أصابعه)، أقول جرياً على هذا: كان عليهم أن يستشهدوا بقوله تعالى: ﴿وجاءت كلّ نفس معها سائق وشهيد﴾ [ق ٥٠/٢١].
تعليق: ولا أرى قول النحويين هذا وجيهاً، ذلك أن المضاف لم يكتسب التأنيث ولكن سليقة المعربين هدتهم إلى النظر إلى المعنى، فالفاعل الحقيقي هو (نفس) لا (كل) في الآية، ونائب الفاعل الحقيقي هو (الأصابع) التي منها (البعض).
وذكروا في هذا أيضاً: أن المضاف يكتسب التذكير من المضاف إليه، وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب من المؤمنين﴾ [الأعراف ٧/٥٦].
تعليق:
إن (الرحمة) وهي مؤنث، لم تكتسب التذكير من المضاف إليه (ربك)، والوجه في هذا يدخل في باب الإخبار بـ (فعيل) الذي يستوي فيه التأنيث والتذكير، وقد يتجاوز هذا إلى المفرد والجمع. وليس للنحويين أن يقيّدوا (فعيل)، هذا أن يكون بمعنى (مفعول) نحو: جريح وقتيل، ذلك أن الاستقراء يهدينا إلى (قريب) في الآية بمعنى (فاعل)، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ [التحريم ٦٦/٤]. و﴿ظهير﴾ ليس بمعنى مفعول، ولم يجيء (ظهيرون). وقد يكون لنا أن نجري مع اللغويين في النظر إلى الشاهد القديم وإن كان شعراً، وهو قول الشاعر:

خبير بنو لهب فلا تك ملغياً   مقالة لهبيّ إذا الطير مرّت

المعربين. ونستطيع أن نختم هذا بما عرف عند اللغويين بالمؤنثات السماعية التي لم يتفق أهل العلم على تأنيث الكثير منها، فقد قالوا (النفس) مؤنثة على قدر اللفظ، ومذكرة على قدر الرجال، فيقال ثلاث أنفس وثلاثة أنفس.

و (الروح): مذكر، وعلى مذهب النفس يؤنث ـ والروح الأمين جبريل: مذكر ـ، والروح بمعنى عيسى ـ عليه السلام ـ: مذكر.

و (العنق): يذكر ويؤنث، والتذكير أغلب.

و(اللسان) يذكر ويؤنث، والجمع على التذكير (ألسنة)، وعلى التأنيث (ألسن).

و (الذراع) يذكر ويؤنث.

و (المتن) يذكر ويؤنث.

و (القفا): يذكر ويؤنث.

و(الضرس): مذكر، وربّما أنّثوه على معنى ألسن.

و(الأضحى): يؤنث ويذكر (وهو جمع الأضحاة بمعنى الضحية أو الأضحية).

و (الخمر): مؤنثة، ويقال: (خمرة)، وقد تذكّر.

و (السلطان) يذكر ويؤنث.

و (السبيل، والطريق): كلاهما يذكر ويؤنث.

(و (الشاء): مذكر، والهمزة بدل، وقد تؤنث على مذهب الغنم.

و(القليب): يذكر ويؤنث، وجمعه أقلبة وقلب.

و (الذنوب): يذكر ويؤنث، والجمع أذنبة.

و(الحال): مؤنثة، وتذكر، ويقال أيضاً: (حالة).

و (الدرع): مؤنثة، وتذكر.

و (الفردوس) مذكر، فإن قصدت الجنة أنثت.

و(السوق): مؤنثة وتذكر.

و (الصاع) يذكر ويؤنث.

و(السكّين): مـذكر، وقـد يؤنث، فأمـا (السكينة) فجـديد مـولد، وهـو من بـاب إظهار التأنـيث وتغليبه على التذكير، وذلك يتبين بالعلامـة.

و(السلم) مـذكر، وقد يؤنث. وربمـا لنا أن نقـول: إنه اسم جمع، وواحدته سلمة مثل الشجر والواحـدة شجرة.

و (الطاغوت) يـذكر ويؤنث، وكذلك (الحانـوت).

و(الفلك): واحد وجمع ومذكر ومؤنث والشواهد في لغة التنزيل كثيرة.

و (اليمين) من الحلف مؤنثـة، ومن اليد والرجل مؤنثة أيضاً، وكذلك من كـل شيء.

و(النوى) من النية مؤنثة، و(النوى) مـن التمر ونحـوه مذكر.

و(المنون): مؤنثة وقـد تذكر.

و(الخرنق): ولـد الأرنب مؤنثـة وربما ذكّروه.

و(السمـاء): مؤنثـة، وربمـا ذكروا وأرادوا السقف.

و(العنكبوت): مؤنثـة وقد تذكّر.

و(حـراء): اسم جبـل بمكة يـذكر ويؤنـث، والتذكير أكثر.

و(الغوغاء): يؤنـث ويـذكر.

و(القوبـاء): مؤنثـة، وبعضهم يذكّر.

أقـول: أجتـزىء بهـذا القدر من هذه الألفاظ لأشـير إلى عـدم استقرار هذه الحقيقة اللغوية في العصور التاريخية القديمة. وكأن العربيـة كـانت في طريقها إلى التوحّـد بعد أن كـانت اللغات الخاصة سـائدة فيها، وقـد تـم ذلك بسبب لغة التنزيل العزيز.

التأنيث والتذكير والإفراد والجمع

لـيس في العربية القديمـة نظـام ثابت في حـيز التأنيث والتذكير وعلاقتهما ببنـاء العربية إفـراداً وجمعاً، فـأنت لا بـد أن تـدرك المراد بما أوتيت من الفهم، وأنت محتاج إلى سعيك لتصل في كثير من الآيـات إلى المراد من غير أن تفيد في الوصول إلى ذلك من عـلاقات الألفاظ بعضها ببعض. إنك تقرأ

مثلاً قوله تعالى: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ [الإسراء ١٧/١٩]. فتجد أن أسلوب الشرط بـ (من) والمراد المفرد المذكر، ولكن الجواب صرف إلى الجمع في اسم الإشارة (أولئك)، وأنت هنا تدرك أن الذي أراد الآخرة وسعى إليها فهو ممن كان سعيهم مشكوراً. وليس لك أن تقول: إن الجواب ينبغي أن يناسب الشرط إفراداً وجمعاً.

أقول: إن هذه العربية تختزن نوادر، وهذه النوادر أعلاق نفيسة، لا بد أن يفيد منها الدارس في معرفة هذه اللغة في تطورها.

من غرائب هذه اللغة أنها احتفظت بأصول هي جموع في الوضع وليس لها من مفرد سبقها في الوضع أو أنه وضع هو والجمع في حقبة واحدة، حتى إذا احتيج إلى المفرد صنع منه بل أخذ منه بطريقة ما. ألا ترى أن (الإنس والجن من أسماء الجمع)، قال تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ [الأنعام ٦/١٣٠]، وقد احتاجت العربية إلى الواحد من الإنس والجن، فصنع بطريقة النسب إلى الأصل، فكان الإنسيّ وكان الجنّي، قال تعالى: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسياً﴾ [مريم ١٩/٢٦]. ومثل هذا (اليهودي) من اليهود، و(المجوسي) من المجوس. وأنت ترى أن مادة الجمع غامضة، فهي جمع في المعنى، وهي جمع باحتساب علاقتها بالفعل والصفة، ولكنها قد تعامل معاملة المفرد فتوصف به. ولننظر إلى (السحاب) في الآيات الكريمة:

قال تعالى: ﴿وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [البقرة ٢/١٦٤]. وقد وصف ﴿السحاب﴾ بقوله: ﴿المسخر﴾ وهو مفرد، في حين وصف بـ﴿الثقال﴾ في قوله تعالى: ﴿وينشيء السحاب الثقال﴾[1] [الرعد ١٣/١٢]، وفي هذا يكون

---

(١) وإذا كان ﴿السحاب﴾ قد وصف بـ (الثقال﴾ فهو جمع مؤنث، ولكننا نفاجأ ببديع العربية في وضع أبنيتها، فقد جاء قوله تعالى: ﴿حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه إلى بلد ميت﴾ [الأعراف ٧/٥٧]. لقد عاد الضمير المفرد المذكر على ﴿السحاب﴾ وهو اسم جمع الموصوف بالجمع.

﴿السحاب﴾ جمعاً مؤنثاً، وهو الغالب الكثير.

فأنت ترى أن ﴿السحاب﴾ يكون جمعاً ويكون مفرداً، وهو كذلك في آيات أخرى.

ومثل ﴿السحاب﴾ ﴿الجبال﴾ قال تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ [النمل ٢٧/٨٨]. وقال تعالى: ﴿وسخّرنا مع داود الجبال يسبّحن﴾ [الأنبياء ٢١/٧٩]، فالجبال وصفت بالمفرد المؤنث ووصف جموع التكسير بالمفرد المؤنث كثير، ثم وصفت بالفعل مسنداً إلى نون الإناث، وكأن المسوّغ في ذلك أن الجبال جعل منها ما يجعل من العاقل.

ونقرأ قوله تعالى: ﴿وسيّرت الجبال﴾ [النبأ ٧٨/٢٠]. كما نقرأ: ﴿وإذا الجبال سيّرت﴾ [التكوير ٨١/٣].

ونأتي إلى (السماوات) ونقرأ قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهّن سبع سموات﴾ [البقرة ٢/٢٩]، والضمير في (سواهن) يعود إلى (السماء)، وهي مفرد يؤنث ويذكر، وفي هذا إدراك أن المراد بها (سماوات). ونقرأ قوله تعالى: ﴿تكاد السموات يتفطّرن منه...﴾ [مريم ١٩/٩٠]. وهي هنا مؤنثة للجمع وقد استوفى معها الفعل العلامة والضمير.

ونأتي إلى (الطير) في لغة التنزيل فنقرأ قوله تعالى: ﴿فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك﴾ [البقرة ٢/٢٦٠]، كما نقرأ قوله تعالى: ﴿والطير صافات كلّ قد علم صلاته وتسبيحه﴾ [النور ٢٤/٤١] فنجد الطير من أسماء الجمع قد اقترن بعدها الفعل بضمير الجمع للمؤنث، وقد وصفت بـ ﴿صافات﴾ في الآية الثانية.

ومثل هذا أيضاً (الفلك) وهو معروف، وهو في لغة التنزيل يؤدي فوائد لغوية نحوية ذات قيمة خاصة في تطور العربية.

قال تعالى: ﴿والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ [البقرة ٢/١٦٤].

وقال تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم...﴾ [يونس ١٠/٢٢].

وقال تعالى: ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾ [الشعراء ٢٦/ ١١٩].

وقال تعالى: ﴿وترى الفلك فيه مواخر...﴾ [فاطر ٣٥/ ١٢].

وفي هذه الآيات (الفلك) هو هو نفسه فيها ولكن الفعل بعده يشعر أن (الفلك) جمع مؤنث، ويثبت فيه الجمع المؤنث بوضوح في قوله ﴿وجرين﴾، ولكنك تقرأ وصف ﴿الفلك﴾ بـ ﴿المشحون﴾ فكأن الموصوف مفرد مذكر، والوجه فيها أن الفلك كالطير والسحاب ونحوها يراعى معناها فتكون جمعاً، ثم يراعى لفظها فتكون مفرداً مذكراً.

و(للنخيل) حضور في لغة التنزيل مفيد يذكرنا بـ (الفلك)، قال تعالى:

﴿والنخل ذات الأكمام﴾ [الرحمن ٥٥/ ١١].
﴿والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾ [ق ٥٠/ ١٠].
﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ [القمر ٥٤/ ٢٠].

وقد يكون لنا أن نلاحظ في النخل ما لاحظناه في (الفلك) في الإفراد والتذكير أو التأنيث، ثم في اعتبارها جمعاً، ولا بد لنا أن نعرض (للأنعام) في لغة التنزيل لنقف على إفرادها وتأنيثها كما في قوله تعالى:

﴿وأنعام حرمت ظهورها﴾ [الأنعام ٦/ ١٣٨].
﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾ [المائدة ٥/ ١].

أقول هذه مواد مفيدة وقفنا عليها في لغة التنزيل، وتأتي إفادتها من حقيقة بنائها التي ربما أومأت إلى الإفراد، ودلالتها التي تبرز معنى الجمع، ولا ندري كيف نقول: أسبق الإفراد الجمع أم العكس؟

ومن غرائب العربية أن المفرد المذكر قد يجمع جمعاً مذكراً غريباً، وهذه المعاكسة لا ندري كيف نظر إليها. ومن هذا: ابن آوى وابن عرس، وجمعها جمعاً مؤنثاً على بنات آوى وبنات عرس، والغريب فيها أن (ابن) جمع جمع تأنيث، لا أدري أكان هذا التحول تحولاً من العاقل إلى غير

العاقل؟ ذلك أن (ابن) تكثر في العاقل، وأما التأنيث فق عم غير العاقل مما كان من جمع المؤنث السالم فيجتمع فيه العاقل وغيره. وكذلك جموع التكسير!! إلى أن أقول ذلك؟

ويقابل هذا الجموع القديمة بالواو والنون والياء والنون وأكثرها لمفردات ثنائية مؤنثة نحو: سنة وعضة ومئة وغير ذلك. وهذا الجمع خاص بالعاقل، ولكن هذه مخلفات قديمة اقتضت النحاة أن يعدّوها (ملحقة) بهذا الجمع لأنها خالفت ما يشترط في الجمع في الأغلب الأعم.

وربما كان من هذا شيء في العبرانية، ألا ترى أن (سنة) لا تجمع فيها إلا جمع مذكر فهي (شانيم) والياء والميم نظير الياء والنون في العربية، وليس فيها ما يقابل (سنوات) في العربية(١).

خاتمة:

إن كثيراً مما انتهى فيه التطور اللغوي في مادة التذكير والتأنيث قد اكتسب صورته الثابتة في العربية الحديثة، ولو خالفت هذه الصورة المشهورة المتعارف. ألا ترى أن (البطن) من أعضاء الجسم قد تحولت إلى التأنيث خطأ، وشاع الخطأ حتى عادل الصواب، ولم يفلح التنبيه على هذا الخطأ لجريانه في كتابات الناس وكلامهم. ومثل هذا (الرأس) مؤنث في لغة المصريين، وقد شاع هذا حتى صار شيئاً من أدبياتهم. وكأن هذا الخطأ قديم لديهم فقد رأيته في كتب التراجم المتأخرة لمؤلفين مصريين: فقد ذكر أحدهم في ترجمة لأحد الرجال: أنه قتل ونقلت (كذا) رأسه(٢).

---

(١) لعل من المفيد أن أشير أن الجمع بالألف والتاء ينصرف إلى القلة كثيراً. ولنا أن نفيد من لغة التنزيل، قال تعالى: ﴿إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر﴾ [يوسف ١٢/٤٣]، وكأني ألمح القلة في هذا، لا بدلالة العدد ﴿سبع﴾، ولي أن أحمل على هذا (سنوات) مفيدة القلة و(سنون) بناء كثرة. وقد يعترض معترض فيقول: ورد في قوله تعالى: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾[البقرة ٢/٢٦١]، والجواب عن هذا أن ﴿سنابل﴾ بناء كثرة، فإذا أريد صرفها للقلة جيء بالعدد.

(٢) ومثل (رأس) في لغة أهل مصر، استعمالهم لـ (بلد) على أنها مؤنث، وكأنهم لا يعرفون (بلدة).

قال تعالى: ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ [البقرة ٢/١٢٦].

وقال تعالى: ﴿بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفورٌ﴾ [سبأ ٢٤/١٥].

وليس عجيباً أن يميل المعربون في عصرنا إلى أن: السوق والذراع والباع والبئر من المذكر ويقتصرون على هذا التذكير، مع أن العربية الفصيحة تجري على تأنيثها أكثر من تذكيرها، ولا سيما السوق والذراع، فأما في الباع والبئر فالتأنيث هو الوجه. وكأن إحساس المعربين بالعربية لم يكن إحساساً كافياً فإنك لتجد في باب العدد والمعدود خلطاً عجيباً فيقال على الخطأ والتجاوز: ثلاثة جبال، وأربعة موضوعات، مثلاً، والقائل ينظر إلى الجمع فيحسبه مؤنثاً ويجري العدد عليه، وفاته أن النظر إلى المفرد، وعليه أن يقول ثلاث جبال، وأربع موضوعات.

لو أن شيئاً من هذا كان في غير العربية من اللغات العربية لانقسم أهل العلم فريقين: فريق يؤيد الجديد المولّد، ولا يقول بخطئه، وفريق آخر يرى أنه تجاوز وخطأ.

أما نحن فقد ضللنا السبيل، أسأل الله لنا العفو والعافية.

مشاكلة اللفظ والنظر إلى المعنى

لم أرد من اللفظ والمعنى ما أراد البلاغيون والمناطقة، ولم أسع إلى شيء مما نُهج به المعاصرون من أصحاب النقد الأدبي المعاصر مما ترجموا به الكلم الأعجمي[1]، ولكني لم أبرح مسائل تعرض للغويين والنحاة فكان لهم فيها قول وتوجيه.

وسأتخذ من لغة التنزيل العزيز مادة هذا البحث أستقريه فأقف على أنماط عدّة من هذا الذي يحزبني من هذا العلم القديم. ولا أراني متنكراً للنحاة الأقدمين فيما ذهبوا إليه، بل سأشير إلى تفسير جديد يتخذ من الدرس النحوي شيئاً من علم أوسع منه. ذلكم هو العلم اللغوي الذي يؤلف النحو فيه وجهاً من وجوهه، ولا أقول: كم ترك الأول للآخر. . .

وسيكون منهجي في الاستقراء منهجاً معجمياً آتي فيه على طائفة من الآي الشريف فأبسط فيها ما بدا لي أن يكون شيئاً يتصل بالنحو واللغة. وكأنّ اللغويين الأقدمين أدركوا أن النحو شيء من لوازمهم، وأن اللغة في مسيرتها تمدّ النحوي بفوائد جمّة. غير أن النحويين لم يجتهدوا هذا الاجتهاد فانصرفوا إلى نماذجهم يشقّقون فيها القول، فذهبوا مذاهب مختلفة جاروا

---

(١) ذهب المعاصرون من أهل النقد الأدبي إلى ابتداع (الشكل) و(المضمون)، ولم يكن هذا اهتداء منهم إلى المصطلح، بل إنهم ترجموا الكلم الأجنبي الفرنسي (Forme و Contenu).

فيها على سماحة العربية. وليس لي أن أعرض هنا لهذا الذي غلا فيه النحاة.

ومن المفيد أن أعرض لشيء يسير من هذا بين يدي هذا المبحث فأقول: عرف الدارسون للنحو القديم وغيرهم من الذين ثقفوا شيئاً منه في النحو المدرسي، مادة في باب (التوابع) هي النعت السببي، وهو الذي يقابل النعت الحقيقي الذي يصف المتبوع وليس غيره كالسببي الذي يصف شيئاً له علاقة بالمتبوع.

أقول: إن موطن الإشكال في هذه المقولة النحوية ما فيها من نقض للإسناد الذي تقوم عليه النظرية النحوية، ففي قولهم: «مررت بزيد الشقي أبوه»، يكون (الشقي) نعت سببيّ، لأنه وصف ما له علاقة بالمتبوع وهو (أبوه) وتبعه في إعرابه. غير أن (الشقي) في الجملة المذكورة مسند، وأن (أبوه) مسند إليه، وكأنّ الإعراب قد تجاوز الإسناد، فهل نقول: إن (الجرّ) في كلمة (الشقي) خطأ، والصواب الرفع، لا، لن نقول ذلك، لأن المعربين قد درجوا على الجر، وكلامهم حق، وما جرى على ألسنتهم هو ملاك العربية، وينبغي للنحاة أن يلمحوا تفسيراً آخر يتّجه إليه اجتهادهم في ذلك.

ولو أنهم اجتهدوا فذهبوا إلى غير ما ذهبوا إليه في باب (النعت السببي)، لأدركوا أن حكاية هذه المسألة كحكاية اللغويين في قولهم في «حُجْر ضَبّ خَرِبٍ» أن الجرّ في (خَرِب) جاء على الجوار، ومجاورة (خَرِب) لـ (ضَبّ) حملت إليه الجر.

أقول: ليس (الجوار) سبباً في هذا، بل قل: إن (المشاكلة) في اللفظ كانت سبباً في هذا.

ومراعاة الشكل هنا تقربنا من لفظ القدامى وهو (مراعاة اللفظ) الذي ذكر في مسائل كثيرة تتصل بالاستعمال اللغوي، وهو هنا يغني عن القول بالنعت السببي في حدوده النحوية.

إن حقيقة النعت فيما دعي أنه (سببي) نعت حقيقي للأب في قولهم: «مررت بزيدٍ الشقيّ أبوه»، وليست مسألة الإعراب مانعة لهذه الحقيقة اللغوية.

وقد جرى أدب العربية منذ أقدم العصور على هذا، قال أبو ذؤيب الهذلي:

وإن حديثاً منكِ لو تبذلينه ... جَنَى النحل في ألبانِ عُوذٍ مَطافِلِ
مطافيل أبكار حديثٍ نتاجُها ... يُشابُ بماءٍ مثلِ ماءِ المفاصلِ[1]

أقول: وهذا النظر إلى الشكل هو الذي دفع نافعاً والكسائي وأبا بكر عن عاصم وغيرهم أن يقرؤوا: ﴿سلاسلاً وأغلالاً وسعيراً﴾[2] [الإنسان ٧٦/٤]. ولم يقرؤوا قراءة الجمهور ﴿سلاسلَ﴾ لأن الكلمة غير منوّنة. هذه هي (المشاكلة) التي تجاوزت المعروف في (سلاسل) من عدم تنوينها وهو الأصل.

هذان نموذجان روعي فيهما (الشكل)، وعلى هذا يحق لنا أن نقول في جرّ (الشقيّ)، في الجملة المذكورة: إن مراعاة الشكل أو المشاكلة قد اهتدى إليها المعربون فجروا على ما اقتضته سماحة العربية.

وبعدُ، فهل لي أن أقول بهذه (المشاكلة) فأجري عليها قوله تعالى: ﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالمِ أهلها﴾ [النساء ٤/ ٧٥]. وهو القول بـ (الجوار) على رأي الأقدمين من علماء العربية، واحتساب الجرّ للمشاكلة ابتعاداً من (السببي) الذي بسطت فيه القول؟

ومثل هذا يقال في قوله تعالى: ﴿ثم يُخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾ [الزمر ٢١/٣٩] وقوله تعالى ﴿ألم تَرَ أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها﴾ [فاطر ٢٧/٣٥].

---

(١) قوله: (مطافل ومطافيل) جمع (مُطفِل) أي ذات طفل، وهو كذلك في الإنس والوحش. ومن هنا نعرف أن (مُفعِل) اسم فاعل يجمع هذا الجمع مثل (مُفعَل) كمصَاعِب جمع مُصعَب للجمل القوي، وكذلك (معجم) معاجم وهو صحيح، وليس كما ذهب نفر من أهل التصحيح إلى خطأ (معاجم) واستبدلوا به (معاجيم) أو (معجمات). نعم قد يكون جمع (مُفعَل) (مَفاعيل) مثل مُسنَد ومسانيد في الحديث الشريف، وكذلك مُرسَل ومراسيل... وقول أبي ذؤيب باستعمال مطافيل ومطافل في البيتين جرى على القياس الكثير وليس للضرورة مكان.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (ط. دار الشعب في القاهرة) ٦٩١٤/٨

وقد ينبري غير واحد من الدارسين فيردّ عليَّ قولي هذا بالمشاكلة أو مراعاة الشكل، ملتزمين بقول النحاة في (النعت السببي). وما أريد أن أفسد على كل رادٍ علي قولي، ولكني أقول: إن المشاكلة بسبب الجوار تصرفنا عن افتعال شيءٍ يقوم على أساس فاسد، وهو إذا كان النعت لمنعوت معروف فكيف يكون إعرابه مبطلاً لهذه العلاقة النحوية؟

و (المشاكلة) مسألة ثبتت في مواضع كثيرة كما ستتبيّن.

ولنعرض للمواد التي جاءت في لغة التنزيل مرتبة على حروف المعجم:

١ - ﴿أبابيل﴾:

أنظر (طير).

٢ - ﴿أمّة﴾:

جاءت كلمة ﴿أمّة﴾ في اثنتين وخمسين آية، وهي اسم جمع، وهي مؤنثة[١]، وقد وردت موصوفة بوصف مؤنث نحو قوله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ [البقرة ٢/٢١٣].

وفي وصف ﴿الأمة﴾ بـ ﴿واحدة﴾ مراعاة للفظ، وهي المطابقة بين المؤنث موصوفاً والمؤنث صفة. وجاء قوله تعالى: ﴿ تلك أمة قد خَلَت لها ما كسَبَت... ﴾ [البقرة ٢/١٤١]. وفي هذه الآية مراعاة للفظ واجبة تتحقق في مجيء الفعل بعد ﴿أمّة﴾ مختوماً بتاء التأنيث، ويؤكد هذه المراعاة أيضاً الضمير في ﴿لها﴾، وكذلك اسم الإشارة ﴿تلك﴾.

إن هذه المراعاة للفظ هي مراعاة للشكل، وهي (المشاكلة) للّفظ أيضاً، ذلك أن وصف ﴿أمّة﴾ بصفة ما لا يتحقق حملها على جنس معين

---

(١) أقول: إن ﴿ أمة ﴾ ومثلها ﴿ طائفة ﴾ وكثير غير هذا، يحمل كله على أنه مؤنث لورود التاء التي هي علامة تأنيث في الأصل، وإن انصرفت الأمة والطائفة وغيرها إلى جملة الناس، إن التاء في هذه الأسماء لا تقصر الاسم على التأنيث حقيقة، ومن أجل ذلك جعل هذا المؤنث لفظياً. وقد شاع التأنيث في الجمع حتى عدوا كل جمع مؤنثاً أصالة، فلما خرج الجمع السالم المذكر كان لزاماً أن يخصص بالتذكير وصفاً لخروجه عن الكثير الغالب.

مذكراً كان أم مؤنثاً، وهو كلمة «وَسَط» كما في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمّةً وَسَطاً﴾ [البقرة ٢/١٤٣].

ونقرأ قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير...﴾ [آل عمران ٣/١٠٤] فنجد الفعل الأول يشير إلى الفاعل المؤنث وهو ﴿أمّة﴾، والفعل مبدوء بتاء المضارعة، وليست هذه إلا علامة تطابق بين الفعل والفاعل. وفي هذا يتحقق النظر إلى الشكل الذي يظهر في المطابقة. ثم إن الفعل الآخر الذي يلي الفاعل مسند إلى ضمير الجمع المذكر، وهو الواو في ﴿يدعون﴾، وهذا يعني أن المطابقة قد زالت، وأن مجيء الفعل على إسناده إلى الواو ليشير إلى مراعاة المعنى، وهذا هو النظر إلى المعنى، و﴿الأمّة﴾ جماعة من الناس غلب عليهم التذكير. وعلى هذا جاءت وقد روعي اللفظ شكلاً ثم المعنى حقيقةً، وهذا بعض بديع لغة التنزيل.

ومن المفيد أن نختم الكلام على هذه المراعاة وتواترها في اللفظ والمعنى بقوله تعالى: ﴿وإن تُكذِّبوا فقد كذَّبَ أممٌ من قبلكم﴾ [العنكبوت ٢٩/١٨]، والمراعاة في هذه الآية إلى المعنى بدلالة الفعل الأول الذي جاء فيه الخطاب للذكور عامة، فلما جيء في حشو الآية بكلمة ﴿أممٌ﴾ روعي المعنى ثانية.

٣ ـ ﴿ إنس ﴾:

وردت كلمة (إنس) في ثماني عشرة آية، وقد وردت في دلالتها على بني الإنسان، وهي ترد مع ﴿الجنّ﴾ في حيّز واحد إلا في آيتين جاءت مع (الجانّ) بمعنى الجنّ، ولها في هذه الآيات خصوصية لغوية من حيث إفرادها وجمعها.

قال تعالى: ﴿يا معشر الجنّ والإنس ألم يأتِكم رسلٌ منكم﴾ [الأنعام ٦/١٣٠].

وهي هنا دالة على الجمع المذكر بدلالة الضمير في الفعل ﴿يأتِكم﴾، ولكنك تقف على الإنس والجن في قوله تعالى: ﴿ لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾ [الإسراء ١٧/٨٨]. فتجد

الفعل ﴿ اجتمعت ﴾ فتدرك أنها جعلت جمعاً مؤنثاً بمعنى طائفة أو أمة، ولكنك أيضاً تفاجأ حين ترى الفعل بعدها ﴿يأتوا﴾ فتعود إلى مراعاتها جمعاً مذكراً عُدّت كجمع المذكر السالم باختصاصه بالعاقل ولوازمه.

ونقرأ قوله تعالى: ﴿ فيهنّ قاصرات الطرف لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جان﴾ [الرحمن ٥٥/٥٦]. و(الإنس) هنا جماعة ذكور بدلالة الفعل ودلالة المعنى.

وقد روعيت كلمة (الجنّ) مراعاة الإنس في الإفراد والجمع والتذكير والتأنيث، فللجنّ رجال ونساء كما هي الحال في الإنس، قال تعالى:

﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن...﴾ [الجن ٧٢/٦] و﴿ الإنس ﴾ و﴿ الإنسان ﴾ مادة واحدة، فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وخُلق الإنسان ضعيفاً﴾ [النساء ٤/٢٨] أدركنا دلالة العموم على الإفراد والجمع والتذكير والتأنيث.

على أن العربية قد نسبت إلى الإنس للوصول إلى الواحد، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسيّاً﴾ [مريم ١٩/٢٩]. وقد جُمع (الإنسيّ) الواحد بعيداً عن (الإنس) فكان من ذلك قوله تعالى: ﴿ونسقيه ممّا خلقنا أنعاماً وأناسيّ كثيراً﴾ [الفرقان ٢٥/٤٩][1].

٤ - ﴿بَشَر﴾:

وردت كلمة ﴿بشر﴾[2] في سبع وثلاثين آية وها أنذا أعرض لتفصيل ذلك:

(١) أقول: وقد وردت ﴿الجِنّة﴾ اسم جمع آخر في الجنّ في قوله تعالى: ﴿... من الجِنّة والناس﴾[الناس ١١٤/٦]. وقد اشتق (الجنون) من (الجن) و(الجِنّة) والمجنون من داخلته (الجن). ومثل (الجنون) مصدراً (الجِنّة) بالكسر مصدراً آخر، والكلمة إذن اسم جمع مثل (الجن) ومصدر كالجنون في قوله تعالى: ﴿أولم يتفكّروا ما بصاحبهم من جِنّة﴾ [الأعراف ٧/١٨٤].

(٢) دلّت ﴿بشر﴾ على بني الإنسان عامة، وهي من غير شك تومىء إلى الأصل، وهو جمع (بَشَرة) وهو ظاهر الجلد، مثل: شجرة وشَجَر وغير هذا. وقد يصل الدارس إلى هذا التحول في

لقد جاءت في قوله تعالى: ﴿قالت ربِّ أنّى يكون لي وَلَد ولم يمسَسْني بَشَر﴾ [آل عمران ٣/٤٧] أقول: لا بدّ أن نعرض لدلالة ﴿بَشَر﴾ ليتأتّى لنا أن نقول في مراعاتها والنظر إليها. إنها في هذه الآية تعني الرجل، وهي على هذا مفرد مذكر، وكذلك روعي المعنى.

وجاء في قوله تعالى: ﴿بل أنتم بشر ممن خَلَق يغفر لمن يشاء﴾ [المائدة ٥/١٨]، وهي هنا جمع مذكر بدلالة الضمير (أنتم).

إن كلمة ﴿بشر﴾ لها نظائر في العربية، فلا يترشح منها جنس بعينه، وقد يستفاد هذا من قرائن لفظية كما رأينا. وهي تارةً مذكر مفرد، وأخرى مؤنث، ثم جمع بنوعيه.

٥ ـ ﴿بعض﴾[١]:

عرض لهذه الكلمة غير واحد من المعنيين بالكلم القديم واستعماله في العربية، كما عرض لها أهل التصحيح اللغوي، فمنهم من قصر دلالتها على الواحد، وفي هذا مراعاة للشكل، فلفظ (بعض) مفرد في ظاهره مذكر. ومنهم من صرفها إلى الجمع، وكأنّ هؤلاء لمحوا فيها ما يُلمَح في مقلوبها، وهو (بضع)، ودلالتها على ما بين الثلاثة والعشرة. والذي أراه أن (بعض) تدلّ على الواحد كما تدل على الجمع، وفي كليهما وردت الشواهد[٢]، ولنبدأ بالشواهد غير ما ورد منها في لغة التنزيل العزيز، ثم نعقبها بشواهد الآي الكريم فنقول:

= الدلالة إذا أدرك أن كلمة ﴿بشر﴾ وردت في لغة التنزيل في معرض الإنسان الفاني الذي يموت، والذي خلقه الله الخالد الباقي الذي لا يموت، قال تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قَبْلك الخلد أفإن متَّ فهم الخالدون﴾ [الأنبياء ٢١/٣٤]. فكأن (البشر) الفاني من (البشرة) التي تفنى.

(١) ذهب الأستاذ الدكتور مصطفى جواد ـ رحمه الله ـ إلى أن (بعض) تدل على الإفراد، ولا تدل على الجمع إلا إذا كرّرت، ذكر هذا واستشهد عليه ببعض الآي الكريم وبالشعر القديم، في كتابه (قل ولا تقل).

(٢) تجمع لدي قدر من الشواهد الدالة على مجيء (بعض) مفيدة المفرد تارةً، والجمع تارة أخرى. وقد استدرك الأستاذ صبحي البصام على الأستاذ الدكتور مصطفى جواد فأتى بشواهد كثيرة مفيدة في الدلالة على المفرد والجمع في كتابه (الاستدراك على «قل ولا تقل»).

ونستدل على دلالة (بعض) على الواحد في قول لبيد:

تَرّاكُ أمكنةٍ إذا لم أرضها ... أو يرتبط بعضَ النفوس حِمامُها

وفي قول زهير:

ولأنتَ تفري ما خَلَقتَ وبعـ ... ـضُ القوم يخلُقُ ثمّ لا يفري

وفي قول بشار:

يا قوم أُذني لبعض الحيِّ عاشقةٌ ... والأذنُ تعشَقُ قبل العين أحيانا

وفي قول أبي دلامة(١):

أُقادُ إلى السجون بغير ذنبٍ ... كأنّي بعض عمّال الخراجِ

وتدل (بعض) على الواحد مع تكرارها، ومن ذلك ما جاء في (الكامل)(٢) وهو يشرح قول النبيّ - صلى الله عليه وسلم -: «لو تكاشفتمُ ما تدافَنتُم»، قال المبرّد: يقول لو علم بعضكم سريرة بعضٍ لاستثقَلَ تشييعه ودفنه.

وأما دلالة (بعض) على الجمع من غير تكرار فذلك كما في قول المرقِّش الأصغر(٣):

شهدتُ به عن غارةٍ مُسبطرّة ... يطاعُنِ بعضُ القوم والبعضُ طوّحوا

وفي قول عبد الله بن رواحة(٤):

ولو سألت أو استنصرتَ بعضهم ... في جُلِّ أمرك ما آوَوا وما نَصَروا

وجاء في (نهج البلاغة)، أن الإمام عليّاً - عليه السلام - قال: «... حتى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة»(٥).

---

(١) العقد الفريد ٢٦١/١

(٢) الكامل ٢٥٩/١

(٣) جمهرة أشعار العرب ص ٢٠١، ط. صادر.

(٤) طبقات الشعراء ص ٨٨، ط. أوروبا.

(٥) نهج البلاغة ٢٥١/١، ط. البابي الحلبي.

وقـال جـرير[١]:

ألا ليتَ أن الظاعنين بـذي الغضا   أقـاموا وبعض الآخـرين تحمّلوا

وقـال الفرّاء: «وبعض بني أسـد وقضاعة ينصبون (غير) إذا كـان في معنى (إلّا)»[٢]. وجـاء في (البيـان والتبيين): «. . . وقـال حين مرّ ببعض القوم فشتمـوه»[٣].

وإذا كـانت (بعض) قد دلـت على الواحد والجمع، فهي تـدلّ على المثنى أيضاً، فقـد جـاء في قـول أبي العباس ثعلب: «. . . لأنّ بعض الأصابع يـكون إصبعاً وإصبعين وأصـابع»[٤].

ولنعـد إلى استقراء (بعـض) في لغـة التنزيل فنقول: إنهـا جـاءت للدلالة على الواحد، وذلك في قـوله تعالى: ﴿ولو نزَّلنـاه على بعض الأعجمين فقـرأه﴾ [الشعـراء ٢٦/١٩٨ ـ ١٩٩]. والدلالة على الواحد واضحةٌ بـدلالة الفعل اللاحـق ﴿فقـرأه﴾، ويتجلى في هـذا مراعاة الشكل وهو الواحـد دون النظر إلى المعنـى وهو الجمع.

ومثـل هـذا قـوله تعالى: ﴿وإذ أسَرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلمّا نبّأت به. . .﴾ [التحريم ٦٦/٣] و﴿بعـض﴾ في هذه الآية إحـدى أزواج النبيّ ـ صـلى الله عليه وسلم ـ.

وقـد يُحمل ﴿بعض﴾ على الواحـد على سبيل الرجحـان كما في قوله تعالى: ﴿ وألقُوه في غيابت الجبّ يلتقطه بعض السيّارة ﴾ [يوسف ١٢/١٠]. فبعض السيـارة قد يـكون أحـدهم استرجاحاً.

والكثير في ﴿بعض﴾ في كـلام الله ـ عـز وجـل ـ دالّ على الجمع، وفي ذلـك يتحقق النظر إلى المعنى، كقـوله تعالى: ﴿. . . إن نقـول إلا اعتـراك بعض آلهتنـا بسـوء﴾ [هـود ١١/٥٤]. وإذا كنـت أسترجح دلالة الجمع فـإن

---

(١) ديوان جرير ص ٢٥٥، ط. الصاوي.
(٢) مختار الصحاح للرازي (غير).
(٣) البيان والتبيين ٢/٩٤، ط. السندوبي.
(٤) لسان العرب (بعض).

لدلالتها على الواحد وجهاً. و (بعض) الآلهة قد يكون جمعاً، وقد يكون واحداً، وفي كليهما يتحقق ضرب من النظر والمراعاة للمعنى تارة وللفظ تارة أخرى.

قلت: إن دلالة (بعض) على الجمع كثير، ويتحقق هذا بتكرارها كقوله تعالى: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوٌّ﴾ [البقرة ٢/٣٦].

وقوله تعالى: ﴿تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض﴾ [البقرة ٢/٢٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وكذلك فتنّا بعضهم ببعضٍ ليقولوا أهؤلاء منَّ اللّهُ عليهم﴾ [الأنعام ٦/٥٣]. والدلالة على الجمع تتضح من المعنى، وقد تأتي مستفادة من قرينة دالة كقوله تعالى: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعضٍ﴾ [الأنفال ٨/٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وأقبل بعضهم على بعضٍ يتساءلون﴾ [الصافات ٣٧/٢٧].

وقد تأتي ﴿بعض﴾ مكرّرة دالّة على الواحد استرجاحاً، كقوله تعالى:

﴿وإن كثيراً من الخُلَطاء ليبغي بعضهم على بعض﴾ [ص ٣٨/٢٤].

وقوله تعالى: ﴿خصمان بَغَى بعضنا على بعضٍ فاحكمْ بيننا بالحق﴾ [ص ٣٨/٢٢].

وجملة هذه الآيات تكشف عن أن﴿بعض﴾مفرد في لفظه كما تبيّنا ذلك في الأدب القديم، وفي آيات عدّة، وهو جمع في معناه كما اتضح لنا أيضاً في الشعر وفي آيات عدة.

٦ - ﴿ بقر ﴾:

و (البقر) جمع لبيان الجنس، وقد روعي لفظه في لغة التنزيل العزيز فكان مفرداً مذكراً، كما في قوله تعالى: ﴿ . . . إن البقر تشابَهَ علينا﴾ [البقرة ٢/٧٠].

وقد روعي فيه المعنى فجاء الضمير الذي عاد عليه ضمير جمع كما في قوله تعالى: ﴿ومن البقر والغنم حرَّمنا عليهم شحومهما﴾ [الأنعام ١٤٦/٦].

وقد وردت (بقرات) وهي جمع مؤنث فروعي فيها المعنى وعدت جمع مؤنث سالماً كما في قوله تعالى: ﴿يوسف أيها الصِّدّيق أفتنا في سبع بَقَراتٍ سِمانٍ يأكلهن سبع عجاف...﴾ [يوسف ٤٦/١٢]. والجمع المؤنث بألف وتاء يراعى فيه دلالة الجمع المؤنث ليس غير.

٧ - ﴿ جبل ﴾:

و (الجبال) جمع (جَبَل)، وقد جاءت مؤنثة في لغة التنزيل، غير أن هذا المؤنث مع دلالته على الجمع كان له مع الفعل علاقة خاصة، وذلك أن الفعل لحقته التاء مع هذه الكلمة فاعلاً أو نائب فاعل كقوله تعالى: ﴿ولو أن قرآناً سيِّرت به الجبال...﴾ [الرعد ٣١/١٣].

ومثل هذا إذا وليها الفعل فكان لحاق التاء بالفعل واجباً كما هو معروف، كقوله تعالى: ﴿وإذا الجبال نُسِفَت﴾ [المرسلات ١٠/٧٧].

وتعامل (الجبال)، وهي جمع مؤنث، معاملة المفرد كما في قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوِّبي معه والطير...﴾ [سبأ ١٠/٣٤].

وهذا هو عود الضمير المؤنث المفرد على الجبال، وهي جمع، ويتبين أيضاً في قوله تعالى: ﴿ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربّي نَسْفاً﴾ [طه ١٠٥/٢٠].

وقد يأتي الفعل بعدها وقد لحقته نون الإناث كما في قوله تعالى: ﴿إنّا سخرنا الجبال معه يُسبِّحن بالعشيِّ والإشراق﴾[1] [ص ١٨/٣٨].

وتوصف الجبال بوصف مفرد مؤنث كما في قوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب﴾ [النمل ٨٨/٢٧].

(١) إسناد الفعل إلى نون الإناث يشير إلى أن (الجبال) كان لها ما يكون للعاقل.

وجملة هذا الذي بسطناه من الآي الكريم يشير إلى أن الجمع مؤنث، والتأنيث منظور إليه بحسب اللفظ، وقد يراعى المعنى فيثبت الجمع في الكلمة على الأصل(١).

٨ ـ ﴿ جمل ﴾ :

عرفنا ﴿ جمالة ﴾ في لغة التنزيل، وهي اسم جمع لـ (جَمَل) كالصَّحْب والصِّحابة ونحو هذا، وذلك في قوله تعالى: ﴿إنها ترمي بشَرَرٍ كالقصر، كأنه جِمالةٌ صُفْر﴾ [المرسلات ٧٧/٣٢ ـ ٣٣].

واسم الجمع في العربية يراعى فيه ما يراعى في المفرد مذكراً أو مؤنثاً، فالغالب في (المركَّب) الإفراد والتذكير كالوفد والسَّفْر والشَّرْب والقوم ونحو ذلك. وهذا هو النظر إلى لفظه فشكله شكل المفرد، وقد يراعى المعنى كما سنرى. ومثل اسم الجمع اسم الجنس الجمعي كالشجر والزهر والورد والتمر والنخل والنحل ونحو ذلك مما يكون مفردها بالتاء التي تشير إلى الواحدة من الجنس(٢).

غير أن ﴿جمالة﴾ قد وصفت بالجمع المؤنث وهو ﴿صُفْر﴾ جمع أصفر وصفراء، وفي هذا نظر إلى المعنى دون الشكل، وهو لفظ مفرد مؤنث.

٩ ـ ﴿ جنّ ﴾ :

أنظر (إنس).

---

(١) من بديع لغة التنزيل مراعاتها للشكل دون النظر إلى المعنى، فقد جعلت ﴿الجبال﴾ مفردة وهي مع الأرض في أسلوب من التثنية، قال تعالى: ﴿وحملت الأرضُ والجبال فدُكّتا دكةً واحدةً﴾ [الحاقة ٦٩/١٤].

(٢) إذا كانت التاء في شجرة وتمرة مفيدة للوحدة، وهذا هو الجاري في اسم الجنس فنستطيع أن نحمل على ذلك ما جاء من اسم الجمع الذي يصار إلى مفرده بياء النسبة نحو: يهود ومجوس ونصارى وروم وفرس وهنود وغير ذلك.
وقد قرئت ﴿جمالة﴾ هذه ﴿جمالات﴾ بمطل فتحة اللام، فتحولت إلى جمع مؤنث بالف وتاء، وإن كان المفرد (جمل) لا يجمع جمع مؤنث سالماً، وعلى هذا تحمل (جمالات) في هذه القراءة على أنها اسم جمع مثل ﴿جمالة﴾. ومطل الحركة لأن مطل الحركة لا يؤدي إلى هذا الجمع لافتقاره إلى المفرد (انظر: الكشاف ـ للزمخشري).

١٠ - ﴿ خصم ﴾:

إن (الخصـم) في عربيتنا المعاصرة مفرد مذكر، يقـال هو خصم إلى الآخـر، وكلاهمـا خصم، وكذلك يقـال: هـي خصم لصاحبتها، غير أن الكلمة في لغة التنزيل العزيز عُدَّت مثـل قوم ووفد ونحوهما، فقـد جـاء في قـوله تعالى:

﴿هـذان خصمان اختصموا في ربهـم﴾ [الحج ٢٢/١٩].

وقـوله تعالى: ﴿خصمـان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننـا﴾ [ص ٣٨/٢٢].

وقـوله تعالى: ﴿وهـل أتـاك نبأ الخصم إذ تَسَوَّروا المحراب﴾ [ص ٣٨/٢١].

و (خَصْم) في هـذه الآيـات تنصرف إلى الجمع فقـد روعي فيها المعنى ولم يُرَاعَ اللفظ. وهـي غير (خَصِم) النعت مثل (فَرِح) التي وردت مجموعة جمع تصحيح في قوله تعالى: ﴿ بل هم قوم خَصِمون ﴾[1] [الزخرف ٤٣/٥٨].

و (الخصـم) في العربية مفرد مذكر. كما بيّنا، ولم يجـر استعماله في الجمع، ومن أجل ذلك جمعوه على (فُعول) فقالوا: (خصوم).

١١ - ﴿ رحم ﴾:

و (الرحمة) في كتـاب الله مـادة مهمة، وممـا ورد فيها قـوله تعالى:

﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ [الأعـراف ٧/٥٦].

وفي هـذه الآيـة وصفت (الرحمـة) وهـي اسم حقيقي التأنيث بـ (قـريب) على جهـة الإسنـاد لا الوصف. وقد اكتفـى النحـاة بقولهم: إن مـا جـاء على (فعيل) هـو مما يستوي فيه المذكر والمؤنـث. وحملوا على هـذا بناء (فَعـول) نحو عجوز وصبـور. وقالوا أيضـاً: إن (فعيـل) الذي يستوي فيه المذكر والمؤنـث لا بـد أن يـكون بمعنى مفعول نحو: جـريح وقتيـل.

(١) (الخَصِم) بفتح فكسر هو المجادل.

أقول: وهذا ينفيه الاستقراء، وذلك لأن ﴿قريب﴾ مثلاً كما في الآية، ليس بمعنى (مفعول) بل بمعنى (فاعل). ومثله قوله تعالى: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ [التحريم ٦٦/٤]. وليس بعيداً عن هذا قوله تعالى: ﴿وكأيِّنْ من نبيٍّ قاتَلَ معه رِبِّيون كثير﴾ [آل عمران ٣/١٤٦].

وفي هذه الآيات انتفت المطابقة بين الصفة والموصوف، والمسند والمسند إليه، وليس لي أن أقول في هذه المسألة ما قلته في مراعاة اللفظ أو مراعاة المعنى. وعلى هذا ليس لي إلا أن أقول شيئاً آخر يتصل بتاريخ العربية وتطورها.

إن ﴿ظهير﴾ و﴿كثير﴾ مفردان مذكران، فكيف جاءا على النحو الذي ورد في الآيتين؟

إن ﴿ظهير﴾، وهو مفرد مذكر، جاء خبراً عن ﴿الملائكة﴾، وهي جمع مؤنث، و﴿ربِّيون﴾، جمع مذكر، و﴿كثير﴾ مفرد مذكر.

قد يكون لي أن أذهب إلى أن التأنيث حادث في العربية، وكأنّ اللغويين قد لمحوا هذا حين ذهبوا إلى أنه فرع على التذكير. والقديم هو المذكر وقد وُصِل منه المؤنث بالهاء، وهي العلامة التي أخذت مكانها أو بعلامة أخرى. وكأنّ مجيء ﴿قريب﴾ و﴿ظهير﴾، وكان ينبغي أن يكونا (قريبة) و(ظهيرة)، يشعرنا أن هاتين الكلمتين بقية من كلم قديم لم يصل إليهما شيء من علامة تميزهما وتخصصهما بالتأنيث.

ومثل هذا ما جاء في كلمة (زوج) وما ورد على (فَعول) نحو وَلود ورَؤوم و(كسول) وغيرها، وليس لنا أن نقول بقول أهل اللغة المتقدمين: إن هذه المواد مما يستوي فيه المذكر والمؤنث. وسبيلنا في هذه ما بيّناه في ﴿قريب﴾ و﴿ظهير﴾، وأنها بقية قليلة من الأبنية العربية التي لم تلحقها العلامة لاختصاصها بالمؤنث[1].

---

(١) أقول أيضاً: وليس الاختصاص بالمؤنث سبباً في ترك العلامة، بل إن هذا جار في غير العاقل فالوصف (سابق) و(جامح) ونحوهما بغير علامة في الخيل مذكراً ومؤنثاً.

والذي يقوّي هذا النظر لديّ، هـو أن هـذه المواد وردت في العربية القديمة مجرّدة عن عـلامة التأنيث، وأنهـا وردت للمؤنـث والمذكر، ومـن ذلك مـا جـاء في لغـة التنزيل كقـوله تعالى: ﴿وقلنـا يـا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة﴾ [البقـرة ٢/ ٣٥]. ومن المفيد أن أشـير إلى أن (الزوج) للرجـل لم يـرد في لغة التنزيل، ولكنـه معروف في العربية.

غـير أن العربية بـعد أن تجـاوزت عصـر القرآن قـد جدَّ فيها شيء اقتضـاه تبدل العصر، فقد جـد زمـان كـان من الضروري فيه التمييز بين المذكر والمؤنـث دفعاً للَّبس، ولأن الحيـاة الجديدة بعد تلك الحقبة كـان فيها من العلم بحـق المرأة (الزوج) في الإرث وسـائر الأحكـام مـا يفرض أن تميّز فيه عن حـقوق الرجل (الزوج) ومن هنـا كـان ضرورياً أن يقـال (زوجـة) للمرأة و(زوج) للرجـل وبذلك يتجنب اللبس والإبهـام. لقـد جـاءت (زوجـة) في الأدب الإسلامي[1]، ومـن ذلك مـا ورد في شعر الفرزدق:

وإن الذي يسعَى ليفسد زوجتي ‏ كساعٍ إلى أُسْدِ الشرى يستبيلُها

وفي قـول ذي الرمـة:

أذو زوجةٍ بالمِصْر أم ذو خُصومةٍ ‏ أراك لها بالبصـرة اليـوم ثاويـاً

وقـد شـاع هـذا الاستعمـال، وهو إلحـاق التاء في الكلم التي قـالوا فيها يستـوي المذكر والمؤنـث، وها نحـن نقـرأ قـول المتنبي: :

لكِ الله من مفجوعـة بحبيبهـا ‏ قتيلـة شوقٍ غير مُلحِقها وَصْمـا

و(قتيـل) عـلى (فعيل) بمعنـى مفعول.

ومـن الدليل على أن التأنيث حـادث ليس له أصالة التذكير مجيء طائفة من النعوت الخاصة بالمرأة التي عريت عن العلامة، وليس من لـبس يقتضي عـلامة مميزة نحـو: طـالق وعاقر ونـاشز وحـامل ومرضع ومطفل وغير هـذا كثير، وقد أشـرت إلى بعض هـذا.

---

(١) رفض الأصمعي استعمال الشعراء لـ (زوجة) بـدلاً من (زوج) التي وردت في لغـة التنزيل، وأبى أن يـأخـذ بقـول المولدين ومنهم الكميت الأسـدي. انـظر: الموشح للمرزبـاني ص ١٨٠، وتـاج العروس (زوج).

ومن الدليل على أن التأنيث حادث وليس بأصيل أيضاً ميل العربية إلى الابتعاد عن المؤنث بجعل الفعل يعرى، مما يشير إلى المؤنث الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿وقال لهم خَزَنَتها سلام عليكم﴾ [الزمر ٣٩/٧٣]. وذلك لأن القارىء قد يلمح أن الفاعل جماعة ذكور، ولم يفرض العلامة كون الفاعل مؤنثاً لأنه جمع تكسير. وقد عبر النحويون عن هذا بقولهم إن الفعل فصل عن الفاعل بقوله تعالى: ﴿لهم﴾.

وأدلّ من هذا قوله تعالى: ﴿وقال نسوة في المدينة﴾ [يوسف ١٢/٣٠]. وقد عري الفعل عن العلامة مع أنه مؤنث حقيقة. ومن المفيد أن أتبع هذا بما ورد من مجيء الصفة مذكرةً والموصوف مؤنثاً، وذلك في قوله تعالى:

﴿خُشَّعاً أبصارهم﴾ [القمر ٥٤/٧] أن قوله تعالى: ﴿خُشَّعاً﴾ هو جمع (خاشع) مثل (سُجَّد) جمع (ساجد) وقد عادت إلى الأبصار، بل وصفت الأبصار على بالسببيّ، وفي هذا إغفال للتأنيث وصرف القول إلى التذكير وكأنه الأصل، في حين وصفت (الأبصار) بـ (خاشعة) في قوله تعالى:

﴿خاشعة أبصارهم﴾ [القلم ٦٨/٤٣].

وجاءت مراعاة المعنى في كثير من الكلم الذي قد يعني الكثرة كما رأينا في (بعض)، وكما هو حاصل في (كل) و(جميع)، ولكن هذه المراعاة تجاوزت هذا إلى ما هو أقرب من ذلك وهو جمع ما له واحد من لفظه[1] أو غيره كما سنرى.

---

(١) قلت: مما له واحد من لفظه، وذلك أن (ذباب) ومثله كثير هو الأصل الذي أخذ منه المفرد (ذبابة) بالتاء، وهذا يعني أن المفرد حادث، وذلك لأن الأصل الدال على معنى الجمع قد يشيع في الكلام فيميل المعربو ن إلى أخذ مفرد منه على حدَة، ألا ترى أن (الأسطورة) مثلاً جاءت من (الأساطير) التي هي جمع الجمع لـ (سطر) والجمع (أسطار وأسطُر وسطور)، وقد أخذ منها المفرد بعد انصراف دلالتها من معنى (الكتابة) التي هي جمع الجمع لـ (سطر) إلى معنى الحكاية ذات الصبغة الخرافية، ومثل هذا كثير. وقد تكون (فردوس) شيئاً من هذا، فقد عرّب العرب كلمة (فراديس) وحسبوها جمعاً فأخذوا المفرد، ولا أظن (إبيّل وإبّول) قد عرفها العرب، بل إنها من صنع حذّاق اللغويين حين وقفوا على ﴿أبابيل﴾ في قوله تعالى: ﴿ طيراً أبابيل ﴾ [الفيل] فظنوها جمعاً، وأكتفي بهذا القدر.

١٢ ـ ذباب:

و(الذباب) جنس واحده ذُبابة، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿وإنْ يسلبْهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ [الحج ٧٣/٢٢]. إن معنى الجمع في ﴿الذباب﴾ كائن، ولكن العربية صرفته إلى الأفراد أخذاً بظاهر الكلمة، ذلك أن (فُعال) ليس من أبنية الجمع أصالة، وما ورد منه فهو قليل نادر نحو: تُؤام، وظُؤار، ورُخال، وأكثر ما ورد على (فُعال) مفرد من الأسماء والمصادر. ويستدلّ على هذه المراعاة في الآية مجيء الضمير الذي عاد على ﴿الذباب﴾ مفرداً.

١٣ ـ ذُريّة:

و(الذريّة) الأبناء والبنات وأبناؤهم جميعاً. و(الذريّة) من أسماء الجمع، وهي بوجود العلامة أقرب إلى التأنيث وإن كانت دلالتها عامة. وقد وردت في قوله تعالى: ﴿وله ذرية ضُعَفاء﴾ [البقرة ٢٦٦/٢]. و(الضعفاء) وصف لها، وهو جمع (ضعيف)، وليس في هذا شيء، فقد رُوعي المعنى على (التغليب) الذي قال به اللغويون. غير أن مراعاة الشكل واللفظ قد وردت أيضاً في قوله تعالى: ﴿ربِّ هَبْ لي من لدنكَ ذريَّةً طيّبة﴾ [آل عمران ٣٨/٣]. فقد وصفت ﴿ذريّة﴾ بصفة مفردة مؤنثة هي ﴿طيبة﴾ مراعاةً للفظها، كما ورد الضمير العائد عليها مفرداً مؤنثاً في قوله تعالى: ﴿... ذريّة بعضها من بعض﴾ [آل عمران ٣٤/٣].

١٤ ـ رسل:

قال أهل اللغة: إن الجمع في العربية مؤنث على التغليب، ذلك جمع المذكر السالم مذكر ليس غير[1]. وقد جاء كلام العرب مؤيداً هذا الذي

---

(١) قلت: إن الجمع مؤنث غالباً، وقد استبعد الجمع المذكر السالم، ومن المفيد أن أشير إلى أن ما ألحق بهذا الجمع السالم قد اتبع فيه هذا المشهور من تأنيث الجمع نحو: سنون وأهلون ومئون ونحو ذلك. ولعل من المفيد أن أشير إلى أن (بنون) قد روعي فيها التأنيث مع أنها جمع لـ (ابن) فقد جاء في قوله تعالى: ﴿لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ [يونس ٩٠/١٠]. وقد يُتأوّل هذا في أن المراد بـ (بنو إسرائيل) (أمة) أو (طائفة) أو نحو ذلك.

لاحظوه. ولنعرض لكلمة (رُسُل) وهي جمع (رسول) وهي بذلك أخصّ بالتذكير، بل قل: إن التذكير فيها أصالةً بالنظر إلى المفرد.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿رُسُلاً مبشّرين ومنذرين...﴾ [النساء ٤/١٦٥]، وقوله تعالى: ﴿... يوم يجمع الله الرسُلَ فيقول ماذا أجبتم﴾ [المائدة ٥/١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتِكم رُسُلٌ منكم﴾ [الأنعام ٦/١٣٠]. والتذكير حاصل بالوصف المجموع وبالضمير المذكر العائد على ﴿الرسُل﴾. غير أننا نجد أيضاً أن مراعاة اللفظ قد وردت فتحقّق بها التأنيث كما في قوله تعالى: ﴿قد جاءت رُسُل ربّنا بالحق﴾ [الأعراف ٧/٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وإذا الرسل أقّتَتْ﴾ [المرسلات ٧٧/١١].

١٥ - رفرف:

وردت كلمة ﴿رفرف﴾ في لغة التنزيل في قوله تعالى: ﴿مُتَّكئين على رَفْرَفٍ خُضرٍ وعَبْقري حِسان﴾ [الرحمن ٥٥/٧٦].

و (الرفرف) في كتب العربية ينصرف إلى (المحابس) جمع (محبَس) مثل (مقعَد)، وهو ثوب يطرح على ظهر الفراش كما أثر عن ابن عباس - رضي الله عنه - وقيل: الفُرش والبُسُط والزرابيّ. وقال أبو عبيدة: حاشية الثوب أو ما يتدلّى مما يوضع على الفُرُش. وهو مفرد ولكنه وصف بـ ﴿خضر﴾ والوصف جمع، وفي هذا مراعاة لدلالة ﴿رفرف﴾ على شيء غير محدود، فالإفراد لا يتحقق فيه في المعنى، وإن كان بناؤه لا يشير إلى أبنية الجموع. وهذا شيء من بديع لغة التنزيل في إدراكها لحقائق الألفاظ. وكأن قراءة من قرأ (رَفارف) بالجمع جرى على سماحة العربية وحرصها على مطابقة الصفة والموصوف. وهي قراءة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - والجحدريّ والحسن وغيرهم[٢].

وجاء في هذه الآية أيضاً ﴿ وعبقَريٍّ حسان ﴾، وقيل: إنه الديباج أو الطنافس الثخان. وجعله أهل اللغة مفرداً وجمعاً.

---

(١) تفسير القرطبي (ط. دار الشعب) ٦٣٦١/٧

وأما في لغة التنزيل فهو مفرد اللفظ شأنه شأن (الرفرف) في دلالته لعامة، وقد وصف بالجمع لمحاً لهذه العمومية.

وقد قرىء (عَباقريّ) وكأنه منسوب إلى (عَباقر) وهي جمع، وهذه القراءة تطابق بين الجمع الموصوف وصفته. وقرأ بها أيضاً عثمان - رضي الله عنه - والجحدريّ والحسن وآخرون[1].

١٦ - ريح:

جاءت كلمة الرياح في لغة التنزيل، وهي جمع، وقد نظر فيها إلى التأنيث فوصفت بالجمع المؤنث كما في قوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح...﴾ [الحجر ١٥/٢٢]. وقوله تعالى ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشّرات...﴾ [الروم ٣٠/٤٦]. وقد يتقدمها الفعل مشيراً إلى تأنيثها، كما في قوله تعالى: ﴿... فأصبَح هشيماً تذروه الرياح﴾ [الكهف ١٨/٤٥].

١٧ - زوج:

وتأتي (أزواج) في لغة التنزيل جمعاً لـ (زوج)، وهي زوج الرجل، كما أتت جمعاً لـ (زوج)، للأنعام وغيرها مما ينبت في الأرض من الشجر والنبات.

فأما (الأزواج) في دلالتها على جمع (زوج) للرجل، فقد جاءت موصوفة بصفة مفردة، وفي التأنيث مراعاة للحقيقة، ولكن الإفراد شيء جرت عليه العربية في وصف الجمع خلا جمع المذكر السالم[2]، ومن ذلك قوله

(١) تفسير القرطبي (ط. دار الشعب في القاهرة) ٧/٦٣٦٣

(٢) يوصف جمع المذكر السالم بصفة جمع مذكر فيقال المسلمون المؤمنون، والزيدون حكماء، والمهندسون الأفضلون. ولكن الجموع الأخرى، وهي جموع التكسير لا ضابط فيما يأتي بعدها من وصف، فقد يكون مفرداً مؤنثاً، وقد يكون جمعاً مؤنثاً حقيقة أو ما حمل على التأنيث. وأما جمع المؤنث السالم فيوصف بالجمع المؤنث. وقد يأتي الوصف مفرداً. وقالوا: لا يوصف جمع التكسير بـ (فعلاء) فلا يقال: صحائف بيضاء، بل يقال بيض، وكأن الاستقراء يؤيد هذا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ومن الجبال جُدَدٌ بيض وحمر مختلفٌ ألوانها﴾ [فاطر ٣٥/٢٧]. أما ما كان من أسماء الجموع فلا ضابط في مجيء الوصف فقد يوصف اسم بمفرد مذكر أو مؤنث مراعاة للفظه أو معناه كما يوصف بالجمع أيضاً.

تعـالى: ﴿ولهـم فيها أزواج مطهّرةٌ﴾ [البقرة ٢/ ٢٥].

وقـد ورد الضمير العائد على ﴿أزواج﴾ مفرداً مؤنـثاً، وذلك في قـوله تعـالى: ﴿ومن آيـاته أن خـلق لكـم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾ [الروم ٣٠/٢١].

غـير أننا نجد (الأزواج) وقد روعي فيها التأنـيث والجمع فعاد عليها (النـون) ضمـير النسوة كمـا في قوله تعـالى: ﴿والذين يُتَوفَّون منكم ويَذَرون أزواجاً يتربَّصْن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ [البقرة ٢/ ٢٣٤]. وفي قـوله تعـالى: ﴿يـا أيها النبيّ إنّا أحللنا لك أزواجك اللاتـي آتيتَ أجورهنّ﴾ [الأحـزاب ٣٣/ ٥٠].

١٨ ـ سحب:

لـقد ورد (السحـاب) في جمـلة من الآي الكريم، وهو في بعضها مفـرد مذكر بـدلالة الوصف، وفي هـذا مراعاة للفظ، فاللفظ مفـرد مذكر، كما في قـوله تعالى: ﴿وإن يَرَوا كِسَفاً من السماء ساقطاً يقـولوا سحـاب مركوم﴾ [الطور ٥٢/ ٤٤]. وقـوله تعالى: ﴿. . . والسحـاب المسخَّر بين السماء والأرض﴾ [البقرة ٢/ ١٦٤].

وقـد يـأتي بعده ضمير مفرد مذكر يعـود عليه نحـو قوله تعالى: ﴿الله الذي يـرسل الريـاح فتثير سحـاباً فيبسطه في السماء كيـف يشـاء﴾ [الروم ٣٠/ ٤٨].

غـير أنـك تجد (السحـاب) في آيتين قد وصف صفـةً مجموعة تخلص للتأنيث، وهـذا يعني أن المعنى قد روعي فيهما، كقـوله تعـالى: ﴿ويُنشِئ السحابَ الثقـال﴾ [الرَّعـد ١٣/ ١٢]، وقـوله تعـالى: ﴿. . . حتّى إذا أقَلَّت سحـاباً ثقَـالاً. . .﴾ [الأعـراف ٧/ ٥٧].

١٩ ـ سنبـل:

ويحـسن بنا أن نقـف على (سُنُبلة) في لغـة التنزيل العزيز فنقرأ قوله تعـالى:

﴿إني أرى سبعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يأكلُهُنَّ سبع عجاف وسبع سنبلات خضر﴾ [يُوسف ١٢/٤٣]. أقول: وجمع المؤنث في ﴿سنبلات﴾ وغيرها هو جمع أدنى العدد (أي القلّة)، وهو يفيد هذه القلة في كل اسم يجمع هذا الجمع، إلا إذا كان الاسم ليس له جمع إلاّ بالألف والتاء نحو: البنات والهبات وغيرهما، فهو في هذه الحالة يدل على الكثرة، ولا ينصرف إلى القلّة. إلا بقرينة دالة، فيقال مثلاً: سبع بنات، وعدة هِبات. فإذا قلنا: سبع سنبلات فهي جمع قلة من غير دلالة العدد عليه، ومثله ﴿بقرات﴾ التي وردت في الآية فالكثير فيهما (سنابل) و (بقر).

فإن قيل: لم كانت ﴿سنابل﴾، وهي جمع تكسير مفيدة القلة في قوله تعالى: ﴿كمثل حبّةٍ أنبتت سبع سنابلَ...﴾ [البقرة ٢/٢٦١]. قلت: إن ﴿سنابل﴾ تفيد الكثرة إلا بقرينة دالة، وهي هنا العدد ﴿سبع﴾، فقد قيدت بالعدد وصرفت إلى القلة.

٢٠ ـ سوء:

ولنعد إلى مراعاة المعنى في بناء الجملة القديمة فنجد كلمة ﴿السّيئات﴾ في قوله تعالى: ﴿ولئن أذقناه نَعماء بعد ضَرّاء مسّته لَيقولَنّ ذهَبَ السّيئات عنّي﴾ [هود ١١/١٠] وفي هذه الآية ورد الفعل ﴿ذهب﴾ وفاعله ﴿السيئات﴾ جمع مؤنث حقيقي التأنيث، وليس بينه وبين الفاعل فاصل كما في قوله تعالى: ﴿... فأصابَهم سيّئات ما عملوا﴾ [النحل ١٦/٣٤]، فالضمير الغائب في هذه الآية فصل بين الفعل والفاعل. على أن هذا الفاصل أو نحواً منه غير موجود في الآية الأولى، وهذا بعض بديع لغة التنزيل.

والذي نفيده من هذه المشكلات اللغوية هو الفائدة التاريخية، ذلك أن لغة التنزيل تقدّم لنا ما نستعين به على تتبّع تطور العربية.

ولنقف قليلاً على كلمة ﴿سَوأة﴾، وهي ما يجب أن يستر من عورة الرجل والمرأة، وذلك في قوله تعالى: ﴿... كيف يُواري سَوْأةَ أخيه﴾ [المائدة ٥/٣١]، وتجمع ﴿سوأة﴾ على (سَوْءات) جمعاً مؤنثاً كما في قوله

تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري سَوْآتكم﴾ [الأعراف ٧/٢٦]. غير أن هذه الكلمة قد وردت في آية أخرى في الكلام على آدم وحوّاء مجمعت، وقد أشير إلى المثنى في الآية بالضمير الخاص بالتثنية، قال تعالى ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وُوريَ عنهما من سوآتهما﴾ [الأعراف ٧/٢٠]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فبدَت لهما سوآتهما﴾ [طه ٢٠/١٢١]. وهذا باب في حقيقة المثنى في العربية فهو أقل الجمع، وفي جمع ما حقه التثنية إحسان في الأداء، وإن ﴿سَوْأة﴾ لو ثنيت ولحقها ضمير التثنية لم تكن مستوفية للحسن الذي امتلكته في الآية وهي بلفظ الجمع. وهذا من لطائف لغة التنزيل العزيز وبديعه.

أقول: ومثل هذا جاء قوله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبُكما﴾ [التحريم ٦٦/٤] فقد جمعت كلمة (قلب) ولم تُثَنَّ تحقيقاً لهذا الغرض من إحسان الكلام وبيانه بياناً فنياً رائقاً. ونستطيع أن نُجريَ هذا المُجرى قوله تعالى ﴿ذواتا أفنان﴾ [الرَّحمن ٥٥/٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وبدّلناهم بجنّتيهم جنّتين ذواتَيْ أُكُلٍ خمط﴾ [سبأ ٣٤/١٦]، فقد لحق ضمير التثنية الاسم الجمع (ذوات) لأنه أجلّ وأسمى من التثنية الحقيقية لـ (ذات).

٢١ ـ شتيت

ومن المفيد أن نقف على «شتّى» فنقرأ قوله تعالى: ﴿وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتّى﴾ [طه ٢٠/٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وقلوبهم شتّى﴾ [الحشر ٥٩/١٤]، وقوله تعالى: ﴿إن سعيكم لشتّى﴾ [الليل ٩٢/٤]. و﴿شتّى﴾ في هذه الآيات تعني المتفرّق، وجاء في كتب اللغة: قوم شتّى، أي فرقاً من غير قبيلة.

أقول: وقد أفادنا الأستاذ الدكتور مصطفى جواد ـ رحمه الله ـ مجتهداً: أن ﴿شتّى﴾ تومىء أن تكون جمع (شتيت) مثل مريض ومَرْضى، ولكنها اشتهرت بمعناها الشائع الذي ذكرناه، ونسيت حقيقة جمعها. وجعل مثلها (فَوْضى) فذهب إلى أن أصلها: (فَضّى) ثم فُكَّ الإدغام فعوض من أول

المدغمين واواً فتحولت إلى (فَوْضَى). ذكر الأستاذ ـ رحمه الله ـ هـذا في محاضراته التي حاضرنا بها أيام الطلب، ثم أثبتها في كتابه: (قـل ولا تقـل)[1].

أقـول: واجتهاد الأستاذ موفق والشواهد القرآنية تشير إلى هـذا، فقوله تعالى: ﴿وقلوبهم شَتّى﴾ يشعر أن ﴿شتّى﴾ جمع (شتيت) وإن استقر في الأفهام أنها بمعنى (متفرقة) وحسبوها مفرداً.

وقـول الأفـوة الأودي:

لا يصلحُ الناسُ فَوْضى لا سَراة لهم ولا سَرَاة إذا جهّالُهم سادوا[2]

و (فَوْضَى) في البيت معناه متفرقون، فهي جمع حقيقة، ولكن الجمع نُسي فضمنت الكلمة معنى (التفرق)، وكأنها تحولت إلى مصـدر، وهـي بمعنى عـدم النظام والاضطراب في العربية المعاصرة. كما أن ﴿شتّى﴾ تعني الاختلاف في العربية المعاصرة، يقـال: آواء شتّى، وشتّى الآراء أي أنها مختلفة.

أقـول: لم يلمح صُنّاع المعجمات هذا الأصل الجمعي، ولم يشيروا إلى (فوضى) مثلاً في مـادة (فضـض) بـل جعلوها من الأجوف (فوضى).

٢٢ ـ شرذم:

وردت كلمة (شِرذمة) بمعنى الجماعة القليلة العدد في لغة التنزيل في قوله تعالى: ﴿إن هؤلاء لشِرْذمة قليلون﴾ [الشعراء ٢٦/٥٤].

وقد وصفت (الشرذمة) بـ ﴿قـليلون﴾ وهو جمع المذكر السالم، وفي هـذا مراعاة للمعنى، ولو رُوعي ظاهر اللفظ لقيل: (شرذمة قليلة). وهـذا هو الكثير الشائع في العربية المعاصرة، يقـال مثلاً: جماعة قليلة، وفئة محدودة، وشـرذمة يسيرة. غير أن مجيء الوصف جمع مذكر سـالماً في الآيـة شيء اقتضاه

(١) (قـل ولا تقـل) كتـاب اشتمل على التصحيحات اللغوية مؤيـدة بالشواهد المفيدة التي ذكرها الأستاذ الدكتور مصطفى جواد في محاضراته، وطبع ببغداد.

(٢) لسان العرب (فـوضى).

نظام الفواصل، فقد وردت الفواصل كلها بالنون، وليس من حسن الأداء أن تشذ (شرذمة) في وصفها عن هذا النظم البليغ الرائق، ولِمَ تشذّ، وهو في الأصل مقبول وحسَن؟

٢٣ ـ صحف:

أقول: احتفلت لغة التنزيل العزيز بكلمة ﴿صحف﴾ فكانت ﴿صحف إبراهيم وموسى﴾ [الأعلى ١٩/٨٧]، ووصفت بأنها ﴿مكرّمة﴾ و ﴿مطهّرة﴾ و (منشّرة)، قال تعالى: ﴿فمن شاء ذكره. في صحف مكرّمة﴾ [عبس ١٢/٨ ـ ١٣]. وقال تعالى: ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة﴾ [البينة ٢/٩٨]. وقد وصفت (الصحف)، وهي جمع، بمفرد مؤنث، وفي هذا نظر إلى أنها مؤنثة جمع صحيفة، ثم أخبر عنها بفعل لحقته التاء في قوله تعالى: ﴿وإذا الصحف نُشِرت﴾ [التكوير ٨١/١٠].

٢٤ ـ ضيف:

و(الضيف) معروف في العربية، والواحد (ضيف) وكذلك الجماعة، وهي في لغة التنزيل على هذا، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم﴾ [القمر ٥٤/٣٧]، و (الضيف) هنا، كما في الأثر، واحد. غير أننا نقرأ قوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرَمينَ﴾ [الذاريات ٥١/٢٤]، وقوله تعالى: ﴿قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون﴾[الحجر ١٥/٦٨]، و(الضيف) في الآيتين جمع، وقد نظر إلى معناه في الآيات الثلاث. على أن (الضيف) في العربية المعاصرة واحد، فإذا أرادوا أكثر من واحد قالوا: (ضيوف).

٢٥ ـ طفل:

ورد (الطفل) اسماً مفرداً في لغة التنزيل كما في قوله تعالى: ﴿ثم نُخرجكم طفلاً﴾ [الحج ٢٢/٥] أي نخرجكم في حال كل منكم ﴿طفلاً﴾، على أن لنا أن نقول إن المراد هنا الجمع أي (أطفالاً). غير أن (طفل) في دلالتها على الجمع جاءت واضحة في قوله تعالى: ﴿أو الطفل الذين لم يُظهروا على عورات النساء﴾ [النور ٢٤/٣١].

﴿الطفل﴾ في هـذه الآيـة اسم جمع بمعنى (الأطفـال)، كما ورد هذا الجمع الصريح أيـضاً في قـوله تعالى: ﴿وإذا بـلغ الأطفال منكم الحُلُمَ...﴾ [النـور ٢٤/٥٩].

و﴿الطفل﴾ في العربية المعاصرة مفرد ليس غير.

١٦ - طوف:

(الطائفة) هـي الجماعة، وهـي مفردة مؤنـثة إذا نظرنـا إلى لفظهـا، وهـي جمع مؤنـث ناظرين إلى معناها. ويتبين هـذا في قـوله تعالى: ﴿ودّتْ طائفة من أهـل الكتاب لو يُضلّونكم﴾ [آل عمران ٣/٦٩]، فالفعل (وَدَّت) وقد لحقته التاء، والفاعل (طائفـة) وهـو مؤنـث لفظه لفظ المفرد، وهـو جمع في حقيقة معناه، ثـم تـلاه الفعل (يُضلّونكم﴾ مسنـداً إلى جماعـة الذكور متصلاً بضمير الخطاب للجمع المذكر. غير أننا نجـد (الطائفة) في آيـة أخـرى فاعـلاً للفعل ﴿بَيَّتَ﴾ ولم تلحقه تـاء التأنيث في قـوله تعالى: ﴿فإذا بـرزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقـول﴾ [النسـاء ٤/٨١].

وقـد وصفت (الطائفة) بصفـة مفردة مؤنـثة مراعاة للّفظ كما في قوله تعـالى: ﴿ولتَأْتِ طائفة أخـرى لم يُصلّوا فليُصلّوا معك﴾ [النسـاء ٤/١٠٢]، ومع مجـيء الوصف المفرد المؤنـث تـلاها الفعل مسنـداً إلى جماعة الذكور.

أقـول: إن هـذا التصرف في القول في بنـاء الجملة، ومراعاة اللفظ والمعنى مما يظهـر في الأفعال والصفات والضمائر شـيء من خـواص هذه اللغة الشريفة، ومن أجـل ذلك كـانت مادة لا تعدلها أخـرى لمعرفة تـاريخ هذه اللغة العريقة.

ولنـقف وقفة مفيدة على المثنى لكلمة ﴿طائفة﴾ لنـرى كيف وردت في لغـة التنزيل العزيز، فنجـد قـوله تعالى: ﴿إذ هَمَّت طائفتـان منكم أن تفشلا والله وليُّهما﴾ [آل عمران ٣/١٢٢]، وقـد جـاء الفعل بعد المثنى مشيراً إلى أن الاسم مثنّىً، بـدلالة ألف التثنية فيه ﴿تفشـلا﴾.

أقـول: وهـذا الأسـلوب يـشير إلى أن ظاهـر اللفظ، وهـو المفرد المؤنـث قد رُوعي في هـذا البنـاء. غير أننا نجـد في آيـة أخـرى هذا المثنى

قـد تـلاه فعل أسند إلى جماعة الذكور كما في قـوله تعالى : ﴿وإن طائفتـان من المؤمنين اقتتلوا فأصـلحوا بينهما﴾ [الحجـرات ٤٩/٩]، وقد رُوعي هنا المعنى، وهو الجمع. على أنـك تجـد في آخـر هـذه الآيـة عوداً إلى اللفظ في ضـمير المثنى في قـوله تعالى ﴿بينهما﴾. إن جمـلة هذه المواد اللغوية، وهـي تعرض في الآيـة الواحدة، لـدليـل على قـدرة هذه اللغة العجيبة.

٢٧ ـ طير:

و(للطير) حضور في لغة التنزيل، وهو اسم جمع، وهو بهذه الصفة قد يراعى فيه اللفظ فيكون مفرداً، وقد يراعى المعنى فيكون جمعاً، وكأنه بهذه الصفة أغنى عن (الطيور) و(الأطيار). غير أننا نجد (الطير) في لغة التنزيل ودلالته على الواحد معنىً كما في قوله تعالى:

﴿. . . فأنفُخ فيه فيكـون طيراً بـإذن الله﴾ [آل عمـران ٣/٤٩].

على أن دلالة ﴿ الطير ﴾ على الجمع واضحة كل الوضوح في قوله تعالى: ﴿ قال فخذ أربعة من الطير فَصُرْهُـنَّ إليـك. . . ﴾ [البقرة ٢/٢٦٠]، فالمعنى يشير إلى الجمع والقرائن كائنة. وقوله تعالى: ﴿ إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ﴾ [يوسف ١٢/٣٦]. وقوله ﴿ تأكل ﴾ يشير إلى أن الفاعل مؤنث لجمعه.

وقـد يظهـر الجمع صريحـاً بوصف الطير بالجمع كما في قـوله تعالى: ﴿ألم يـروا إلى الطير مسخَّرات في جوّ السماء﴾ [النحـل ١٦/٧٩]، وقـوله تعالى: ﴿والطير صافـاتٍ كلٌّ قد علمَ صلاتَه وتسبيحه﴾ [النـور ٢٤/٤١]، غـير أن هـذا المعنى الجمعي قد يـأتي موصوفاً بمفرد مؤنـث كما في قـوله تعـالى: ﴿والطير محشورةً كلٌّ له أوّاب﴾ [ص ٣٨/١٩].

ولكننـا نقرأ قـوله تعالى: ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾ [الفيل ١٠٥/٣]، فنجد كلمة ﴿أبـابيل﴾ وهي يتيمـة عرفت في هذه الآيـة، وقـال أهل اللغة والمفسرون: إنهـا (فِرَق) لا واحد لها، ولكنـك لا تعدم أن تجـد نفراً من حذّاق أهـل الصنعة قد ولّدوا لها مفرداً صنعوه على مثـالها فقالوا: (إبّول، وإبّيل) ونحـو هذا وكله مصنوع لم يـرد في كـلام العرب. وقـد وردت ﴿أبـابيل﴾ في

قـوله تعالى: ﴿وأرسـل عليهم طيراً أبـابيل﴾ [الفيل ١٠٥/٣]، وهـي من بـاب وصف الاسـم بالاسم وكلاهمـا جمع[1].

٢٨ ـ عبقري:

انظر (رفرف).

٢٩ ـ يمنى:

وردت (أعنـاق) جمع (عُنُق) في قـوله تعالى: ﴿فـظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ [الشعراء ٢٦/٤]. و﴿خـاضعين﴾ خـبر (ظلّت)، والخبر عائد إلى المبتدأ وهو (أعنـاق). وأنـت تنظر إلى الآيـة في حـدود مـا يوصف به العاقل وغير العاقـل، وأن ﴿خـاضعين﴾ جمع مـذكر سـالم لا يـمكن أن يـوصف به (أعنـاق) لأنـه غير عاقل، ولكنـك تجد في التأول في فنـون القول البلاغي سعة في جـواز أن تـكون ﴿خـاضعين﴾ واصفة لـ ﴿أعنـاق﴾ كمـا في الآيـة. ولو وقـفت على الفواصل في سـورة الشعراء لوجـدت أن ﴿خـاضعين﴾ فـاصلة يسبقهـا ﴿مبـين﴾ و﴿مؤمنـين﴾ ويتلوها ﴿معرضين﴾. وبسـبب من هـذا آثر الحق ـ سبحـانه ـ أن تأتي ﴿خـاضعين﴾ ليكمـل بها نظام الشكل، ولهـذا نظائر كـثيرة في كـلام الله العزيز.

٣٠ ـ فـلك:

وجـاءت ﴿الفُلْك﴾ في آيـات عدة، وهي في شـيء منها مؤنـث مفرد فاعـل لفعـل يسبقها، أو أنهـا مسند إليه يتـلوها فعل يـشير إلى تـأنيثها، وذلـك في قـوله تعالى: ﴿ولتجـري الفلك بأمـره﴾ [الـروم ٣٠/٤٦]، وفي قـوله تعالى: ﴿والفلك التي تجـري في البحـر بما ينفع الناس﴾ [البـقرة ٢/١٦٤]. وجـاءت في آيـات أخـرى متلوّة بما يفيد أنها جمـع مؤنـث كما في قـوله تعالى: ﴿حـتى إذا كنتم في الفلك وجَرَينَ بهـم بريح طيبة﴾ [يـونس ١٠/٢٢]، فالفعـل ﴿جَرَينَ﴾ مسنداً إلى نـون الإنـاث، يـشير إلى أن ﴿الفـلك﴾ جمع مؤنـث. ومثل هـذا مـا ورد في قـوله تعالى: ﴿وتـرى الفلك مواخرَ فيه﴾

(١) أقـول: وصف (طير) بـ ﴿أبـابيل﴾ لـيس من بـاب: ثوب أخـلاق، وبُرد أسمـال، وبُرْمة أعشـار، وهو مـا ورد في العربية من وصف المفرد بالجمع، وذلـك لأن (طير) مفـرد، واسم جمع.

[النحل ١٦/١٤]. ووصف ﴿الفلك﴾ بـ ﴿مواخر﴾ يشير إلى أن الموصوف جمع مؤنث، ونقرأ بعد هذا قوله تعالى: ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾ [الشعراء ٢٦/١١٩]. ونجد﴿الفلك﴾ قد وصف بـ ﴿ المشحون﴾ وهو مفرد مذكر.

وهكذا نرى﴿الفلك﴾ قد روعي فيه اللفظ فكان مفرداً مذكراً، وروعي المعنى فكان جمعاً مؤنثاً.

٣١ - كلّ:

جاءت كلمة ﴿كلّ﴾ في أكثر من ثلاث مئة آية، وكلها يشير إلى أن ﴿كلّ﴾ تعني (أيّ) وهي مفرد كقوله تعالى: ﴿إن الله على كل شيءٍ قدير﴾ [البقرة ٢/٢٠]، وقوله تعالى: ﴿كلّ نفسٍ ذائقة الموت﴾ [الأنبياء ٢١/٣٥]، وقوله تعالى: ﴿قل كلٌّ يعمل على شاكلته﴾ [الإسراء ١٧/٨٤].

ولم نجد في سائر هذه الآيات إلا قوله تعالى: ﴿كلُّ الطعام كان حِلاًّ لبني إسرائيل﴾ [آل عمران ٣/٩٣]، ففي هذه الآية نلمح في ﴿كلّ﴾ دلالة الجمع، وقد تحتمل دلالة الإفراد.

غير أن ﴿كلّ﴾ في غير لغة التنزيل تفيد الجمع كما تفيد الإفراد، ومن دلالتها على الجمع قولك: (كل الأعضاء حاضرون) والمعنى: جميعهم.

أقول: في هذا نظر إلى المعنى بدلالة (حاضرون). ولنا أن نقول: (كل الأعضاء حاضر) والمعنى واحد، ولكن الجملة الثانية قد روعي فيها اللفظ فجاء الخبرمفرداً مذكراً.

ومثل هذا (من) الموصولة، يقال مثلاً: (رأيت من كان في الدار) كما يقال: (رأيت مَن كانوا في الدار). وكأنّ مراعاة اللفظ في (كل) و (مَن) أكثر وأفصح كما قالوا.

ومثل هذا ما قيل في (كِلا) و (كلتا)، فيقال: (كلا الرجلين فاضل) كما يقال: (كلاهما فاضلان)، والأول أفصح وأشيع.

٣٢ - نحل:

و ﴿النّحل﴾ من أسماء الجمع، وواحدها (نَحلة)، وقد وردت في لغة

التنزيل مراعىً فيها اللفظ فجاءت في قوله تعالى: ﴿وأوحى ربُّك إلى النحل أن اتَّخذي من الجبال بيوتاً﴾ [النحل ١٦/٦٨].

٣٣ - نخل:

ورد (النخل) في إحدى عشرة آية، وهو مفرد مذكر كما في قوله تعالى: ﴿تنزع الناس كأنهم أعجاز نخلٍ منقعر﴾ [القمر ٥٤/٢٠]، وقد روعي هنا ظاهر اللفظ وأجريت مجرى المفرد المذكر. ولكنها أجريت مجرى المفرد المؤنث في قوله تعالى: ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ [الرحمن ٥٥/١١]. غير أننا نقرأ قوله تعالى: ﴿والنخل باسقات لها طلعٌ نَضيدٌ﴾ [ق ٥٠/١٠]، وقد وصف النخل بـ﴿باسقات﴾ وهي جمع مؤنث، ولكن الضمير الذي عاد عليها كان مفرداً مؤنثاً. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿... وزروعٍ ونخلٍ طلعها هضيمٌ﴾ [الشعراء ٢٦/١٤٨]. وقد وصفت بصفة مفردة مؤنثة في قوله تعالى: ﴿فترى القومَ فيها صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية﴾ [الحاقة ٦٩/٧]. وفي جملة هذه الآيات فوائد لطيفة في النظر إلى النخل تشير إلى سماحة العربية في مواجهة غير العاقل من المواد اللغوية.

٣٤ - نسو:

و﴿النساء﴾ من الألفاظ التي حفلت بها لغة التنزيل، وقد روعي فيها المعنى فجاءت على أنها اسم جمع للعاقل، قال تعالى: ﴿وإذا طلَّقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهنّ﴾ [البقرة ٢/٢٣٢].

غير أننا نقرأ قوله تعالى: ﴿لا يحلّ لك النساء من بعدُ ولا أن تبدّل بهن من أزواج﴾ [الأحزاب ٣٣/٥٢]، فنجد الفعل ﴿يحل﴾، وكان ينبغي أن يكون (تحل) ولكن الفاصل بين الفعل والفاعل جوز الرجوع إلى الأصل.

أقول: إلى الأصل وكأنه التذكير الذي قال به النحويون حين عدوا التأنيث فرعاً على التذكير. ومن أجل ذلك قلت في أول هذا البحث إن التأنيث حادث. والأصالة للتذكير في العربية.

ويؤيد هذا قوله تعالى أيضاً: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم﴾ [الفتح ٤٨/٢٥]، فالضمير في ﴿تعلموهم﴾ يشير

إلى أن التغليب للمذكر في العربية، وهذا كثير جداً، وكذلك في قوله ﴿تطؤوهم﴾.

وفي ﴿النسوة﴾ شيء مثل هذا، فبينا نقرأ قوله تعالى: ﴿... ما بال النسوة اللاتي قطّعْنَ أيديهنّ﴾ [يوسف ١٢/٥٠]، وقد عُدَّت ﴿النسوة﴾ جمعاً مؤنثاً، إذا نحن نقرأ قوله تعالى: ﴿وقال نسوة في المدينة...﴾ [يوسف ١٢/٣٠]. ولم تلحق الفعل التاء.

٣٥ ـ نمل:

قد يقال: إن ﴿النمل﴾ مثل ﴿النحل﴾ فكلاهما اسم جمع له واحد من لفظه، وقد وقفنا على ﴿النحل﴾ في لغة التنزيل، وها نحن نقف على ﴿النمل﴾ فنقرأ قوله تعالى: ﴿قالت نملةٌ يا أيها النمل ادخُلوا مساكنكم﴾ [النمل ٢٧/١٨]. وليس في هذا ضرب من إشكال، فسعة العربية تؤذن بهذا التصرف الواسع.

٣٦ ـ ولد:

وردت كلمة ﴿ولد﴾ أكثر من ثلاثين مرة في لغة التنزيل، وهي تجمع بين دلالة الإفراد ودلالة الجمع، ففي قوله تعالى: ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهنّ ولد﴾ [النساء ٤/١٢]. يمكن أن يكون ﴿ولد﴾ واحداً أو أكثر من واحد.

ولكننا نقف على دلالة الجمع الواضحة في قوله تعالى: ﴿إنْ تَرَنِ أنا أقلّ منك مالاً وولداً...﴾ [الكهف ١٨/٣٩].

كلمة أخيرة:

هذه فوائد اصطفيتها لغرض خاص من جملة فوائد كثيرة تتصل بلغة الذكر، وإني إذ أتعقب هذه اللغة أراني سعيداً بما أقدمت عليه في هذه الخدمة الجادة أصل فيها إلى بعض أسرار العربية التي سجلتها لغة القرآن. كما أني أود أن يكون الدرس اللغوي والنحوي قائماً على هذه اللغة يقبس منها أسرار العربية فتكون مادة درس للمتعلمين على اختلاف درجاتهم.

والله أسأل أن ينفع بعملي هذا، إنه نعم المولى ونعمَ النصير.

صفحات من تاريخ العربية

سأعرض في هذا الدرس لما يسمّى في العربية (الشوارد)[١]، وهي تنصرف إلى ما يدعىٰ بـ (الشاذ) حيناً، وإلى النادر أو الغريب حيناً آخر، وهي في جملتها من أوابد العربية. وقد فطن لها الأوائل من اللغويين فكانت كتب (النوادر)[٢]، ثم كان منها أيضاً كتب (الغريب)[٣]. ودرج من بعدهم كثيرون استقصوا في استقرائهم ما فات أولئك المتقدمين من هذه المواد.

غير أن أولئك الدارسين اقتصروا على العمل المعجمي في حصر هذه المواد وما اتصل بها من فوائد أدبية، ولم يتجاوزوا هذا إلى الإفادة من دلالة هذه المواد في الكشف عن صفحات من تاريخ العربية. ولا بد لي أن أقول: إن أعظم حدث في تاريخ العربية هو القرآن الكريم، وذلك لأن هذه اللغة الشريفة قد أمدت العربية بنمط خاص موحد صار هو العربية، بحيث انحسرت عن هذه اللغة أنماط كثيرة فانصرفت إلى الغريب والشاذ والنادر، وهذا يعني أن العربية في حقبة ما قبل الإسلام، وفي العصر الإسلامي وقد نتجاوزه إلى شيء غير قليل من عصر بني أمية، كانت لغاتٍ عربية، ولا أريد

(١) (الشوارد) أو ما تفرَّد به بعض أئمة اللغة، للحسن بن محمد الصفاني، وهو كتاب نشره مجمع اللغة العربية في القاهرة كما نشره المجمع العلمي العراقي.

(٢) (النوادر) اسم لجملة كتب في اللغة منها: النوادر لأبي زيد الأنصاري، وهو مطبوع متداول، ونوادر ابن الأعرابي، ونوادر أبي مسحل، ونوادر أبي علي القالي وغيرها.

(٣) (الغريب) اسم لجملة كتب لغوية تناولت غريب القرآن، وغريب الحديث، وغيرهما.

أن أستبدل بهذا الاسم ما يدعى في عصرنا (لهجات)، فقد كانت دلالة (اللغة) أصدق من لهجة فيما أضطلع به في هذا الدرس. ولا أريد بـ (اللغات) ما أراد بها اللغويون الأقدمون من إفادة القلة والندور، بل إنها لغات لاختلاف بعضها عن بعض دلالة وأبنية، فالكلمة تفيد شيئاً لدى قبيلة، وتفيد غيره لدى قبيلة أخرى. والكلمة لها بناء في إفرادها وجمعها وتأنيثها وتذكيرها لدى قبيلة، ولها ما يختلف عن ذاك لدى قبيلة أخرى.

ولعل قائلاً يقول: إن الشعر القديم، ولا سيما الجاهلي، ثم الإسلامي لا يختلف عن لغة التنزيل العزيز، فأين تلك (اللغات) القديمة من العربية؟

وللجواب عن هذا الاستفهام أقول: إن عامة الشعر الجاهلي والإسلامي قد دُوِّن واشتهر في آخر القرن الثاني الهجري، ثم اتسع أمر التدوين في القرن الثالث الهجري. وقد أخضع هذا الشعر حين دُوِّن إلى المتعارف من اللغة، وهكذا ضاعت تلك الأنماط اللغوية، ولم تبق إلا في أبيات شواهد رُبّما حوفظ عليها من أجل الدرس، ومن أجل الولوع بحفظ النوادر والشوارد. وهذا يعني أن الفسحة الزمنية وهي حقبة تربو على القرنين قد فعلت فعلها في هذه النصوص القديمة، فعفَّت على آثار لغوية أريد لها أن تزول ليسود نمط واحد هو المأثور الذي استقرت عليه لغة التنزيل العزيز.

قلت: سأعرض في درسي هذا لما يُدعى بـ (الشوارد) وسأفيد منها ما بدا لي أنه شيء من تاريخ هذه العربية. **سألتمس هذه (الشوارد) في شواذ** القراءات، وهو المنهج الذي درج عليه الصاغاني في (شوارده).

ولنبدأ بما بدأ به الصاغاني فأتلو قوله تعالى: ﴿وبالآخرة هم يؤقنون﴾ [البقرة ٢/٤]. وقراءة ﴿يؤقنون﴾ بالهمز قراءة أبي حيّة النميري، وهي قراءة شاذة فكأن الفعل آقَنَ مثل (آمَنَ).

أقول: كونها شاذة لأنها لغة نادرة قليلة غلبت عليها الفصيحة السائرة المتداولة وهي (أيقن) من اليقين، وأبو حيّة النميري شاعر راجز من أهل البصرة من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية[1]، وتوجيه اللغويين لهذه

(١) انظر طبقات ابن المعتز، ص ١٤٣

القراءة يدخل في باب الإبدال، وقد وسم ابن الحاجب هذا الإبدال بالشاذ وقال: وجاء منه: دأبّة، والعَألَم ويأز وشِئمة ومؤقد، وأورد شارح (الشافية) ما أنشده أبو علي الفارسي لجرير:

لحَبُّ المؤقدَين إليَّ مُؤسى وجَعدة إذ أضاء هما الوَقودُ[1]

أقول: وهذه اللغة النادرة التي يهمز فيها ما لا يهمز في كثير من لغات العرب من الشوارد، والاستشهاد عليه بقول جرير كما كان أهل هذه اللغة ينشدونه، ولست بيقين أن جريراً أنشده بالهمز. وإذا كان ذلك، فإن الذي في ديوان جرير بغير همز، ومعنى هذا أن قول جرير قد أجري عليه ما أجري ليجيء على اللغة المشهورة المتداولة، هذا لو صح أن الشاعر جريراً قد أنشده بالهمز. وقد سجل اللغويون هذا البيت مهموزاً في (المؤقدين) و(مؤسى) جرياً على ولوعهم بالنادر الغريب.

ومن (الشوارد) في القراءات الشاذة ما ورد في قوله تعالى: ﴿وعلى أبصارهم غِشاوة﴾ [البقرة ٢/٧]. وقرأ زيد بن علي، والحسن البصري، واليماني ﴿غُشاوة﴾ بالضم[2].

أقول: و(الغِشاوة) بالكسر هي المشهورة، وتأتي بعدها (الغشاوة) بالفتح، وأما بالضم فهي نادرة. وهذا يعني أن قدراً كبيراً مما هو من القراءات الشاذة يتأتى من الخلاف في ضبط فاء الكلمة. وهذا الذي نحسبه من (الشوارد) النوادر مما نجده في الألسن الدارجة في عصرنا، فهي تخالف الفصيح في هذه المسألة، فأنت قد تسمع من يقول (عُلاقة) و(سُقام) و(عُراق) بالضم في عوام الناس، وربما وجدت شيئاً منه لدى المتعلمين أيضاً.

وقرأ طاووس بن كيسان[3]: ﴿وعلى أبصارهم عَشاوة﴾ بالعين المهملة، و(العَشاوة) العَشا، وهو سوء البصر بالليل والنهار. والقرابة الصوتية بين الغين

---

(١) شافية ابن الحاجب ٣/٢٠٦، وانظر المحتسب لابن جني ١/٤٧، ٤٨

(٢) القراءة في (مختصر شواذ القرآن لابن خالويه) ص٢

(٣) المصدر السابق.

والعين من المواد اللغوية التي اتصفت بها اللغات الخاصة، ومن هنا كان الخروج عن الكثير المتداول داخلاً في باب (الشوارد) النوادر.

ونقرأ قوله تعالى: ﴿في قلوبهم مَرَض فزادهم الله مَرَضاً﴾ [البقرة ٢/ ١٠].

وقرأ أبو عمرو: (مَرْض) بإسكان الراء[1].

أقول: وهذه القراءة الشاذة تدخل في باب اختلاف الكلم الثلاثي (فَعَل) بفتحتين و (فَعْل) بإسكان العين. وكأن الإسكان في هذه الكلمة من (الشوارد) لشهرة الفتح في هذه الكلمة المتداولة.

وقد تختلف القراءة في بنية الكلمة، ومن هذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ [البقرة ٢ / ٢٤].

وقرأ عبيد بن عمير: (وَقِيدها)[2].

أقول: (الوَقود) بالفتح هو المشهور ودلالته على الحطب الذي يُوقَد، وهو نظير الفَطور، والسَّحور، والوَضوء، والشَّروب، والصَّبوح، والغَبوق، وهذه الكلمات لما يُفطَر به من الطعام، ولما يُتسَحَّر به، وللماء الذي يُتوضَّأ به، وما يشرب، وما يشرب صباحاً وما يشرب مساءً. ومن هنا فهو بمعنى (مفعول) وكذلك (الوقِيد) بمعنى مفعول، غير أن (فعيل) لا ينصرف إلى المواد التي يتم بها العمل.

ونقرأ قوله تعالى: ﴿ويسفِك الدماء﴾ [البقرة ٢ / ٣٠].

وقرأ ابن قُطَيب وابن أبي عبلة وطلحة بن مصرِّف وشعيب بن أبي حمزة: (ويسفُك) بضم الفاء[3].

أقول: إن الفعل الثلاثي في العربية يقدم مادة مهمة في تاريخ

---

(١) انظر (مختصر شواذ القرآن) ص ٢، و (المحتسب) ١ /١٠د

(٢) البحر المحيط ١/١٠٧

(٣) انظر (مختصر في شواذ القرآن) ص ٤، والبحر المحيط ١/١٤٢

العربية، فقد استقر الفعل في أبنية ستة بحسب حركة العين في الماضي والمضارع، غير أن طائفة من الأفعال جاءت بكسر العين وفتحها في المضارع، ومنها جاءت بضم العين وفتحها أو كسرها في المضارع، وربما جاء المضارع بالحركات الثلاث. ومن غير شك أن اجتماع هذه الأبنية المختلفة في الفعل الواحد يشير إلى اللغات الخاصة التي حفلت بها العربية قبل أن تتجه إلى نمط ثابت في البناء. وقد ورد من الأفعال ما خرج عن حدود الأبنية الستة فقد ذكروا أن الفعل (فَضِلَ) يأتي مضارعه (يفضُل)(١)، وهذا من الاتفاق الغريب، إن هذا وأمثاله من الإشارات المفيدة التي تكشف عن سعة العربية في (لغاتها) الخاصة قبل أن تتجه إلى النمط الذي سجلته لغة التنزيل العزيز.

ونقرأ قوله تعالى: ﴿أنبئوني بأسماء هؤلاء﴾ [البقرة ٢/٣١].

وقرأ تعالى: ﴿أنبِئْهم بأسمائهم فلما أنبأهم﴾ [البقرة ٢/٣٣].

قرأ الأعرج والزهري: (أنبوني) أي (أنبِئوني)، و(أنبيهم) و(أنباهم) أي (أنبِئْهم) و(أنبأهم)(٢).

أقول: وتسهيل الهمزة إلى أصوات اللين (المدّ) لغة خاصة بالقياس إلى الهمز الذي عُبِّر عنه بالنبر. وكأن لغة التنزيل جعلت من النبر اللغة الفصيحة فذهب ما ندعوه بالتسهيل إلى اللغة غير الفصيحة. وليس غريباً أننا لا نجد المهموز في الألسن الدارجة المعاصرة. ومن الطريف أن نشير إلى أن لغة قريش لم تعرف النبر (الهمز).

ومثل (يسفُك) بضم الفاء التي مرت بنا وردت (يهبُط)، والمشهور الكسر فقد قرأ أيوب بن أبي تميمة: ﴿اهبُطوا مصراً﴾ [البقرة ٢/٦١].

وكنا أشرنا وعلقنا على أبنية الفعل الثلاثي.

---

(١) عبَّر ابن جني عن هذا بـ(تداخل اللغات)، انظر (الخصائص).
(٢) انظر (مختصر شواذ القرآن) ص ٤
(٣) المصدر السابق، ص٦، و(البحر المحيط) ١/٢٣٤

ونقرأ قوله تعالى: ﴿إن البَقَر تشابَهَ علينا﴾ [البقرة ٢/ ٧٠].

وقرأ عكرمة، وابن أبي ليلى، وابن أبي عبلة، ويحيى بن يعمَر، . . . (إن الباقر تشابَهَ علينا)(١).

أقول: و(الباقر) اسم جمع كالبَقَر، وهو نظير الماعز والضائن والجامل، وهو أيضاً البقير، ومثله المعيز والضئين. والبقَرَ أشيع من الباقر والبقير، وبه جاءت القراءات العالية، وأما الباقر فقراءة شاذة أي نادرة، ومن هنا كانت من (الشوارد)، أقول أيضاً: إن لغة القرآن حملت المعربين على أن يصلوا في سلوكهم اللغوي إلى هجرة القديم النادر الذي لم تكن له السيرورة والشيوع.

ونقرأ قوله تعالى: ﴿تظاهَرَون عليهم بالإثم والعُدوان﴾ [البقرة ٢/ ٨٥].

وقرأ أبو حَيْوة: (بالإثمْ والعِدوان) بكسر العين(٢).

أقول: والكسر في كثير من الأسماء المضمومة الفاء، والضم في كثير من الأسماء المكسورة الفاء من سمات اللغات القديمة النادرة التي حملت على (الشوارد).

ونقرأ قوله تعالى: ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ [البقرة ٢/ ١١٤].

وقرأ عبد الله بن مسعود: (أن يدخلوها إلا خُيَّفاً)(٣).

أقول: قوله تعالى ﴿خائفين﴾ في القراءة المشهورة لا تختلف عن (خُيَّف) في القراءة الشاذة المنسوبة إلى عبد الله بن مسعود، فكلاهما جمع (خائف). غير أن الجمع السالم لـ (خائف) أشهر وأشيع من (خُيَّف)، ولأن في (خُيَّف) مشكلة صوتية تكون في (الياء)، وكان القياس أن تكون في الواو

---

(١) (التبيان في إعراب القرآن) ١/ ٧٥. وقد جاء في (مختصر شواذ القرآن) ص ٧، و(غاية النهاية) ٢/ ٢٩٠، قراءة محمد ذي الشامة (أن الباقر يشّابه) بالياء والشين المشدّدة.

(٢) انظر (مختصر شواذ القرآن) ص ٧

(٣) انظر (البحر المحيط) ١/ ٣٥٨، وفيه أنها قراءة أبَي.

أي (خُوَّف)، لأن الأصل في الكلمة هو الواو كما في المصدر (خَوف). غير أن عامل المخالفة استدعى الياء، والمخالفة في ضمة الخاء، وقانون المخالفة يقسر الكلمة على غير وجهها، كما جرى لجمع صائم الذي قيل فيه (صُيَّم) على الشذوذ والندور عملاً بالمخالفة، ولو جرينا على المشهور الشائع لكنا مع قانون (المشابهة) فقلنا (صُوَّم).

ونقرأ قوله تعالى: ﴿كمثَل الذي ينعِق﴾ [البقرة ٢/١٧١].

وقرىء (ينعُق) بالضم شذوذاً[1].

أقول: ونرجع في هذه الآية للشذوذ والندور في عين الفعل المضارع الذي ضبط بالضم، والمشهور المتداول الذي به القراءات العالية هو الكسر. وهذا أيضاً يؤكد الخلاف في الأوجه في هذه المسألة التي انصرفت في لغة القرآن إلى وجه واحد هو الرواية بالكسر.

أقول أيضاً: لا بد أن نضيف الوجه الثالث، وهو الفتح الذي لم تثبت فيه قراءة شاذة. ويقوّي هذا الوجه عندي أن أصوات الحلق تستجلب الفتح.

ونقرأ قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرَّفَثُ إلى نسائكم﴾ [البقرة ٢/١٨٧].

وقرأ زيد بن علي: (الرُّفُوث)، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فمن فَرَضَ فيهنّ الحج فلا رَفَثَ ولا فسوق...﴾ [البقرة ٢/١٩٧][2].

أقول: و (الرَّفَث) بفتحتين هو المتداول المشهور، وبه جاءت القراءات العالية، فأما (الرُّفُوث) فقراءة شاذة نادرة، وكثيراً ما تختلف (اللغات) النادرة في بناء المصدر، كما تختلف في الفعل والجمع وغيرهما. وقد يأتي مصدران للفعل الواحد نحو: وَقْف ووقوف، ومرّ ومرور وغيرهما كثير. ومثل هذا (الهَرَب) و (الهروب)، وليس لنا أن نقول: الهروب خطأ بحجة أنه لم يرد في المعجم القديم.

(١) انظر (مختصر شواذ القرآن) ص ١١

(٢) وفي (البحر المحيط) ٢/٤٨: قرأ الجمهور: (الرفث)، وقرأ عبد الله: (الرفوث)

ونقرأ قوله تعالى: ﴿ولا تُلقوا بأيديكم إلى التَّهلُكة﴾ [البقرة ٢/ ١٩٥].

وقرأ الخليل: (التَّهلِكة)[1].

أقول: المشهور في الكلمة هو ضم اللام. وبها القراءات العالية، وأمّا الكسر فهو النادر الشاذ. ومن العجيب أن هذا (المشهور) وهو الضم من الأبنية الغريبة في العربية، فالكلمات التي على نسق (التهلُكة) بالضم أقل كثيراً من تلك التي وردت بكسر العين، إن بناء (تفعِلة) بالكسر مصدر قياسي في المضاعف الناقص نحو التزكية والتصلية والتنمية، والتعدية والتسوية وغيرها، وهو مسموع في مصدر المضاعف غير معتل الآخر نحو: التجربة والتقدِمة التذكِرة وغيرها، وكذلك هو مسموع في مصدر المضاعف المهموز الآخر نحو التنبِئة والتجزئة، والتعبئة وغيرها.

وكأنّ قراءة الخليل المحمولة على الشذوذ يعضدها القياس والسماع، ولكن لشيوع الاستعمال أسراراً تقضي بغير ما يفرضه القياس والسماع.

وإذا كنا وقفنا على قراءة الفعل (يسفُك) بضم الفاء، وقراءة الفعل (يهبُط)، بضم الباء على الشذوذ والمشهور فيهما وعليه القراءة الفاشية هو الكسر، فإننا نقف على قراءة أفعال بفتح العين في المضارع في حين أن المشهور فيها هو الكسر، ومن ذلك الفعل (يهلِك) فقد قرأ الحسن وأبو حيوة وابن أبي إسحاق: (ويَهلَك الحرثُ والنسلُ)[2]. والفعل في القراءات العالية رباعي متعدّ، والآية: ﴿ ويُهلِكَ الحرثَ والنسلَ ﴾ [البقرة ٢/ ٢٠٥].

أقول: والقراءة الشاذة (يَهلَك) على الثلاثي اللازم نسبت في (مختصر ابن خالويه) ص ١٣ إلى أبي حيوة، وفي (المحتسب) ١/ ١٢١ نسبت إلى ابن محيصن، ونقل عن ابن مجاهد أن ذلك غلط. ولكن ابن جني قد انتصر للقراءة واستشهد عليها بشواهد[3].

(١) انظر (العباب ـ هلك).
(٢) انظر (مختصر شواذ القرآن) ص ١٣
(٣) انظر (المحتسب) ١/ ١٢١

ومن المفيد أن نشير إلى أن ﴿ يهلَك ﴾ بالفتح أشيع من (يهلِك) في لغة المعاصرين، وليس لنا أن نحملها على الغلط، وهي بفتح اللام ماضياً ومضارعاً، في حين أن الفعل في القراءة الشاذة مثل (فَرِحَ).

ومما تجدر الإشارة إليه أن في الشوارد مما نستشهد عليه بالشواذ من القراءات ما حفظته الألسن الدارجة، وهذا يدل على أصالة مواد الألسن الدارجة، ألا ترى أن أهل هذه القراءات قرؤوا قوله تعالى: ﴿وقُضِيَ الأمر﴾ [البقرة ٢/٢١٠]. فجعلوا الفعل المبني للمفعول مصدراً هو (القَضْيُ)[1] بمعنى القضا. و(القَضْي) هذا هو المصدر الذي جرت عليه جملة الألسن الدارجة. ولولا ما استقرت عليه لغة التنزيل لكان لنا سعة لا تقدم خيراً للعربية.

أقول: هذه السعة لا تقدم خيراً، وأي خير أن نجد للكلمة الواحدة ثلاثة أبنية باحتساب الحركات الثلاث كالوُسْع والوَسْع والوِسْع فقد جرت لغة التنزيل على (الوُسع) بالضم في قوله تعالى: ﴿لا تُكَلَّف نفسٌ إلا وُسْعَها﴾ [البقرة ٢/٢٣٣]. وقد بقيت هذه الصورة في الكلمة في العربية المعاصرة، ولم يبق شيء من الوجهين، وهما الفتح والكسر[2].

وإذا كنا قد أشرنا إلى أن ما في القراءات الشاذة قد نجده في الألسن الدارجة، فإن العكس حاصل أيضاً فقد نجد في الألسن الدارجة ما ثبت وشاع في القراءات العالية إلا أن أهل الشواذ قرؤوا ﴿ مُبْشِرين ومُنْذِرين﴾[3] [البقرة ٢/٢١٣]. بدلاً من ﴿مبشِّرين﴾ بتشديد الشين، والفعل بتشديد الشين هو الذي بقي لنا في العربية المعاصرة وفي الألسن الدارجة، نظير ما ورد في القراءات المشهورة.

---

(١) انظر القاموس المحيط (قضي).
(٢) انظر (العباب ـ وسع)، و(القاموس المحيط).
(٣) انظر (العباب ـ بشر)، وحكى ابن جني في (المحتسب) ٢/٢١٥ أن هذه القراءة أيضاً لمجاهد وحميد: ﴿ ذلك الذي يُبشر الله عباده ﴾ [الشورى ٤٢/٣٢].

وقالوا: السِّعة (بالكسر) لغة في (السَّعة) وبها قرىء شذوذاً[1] ﴿ولم يؤتَ سِعةً من المال﴾ [البقرة ٢/٢٤٧].

وقالوا: (البُسْطة) (بالضم) لغة في (البَسْطة) وبها قرىء شذوذاً[2] ﴿وزاده بَسْطة﴾ [البقرة ٢/٢٤٧].

وقد اشتهر في العربية أفعال قد زيدت الهمزة في أولها فهي (أفعَلَ)، وكانت هي اللغة الفصيحة، وبها وردت القراءات العالية، ولكننا نجد الثلاثي المجرد في القراءات الشاذة، نحو قوله تعالى: ﴿إلاّ أن تُغمِضوا فيه﴾ [البقرة ٢/٢٦٧]. قرأ أهل الشواذ: (إلاّ أن تَغْمضوا فيه)[3] من الثلاثي. وقد بقيت هذه القراءة وظل الفعل ثلاثياً في الألسن الدارجة، وهذا يشعرنا بقدم مواد اللغات المحكية، إن الفعل (أغمضَ) المزيد هو الفصيح الجاري، وأما الثلاثي (غَمَضَ) فهو من العامية، وكذلك (أبغض) وليس (بغض)، و (أزاغ) وليس (زاغ)، قال تعالى: ﴿ولا تُزِغ قلوبَنا﴾ [آل عمران ٣/٨]، وقرأ أهل الشواذ: (ولا تزَغْ قلوبنا)[4] والفعل ثلاثي.

وقد ترد في القراءات الشواذ مواد نادرة، فلم نر منها في فصيح العربية، ولم يبق منها في الألسن الدارجة ومن هذا (الذُّرِّية) التي بفتح الذال وبكسرها، و (الرَمْزَ) وقد قرىء بفتحتين وبضم فسكون. والمشهور (الرَمْز) بالفتح والسكون.

ومن الغريب في الشواذ من القراءات أن القراءة في الفعل (يدرُس) في قوله تعالى: ﴿وبما كنتم تدرُسون﴾ [آل عمران ٣/ ٧٩]، جاءت بكسر الراء في (يدرِس)[5]. وهذا يعني أن الفعل (دَرَس - يدرُس) المشهور فيه لغة بكسر الراء في المضارع.

---

(١) المصدر السابق (وسع)
(٢) المصدر السابق (بسط)
(٣) انظر (مختصر ابن خالويه) ص ١٦، وانظر (العباب غمض).
(٤) انظر (البحر المحيط) ٢/٣٨٦.
(٥) انظر (البحر المحيط) ٢/٥٠٦، و (الشوارد) للصاغاني (ط. بغداد) ص ١٤٧

ولعل من الممكن أن يقال إن الفعل الثلاثي في العربية الأولى لم يكن محصوراً بالصور الست المعروفة بل كانت أكثر من ذلك، حتى إذا قطعت هذه اللغة مرحلة من تاريخها وجرت إلى التوحيد بسبب من لغة التنزيل استقرت في الستّ من الصور المعروفة.

ومن فوائد الشواذ من القراءات أنها سجلت صفحات من تاريخ العربية طواها الزمان بما انتهت إليه اللغة في توحّدها، ألا ترى أن أهل الشواذ قرؤوا: (بثلاثة ألفٍ) [آل عمران ٣/١٢٤]، كما قرؤوا (وبخمسة ألفٍ) [آل عمران ٣/١٢٥]، والمشهور الذي عليه القراءات وجرت به العربية أن تمييز الثلاثة إلى العشرة جمع مجرور (آلاف). وهذا هو الذي بقي لعربيتنا المعاصرة، وثبت في الألسن الدارجة، ولو جاء في الكلام مفرداً مجروراً لحمل على الغلط.

ومن غرائب شواذ القراءات أننا نجد فيها من الكلم الغريب النافر، ألا ترى أن (كأيّن) بالهمز هي أسهل من (كيِّن) بياءين[1]، ووجود هذه الكلمة النافرة يشعرنا أن العربية قبل عصر القرآن وبعده احتفظت بكثير من اللغات الخاصة التي نجد نظائرها في الألسن الدارجة في عصرنا، ولكننا لا نستطيع أن ننعتها باللغة الدارجة. وكيف لي ألا أذهب في هذا التصور وأنا أجد في هذه القراءات (السِّكِّينة) بدلاً من (السَّكينة)[2].

أكتفي بهذا القدر من الفوائد التي أفدتها من القراءات الشاذة في مادة (الشوارد) النوادر. ثم أخلص منها إلى (الشوارد) الأخرى، وهي (اللغات) التي تفرد بها يونس بن حبيب، وتلك التي تفرّد بها أبو حاتم. وسأتابع هذه (الشوارد)، فأثبت ما بدا لي أن أعلق عليه من هذه المسائل الخاصة.

وأبدأ بما تفرّد به أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب فأقرأ قوله في (الشوارد) ص ١٧٥:

---

(١) وهي في قوله تعالى: ﴿وكأيِّن من نبيّ﴾ [آل عمران ٢/١٤٦]. وانظر كتاب (الحجة) لأبي علي الفارسي ص ٨٩

(٢) وهي قراءة زيد بن علي في قوله تعالى: ﴿ثم أنزل الله سكينته﴾ [التوبة ٩/٢٦]، وانظر (الشوارد) ص ١٥٤، و(البحر المحيط) ٥/٢٥

(مُتَى) لغة في (مَتَى)، في الاستفهام والشرط دون الظرف.

أقول: هذه مسألة تستحق الوقوف والنظر، وهي قبل كل شيء لغة، أي أنها قليلة من الشوارد النوادر، وإذا كنت أحملها على الصواب لأن صاحبها ثقة، وثقه الأوائل ولم يتكلموا فيه، فإني أميل إلى كونها نادرة أشدَّ الندرة، بسبب من أنها تفتقر إلى شاهد من الشواهد، ولا يعنيني أن تكون مما تفرّد به واحد من أهل العلم الثقات.

ثم كيف لي أن أقول: إن هذه الكلمة بلغتها هذه كانت في الاستفهام والشرط دون الظرف؟ وهل لي أن أقول: إنه سمعها استفهاماً وشرطاً، ولم يسمعها ظرفاً؟ ولكن أليس لي أن أقول إن الظرفية حاصلة في الاستفهام أو الشرط، أو أقول: إننا نلمح الظرفية في هذين الأسلوبين!!.

ومن هذا الذي تفرَّد به يونس الفعل (يجِنّ) بكسر الجيم فقال هو لغة في (يجُنّ)، والمعنى أن الكثير ما كان بالضم[١].

أقول: وقد وجدنا من هذا في القراءات الشواذ (تدرِسون) بكسر الراء بدلاً من (تدرُسون) بالضم، وكذلك (ينكِث) بالكسر بدلاً من (ينكُث)[٢] بالضم في قوله تعالى: ﴿إذا هم ينكُثون﴾ [الأعراف ٧/١٣٥]، وكذا (يفشِل) بالكسر بدلاً من (يفشُل)[٣] بالضم في قوله تعالى: ﴿ولا تَنَازَعوا فتفشَلوا﴾ [الأنفال ٨/٤٦]، وكذلك (يغلِظ)، بالكسر بدلاً من (يغلُظ)[٤] بالضم في قوله تعالى: ﴿واغلُظْ عليهم﴾ [التوبة ٩/٧٣]. وليس بعيداً عن هذا قراءتهم (شَهُدَ يشهُدُ) بدلاً من (شَهِدَ يشهَدُ)[٥] مثل (فرِحَ يفرَح) وذلك في قوله تعالى: ﴿وما شهِدنا إلاّ بما علمنا﴾ [يوسف ١٢/٨١]. ومنه قراءتهم (يخرُق) بالضم بدلاً من (يخرِق)[٦] بالكسر في قوله تعالى: ﴿إنك لن تخرِق الأرضَ...﴾ [الإسراء ١٧/٣٧].

(١) انظر (الشوارد) ص ١٧٥، وانظر (اللسان جنن)
(٢) انظر (البحر المحيط) ٤/٣٧٥
(٣) قراءة الحسن في (مختصر شواذ القرآن) ص ٥٠، وانظر (العباب ـ فشل)
(٤) انظر (العباب ـ غلظ)
(٥) المصدر السابق (شهد) وهي قراءة الحسن البصري
(٦) المصدر السابق (خرق)

ومن هـذا قراءتهم (وَهُنَ) بضم الهاء بـدلاً من (وَهَنَ)[1] بالفتح في قـوله تعالى: ﴿وَهَن العظمُ منّي﴾ [مـريم ١٩/٤]. ومثـل هذا قراءتهم (يسبُق)[2] بالكسر في قـوله تعالى: ﴿لا يسبِقـونه بالقول﴾ [الأنبيـاء ٢١/٢٧].

ولنعد إلى (يجُنّ) وقـول يونس أن (يجِنّ) بالكسر لغة لنقول:

جـاء في (اللسـان): جَنَّ الليلُ يجُنّه جَنّاً وجُنوناً، وجَنَّ عليه ستَرَه.

وقـد جَنَّ الجنين في الرحـم (يجِنّ ـ بالكسر) جَنّاً، وأَجَنّته الحامل.

وفي القاموس وشرحه: جَنَّ يجِنّ جَنّاً: استتر.

أقـول: كأن هذه اللغة النادرة بالكسر هي التي غلبت على العربية المعاصرة، فهي أعم في كـلام المعربين من اللغة الأخـرى المشهورة.

ومـن هذا أيضاً قـولهم ندوراً (يسمِت ـ بالكسر) والضم هو المشهور.

ومن (الشوارد) النوادر قـولهم: أفوَقَ سهمَه، وهي لغة في أفاقَه وأوفَقَه.

وجـاء في (العبـاب) (فوق): أفقت السهم أي وضعتُ فوقه في الوتر لأرمي به وأوفقته أيضاً. أقول: كأني أنظر إلى (أفوقَ سهمَه) فأدرك أنها ليست من الشوارد، فالاشتقاق في مـادته وليس فيه مشكلة، فهو من الفوق أو الفوقة لموضع الوتر من السهم. وإذا كـان لي أن أتوقف قـليلاً فـذاك في قـول يونـس (أوفقه) فأحمـله عـلى النادر، وذلـك لمكان القلب بين الواو والفاء، فقد تقدمـت الواو على الفاء والعكس هو الأصل.

ومن شـوارد يونس قـوله: ليلة مُقمِر، مثل مقمرة.

أقـول: هـذا مما تفرَّد بـه يونس كما في (الشوارد) و(التكملة) و(القاموس) و(التـاج). ولكنـي أرى أن الصفـات التي تـعرى عن عـلامة التأنيث هي تـلك التي تختص بالمؤنـث نحو طالق ونـاشز وحـامل وقاعد ومـرضع وعانـس وعاطل ونحوها فهي صفـات للمرأة، ونحـو سابق ولاحـق من

(١) (مختصر شواذ القرآن) ص ٨٣
(٢) المصدر السابق، ص ٩١

صفات الخيل مذكرة ومؤنثة. فأما (مقمر) فإنها تفتقر إلى الاختصاص، ولو أنها نسبت إلى يونس - وهو من المتقدمين - لحملتها على الخطأ، وذلك لأنا نقول: ليل مقمر.

أقول: لو كان شيء من هذا في كلامهم لوجدنا له أثراً في النصوص.

ومن الشوارد المنسوبة إلى يونس قوله: يقال: كثرت مال فلان، يؤنثون المال كما أنّثوا القوم، قال الله تعالى: ﴿كذَّبَت قومُ نوح المرسلين﴾[1] [الشعراء ٢٦/ ١٠٥].

أقول: وقول يونس في تأنيث المال مفتقر إلى شاهد أصيل، ودلالة المال في الأعم الأغلب على الإبل وسائر الماشية كالغنم والخيل ونحوها، وأما قوله: يؤنثون المال كما أنّثوا القوم، فهو قول ضعيف ذلك أن القوم أنّث في الآية الكريمة وغيرها من الآيات لأنها ضمنت معنى أمة أو قبيلة أو نحو ذلك من المؤنثات، وقد تنصرف (قوم) إلى الرجال كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساءٍ عسى أن يكُنَّ خيراً منهن. . .﴾ [الحجرات ٤٩/ ١١].

ومن (الشوارد) قول يونس: امرأة حاصنة مثل حاصن[2].

أقول: والمرأة الحاصن هي الحَصان العفيفة، وقيل المتزوجة، وإذا كان (حاصنة) قد سمعت فهي قليلة نادرة، خالفت النهج الذي جرَت عليه العربية.

وجاء من هذا قوله: عَلُن الأمر لغة في (عَلَن) و (عَلِنَ)[3].

أقول: قالوا: إن (عَلُن) من الشوارد وهو ما نقلوه عن يونس، ومثل هذا قالوا (فَسُدَ) وزعموا أنها لغة فاسدة أو نادرة أو ضعيفة، وقد رأينا نظير هذا في القراءات الشواذ مثل (وَهُن)، والفصيح المشهور (وَهَن).

ومن هذا قوله: الأُبوّ الأبوّة[1].

---

(١) الشوارد، ص ١٧٦

(٢) الشوارد، ص ١٧٧

(٣) المصدر السابق

(٤) (القاموس المحيط - أبو)

أقـول: كأنّ يونـس أراد أن يـقول: إن الأُبُوّ والأُبُوّة من الشوارد، وذلـك لأنهما جمع (أب) والمشهور في هـذا الجمع (آبـاء)، وقـال النحويون (أبـون) و(أبين)، وعـلى هذا فالأبّو والأبوة من الشوارد، وربما سهـل علينا أن نجـد نظائر للأبوّة كالخؤولة والعمومة والسهولة والحزونـة والخيوطة، و(الأُبوّ) عـلى (فُعـول) وهـو كـثير في جموع التكسير.

ومن (الشوارد) (الإعـاء) و(الإكـاء) و(الإقـاء): لغـات في (الوِعاء) و(الوِكـاء) و(الوِقـاء)[1].

أقـول: وقـد جـاء (الإعـاء) في القراءات الشاذة: (من إعـاء أخـيه)[2] [يـوسف ١٢/٧٦]. والمسألة وإن كـانت تدخـل في اللغة النادرة، إلا أن فيها نـاحيةً صوتيـة هي أن الواو لا تـأتـلف مع الكسرة، وفي هـذه الحـال يتخلص من الواو كمـا جاء في المصادر نحـو صِيـام وقِيـام، وقـيل ونحـو ذلك.

ومـن هـذه (الشوارد) قـول يـونس: (لعَمَري) بفتح العين والميم، لغـة في (لعَمْري)[3].

أقـول: وهـذه (الشاردة) غريبة، ولم تـسمع في كـلام من كلامهـم، وربّما اضطر الشاعر إليها بسبب الوزن.

ومـن (الشوارد) قـول يـونس: امرأة مُفـاضة أي مفضاة، وأفاضهـا أي أفضاها.

أقـول: والأصل: مفضـاة، والثاني على القلب وذلك لأن (المُفاضة) من (أفـاض) ومعانيهـا معروفة، وقـد وردت هذه (اللغة) النـادرة في المعجمات منقولة عـن يـونس.

وأكتـفي بهذا القدر من (الشوارد) التي تفرَّد بهـا يونس، ثم انتقل إلى مـا تفرَّد به أبو حـاتم سهل بن محمد السجسـتـاني في كتـاب (تـقويم المفسَد والمزال عن جهتـه من كـلام العرب).

---

(١) (الشوارد) ص ١٨٦

(٢) انظر (مختـصر في شـواذ القراءات) ص ٦٥، و(المحتسب) ١/٣٨٤

(٣) (الشوارد) ص ١٧٦

قال أبو حاتم: رجل مالٌ ومالٍ، أي ذو مالٍ، وامرأة مالة ومالية[1].

أقول: المال معروف، وهو الإبل والغنم ونحوهما، فكيف يقال: رجل مال إلا على أساس من التشبيه الذي سماه البلاغيون التشبيه البليغ كقولهم (زيد بحر) لوصف بالجود الكثير. أما قوله: (رجل مالٍ)، فلا يتخرج إلا على أساس أنه ذو مال، وحذف المضاف وبقي المضاف إليه على جرّه.

غير أني أقول: هل ورد هذا في كلام العرب، وكأني أنفيه وأتخلص من هذه الفذلكة النحوية في توجيه ما قيل إنه من كلامهم.

وجاء من ذلك: (النِّقاوة) و(النقاءة) لغتان في (النُّقاوة) و(النُّقاية) و(للنُّقاء)[2].

أقول: وهذا الذي ذهب إليه أبو حاتم فحمله على اللغة النادرة هو المشهور الشائع في عصرنا، وصار المشهور الشائع وهو (النُقاوة) و(النُقاية) و(النُقاء) من كلام المعجم. وهذا أمر ينبغي أن نفيد منه في احتساب ما بقي في الألسن الدارجة وشاع في الفصيحة المعاصرة لأصالته وقدمه، وليس لنا أن نتسرع فنحمله على الخطأ.

وجاء من ذلك الرِّئيّ (بكسر الراء) من الجن لغة في الرَّئي، وكذلك كل فَعيل ثانيه أحد حروف الحلق نحو: رِغيف وشعير وبِعير وسعيد[3].

أقول: ربما كانت هذه اللغة غير مقيدة بما كان ثانيه أحد حروف الحلق بل كانت عامة، وربما يدفعني هذا إلى أنها فاشية في الألسن الدارجة، فيما كان ثانيه حرف حلق وما لم يكن نحو: ضِعيف وصِحيح ورِغيف وشِعير وبِعير وسِعيد وبِعيد كما نقول: طِويل وسِمين وكِبير وغير هذا.

ومن (الشوارد) طائفة كبيرة اختارها الصاغاني، وجعلها القسم الرابع من (الكلم النوادر)، وهذا القسم مأخوذ من كتب اللغة وشروح شواهد

---

(١) (الشوارد) ص ٢٥٩

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق، ص ٢٦٠

الأشعـار، كمـا نص علـيه هو نفسه. وهـذا القسم أكبـر وأوسع من الأقسام الثلاثة مجتمعـة. وجـله من الكلم الغريـب، ولكنـه غـريب غير مستوحش، ففيه من الكلم ما لا يستغنى عنه في جميع العصور، وهو في طائفة منه موثق بالشواهد الشعرية.

ولكـن اختبار الصاغاني هـذا لم يُبن على منهج، فأنت تجد من هذا الغريب مـا يربي على مـا اختاره، وقـد يجتمع لـك من الكلم الغريب المفيد مـا لم تجـده في كتاب (الشوارد).

وقـد لاحـظت أن الصاغاني في جمعه هذا لم يـكن على شاكلة أصحاب المعجمات على أنـه صنع جملة مصنفـات في (المعجمية العربية) ومنها (التكملة والذيل والصلة) لكتـاب (تـاج اللغة وصحـاح العربية)، وكتاب (العباب ـ معجم لم يتمه)، وكـلاهما من المعجمـات المفيدة النافعة. ومن هـذا الباب: (مجمـع البحرين في اللغة)، وكتـاب (الشوارد) الـذي جعلناه مـادة هـذا البحث، وكتـب أخـرى صغيرة حبسها على الأبنية ومنها كتاب الأفعال، وكتـاب الافتعال، ومـا بنته العرب على فَعالِ، وكتاب يفعول وغيرها.

قـلت: إن هـذا القسم الرابع جـاء على غـير منهج مع أنـه شيء من معجم، فـلا بـد أن يـكون له نظام مـا.

لقـد اعتمد في هـذا القسم عـلى كتـب كـثيرة سـمى طائفة منها وهي:

١ ـ كتـاب معاني الشعر لابن السراج.
٢ ـ كتـاب المقصور والممدود للأصمعي.
٣ ـ كتاب المذكر والمؤنـث لابن الأنبـاري.
٤ ـ كتـاب الجيم لأبي عمرو الشيباني.
٥ ـ كتـاب ليس في كـلام العرب لابن خـالويه.

و (الشوارد) في جملته من الكتب المفيدة، كسـائر مصنفات الصاغاني التي تقـدم الفوائد النفيسة، مما تـكشف عن عـلم هذا المؤلف الكبير.

أشتات في العربية
بحث في المهجور والمنسي وما لم يوضع وما عدل عن بنائه

أبدأ مسيرتي هذه في العربية التاريخية فأشير إلى طائفة من الغرائب، وأبدؤها بطائفة من الجموع نسيت مفرداتها أو هُجرت أو قلّت، وسأوردها مرتبة على حروف المعجم فأقول:

١ ـ آلاء:

والآلاء النعم، وهي كلمة قديمة ولكنها لم تفقد وجودها في العربية المعاصرة، وقد وردت في لغة التنزيل وكثر ورودها في سورة الرحمن في قوله تعالى: ﴿ فبأيّ آلاء ربّكما تكذبان ﴾.

ولكن المعربين ابتعدوا عن المفرد من هذا الجمع، وقلّ أن تجد بينهم من عرفه وهو: إلْيٌ، وألْوٌ، وألْيٌ، وألىً، وإلىً. وليس لنا من كلام العرب شيء وُجدت فيه هذه الألفاظ المفردة. فهل لي أن أقول: إن أهل العربية وصلوا إليها بصنعتهم في الاشتقاق حملاً على النظائر.

٢ ـ آناء:

ويرد هذا الجمع في قولهم: آناء الليل، أي ساعاته، والمعاصرون يوردونه مع: (أطراف النهار) اقتباساً من لغة التنزيل في قوله تعالى: ﴿ومن آناء الليل فسبّح وأطراف النهار﴾ [طه ٢٠/١٣٠] والمفرد في هذا الجمع هو (إنىً) وبفتح الهمزة والأناء، والإنْو.

وليس لنا من المفرد إلا قوله تعالى: ﴿إلَّا أن يُؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه﴾ [الأحزاب ٥٣/٣٣]، أي نُضجه، والأصل فيه وقت نضجه أي الساعة.

ولم نقف على المفرد فيما وقفنا عليه من كلامهم.

٣ - أبابيل:

لم نقف على هذه الكلمة إلا في قوله تعالى: ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾ [الفيل ٣/١٠٥]. فقال أهل العربية: إنها تعني الفِرَق، جمع بلا واحد، وهو قولُ أبي عبيدة في (مجاز القرآن). ثم عاد إليها آخرون فأعملوا فيها الصنعة فولّدوا منها مفرداً لا نجد له مكاناً في كلام العرب فقالوا: هو (إِبّيل) أو (إِبوَّل)، وقيل: (إِبّالة). وأشار أبو عبيدة إلى نظائر ﴿أبابيل﴾ مما ليس فيه مفرد وهي: عبابيد وشماطيط وشعاليل، وقالوا: ذهبوا عبابيد، أي فرقاً، وجاءت الخيل شماطيط، وتفرقوا شعاليل، وكلها يفيد التفرق في الذهاب..

٤ - أباطيل:

جاء في المعجمات أن (أباطيل) جمع لـ (باطل).

أقول: ولم نعرف في وزان (فاعل) ما جمع على (أفاعيل)، وكأنهم استغنوا بـ (أباطيل) عن جمع (باطل) الذي لم يوضع ولم يسمع، وهو شيء كان ينبغي أن يكون مثل جمع مائع وسائل وقابل ودابر. إن المعروف الشائع فيما ورد على (أفاعيل) أن يكون مفرده (أفعولة) نحو أراجيح والاعيب ونحو ذلك، وقد يأتي من هذا شيء آخر مثل (أعاصير) ومفرده إعصار.

٥ - أثناء:

و (الأثناء) جمع (ثِنْي) وهو ما انثنى وانعطف من الوادي وغيره.

أقول: و (الأثناء) في العربية المعاصرة صرفت إلى الظرفية، فيقال مثلاً: حدثت ضجة في أثناء الاحتفال. وقد يسقطون (في) لخلوص (أثناء) إلى الظرفية الزمانية كثيراً والمكانية قليلاً. ولا يدرك المعربون أن الكلمة

جمع (ثِنْي)، ولا يرد هذا المفرد في العربية المعاصرة.

ومثل هذا التحول إلى الظرف قد عرض للكلمة (خلال)، وهي في الأصل جمع (خَلَل) للمنفرج بين الشيئين، قال تعالى: ﴿فترى الوَدَق يخرج من خلاله﴾، وقد تسقط الأداة (في) لخلوص الظرفية كقوله تعالى: ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ [الإسراء ١٧/٥]، وقد استعمل المعاصرون (من خلال) استعمالاً كثيراً يخرج بها عن معنى الظرفية.

٦ - جراثيم:

وجرثومة الشيء أصله، أو هي التراب المجتمع في أصول الشجر، وجمعها (جراثيم). والجراثيم من الموضوعات التي صنف فيها أهل اللغة كتباً ورسائل، ولم يصل إلينا شيء من ذلك، ومادتها من غير شك أصول الأشياء.

ولما كانت الجراثيم أصول الأشياء صرفها المعاصرون إلى (الأصول) غير المرئية التي تجلب الأمراض. ومن هنا احتملت معنى المواد الضارة بشكل عام، ولم يكن للكلمة هذا المعنى في الأصل.

أقول: وكأني ألمح أن الكلمة جاءت إلى العربية من نظيرتها الآرامية (شراشيم) وهي جمع على الطريقة العبرانية ومفردها (شرش) بمعنى أصل أو جذر. وما زالت الكلمة حية في عامية بلاد الشام. ويدلنا على أن (جراثيم) تومىء إلى هذا الأصل قول أهل اللغة أنها تدل فيما تدل على التراب المجتمع في أصول الشجر.

٧ - حذافير:

وجاء في معجمات العربية أن من معاني (الحُذفور) أو (الحِذفار) الجمع الكثير. وكأن الجمع فيه (حذافير).

وقالوا: أخذه بحذفوره أو بحذفاره أو بحذافيره، أي بأسره...

وقالوا: الحذافير هم المتهيئون للحرب.

أقول: وردت (الحذافير) جمعاً كثيراً ولم يؤثر شيء من ذلك في

المفرد، وكأن الحذفار والحذفور قد وُلِّدوا نظير ما وقفنا عليه مما قيل في مفرد (الأبابيل).

٨ ـ أرجاء:

ومفردها (رَجا) للناحية أو ناحية البئر.

أقول: وليس شيء من المفرد في الأقلّ في العربية المعاصرة، والمعاصرون حين يصفون الشيء بالسعة يقولون: واسع الأرجاء، وقل بينهم من يعرف أن واحد الأرجاء هو الرَّجا، كما أنه لم يرد في العربية القديمة إلا في ناحية البئر. وقالوا: يُمَدّ، وهما رَجَوان.

٩ ـ أساطير:

و (الأساطير) في عصرنا مادة جديدة ترد كثيراً لدى نقاد الأدب الحديث، وهي جمع (أسطورة)، والأسطورة حكاية ذات رمز والرمز فيها يتأتى من شخوص الأسطورة وهي الآلهة القديمة لدى القدماء من الشعوب في الشرق والغرب.

وقد وردت الأساطير في لغة التنزيل مرات عدّة بمعنى الأحاديث التي لا نظام لها أو الأباطيل، وهي في هذا الحيز منبوذة مستنكرة في قوله تعالى: ﴿أساطير الأولين﴾ مشيرة إلى أنها قديمة العهد توارثها الناس. ولا تعني ﴿الأساطير﴾ في هذه الآيات أنها شيء مكتوب، بل إنها سطرت أي رتبت في نسق ما. وقد تكون (الأساطير) جمعاً لسطور وأسطار، فهي جمع الجمع، ومن هنا يذهب بها إلى الكتابة المسطورة وقال أهل اللغة إنها جمع إسطار وأسطارة وإسطير وإسطيرة وأسطور وأسطورة.

أقول: والذي أراه أن هذه الأسماء المفردة خلاصة ما انتهت إليه صنعة اللغويين في توليدهم. ولم يرد شيء من هذه المفردات في كلام العرب ولم يستشهد اللغويون على أيٍّ منها بشيء من كلامهم.

ومن هنا كانت (الأُسطورة) مولّداً جديداً صيغ على نظائره مما ورد في جمعه (أفاعيل) نحو الألاعيب والأراجيح وغيرها.

أقـول: وكأن المعاصرين جعلوا (الأُسطورة) مقـابلاً لكلمة أعجمية هي (Mythe أو Fable).

ويحسن أن ننظر هنا إلى أن فـن التاريخ أو عـلم التاريخ (Histoire) الـذي يعني فيما يعنيه الحكاية والأسطورة. ومن هنـا لم تـكن (الأسـاطير) الكلمة العربية بعيدة عن هذه الكلمة ذات الأصـل اليونـاني القديم.

ولسـت أقصد من هـذا أن أجنح إلى مـذهب المخلِّطين فاذهب إلى الاختـراع والخبط في الظلام، بـل أردت من هـذا أن أقف على كلمـة التاريخ عنـد الغربيين وانصرافها إلى الحكايـة والأسـطورة.

١٠ ـ أشـلاء:

و(الأشـلاء) مـا زالت محتفظة بمعناها في الاستعمال المعاصر، غـير أن المعاصرين صرفوها إلى أعضـاء الجسم بعد القتل، وهـي مـا يبقى من الجثث بعد المعركة مثـلاً.

أقـول: و (الأشـلاء) في الأصـل جمع (شِلْو)، وهـو العضو والجسـد من كـل شيء كالشَّلا، وكلّ مسلوخٍ أُكـل منه شيء وبـقيت منه بقية.

ولـم يـرد (الشلْو) في لـغة المعاصرين، والذين يستعملون (الأشـلاء) في لغتهـم لا يـدركون أن المفرد (شِلْو) لأنهـم لا يعرفونه بـسبب عـدم الحاجة لـه. ومن هنا كانت (الأشلاء) التي ضيّق المعاصرون دلالتها، جمعـاً هجـر مفرده في العربية المعاصرة، وله في هذه العربية نظائر.

١١ ـ أفعاء:

و (الأفعاء) كـلمة غريبة لا نعرفهـا إلا في معجمـات العربية مأخـوذة عن الأزهري.

قـالوا: قـال الأزهري (الأفعاء) هـي الروائح الطيبة، انتهى كلامهـم.

أقول: كأن صـاحب اللسـان قيّدها بالأزهري ليقـول إنها لـم تـرد لـدى غيره من أصحـاب المعجمات المتقدمة الذين سبقوا الأزهـري. وعندي من

أمرها شك ونظر، ألا تكون (الأفغاء) وقد صحّفت على الأزهري، ذلك أن (الفَغو) و (الفاغية) نَور الحِنّاء. وقد قالوا في هذا نكتة طريفة وهي أنهم يغرسون غصن الحنّاء مقلوباً فيثمر زهراً أطيب من الحنّاء فذلك الفاغية.

أقول: أيضاً ان القرابة بين العين والغين في الصوت والرسم ربّما جعلت الكلم يتردد بينهما إما إبدالاً أو تصحيفاً، فلا بد أن يكون (عَيلان) من أعلامهم قد دخل بعضه في (غيلان) وبالعكس. ولا أستطيع في أمر (الغشاوة) التي وردت في قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غِشاوة﴾ [البقرة ٢/٧] أسمعت عن رسول الله (عشاوة) بالعين فأثبتها أصحاب الشواذ من القراءات؟ وربما عنّ لي أن أقول: إن (الرَغى) صوت وَجَلَبة تحدث في القتال من الرجال والسلاح، فهل كان (الوَعَى) بالعين المهملة من الكلم التي عرض لها الإبدال، أم كانت مما دفع به التصحيف للتشابه في رسم العين والغين؟

وهل لي أن ألحق بهذا (الغَوغاء) التي ورد معها (العَوْعاء)!

١٢ ـ أفناء:

قال ابن الأعرابي: بها (أعناء) من الناس و (أفناء) أي أخلاط، الواحد عِنْو وفِنْو. وقال آخرون: ورجل من أفناء القبائل، أي لا يُدرى من أيّ قبيلة هو. وقيل: إنما يقال قوم من أفناء القبائل ولا يقال: رجل. وليس للأفناء واحد.

قالت أم الهيثم: يقال: هؤلاء من أفناء الناس، ولا يقال في الواحد: رجل من أفناء الناس، وتفسيره قوم نُزّاع من ههنا وههنا.

أقول: أما (الأعناء) فلم نجدها إلا في قول ابن الأعرابي، وكأنها كالأفناء، وكلاهما لا واحد له.

ولعل العرب القدماء قد حزبتهم الحاجة إلى هاتين الكلمتين في حالة الجمع، وليس لهم حاجة في المفرد فسار الجمع وشاع دون أن يكون له مفرد. ثم بدا للغويين أن يصلوا إلى المفرد بصنعتهم حملاً على نظائر هذا الجمع.

وأنا أذهب إلى هذا الرأي ودليلي حاجتنا في العربية المعاصرة إلى الجمع في مواد كثيرة لم يؤثر فيها الجمع إما لأنها أحداث مصادر لم تتحول إلى الاسمية، وإما لأنها أسماء جنس دلت على جنس الشيء فاستغني به عن الجمع. فمن هذا النجاحات والنزاعات والفتوحات والأنشطة ونحو ذلك مما هو شائع في العربية المعاصرة، ومثله في أسماء الجنس كالأصواف والأقطان والتمور وغيرها. وكثير من هذا جاء بسبب من النظر إلى اللغات الغربية ودوام الحاجة إلى النقل والترجمة. على أني لا أنكر أن يكون القدماء قد واجهوا شيئاً من هذا فجاء في استعمالهم فقالوا مثلاً: محمد بن محمد الجلودي.

١٣ ـ آلاء:

و(الآلاء) كثيرة الورود في العربية فقد وردت في سورة [الرحمن ٥٥] مرات عدة في قوله تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذّبان﴾، كما لم تخل منها عربيتنا المعاصرة.

غير أننا يعسر علينا أن نجد مفردها في كلام قديم أو حديث، وقد يدل على عدم وجوده أن اللغويين أثبتوا له عدة أبنية هي: (إلَى) كأداة الخفض، وألْوٌ، وألْيٌ وأُلْيٌ، أليس هذا بغريب[١]؟.

١٤ ـ أمعاء:

والأمعاء أعفاج البطن، ومفردها (مَعْي) و (مِعَى) مثل (إلى) الجارة.

أقول: و (الأمعاء) من الكلم المجموع الذي يحتاج إليه، وليس في الناس حاجة لاستعمال المفرد، ومن هنا قلّ وروده، بل قل من يعرف هذا المفرد.

١٥ ـ أقول:

وفي العربية أوابد جاءت مجموعة الأبنية، ولكنها تصف المفرد، أو

---

(١) لم أشأ أن أضع (آلاء) في مكانها بحسب حروف المعجم، ولكني آثرت (التوهم) مخافة أن يذهب القارىء فيحمل ورودها في مكانها الخاص على السهو والخطأ.

قـل اتصلت بالمفرد لخصوصية خـاصة فمن هـذا:

بـرمة أعشار، وثـوب أسمـال، وعـسل أبكـار.

ولا يـراد بهذا الوصف الجمع.

ومـن هذه الأوابد (الخراطين) لـديدان في الأرض الندية، وكـذلك (الخنـاسير) للهـلاك وضعاف الناس وأبـوال الوعول على الكلأ والشجر.

أقـول: هـذه نبذة يـسيرة في غـرائب الجمع في العربية.

ولننتقل الآن إلى أفعـال قـديمة فنثبت فيها قـولاً أو رأياً وهي:

١ - ينبغي:

وهـذا فعل لـزم هذه الصيغة ولا يقـال منه انبغى، والفعل في لغة التنزيل جـاء مسبوقاً بنفي في قـوله تعالى: ﴿ومـا ينبغي للرحمـن أن يتخذ ولـداً﴾ [مـريم ١٩/٩٢] بمعنى: لا يـصح ولا يـجوز، وقـد ورد مثـل هذا في سورة [الفرقـان ٢٥/١٨]، وفي [الشعـراء ٢٦/٢١١]، وفي سورة [يـس ٣٦/٤٠]. كما ورد في قـوله تعـالى مسبوقاً بنفـي أيضاً: ﴿قـال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبـغي لأحـد من بعدي﴾ [ص ٣٨/٣٥]، والمعنى: لا يسهـل ولا يتيسّر.

وأمـا قـول النحويين: (انبغَى لفـلان أن يفعـل أي صـلح له أن يفعل) فهـو مثـل مصنوع لا نلتـمس له نظيراً في كـلام قـديم فصيح نحتج به عليه، ولو أنهـم وجـدوا شيئاً من ذلـك مـا تركوه.

ومن هنـا كان هـذا الفعل الماضي مما حـذقت فيه الصنعة، وهـو شـيء مهجور.

ومـن المفيد أن أشـير إلى أن الفعل (ينبغي) قد كـثر استعماله في العربية المعاصرة بمعنى (يجـب)، ولـيس شيء من الاستعمال القديم يـرد في هذه العربية الجديدة. ومن أجـل ذلك ذهبـوا إلى وصـله بمدخـوله بالحرف (عـلى). والحرف (على) مشعـر في أن استعماله كثيـر بما هو ضـرر، فكأننا

حين نقول: يجب علنيا، احسسنا أن الوجوب ثقيل لا يصل إليه الإنسان بيسر. ومن هنا كان به الدعاء بالشر، والاستقراء في العربية يدل على هذا. وهكذا تتغير الدلالة في الفعل (انبغى) بشيء مما دعاه المتقدمون بالتضمين.

٢ - حرى:

والفعل (حَرَى) من المواد النحوية يأتون به للإعراب عن الرجاء مثل عَسَى. وليس لهذا الفعل إلا بناء (فَعَل)، ومن التجوزالكبير أن ندعوه فعلاً ماضياً، ذلك أنه تفرغ من الإشارة إلى المضي باحتفاله بالدلالة على الرجاء في استعمال النحويين.

أقول: لم أجد النحويين في هذه المسألة إلا على طريقتهم في صنع المثل فقالوا: (حرى زيدان يقوم)، وليس شيء من هذا في نص قديم أو آية أو حديث. والذي في العربية في (حَرَى) أن اللغويين ذهبوا إلى أن معناه النقص فقالوا: (حَرَى القمر) أي نقص، وأما ما خلا ذلك فمادة (حرو) تنصرف إلى (الحريّ) أي الخليق فيقال حريّ وحراً، وحَرٍ ونحو هذا، وحريّون وأحرياء.

٣ - ومثل (حَرَى):

في إفادة الرجاء على زعم النحويين الفعل (اخلولَق)، ولم أجد في العربية نظير قولهم: اخلولَق المطر أن ينزل، ولكني وجدت اللغويين يذكرون فيه: اخلولق السحاب بمعنى استوى وارتتقت جوانبه، وكذلك قالوا: اخلولق الرسم بمعنى استوى بالأرض.

أما إفادة الرجاء فشيء عرفناه في كتب النحو في بناء الماضي، ولم يرد في أقوالهم شيء غير الماضي.

٤ - عسى:

وهو فعل مطلقاً أو حرف مطلقاً للترجي في المحبوب والإشفاق في المكروه وقالوا: اجتمعا في قوله تعالى: ﴿وعَسَى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم﴾ [البقرة ٢ / ٢١٦].

وجـاء في المثل: (عَسَى الغُوَير أبؤساً) بمعنى (كـان).

أقـول: وقـل لـزم (عَسَى) هـذه الصيغة، ومـن هنـا وجـد النحويون الكوفيون أنـه حـرف نظير (لَعَلّ).

ولا أدري كـيف سـاغ لهم أن يـدرجوه في النواسخ فيكـون فعلاً، ولـيس فيه من الفعل (أي الحـدث والزمن) أي شـيء، بـل إنـه استعمل في حـشو الجملة الفعلية لإرادة الرجـاء كما في قـوله تعالى ﴿عـسى ربكم أن يرحـمكم﴾ [الإسراء ١٧/٨]. ولو أني قـلت على نسق الآية الكريمة: (عسى أن يحـالفك الحـظ)، وهو كلام يقال كثيراً في العربية المعاصرة، أيـكون لي أن أدرجه في بـاب النواسخ مثل (كان) في أنها تقتضي الاسم والخـبر؟.

أقـول: من هنا لا بـد لي أن أجـرده من العمل وأفرغه لإرادة الرجـاء لـيس غير.

٥ ـ كـرب:

قـالوا: كَرَب أن يفعل بمعنى (كـاد) ودنا أن يفعـل. وهـو من الأفعال التي ألحقت بـ (كـاد) لإفـادة المقاربة ومثلها (أوشـك).

أقـول: وكأني ألمـح في الفعل أصـلاً هـو (قَرُبَ) فعرض له الإبـدال فصـار (كَرَب) ولـزم بنـاء (فَعَل). وقـالوا: كَرَبت الشمس أي دنت للمغيب، ولـيس في هـذا شيء من الاستعمال النحوي، ولكـن النحـاة وجـدوا استعمالهم في قـول عمر بن أبي ربيعة:

فلا تحرِمي نفساً عليكِ مَضيقةً   وقد كَرَبت من شدّة الوجد تطلُعُ

٦ ـ يَدَعُ:

وهو فعل على النقص ووزنـه (يَعَل) بمعنـى يتـرك، ولـم يـرد منه مـا كان على (فَعَل) أي (وَدَع) إلا في قراءة من قرأ: (ما وَدَعَكَ ربّك وما قلى) [الضحى ٩٣/٣]. بتخـفيف الدال. وذهب أهـل اللغة إلى أن (وَدَعَ) هـذا فعل منسي.

٧ - ومثل (يَدَعُ) (يَذرَ):

وهـو بمعناه، ولم يـرد منه (وَذَرَ) فهو فعـل منسي.

ولو أردنا استيفاء هـذا المنـسي في الأفعـال والأبنيـة الأخـرى لتهيّأ منه مـادة وافرة[١]، ولكني آثـرت الإيجـاز مكتفيـاً بهذه اللقطات.

---

(١) قـد يستغنى في العربيـة ببنـاء عـن آخـر فيشيـع أحدهمـا ويقـل ورود الآخـر، ومن هـذا الفعل (أَنَى) يـأني الذي غـلـب مقلوب صيغته وهو (آن)، ومن الأول قـوله تعالى: ﴿ألم يـأن للذيـن آمنوا أن تخشع قـلوبهم لـذكر الله﴾ [الحـديد ٥٧/١٦].

في الكلم المنسوب

يقف المعربون في عصرنا من العربية المعاصرة موقف الباحث عن الشيء فلا يجده. وهو بسبب ذلك محاصر باللغات الغربية ولا سيما الإنكليزية، يتخذ منها مصدر يمد العربية بالجديد. قد يكون على حق في بعض ما يذهب إليه، وقد يكون بعيداً عن الحق، ذلك أنه قد جهل العربية، ولم يعرف أن فيها من طرائق التعبير ما يغنيه عن الوافد الجديد. إننا نقتسر هذا الجديد فننقله إلى بيئة ليس بينه وبينها صلة رحم، ومن هنا كان كثيراً مما يدخل في الجديد منفراً.

وأريد بعد هذا أن أعرض للكلم الكثير المنسوب في العربية الحديثة، والنسبة في العربية معروفة للوصول بالكلم الجامد وغير الجامد إلى ضرب مما يوصف به، فأنت حين تقول: الخطيب البغدادي، نسبت الخطيب إلى مدينة (بغداد)، وجعلت من (بغداد) وهي علم جامد شهرةً[1] قامت مقام الوصف. إلا أن فائدة النسب من حيث الدلالة تكون في وصف الشيء ببعض صفات ما نسب إليه، فأنت حين تقول: قميص حريري، لا يفيد بالضرورة أنه صنع من الحرير الخالص، بل يفيد أحياناً أنه كالحرير ملمساً وبريقاً. وكأنّ أهل الصناعة الحديثة أدركوا هذا، فإذا قالوا: منديل

(١) أدعو أسلوب النسبة إلى الحواضر بالشهرة لأنبه على ما ذهب إليه المعاصرون من أنها لقب، واللقب معروف ما أفاد مدحاً أو ذماً.

حريري، فإنهم يعنون أن في خيوطه شيئاً ليس حريراً مما جدّ في الصنعة الحديثة، ومن أجل ذلك يعقّبون على كلمة (حريري) أحياناً بقولهم: من الحرير الخالص. ومن هنا دلت النسبة على عدم خلوص المنسوب إلى ما ينسب إليه، وكذلك كانت العربية الفصيحة.

قال تعالى: ﴿مثل نوره كمِشكاةٍ، المِشكاة في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دُرّيّ﴾ [النور ٢٤/٣٥] ومن غير شك أن (الكوكب) ليس من خالص الدُرّ، بل إنه في لمعانه وصفائه كالدُرّ.

وإذا قلنا في عصرنا، وكثيراً ما نقول: (إن الفريق السعودي في كرة القدم فاز بالكأس الفضية في حين أن الفريق الباكستاني فاز بالكأس الذهبية).

أقول: وليس الكأس من فضة خالصة، ولا من ذهب خالص، ولكنه من معدن شبيه بالذهب والفضة، ولا يمنع أن يكون الذهبي والفضي في إدراك المعنيين برياضة الكرة من ذهب خالص وفضةخالصة.

أما في فصيح العربية فالأمر في حدوده التي درجت عليها العربية، ألا ترى قوله تعالى: ﴿يُحَلَّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ [فاطر ٣٥/٣٣].

﴿ويطاف عليهم بآنيةٍ من فضّة وأكواب كانت قواريراً﴾ [الإنسان ٧٦/١٥].

أقول: لم يرد شيء من هذه الآيات منسوباً إلى الذهب أو الفضة أو الحرير، ولو جاء في الذكر الحكيم (أساور ذهبية) و(أساور لؤلؤية) و(لباس حريريّ) و(آنية فضية) لكان للكلام معنىً آخر.

وعندي أن يقال (ثورة نوفمبر) خير من أن يقال ثورة نوفمبرية. وقد يسوغ النسب إن كان هناك ثورات عدة أحداها في أكتوبر، والأخرى في نوفمبر، وثالثة في... فيقال عندئذٍ الثورة الأكتوبرية، والثورة النوفمبرية، وليس هذا بحاصل لدى من يقول: (الثورة السبتمبرية) كإخواننا أهل اليمن.

لقد أكثر المعاصرون من النسب فقالوا: القوانين التعبوية، والحلول التصفوية، وذهب آخرون إلى النظم التوعوية، ولم يجدوا بأساً في الثقل البغيض من جراء النسبة. ولو أنهم لجؤوا إلى أسلوب الإضافة لكانوا أسدّ قولاً فيقال: قوانين التعبية أو التعبئة، وحلول التصفية، وغير ذلك.

أقول: كأني ألمح في ميل المعاصرين إلى النسبة تأثراً بما في اللغات الأعجمية، والمعربون في عصرنا لا يعرفون الحدود فهم نقلة مقلدون، ومن هنا شاع الدخيل وشاعت الأساليب المترجمة في العربية. والإكثار من النسبة جعل المعاصرين يتجاوزون حدود العربية لجهلهم بها، ألا تراهم أكثروا من النسبة إلى (الوحدة) فقالوا: الاتجاهات الوحدوية. وإني لأذكر ورود هذه الكلمة أول مرة كانت في خطبة الرئيس جمال عبد الناصر، ثم شاعت شيوعاً عجيباً. إن هذه النسبة قامت على الخطأ، فالنسبة إلى (الوحدة) كان ينبغي أن تكون كالنسبة إلى نظائرها كالبصرة والكوفة والغزوة ونحو ذلك، فلما قلنا؛ (بصرية) كان يجب أن يقال: (وَحْدية)، ولكنه الشيوع تُرزَأ به الكلمة فتشيع فيعسر فيها إصلاح الخطأ.

أقول: إذا كان أهل السياسة لا يتقنون حدود العربية، فما بال أصحاب القائلين بالألسنية أو اللسانية أو النقاد الجدد الذين عادوا إلى اللغة وكأنهم اكتشفوا فتحاً جديداً، أقول: ما بال هؤلاء قد اخترعوا (البنيوية)، وحدّ العربية يقضي أن تكون (البُنَوية)؟

ودرج المعربون على طريقتهم في النحو فنسبوا إلى الجمع، ولم يلتزموا بقول البصريين من النحويين من لزوم النسبة إلى المفرد. ومن هنا قالوا: صُحُفي.

وقال البصريون في هذا الباب: إلا أن يجعل الجمع علماً للمنسوب إليه كمدائن وكلاب فيقال: مدائني وكلابي. وقد قالوا في تعليل (أعرابي): إنه صير إلى النسبة إلى الجمع خشية الالتباس بالمنسوب إلى العرب، وبين العرب والأعراب فرق معروف.

وقالوا: إن (أنصاري) شاذ فلا يقاس عليه (شرح الطرة على الغرة على الدرة ص ٣٠٣).

قال الشهاب الألوسي: «ثم إن المانعين استثنوا صوراً: منها أن يكون الاسم المنسوب إليه علماً كأنبار للبلدة المشهورة وهي اليوم بلاقع، و (فرائض) عَلَم للعِلم المشهور. ومنها أن يغلب على شيء حتى يلحق بالعلم كأنصار لغلبته على أنصار النبي صلى الله عليه وسلم في الأوس والخزرج، وهو إما جمع نصير أو ناصر.

وجاء في (معجم الأدباء ١/٣١ ـ ٣٢): ينسب إلى الجمع إذا كان حرفة كالأشاطي والمحاملي، والجواليقي، ومثله الحُصري والخرائطي والأنماطي والأكفاني وغير ذلك.

وابن الساعاتي الشاعر مشهور معروف، وهو علي بن رستم ابن الساعاتي.

وجاء في تاريخ الحكماء للقفطي: روفس حكيم طبائعي بصناعة الطبّ في وقته.

ومثل هذا (الجرائحي) لأسي الجراحات، وكذلك الجراحي، والأول أشهر.

وأما النسبة إلى (فَعيلة) غير مضعف فقد ورد في (شرح الشافية ٢/٢٨):

وتحذف الياء والواو من فَعيلة وفَعولة بشرط صحة العين ونفي التضعيف نحو:

حَنَفيّ وشَنَئيّ في النسبة إلى حنيفة وشنوءة.

وقال ابن قتيبة (أدب الكاتب ص ٢٠٩، ط السلفية):

وإذا نسبت إلى مصغر كانت فيه الياء أو لم تكن وكان مشهوراً ألقيت الياء منه، فتقول في جُهَينة ومزينة: جُهَني ومُزَني. وفي (قريش) قَرَشيّ، وفي (هُذَيل) هُذَلي، وفي (سُلَيم) سُلَمي إلاّ ما أشذوا.

وكـذلك إذا نسبت إلى فعيل أو فعيلة من أسمـاء القبائل والبلدان، وكـان مشهوراً، ألقَيتَ منه الياء مثـل: ربيعة وبجيلة، وحنيفة، تقـول: رَبَعيّ وبَجَليّ وحَنَفيّ. وفي (ثقيف) ثَقَفي، و(عَتيك) عَتَكيّ، وإن لم يـكن مشهوراً لم تحـذف الياء في الأول ولا الثاني.

فيقـال على هـذا: بديهـيّ وغريزي وقبيلي وطبيعي وكنـيسي.

وقـال أبو حـيان التوحيدي في بعض أخبـار مقاريوس: ثم أقبل على زيمـوس وقـال له: مـا أبعـد شَبَه معدتك من المعادن الطبيعية. (الإمتـاع والمؤانـسة ٢/٣٨).

وجـاء في الحيـوان للجـاحظ (١/٢٨٣): لو شئنـا أن نقـول إن سهـر الكلب بالليل ونومه بالنهار خـصلة ملوكـية لقلنا، ولو كـان خـلاف ذلك لكانت الملوك بـذلك أولى.

وقـد غـلّط الحريري في (درة الغواص) استعمالهم (الصُحُفي) نسبـة إلى الجمع، فهـو جمع صحيفة، لمن يقتبس من الصحف، قـال:

«ويقـولون لمن يقتـبس من الصحف (صُحُفي) فينسبون إلى الجمـع قياساً على قـولهم: أنصـاري وأعرابي، والصواب عند البصريين (صَحَفي) نسبـة إلى (صحيـفة) المفرد، كحنَفَي نسبـة إلى حنيفة، فـإنهم لا يـرون النسب إلاّ إلى واحـد الجمع إلا أن يجعـل الجمع علمـاً للمنسوب إليه كمـدائن وكـلاب فيقـال: مـدائني وكـلابي.

أقـول: ولكن المعربين قـد توسعوا في النسبة فلم يتقيدوا بأقـوال اللغويين والنحـاة فنسبوا إلى المفرد كما نسـبوا إلى الجمع إن كـان في النسب للجمع فـائدة، وقـد رأينا كـيف قـال الجاحظ (ملـوكي).

ونـسبوا إلى المركب الإضافي فقـالوا (الحِصكفيّ)، لمن نسب إلى حِصن كيفا (بليدة قـرب حـلب).

ونسـبوا إلى داريـن فقـالوا داري، ونـسبوا إلى الحيرة فقـالوا حيري، وهـو القياس، وحاريّ وهو شهير مسموع.

وقالوا: الفارقي في النسبة إلى (ميّا فارقين).

ونسبوا إلى رأس عين فقالوا: رَسْعَني.

وأودّ أن أقف على استعمال المعاصرين لكلمة (رئيس) وصفاً في قولهم: العامل الرئيس، والمادة الرئيسة، وكأنهم بذلك قد عزفوا عن استعمال الرئيسيّ والرئيسيّة، وعدّوا ذلك من الخطأ.

أقول: إن عدول المعاصرين إلى الرئيس والرئيسة جيد، وهو عدول عن شيوع هاتين الصفتين. فيمن عرف بالرئاسة، فالرئيس من صفته الرئاسة، ولذلك قالوا الرئيس فلان، وهو رئيس الجمهورية ورئيس البلد، ورئيس الكتاب... كما شاع الرئيس شهرة لأبي علي ابن سينا الأستاذ الرئيس.

وكأن المعاصرين أرادوا أن يعودوا بـ (الرئيس) إلى حقيقته في النعت، فهو صفة على (فعيل) كالكبير والصغير ونحوهما.

قلت: ليس في عود الكلمة إلى حيزها في الأصل من ضير. غير أني أقول: إن الرئيسيّ بالياء المشددة والرئيسيّة بالياء أيضاً ليس خطأ، فهما وصفان لموصوف وصف بالرئاسة التي هي من شأن الرئيس.

ثم إن إلحاق الياء مشدّدة على طائفة من النعوت والأسماء يراد به التكثير والمبالغة، ومن أجل ذلك قالوا: فلان أناف، فإذا أرادوا التكثير والمبالغة قالوا: أنافيّ.

وقالوا: فلان آذَن، أي ذو أذنين كبيرتين، فإذا أرادوا المبالغة قالوا: أُذاني.

وقالوا: رُؤاسيّ للعظيم الرأس.

وقالوا: أحوذيّ للخفيف الحاذق، وليس لنا (أحوذ).

وقالوا: أحوريّ للشديد البياض.

وقالوا: دوّاريّ للكثير الدوران، قال العجاج:

والدهر بالإنسـان دوّاريُّ

ومن المعلوم أن (دوّار) وحـدها تفيد المبالغة، فـكأن زيـادة اليـاء المشددة تـأكيد للزيادة والمبالغة.

وقـالوا: ألمعيّ ويلمعيّ.

والشيظَم هو الطويل الجسم، وقـالوا فيه شَيظميّ.

أقـول: من هنا لـم تـكن الياء في (رئيسيّ) لإفـادة النسبة، بـل هي يـاء تـزاد لتوكيـد الصفـة في الشيء كمـا بيّنا، وعـلى هـذا فهي صـواب ولـيس خطأ، ذلـك أن زيادتها من طرائـق العرب في لغتهـم.

فـإذا كنـا في سجاحة من العربية، فهـل لنـا أن نتقبل مـا نسمعه في الإذاعـات ومـا نقرؤه في الصحـف من قـول المعاصرين: الدراسات الشرق أوسطية. ألم يـقل القدماء: أبو الحسـن الدارقطني منسـوباً إلى دار القطن من محـالّ بغداد القديمة، ومثـل هـذا نسبتهم إلى (دير العاقول) اسـم موضع قـريب من بغـداد القديمة فقـالوا مثـلاً: محمد الديرعاقولي.

ولنـا أن نتأسى بالفصيح القديم القـائل:

ولست بنحـويٍّ يـلوك لسـانَــه   ولكن سيـلقيٌّ أقـول فـأعــربُ

ولـم يقـل: سَلَقيّ.

الألفاظ العباسية

هذه طائفة من مواد لغوية قصدت بها أن تكون مادة هذا المبحث، فهي من أجل ذلك قليل من كثير اجتزأت به واقتصرت عليه مستقرىً من جملة كتب سآتي على ذكرها. وهذه الألفاظ إما أن تكون مواد عرفت في عصور هذه الدولة فسجلتها مصادر اللغة والأدب، وإما أن تكون شيئاً آخر اكتسب دلالة في هذه الحقبة الطويلة، وربما كانت هذه الدلالة الجديدة معنىً مصطلحاً عليه شاع ليدل على شيء في حاجات هذه العصور أو من مرافق هذه الدولة التي امتدت إلى أكثر من خمسة قرون...

وقد يكون شيء كثير من هذا الذي جدّ في هذه الأحقاب قد كتبت له سيرورة طويلة بعد عصور هذه الدولة وزوالها.

لقد وقفت وأنا أقرأ طائفة من أدب الجاحظ على مواد غريبة عن العربية يمكن أن تعدّ من الدخيل، غير أنها لم تصل إلى رتبة (المعرَّب) المشهور، ومن أجل ذلك لم تدرج في كتب (المعرَّب) التي وصلت إلينا. وهذه المواد تؤلف جملة من الكلم تشتمل على شيء يتصل بالأطعمة والأشربة وشيء من آخر من الأدوات.

وقد يكون لنا أن ندرك من جرأة الجاحظ واعتداده بفكره في أنه قد أباح لنفسه أن يستعمل في أدبه ما لم يقدم عليه أحد ممّن عاصره. وإذا

عرفنا أن الجاحظ قد ابتدع من الكلم في العربية ما لم يكن فيها ولم تشر إليه المعجمات[1]، أدركنا أن إقدامه على استعمال الأعجمي، واستعمال العامي الذي لاكته الألسن في البيئة البصرية ليس غريباً عن طبيعته. وكان قد أدرك أنه ملك من العربية ناصيتها فراح يأتي في أدبه بما أملاه عليه حذقه وصنعته.

ثم إني كنت قد استقريت طائفة من الكلم والمصطلح الفني مما وقفت عليه في جملة مصادر أدبية وتاريخية، وهذا كله يدخل في باب الجديد الذي عرف في عصور دولة بني العباس فاستحق أن يوصف بهذه الصفة. ولنعرض لشيء مما ورد في أدب الجاحظ وسنتبعه بما ورد في مصادر أخرى.

١ - اشكَنَّك:

قال الجاحظ: (وما كان من إشكَنَّك فهو مجموع للبناء)[2].

قلت: إن الجاحظ أباح لنفسه أن يستعمل الكلم العامي الذي شاع في أيامه، ولعل ذلك كان بسبب أن الكلمة العامية مفيدة. فلا تغني عنها كلمة فصيحة، أو لعل الفصيحة تفتقر إلى كلمة تؤدي ما تؤديه تلك الكلمة العامية.

لقد وقف الأستاذ الحاجري على هذه الكلمة في كتاب (البخلاء)

---

(١) انظر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/٨٦٨ م) البيان، تحقيق عبد السلام هارون في أربعة أجزاء، مكتبة الخانجي بالقاهرة (الجرار) عود يُعرَّض في فم الفصيل أو يُشَق به لسانه لئلا يرضع.
أقول: لقد علّق الجاحظ على الفعل (أجَرَّ) في قول عمرو بن معد يكرب:
فلو أنَّ قومي أنطَقَتني رماحُهمْ نَطَقتُ ولكنَّ الرماحَ «أجَرَّتِ»
كأن الجاحظ قد ولدّ (الجرار) من هذا الفعل، فلم يرد في معجمات العربية (الجرار). وكان الأستاذ الفاضل عبد السلام محمد هارون قد أشار إلى هذا، كما أشار إلى جملة من الألفاظ الأخرى التي انفرد بها الجاحظ.
ولكني أقول: لعل (الجرار) هذا، وهو الذي حملناه على أنه شيء مما تفرَّد به أبو عثمان هو تصحيف لكلمة (خِلال) صحّفها النساخ فوجدت السبيل إلى مختلف الطبعات للكتاب، وذلك لأن (الخلال) هو العود الذي يجعل في لسان الفصيل لئلا يرضع، وهذا هو الذي أورده الجاحظ في كلمة (الجرار) أليس جائزاً أن يقع هذا التصحيف؟

(٢) الجاحظ (البخلاء) تحقيق الحاجري، ص ١٤٣ دار المعارف، القاهرة، من دون تاريخ

وتعذر عليه أن يجد لها وجهاً، واكتفى بإظهار عجزه. وقد رسمت الكلمة بقافين في (البخلاء) في طبعة الحاجري وسائر الطبعات، وحقيقتها أن تكون بالكاف التي هي نظير الجيم القاهرية. والكلمة كما قلت عامية، وتفيد جملة الحجارة التي تكثر في مخلفات البناء، والتي يستفاد منها في حشو الجدار بين وجهيه، وما زال العراقيون يعرفون هذه الكلمة وما تعنيه. وهي ربما دخلت في أدبهم الشعبي ففي المثل: (الطابوق نام والإشكنك قام). وهو مثل يضرب في الحال التي يكون فيها الرأي والحكم بيد السوقة الجهلاء في حين لا قيمة لأهل الرأي والعقل. وهذه الكلمة من الكلم التي عبّر عنها اللغويون المتقدمون بالكلمة السوادية المنسوبة إلى السواد. وهذه النسبة تشير إلى أن أهل السواد من العاملين في الفلاحة جلهم من النبط الآراميين، ومن أجل هذا حفلت لغة الفلاحة في العراق في العصور العباسية بهذا النوع من الدخيل. وسنجد من هذا بعض المواد التي ندرجها في هذا الموجز.

٢ ـ الآيين:

وقال الجاحظ: «الأيين فيما نحن فيه أن تكون إذا كنتُ أنا الجالس وأنت المارّ أن تبدأ أنت فتسلّم . . . »[١].

والآيين هنا قد يعني النظام المتّبع أو القانون أو ما يسمى بـ(البروتوكول Protocole). وقد استعمله الجاحظ غير مرة في جملة من (رسائله). ولم يرد (الآيين) في كتب (المعرّب).

٣ ـ البارجين:

قال الجاحظ: وحين أكلوا بالبارجين وقطعوا بالسكين[٢].

وهذه الكلمة فارسية الأصل ومادة الفعل فيها (برجين). وهي قد تكون شيئاً مثل (الشوكة) التي نعرفها في عصرنا، ولم ترد هذه الكلمة في كتب (المعرّب).

---

(١) الجاحظ، المصدر نفسه، ص ٢٥

(٢) الجاحظ، المصدر نفسه، ص ٦٨

٤ ـ بستندود:

قال الجاحظ: «... صار سبباً لطلب العصيدة والأرزّة والبستندود»[١].

قال (فان فلوتن) في طبعته معلقاً على (البستندود) أنها تدل في الفارسية غلى نوع من (الفطائر المحشوة Pate endvit de Farine)[٢].

٥ ـ بانو:

قال الجاحظ: والبانْوان الذي يقف على الباب ويَسُلُّ الغَلَق ويقول: بانو، وتفسير ذلك بالعربية: يا مولاي[٣].

أقول:

لقد انبهم الأمر على الأستاذ الحاجري وهو يعرض لقول الجاحظ هذا، فقد توقف في إدراك قول الجاحظ (بانو) وظنها فعلاً، ولذلك ختمها بالألف كما نقول (قاموا) بالإسناد إلى جماعة الذكور.

إن كلمة (بانو)، بالباء والألف والنون والواو، تعني السيّدة بالفارسية ومن ذلك قولهم: شاه بانو بمعنى سيدة النساء. وعلى هذا يكون (البانوان) من يقف على الباب وينادي على سيدته بعد فتح الباب. وعلى هذا أيضاً يكون قول الجاحظ: (بانو) يا مولاتي، وليس يا مولاي كما جاء في (البخلاء)، وهو مما صحفه النساخ ولم يفطن إليه محققو الكتاب، لأنّ (البانوان) ينادي على سيدته لا على سيّده.

٦ ـ بياح:

قال الجاحظ: «فأتَونا بجامٍ فيه بِياح سَبْخيّ»[٤].

جاء في لسان العرب: البِياح بكسر الباء مخفف ضرب من السمك،

---

(١) الجاحظ، المصدر نفسه، ص ٦٣
(٢) انظر (دائرة المعارف الإسلامية) الطبعة الإنجليزية، الجزء الأخير.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢
(٤) الجاحظ، المصدر نفسه، ص ١٩٦

صغار أمثال شِبر وهو أطيب السمك[1]. وجعل أمين المعلوف هذه الكلمة مرادفة لكلمة (بوري) لنوع من السمك معروف، وقال: سمك مشهور صغير أو متوسط الحجم، كبير الحراشف يكون في معظم البحار ويصعد في الأنهار[2].

وقد نقل عن العالم الهندي (جاياكار Jayakar) أن في مسقط على خليج عمان نوعين آخرين يطلق عليهما هناك اسم (البياح).

والبياح السبخي منسوب إلى السبخة من قرى البحرين، أو قد تكون النسبة إلى موضع بهذا الاسم من نواحي البصرة. وجاء في (الأغاني) عن عيسى بن سليمان بن علي الهاشمي أنه كان له في البصرة محابس يحبس فيها البياح ويبيعه، وبذلك يعيّره أبو عيينة في قصيدة له:

رأيتُ أبا العباس يسمو بنفسه   آلى بيع بيّاحاته والمباقلِ[3]

وما زال (البياح) معروفاً في البصرة وبلدان الخليج العربي.

ولما كنا بصدد (البياح) فلا بد أن نشير إلى أن الجاحظ قد أورد من أنواع السمك مما هو معروف في البصرة طائفة مفيدة منها الشَلِق فقد جاء في (الحيوان):

الفقير رداؤه عَلِقة، ومرقته سَلِقة وجرذفته قلقة، وسمكته شَلِقة[4].

(والشلق) صنف من السمك رديء، ما زال معروفاً بهذا الاسم ولا سيما في جنوب العراق، وذكر (الأسبور) لصنف آخر من السمك ما زال معروفاً في البصرة وبلدان الخليج العربي.

---

(١) انظر مادة (البياج) في (لسان العرب) لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الشهير بابن منظور (ت ٧١١ هـ/١٣١١ م).

(٢) أمين المعلوف (معجم الحيوان): مجلة المقتطف، القاهرة، ١٩٣٢ م، ص ١٦٣ ـ ١٦٤

(٣) انظر، أبو الفرج الأصفهاني، (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) (الأغاني)، ٢١ جزءاً في سبعة مجلدات، مطبعة التقدم، القاهرة، ١٩٠٥ م، حـ١٨، ص ١١، ١٢

(٤) الجاحظ، الحيوان في سبعة أجزاء، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٣٨ ـ ١٩٤٥ م، حـ١، ص ١٠٧

ومن المفيد أن أعرض هنا لما ذكره الجاحظ في (البخلاء).

قال الجاحظ: «ويُسكِّروا على الدِرْياجة»[1].

والدرياجة كلمة فارسية أصلها (دريا) وتعني البحر، وقد خُتِمت بـ (ـجه) وهي أداة التصغير وعلى هذا تكون (الدرياجه) البحيرة.

ولكن (الدرياجة) في كلام الجاحظ الذي اقتبسناه من (البخلاء) يفيد ما تفيد هذه الكلمة في الاستعمال البصري المعاصر. ومن ذلك ما كتبه داود الجلبي الموصلي في مجلة (المجمع العربي) نقلاً عن رسالة بعث بها إليه صديقه السيد سليمان فيضي نزيل البصرة يعرفه فيها بـ (الدرياجة) فقال:

«استفادة من وجود المدّ والجزر في البصرة يفصل صيادو السمك قسماً صغيراً من الماء مما يلي الشاطىء بالقصب أو بجريد النخل، على هيئة قوس طرفه الأسفل متصل باليابسة وطرفه الأعلى منفصل عنها بمقدار قليل، ليمكن للسمك من الدخول في الماء أثناء المدّ. ويعبِّرون عن ركز القصب أو الجريد، بهذه الصورة، بالتسكير بمعنى السدّ، ويسمّون القسم والمحصور بين السِّكْر والشاطىء (دِرْياجة) وهي البحيرة بالفارسية»[2].

أقول: هذا الذي ذكره السيد سليمان فيضي من صنع البصريين لهذا الأسلوب في صيد السمك يتّفق وما ورد في نص الجاحظ.

ومن المفيد أن نشير إلى أن الجاحظ قد ذكر من هذه المواد البصرية ما لا نعرفه إلا في كتبه ورسائله، ومن ذلك ما يتصل بالنخل وأصناف التمر مما لا نجهله في البيئة البصرية المعاصرة.

ومن ذلك مثلاً ما قاله في الأداة التي تصعد بها النخلة، قال في (البخلاء):

---

(١) الجاحظ (البخلاء) ص ١٢٩

(٢) داود الجلبي (مجلة المجتمع العلمي العربي)، م ٢٠ (١٩٤٥م)، ص ٣٥١

«هـذه النخلة لا تُصعَد ولا يُرتَقى عليها إلاّ بالتَبَليا والبَرْبنـد»[1].

قـال الحاجـري: التَبَليا والبَرْبَنْدُ أداتان لصعـود النخل.

أقـول: همـا أداة واحدة وهي حبـال مضفورة يضعها من يصعـد النخلة وراء ظهـره يتخـذ منها مسنـداً ويـربط طرفيها على جـذع النخلة فيحـرّك الطرفين إلى أعـلى الجـذع شيئاً فشيئاً وهـكذا يتم الصعود. والتبليا كلمـة آرامية استعملها العاملون في النخـل واستعاروا الكلمة من اللغة الآراميـة، ذلـك أنَّ النبط الآراميين في العراق كانوا أهـل فلاحة وزرع. وقـد أشـار (Frankel) الألمـاني إلى أنها آراميـة. ومـا زالت التبليا معروفة في العراق.

وكمـا أن التبليا معروفـة في البصرة فأهـل النخل يستعملون كـلمة (البربند) الفارسية أيـضاً، وهـي تعني مـا تعنيه الكلمة الآراميـة. ومـا زال أهـل البصرة يختصون باستعمال هذه الكلمة دون غـيرهم من العراقيين. وهـي تحوّلت في عاميتهم إلى (فَرْوَنـد)[2].

ولعـل من هـذا الكلم الآرامـي السريـاني كلمـة (تـال) وهـي في لغـة أهل النخل جـمع (تـالة) للفسيلة الصغيرة بعد نقلها عن أمها وغرسها في الأرض واستقامتها في مغرسها الجـديد. ولـم أجـد هذه الكلمة في معجماتنا القديمة، غـير أني وقـفت في ترجمـة (فـصل) في (أسـاس البلاغة) للزمخـشري على قـوله:

«افتَضَلنا فَضَلات فما عَتَمَ منها شـيء» وقـد جـاء في شـرح الزمخشري لهذه العبارة: أي حوَّلنا (تالا) فعَلَق كلها[3].

أقـول: ومـا زال (التـال) و (التالة) مـن كـلم أهـل النخل في العراق في عصرنا.

ووجـدت في ترجمـة (حـرق) في (لسـان العرب): «الحِرْق والحُراق

---

(١) الجاحظ (البخـلاء)، ص ٢١٢

(٢) (دائرة المعارف الإسلامية)، المطبعة الإنجليزية، الجزء الأخير.

(٣) الزمخـشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م)، (أسـاس البلاغة)، جـزآن، دار الكتـب المصرية، القاهرة، ١٩٧٢ م. انظر مـادة (فضل).

والجِراق والحَروق كله (الكُشّ) الذي يُلقَح به النخل أي الشمراخ الذي يؤخذ من الفحل فيُدَسّ في الطَّلْعة»[1].

و (الكشّ) هذا من الكلم الذي لم أجده إلا في (لسان العرب) من المعجمات القديمة، وقد تصحف في (القاموس) إلى (الجُشن) بالجيم والشين والنون. وقد حملت هذا الذي وقع في القاموس على تصحيف النساخ ومن بعدهم المحققين. ويقوِّي هذا عندي أن هذه الكلمة بالكاف الفارسية نظير الجيم القاهرية ما زالت معروفة لدى أهل النخل في بغداد وما حواليها ولم يعرفها أهل البصرة. وعلى هذا فالذي في (لسان العرب) أقرب إلى الصواب.

ولم أجد في المعجمات الآرامية هذه الكلمة واستخبرت أهل العلم من النصارى في العراق فلم أقف على جواب مفيد. ولا أدري أتكون الكلمة من أصل فارسي أم من أصل آخر لم أهتد إليه.

وبعد فهذه جملة مواد استقريتها من أدب الجاحظ ومن المعجمات، وهي قليل من كثير اجتزأت به لأنتقل بعد ذلك إلى جملة كتب أخرى هي:

١ - كتاب (المستجال من فَعَلات الأجواد) لأبي علي المحسِّن بن علي التنوخي (المتوفىٰ سنة ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م).

٢ - كتاب (الوزراء) لأبي الحسن (أو الحسين) الهلال بن المحسّن الصابي (المتوفىٰ سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م).

٣ - كتاب (رسوم دار الخلافة) للمؤلف نفسه.

٤ - كتاب (مضمار الحقائق وسرّ الخلائق) لمحمد بن عمر بن شاهنشاه الأيوبي (المتوفىٰ سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠ م).

٥ - كتاب (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة) المنسوب لابن الفُوطي) المتوفىٰ سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م).

---

(١) ابن منظور، (لسان العرب)، مادة (حرق).

٦ ـ كتاب (الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السِّير) لابن الساعي (المتوفى سنة ٦٧٤ هـ/١٢٧٥ م).

ولنبدأ بما ورد في كتاب (المستجاد من فَعَلات الأجواد) فأقول:

١ ـ جاء في الصفحة الحادية والعشرين قول التنوخي:

«فبينا نحن كذلك إذ دَخَلت علينا جارية من جواريها اللائي يحجُبْنها»[1].

أقول: قوله: (يحجبنها) أي كُنَّ لها حاجبات بمعنى أنهنّ يقمن بواجب (الحجابة)، وواجب (الحجابة) ما يقوم به الحاجب من الوظائف التي عرفت واشتهرت في هذه الأحقاب، وإن كان شيء منها قد عرف قبل هذه الدولة.

٢ ـ وجاء في الصفحة الخامسة والثلاثين قول المؤلف:

«لأنّ رسم أصحاب الدواوين صغارِهم وكبارهم لا يقومون في الديوان لأحد ممن يدخل إليهم».

أقول: و (الرسم) هذا يعني ما يُتَّبع من الأصول التي تواضعوا عليها، أو هو ما يُدعى في عصرنا بـ (البروتوكول Protocole).

٣ ـ وجاء في الصفحة الثامنة والأربعين قوله:

«ثم قال الإسكندر لملك الصين: الذي أريده منك ارتفاع ملكك لثلاث سنين».

أقول: (الارتفاع) كلمة عباسية تعني ما تعنيه كلمة (الدَخْل) في عصرنا أو مجموع ما يُحصَّل ويُنتج مما يزرع أو يُصنع.

٤ ـ وجاء في الصفحة الحادية والخمسين قول المصنف:

«فقال الأشتر: ما فيكِ حيلة يا جَيداء فنتعَلّل الليلة».

---

(١) (المستجاد من مغلاف الأجواد)، دمشق، ١٩٤٦ م.

أقول: و (التعلّل) هذا يعني السمر والأنس في الليل، وليس شيء من هذه الدلالة في العربية الفصيحة، وهذا مما جَدَّ في دلالة هذه المادة. وهذا المعنى في (التعلّل) هو المألوف المعروف في عاميّة أهل العراق في عصرنا.

٥ - وجاء في الصفحة الخامسة والخمسين قوله:

«فقال: يا أمير المؤمنين خرجت يوماً متنكراً أنظر إلى سكك بغداد، فاستهواني التفرُّج، وانتهى بي المشي إلى جناح شممت فيه روائح طعام وأبازير قد فاحت».

أقول: و (التفرّج) بمعنى التنزّه مولّد لأن الفصيح فيه هو كشف الغم وانفراجه. وهذا المولّد الجديد ما زال معروفاً شائعاً في عامية العراقيين وغيرهم.

٦ - وجاء في الصفحة الثانية والستين قول المصنف:

«وأشهدُكم أني قد زوّجت أختي فلانة إلى إبراهيم بن المهدي وأمهيتُها عنه عشرة آلاف درهم».

أقول: وقوله: و (أمهيتُها) من الماهية، والماهيّة مبلغ من المال، وهو من غير شك مركّب منحوت من قولنا: (ماه) الفارسية بمعنى (شهر) فاشتقوا من (الماهية) فعلاً كما ورد في النص. وما زالت (الماهية) معروفة في بعض البلدان العربية ويُراد بها ما يدعى بـ (المرتّب الشهريّ).

٧ - وجاء في الصفحة الثانية والستين قوله:

«فقلت: بل أُحضِر عَمّارية فأحملها إلى منزلي».

أقول: و (العمّارية) شبه هودَج.

وهذه من الكلم الباقي في عامية العراقيين، والعمّارية اليوم تطلق على سقيفةٍ من حُصُر أو قصب تقوم على مسند من خشب أو غيره أو على أعمدة تثبّت في الأرض تتخذ موضعاً كالحانوت لدى الباعة كالبقالين أو غيرهم.

٨ ـ **وجاء في الصفحة الثالثة والستين قوله:**

«وصار من خواصّه ومُحاضريه».

وقوله: (محاضريه) يريد به الذين يحضرون مجلسه (أي الخليفة أو الأمير) ويلتزمون بعادة الحضور. أقول: وهذا الذي نقرؤه في هذه النصوص العباسية يؤكد ما ثبت في المعجمات فقد جاء فيها: حاضرته؛ بمعنى: جاثيته عند السلطان.

٩ ـ **وجاء في الصفحة الخامسة والثمانين قوله:**

«لما نَكَبني الواثق قال لمحمد بن عبد الملك الزيات: عذِّب سليمان وضيِّق عليه، و صادره وطالبْه بالأموال».

أقول: و (المصادرة) في عصرنا معروفة، ولكننا نقول مثلاً: صادرت الحكومة أموال فلان التاجر لأنها أموال (مُهَرَّبة) أي لم تخضع للضريبة والرسوم الأخرى. وهذه (المصادرة) ترد في النصوص القديمة من غير أن يخصص نوع المال المصادَر، فإذا كانوا قد قالوا: صودر الوزير ابن الفرات، فمعناه أخذ ما عنده من الأموال كافة.

١٠ ـ **وجاء في الصفحة التسعين قوله:**

«واستأجرت داراً بقرب دار إسحاق الموصلي وانتقلتُ إليها، وكانت داراً واسعة، فلم أرض ما عندي من الآلة لها».

أقول: والمراد بـ (الآلة) ما يحتاج إليه في الدار من أثاث وسائر المتاع والحاجات.

ولننتقل إلى كتاب (الوزراء) للصابي[1] فنقول:

---

(١) الصابي، كتاب (الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء)، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٨ م.

١ ـ جاء في الصفحة الثانية عشرة:

«وعُلِّق أبو العباس (أي الوزير ابن الفرات) بحبال في يَدَيه. . وصودر على مئة وعشرين ألف دينار صحّ منها ستون».

أقول: ونعود ثانية إلى (المصادرة) التي كنا أشرنا في كتاب (المستجاد) وتأتي (المصادرة) بعد السجن والتعذيب الذي شقي به ابن الفرات كما شقي به وزراء آخرون.

٢ ـ وجاء في الصفحة الخامسة عشرة تفصيل وجوه خرج المياومة مما شُرِط فيه ما قرره المعتضد بالله منه:

«أرزاق أصحاب النوبة ومن برسمهم من البوّابين ومن يجري مجراهم من ذلك البيصان من الجنابيّين والبصريين وأصحاب المصاف بباب العامّة».

أقول: كان على محقق الكتاب أن يعرض لشرح جملة مواد في هذا النص ولكنه لم يفعل فأصحاب النوبة جماعة خاصة كالبوّابين كما يومىء كلام الصابي.

(وأصحاب المصاف) هم الذين يحرسون، و(المصاف) جمع مصف في الأصل، وهو الموقع في الحرب، ولكنه هنا لا يفيد ذلك، بل يراد به أن جنداً يلزمون صفوفهم حرساً في باب العامة.

ومثل هذا ورد في الصفحة السادسة عشرة وهو: أن السودان ينوبون في باب الخاصة وحوالي القصر.

فقوله: (وينوبون) أي لهم نوبة في الحراسة.

٣ - وجاء في هذه الصفحة أيضاً:

«ولهم (أي للسودان) وظيفة خبز».

و (الوظيفة) هنا هي القدر المخصص لهم. وترد الوظيفة بهذا المعنى في نصوص عدة فيقال: وظيفة من الخبز ومثلها من اللحم ومثلها من النبيذ.

٤ ـ وجاء في هذه الصفحة أيضاً:

«وفيهم حاجبه وخلفاء الحُجّاب وعدُّتهم خمسة وعشرون رجلاً خمسة ملازمون، وخمسة نوبتيّون».

أقول: وقوله (نوبتيّون) أي يقومون بواجبهم بالتناوب فلُكلٍّ منهم نَوبة.

ومن المفيد أن نلاحظ أن النسبة إلى (نوبة) جرت على هذا النحو من مخالفة القياس.

أقول: ومخالفة القياس في هذا الأسلوب في النسبة جرى عليه المتأخرون فقد كنا نقرأ في صحف العراق في لغة القضاء (مصاريف الدعوتية) أي النفقات التي تقتضيها الدعوى المقامة على أحدهم، فإذا حكم على طرف من طرفي الدعوى يلزم بدفع النفقات.

على أن أدباء الشباب لم يكترثوا بكل ذلك ونسبوا جهلاً منهم إلى الحياة فقالوا ـ مثلاً ـ المشكلات الحياتية.

٥ ـ وجاء في الصفحة نفسها:

«وكان لهم دوابّ في الإصطبل فأسقطت عُلوفتها من مال الطَمَع».

أقول: و (العلوفة) قدر ما تعلفه الدواب من (العَلَف) وهو توليد بناء (فُعولة) من الإسم وهو (العَلَف).

ثم إن (الطَمَع) بفتحتين يعني رزق الجند، وهو يرد كثيراً في المصادر التي تتحدث عن هذا العصر.

٦ ـ وجاء في الصفحة السابعة عشرة:

«فيُدخَل الميدان ويُمْتَحن على البِرجاس».

وقد شرح المحقق (البرجاس) ولم يشر إلى مصدر الشرح فقال: إن (البرجاس) ضرب من أنواع الفروسية يكون على ظهور الخيل.

أقول: لا أرى وجهاً لقول محقق الكتاب: «ضرب من الفروسية على

ظهـور الخيل»!! وهـل الفروسية على غـير ظهور الخيل؟

لـم أجـد هـذا الذي ذكـره المحقق في المصادر التي تيسّرت لديّ. ثم إن النص لا يعين على هذا الذي خـصصه المحـقق، فقـد جـاء بعـد كلمة (البرجـاص) قـول المصنف:

فـإن كـان يـرمي رميـاً جيـداً، وهو متمكّن من نفسه ومستقرّ في سَرْجِه.

والـذي أراه في (البرجـاص) مـا ذكره أدّي شير في كتـاب (الألفـاظ الفارسيـة المعرّبـة)[1] وهـو أن (البرجـاص) غـرضٍ في الهواء عـلى رأس رمحٍ أو نحـوه، فارسيّتهـا (بُرجـاس) ومعناها هـدف السهم.

وجمـلة النص تؤيـد هـذا.

٧ ـ وجـاء في تتمـة النص السابق بعد كلمة (البرجـاص) كـلام ليس فيه من هـذا المولّد الجـديد مـادة كـثيرة ولكنـه مفيد، وقـد رأيت من الفائدة أن أذكره لآتـي على فوائده التي لا تخـلو من اللفظ المفيد الذي هو مادة بحثنا. قـال المؤلف:

«فـإن كـان يرمي رمياً جـيداً، وهو متمكّن من نفسه ومستقر في سَرْجه ومصيب في رميه، عُلِّم على اسمه (ج) وهي علامة (الجيّد)، ومـن كـان دون ذلك عُلِّم على اسمه (ط) وهي علامـة (المتوسـط)، ومن كـان متخلفاً لا يحسن أن يـركب فَرَسَه، أو يـرمي هـدفه عُلِّم على اسـمه (د) وهي علامة (الدون)».

أقـول: وفي هـذا من الفوائد الحضارية ما فيه، فالسبـاق هنا مقيـد بنتائج يـرمز إليها بـرموز ذات دلالة. وهـذا الضرب من الممارسة يـقرب من نـظم الامتحانـات التي تجـري في عصرنا ومـا يـكون فيها من نتائج قـد تـكون أرقاماً أو حـروفاً.

٨ ـ ولا بد من مواصـلة هذا النص في الصفحة الثامنة عشرة لنقف على ما يُجريه العاملون في هذه التجارب الامتحانية قـال:

«يحمـل بعد العرض والامتحـان إلى كتّـاب الجيش ليتأملوا حليته

(١) أدّي شير، (الألفـاظ الفارسية المعربة)، المطبعة الكاثوليكيـة، بـيروت، ١٩٠٨م، مـادة البرجـاصي.

ويقابلوا بها ما عندهم من صفته لئلا يكون دخيلاً أو بديلاً، فإذا تكامل عرض أصحاب القائد دُفعت (جريدته) التي فيها العلامات بخطّ المعتضد بالله إلى عبيد الله بن سليمان، ليدفعها من وقتها إلى الكاتب، ويميّز ما فيها من العلامات، ويفرد لكل صنف منهم (جريدة)، وإذا عمل الكاتب من ذلك ما يعمله، قابل عليه بنفسه لئلاّ يتم على عبيد الله مغالطة فيه، ثم أخذ (الجرائد) المبيّضات المجرّدات، وسلّم إلى عبيد الله ذات العلامات، وكل هذا من غير أن يُعلم القائد وأصحابه بما يجري منه، ثم يخرج كلّ جريدة إلى مجلس قد أفرد لذلك الصنف، وجعل شهر الذين ارتضاهم وأمضاهم تسعين يوماً، وسمّاهم عسكر الخاصّة».

أقول: هذا مصير الفائزين برتبة (جيد) الذي رُمز له بالحرف (ج) وقد رأينا كيف سُلِك بهم من الامتحان إلى المقابلة بين العلامات، وما كان لكل منهم في (جريدته)، و (الجريدة) تقابل في عصرنا (المِلّف) المشتمل على الوثائق اللازمة، ثم ينتهي الأمر بالتزام الناجحين في مرافق الجند.

ولنعد إلى كلام الصابي فنرى ما يكون من أمر الناجحين برتبة (متوسط) الذين رمز لهم بالحرف (ط) قال:

وضمَّ المتوسطين إلى بدر ليكونوا في شِحنة طريق خراسان والأنبار. ودعاهم عسكر الخدمة، وجعل أيام شهرهم مئة وعشرين يوماً.

وأمر عبيد الله بن سليمان بأن يرسم الطبقة (الدون) بالخروج إلى أعمال الخراج للاستحثاث على حمل الأموال بعد أن يسقط منهم الراضة والأثبات المشاكلين للرعية، وأن يسبِّب أموالهم على النواحي في دفعتين من السنة.

أقول: لقد أدركنا كيف صنعوا في تلك التجربة الامتحانية، وكيف صُرِف أصحاب النتائج الامتحانية كلٌّ إلى جهة يعمل فيها.

لم يلتفت إلى كل هذا واكتفى بشرح الراضة والشحنة شرحاً معوزاً ولم يشر إلى مصدره.

ثم قال: (الأثبات) هم الموثوق بهم. والذي أراه أن هذا الشرح اللغوي

لا يفي بالمراد من (الأثبات)، وكأنهم الجماعة الذين هم فوق الرعية العامّة من أصحاب المال.

وقال في الفعل (يُسبِّب) أنه يعني جعل الأرزاق مفروضة على الجهات التي يذهبون إليها.

ومن تتمة هذا النص نجد المؤلف يقول:

ويجعل منهم من يكون من أصحاب (المعاوِن) والمعاون جمع معونة، وأصحاب (المعاوِن) المكلّفون برعاية شؤون العامة ودفع المظالم عنهم، وسنراها بهذا المعنى في (رسوم دار الخلافة) للمؤلف نفسه.

٩ ـ وجاء في الصفحة التاسعة عشرة قوله:

«أرزاق سبعة عشرة صنفاً من المرسومين بخدمة الدار والرسائل الخاصة والقرّاء.. والمنجّمين.. والفنجاميين (كذا) والفرانقيين.. والأنصار.. والبوقيين.. ممن كان برسم النوبة ننقل إلى المشاهرة».

أقول: لم يهتم المحقق بجملة هذه المواد التي تفتقر إلى بيان فمن هم (الفنجاميّون) ومن (الفرانقيّون) أهم حملة الرسائل أي (البريد)؟

كأن من كان (برسم النوبة) هم المياومون بدلالة قوله: (المشاهرة).

١٠ ـ ثم قال في الصفحة العشرين:

«المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام، والخلفاء عليهم وأصحاب الأرباع والمصالح والأعوان والسجّانين وأصحاب الطوف والماصرّيين (كذا)».

أقول: كان على المحقق أن يفسر (أصحاب الأرباع) ولكنه ترك جملة هذه الفوائد.

و (أصحاب الأرباع) هم المسؤولون عن (الأرباع) والأرباع جمع ربع وهو يعني المحلة الكبيرة أو (القُطّاع) من المدينة. وقد كانت بغداد مقسمة إلى (أرباع) وقد بحث هذه الخطط القديمة المسيو (ماسينيون) ورسم مخطّطاً نجده في كتابه (Opera Minora) في الجزء الثاني. وأصحاب الطوف هم

عسس الليل، ولم يتبيّـن المحقق المراد بـ (الماصريين)، والصواب (المأصريّين) بالهمزة وهم العامـلون بـ (المآصر) جـمع مأصِر، وهو حـبل أو سلسلة تُمَدّ في النهر فتمنع أصحـاب السفن من المرور، ولا يـسمح لهم ذلك حتى يُستوفى منهم رسم المرور أو مـا ندعوه أجـر المرور. انظر (مأصـر) في (رسوم دار الخلافة) للمؤلف نفسه وتعليق المحقق ميخائيل عوّاد.

١١ ـ ونجد في الصفحة العشرين في موضوع (الخرج) أي نفقات الدولة:

«أثمان أنـزال الغلمـان المماليك». ثم قـال: «نفقـات المطابخ الخاصة والعامّة والمخابز وانزال الحَرَم والحَشَم». .

قـال محقق الكتاب في تعليقه: الأنـزال جمع نَزَل وهو ما هُيِّيء للضيف من طعام.

أقـول: وهـل يتفق هذا الذي ذكره المحقق ومـا جاء في نص المؤلف؟

إن (الأنـزال) في كـلام المؤلف تعني الأعطيات، أو مـا ندعوه في عصرنا بالمخصصات أو الرواتب أو نحواً من هـذا.

جـاء في (الفرج بعد الشـدّة) للتنوخيّ[١]: فمن أين أنفق الأموال وأقيم الأنـزال.

١٢ ـ وجـاء في الصفحة الرابعة والثلاثين في وزارة أبي الحسن بن الفرات الأولى:

«فقبض عليه وعلى محمد بن أحمد الكلوذاني . . ومـضى القوّاد للقبض على أسبـابه».

أقـول: والمراد بـ (الأسـباب) الأتبـاع والخاصّـة.

١٣ ـ وجـاء في الصفحة السابعة والثلاثين:

«ووقّع بـأن يوغَر حـقّ بيـت المال في جميعه بـألف درهم في كل سنة ووفّرَ جـاري الوزارة ولم يـأخذه».

---

(١) التنوخي، (الفرج بعد الشدة) (تحقيق الشالجي ـ دار صادر بيروت ـ ١٩٧٠ م).

أقـول: و (الإيغـار) إقطـاع ضِيـاع مع الإعفـاء من خـراجها.

وفي هـذا النص تعهّد عـلي بن عـيسى أن يـردّ إلى بـيت المال مـا أوغِرَ عليه في كل سنـة ألف درهم.. ثـمّ إنه تنـازل عن (جـاري الوزارة) أي (المرتّب) في لغتنا المعاصرة.

١٤ ـ وجـاء في هذه الصفحة:

«إن ابن الفرات وقّع لجماعـة من أصحـاب السلطان بتسويغات وإقطاع وحَمالات..».

أقـول: لـم يـشر المحقق إلى (التسويغات) واكتفى بقـوله: الحمـالات الكفالات. ولكنـي لا أتبـين ذلك، فـليس من إشـارة إلى أن الحمـالة هي الكفالة، والذي أراه أن (التسويغات والحمالات) ضـرب مما يخـوّله السلطان لبعضهـم أن يقـوم على مـلك وينتفع به في شكل مّـا.

١٥ ـ وجـاء في الصفحة الأربعين قـول المؤلف:

«... وقـد كـان أصحـاب الدواوين في وزارة أبـي علي الخاقاني شـرطوا على حـامد بن العبـاس في ضمـانـه لأعمـال واسط أن يؤدّي... لِمـا ينفق على كـري الأنهـار وحراسة (البَزَنْدات)...».

و (البَزَنْدات) هي المعابر والقناطـر والجسور. وهـذا غير معروف في كتـب (المعرَّب).

١٦ ـ وجـاء في الصفحة الحادية والخمسين قوله:

«... وزاد ابن الفرات في مراعاة أبي زنبـور وإحـسان عشرته، كـان يسترجـله ويستجلده وسـامه أن يـواجه علي بن عـيسى بأنّـه أرفقه في أيـام تقلّده...».

أقـول: وقـوله: (استرجَلَه) أي وجـده رجـلاً أي شجـاعاً، وقـوله: (استجـلده) أي رآه جَلْداً أي يحتمل المكاره.

وقـوله: (أرفَقَه) أي أمدّه بمـال.

١٧ ـ وجاء في الصفحة الثانية والخمسين قوله:

«وكان المحسن بن الفرات يكرم محمد بن علي ويتطاول له إذا حضر عنده...».

أقول: وقوله: (يتطاول) بمعنى ينبسط له...

١٨ ـ وجاء في الصفحة السادسة والستين قوله:

«... وقد كانت الضِّياع في يد علي بن عيسى عشر سنين، وهي أيام وزارته وأيام نظره مع حامد فما ارتفع منها أربع مئة ألف دينار، فإذا أغللتها في مدة...».

أقول: وقوله: (ارتَفَعَ منها) أربع مئة دينار، فإذا أغللتها في مدة أحد عشر شهراً فقد ادُّعيَ إلى المعجز بذلك.

والفعل (ارتفع منها) يعني كان (الدخل) من استغلالها أربع مئة ألف دينار، وقوله: (أغللتها) بمعنى حصَّلتها ووفَّرتها.

وقد مرَّ بنا (الارتفاع) بهذا المعنى في كتاب (المستجاد).

١٩ ـ وجاء في الصفحة الثامنة والسبعين:

«وعليّ بن عيسى كالسكّة المحماة على ابن الفرات، لأنه قرّر في نفس المقتدر بالله مكاتبته الجنّابي، وحَمْلَه الألطاف إليه».

أقول: والمراد بـ (الألطاف) الهدايا، جمع لَطَف.

٢٠ ـ وجاء فيها أيضاً:

«قال: كنت (ترتفق) من العمّال».

أقول: والمعنى: تأخذ منهم مالاً كالرشوة.

٢١ ـ وجاء في الصفحة الخامسة والثمانين قوله:

«ووافَقَه على (تعديل) المال عند بعض التجّار بالكرخ».

وقوله: (تعديل المال) أي وضعه عند عَدْلٍ من التجّار.

٢٢ ـ وجاء في الصفحة التاسعة والثمانين:

«قد صَكَكْتَ عليَّ البارحة للمعاملين بألف وست مئة دينار، وما عندي منها حبّة واحدة».

أقول: وقوله: (قد صَكَكتَ علي) أي كتبت عليَّ كتاب إقرار بالمال.

٢٣ ـ ....

وهذا إنفاق وتوسُّع لا يقتضيه (الرزق).

أقول: و (الرزق) هو القدر المقرّر من الأجر.

٢٤ ـ وجاء في الصفحة السادسة والتسعين:

«فكتب النوشجاني فيه: بأنّه كان (يفرِّق) في أيام ولايته عشرين كُرّاً حنطة في كل شهر».

أقول: وقوله: (يُفرّق) بمعنى (يُوزِّع). وهذا مما بقي في عامية العراقيين في عصرنا.

٢٥ ـ وجاء في الصفحة التاسعة والتسعين:

«ولما صرفت عُمّاله عمّا ولّوه وطالبتهم بما اقتطعوه، أعفَوا بمالٍ جزيل».

أقول: وقوله: (أعفَوا) أي وَفَوا المال.

٢٦ ـ وجاء في هذه الصفحة أيضاً:

«وانضاف إليها ما توفَّر مما كانوا يفوزون به من الارتفاقات».

و (الارتفاقات) تعني الانتفاعات والمساعدات.

٢٧ ـ وجاء في الصفحة السادسة بعد المئة:

«إما أن يكون حملك للمال مع رُسُل أو بسَفاتج تُجّار على تُجّار».

أقول: و (السَّفاتج) جمع (سُفتجة) وهو التحويل بلغة عصرنا،

وذلك أن رجلاً يعطي مالاً إلى آخر فيعطيه هذا (الآخَر) ورقةً فيها تقييد بالمبلغ المُعطَى، ويستطيع حامل الورقة أن يستوفي ماله من تاجر آخر له صلة بالتاجر الذي زوّده بالورقة.

٢٨ ـ وجاء في الصفحة العشرين بعد المئة والتي تليها:

«ثم يُواقَف المصادَر على الأداء في وقت بعينه، فإن تأخّر إيراد (الروز) به أعاد ضربه. وقد علق المحقق على (الروز) فقال: إنه مصدر: راز يروز».

أقول: و(الروز) كلمة فارسية، وتعني ما يُدعَى في عصرنا في لغة التجارة بـ(الإيصال) وهو الورقة تكتب بعد تسلّم مبلغ من المال أو تسلّم بضاعة.

٢٩ ـ وجاء في الصفحة الثانية والعشرين بعد المئة:

«ولكن أرى أن تجلس أنت يا أبا علي ساعة ومعك أحمد بن عبيد الله بن رشُيَد صاحب ديوان المظالم وتستدعي (القِصص) وتوقِّعها منها فيما يجوز توقيعكما فيه».

أقول: و(القصص) جمع قِصة، وهي الرقعة المحرَّرة المتضمّنة شكوى لصاحب ظلامة يسأل فيها حقاً له.

٣٠ ـ وجاء في الصفحة الثالثة والثلاثين بعد المئة:

«عاد أبو الحسن من الموكب يوماً فجلس بسَواده مغموماً يفكّر».

أقول: و(السواد) هو الجبّة السوداء يلبسونها إذا حضروا مجلساً من مجالس الخليفة.

٣١ ـ وجاء في الصفحة الخامسة والثلاثين بعد المئة:

«قال: حدثني أبو علي ابن مقلة قال: كيف أكتب لأبي الحسن ابن الفرات في التحرير أيام خلافته أبا العباس أخاه بـ(جاري) عشرة دنانير في كل شهر».

أقـول: و (الجـاري) هـو الأجـر أو المرتّب في استعمال المعاصرين.

٣٢ ـ وجـاء في الصفحـة نفسها:

«ثـم أمـر بقبض مـا في دور القـوم الذين بـايعوا ابن المعتـز، فحمـل في الجملة صندوقان، فـسأل: هـل علمتم مـا فيهما؟ قـالوا: نعم، جـرائد بـأسمـاء من يعـاديك».

أقـول: و (الجرائد) جـمع جـريدة فكأنها رقـاع تحمل (قـوائم) بـأسمـاء الذين طلبهم.

٣٣ ـ وجـاء في الصفحـة السابعة والثلاثـين بعد المئـة:

«فـرأيت ألّا تمضي يـا أبـا الحسن توقيعـاً من عـلي بن عيـسى في زيـادة ولا نقـل ولا إثبـات.. إلا مـا كتبتَ به (جـامعاً) حـتى إذا اجتمعت (الجوامـع) عرضتَ علي في كـل ثلاثـة أشهـر مـا يجتمع منها لأقـف عليه».

أقـول: و (الجامـع) يشبـه (التقرير) أو (الخـلاصة) أو نحـو هـذا.

٣٤ ـ وجـاء في الصفحـة الثامنة والثلاثـين بعد المئة:

«وقـال له: أخرِجْ مـا على ابن الحجّـاج، فقـال: عليـه من بـاب واحـد ألـف ألـف درهم، فطالبَه بـذلك إلى أن (تفرّغ) بالعمل بسـائر مـا يلزمـه».

أقـول: وقـوله: (تفرّغ بالعمل بسـائر مـا يـلزمه) يعني أن أقرَّ بجميع مـا هو مـلزوم بـه من الـدَّين.

٣٥ ـ وجـاء في الصفحـة نفسها والتي تليها:

«وبـكرتْ عِرفـان زوجـة ابن الحجّـاج إلى مـوسى بـن خـلف حتى أوصلهما إلى ابن الفـرات، فقـرّرت أمـره على مـئة ألف دينـار سلّمت ببعضها جَعـده وغـراها من طسّوج كُوثي و (نُجّمَ) البـاقي وأطلق ابن الحجّـاج».

أقـوله: وقـوله: (نُجّـمَ الباقي) أي جُعِلَ أقساطـاً.

٣٦ ـ وجاء في الصفحة السادسة والستين بعد المئة:

«وذكر أبو القاسم ابن زنجي أن أبا الحسن ابن الفرات خوطب (في معنى) أسماء بنت زينب أخت أبي الحسن علي بن عيسى».

أقول: وقوله (في معنى أسماء بنت زينب) بمعنى بخصوص أسماء.. أو بشأن أسماء.. وليس كما ذهب المحقق من أن (معنى مصدر ميمي).

٣٧ ـ وجاء في الصفحة الثامنة والسبعين بعد المئة:

«فلما تقلّد أبو الحسن ابن الفرات الوزارة الثالثة واستعرت الدنيا ناراً بشَرّ ابنه المحسِّن وتسلُّطه وتبسُّطه.. طلب بِشْراً وتتبَّعه وكَبَس عليه. أقول: وقوله: (وتبسُّطه) بمعنى تجبُّره وتوسُّعه».

أقول: وقوله: (كبس عليه) يؤدي ما يؤديه قولنا الآن: ألقي القبض عليه.

٣٨ ـ وجاء في الصفحة الثانية والثمانين بعد المئة:

«وحدّث أبو القاسم ابن زنجي قال: تظلَّم إلى ابن الفرات.. رجل من أهل السواد من بعض العمال وذكر أن ضيعته قطيعة ورسمها قديم، وأنه قد عومل فيها على (معاملة الإستان)».

أقول: و(القطيعة) كأنها أقطعت له، وقوله: (معاملة الإستان) أي معاملة الإقليم.

٣٩ ـ وجاء في الصفحة الرابعة والثمانين بعد المئة:

«وأرِّج النفقات التي عقد منها تلك الجملة».

أقول: وقوله: (أرِّج النفقات) من التأريج، والأوارجة من كتب أصحاب الدواوين في الخراج.

٤٠ ـ وجاء في الصفحة السادسة والثمانين بعد المئة:

«وأمر الوزير حينئذٍ بإنفاذ الرنداق إلى ابن أبي البغل لمطالبته بالمال».

أقول: و (الرنداق) ضرب من السفن والمراكب النهرية بدلالة قول المؤلف بعد ثلاثة أسطر: (وانحدَرَ الرنداق إلى البصرة).

غير أن المحقق لم يتَلَبّث فيرى بقية النص ويفهم (الرنداق) على حقيقته، فقد علق على الكلمة حين جاءت أول مرة فقال: لعله يشبه الرسول.

٤١ ـ وجاء في الصفحة الثامنة والثمانين بعد المئة:

«فقال أبو الحسن: هذا لا يُخرج مثلَه كتّاب (الحضرة)».

أقول: و (الحضرة) هي دار الخلافة.

٤٢ ـ وجاء في الصفحة السادسة عشرة بعد المئتين:

«... ودار كبيرة للشراب وفيها (ماذيان) يُجعَل فيه البَرَد ويُطرح في الثلج ...».

وأقول: لعل (الماذيان) وعاء كبير لتبريد الماء.

٤٣ ـ وجاء في الصفحة التاسعة والسبعين بعد المئتين:

«... وكان مقام الماء على الصَبّ الذي قُسِّمت عليه الأبواب فوق الدكّة أربعة أذرع، ونصفاً في أيام (الطنكاب) وقلّة الماء».

أقول: لعل المراد بـ (الدكّة) القاعدة. وأما (الطنكاب) فهو أيام ضحولة الماء. ولم أجد (الطنكاب) في كتب (المعرّب) ولكن الفلاحين في جنوبي العراق في عصرنا يستعملون (الخنياب) لأيام شحّة الماء.

٤٤ ـ وجاء فيها أيضاً:

«... فيسألهم الوزير: هل كان قَراقير الرمان! وأطواف الزيت والخشب تنحدر في الباب أم لا؟».

أقـول: و (القراقير) ضـرب من السفن لعله مـا يسمى الآن في العراق (شختـور)، وأما (الأطـواف) فهـي جمع طَوْف وهو معـروف وهو جمـلة أخشـاب ترصف وتشـد تحملها أجربـة تملأ مـاء وتـربط بها الأخشـاب، ومجمـوع هذا يكون ضرباً من المراكـب لنقـل البضائع، وقـد بـقي شيء من هـذا إلى عهـد قـريب لنقـل البضائع بين القرى والمدائن الكائنة في شمـال بغداد وبغداد.

٤٥ ـ وجـاء في الصفحـة الثالثة والثمانين بعد المائتين:

«فقـال ابن الفـرات: كـان المثنّى بُنـداراً ويحلف الكذب».

أقـول: (والبُنـدار) هـو التاجـر، وهو (البنـدر) الـذي بـقي إلى عصرنا فقيل شاهبنـدر.

٤٦ ـ وجاء في الصفحة الخامسة والثمانين بعد المئتين:

«وكـانت فيه سطوة وخشونـة جـانب فاستجـاز الجزف واستعمل العسف».

أقـول: والجَزْف هو الرجـم بالغيب وسوء الظِنّـة.

ولنعـرض لشيء قـليل جـاء في كتـاب (رسـوم دار الخلافة)[1] لصـاحب كتـاب (الوزراء) نفســه.

١ ـ جـاء في الصفحـة السـادسة والأربعين في مقـدمة المحـقّق كلمـة (الرسـم) فقـال المحقّق: «الرسم هو الآئين».

وأشـار إلى (آئين نـامه) الـذي ورد في (التنبيـه والإشراف) ص ١٠٤ وهـو كتـاب الرسوم. وقـد كنـا أشرنا إلى استعمـال الجاحـظ للآيـن في كتـاب (البخـلاء)، ونضيـف هنا إلى أن لابن المقفع كتـاباً في الآئيـن نقـل عنه ابن قتيبة في (عـيون الأخبـار) نقـولاً عدّة، وقـد ذكره ابن النديـم.

---

(١) أبو الحسن هـلال بن المحسن الصابي، رسوم دار الخلافـة، تحـقيق ميخـائيل عـواد، بغـداد، ١٩٦٤ م.

وقد ورد (الأثين) غير مرة في كتاب (التاج) المنسوب إلى الجاحظ.

٢ ـ وجاء في الصفحة الثامنة من أصل الكتاب:

«فإنها اشتملت على عشرين ألف غلام داريّة».

وقد شرح المحقق (غلام دارية) فقال: هم المختصون بملازمة دار الخلافة.

٣ ـ وجاء فيها أيضاً:

«وكانت النوبة ممن يُرسَم بحفظ الدار من الرجّالة المصافية خمسة آلاف».

وقد علق المحقق على (المصافية) فقال: هم الجنود المحاربون الملازمون لدار الخليفة وفيهم الرجالة والخيالة.

أقول: وقد مَرّ بنا (المصاف) وحرس المصاف في كتاب الوزراء.

٤ ـ وجاء في الصفحة التاسعة:

«وكانت شحنة البلد برسم نازوك صاحب المعونة».

و (الشحنة) الحاكم الذي يؤول إليه حفظ الأمن بما عرف عنه من الحزم وحسن الإدارة. وقد تكلم في (الشحنة) الأب أنستاس الكرملي[1].

أقول: و(الشحنة) من الكلم الذي ورد في (المعرَّب) لابن الجواليقي كما ورد في (تاج العروس). وأما (صاحب المعونة) أو (والي المعونة) فقد ذكر الحريري في (المقامات) ص ١٥٨: أنه المرتّب لتقويم أمور العامّة.

وكان الكرملي مولعاً بتقريب هذه المراتب القديمة إلى المعروف في

(١) الأب أنستاس ماري الكرملي (ت ١٩٤٧ م)، أغلاط اللغويين الأقدمين، مطبعة الأيتام، بغداد، ١٩٣٣ م.

عصرنـا فقـال في (صـاحب المعونة) أنـه يقـابل Prefet de Police عنـد الفرنسيين.

أقـول: وهذا المنهـج في تقـريب المصطلح القديم إلى المراد بالمصطلحـات الحديثة مظنـة خطأ كـبير لا يـسلم صاحـبه من الوقوع بأضـاليل يرفضها المنهج التـاريخي.

٥ ـ وجـاء في الصفحـة العاشرة في حـديث لمنصور القُنّائي:

«فاتـفق في يـوم ٍ من أيـام الأعيـاد أن (تَصَبَّحتُ) قـليلاً. والمراد بـ (تَصَبَّحـتُ) تأخَـرتُ».

ثـم قـال: «وصـادف خـروجي مـن بعض الدروب اجتيـاز نـازوك في موكـبه. فاحتجـت أن أقـف فازددت (تصبُّحـاً)».

أقـول: وهـذا يؤكـد معنـى التأخّـر. ولـيس شيء من هـذا في فصيح العربية.

٦ ـ وجـاء في الصفحة الثانية عشرة في وصـف موكـب ورود رسـول الروم أيـام المقتـدر في دجـلة:

«وفي دجـلة الشذّاءات والطيّـارات والزبـازبـة والشبّـارات والزلالات والسُمَيريّـات بأفضـل زينـة».

أقـول وهـذا كـله من أسمـاء السفن والمراكـب. وقـد كنـا رأينا من هـذا شيئاً فـي كتـاب الـوزراء. وبعض الـذي ورد مـن هـذا لـم يـرد في معجم المراكب الذي صنعه حـبيب زيـات اليسوعي ونشـره في مجـلة المشرق.

٧ ـ وجـاء في وصـف هذا الموكـب في الصفحـة الثالثة عشرة:

«وانصـرف إلى دار قد أُعدَّت له وحُصِّل فيها من الفرش مـا يصلح له، والحواشي والألآف (كـذا) والإقـامات كـل مـا تدعو الحاجة إليه.

وقـد شـرح المحـقق (الألآف) فقـال جمع آلف. وقـال في (الإقـامات) جـمع إقـامة ويـراد به أنـواع المُؤَن.

أقـول: ولـيس من عـلاقة بين الحواشي والإقـامات من جهـة، وبين الالآف من جهـة أخرى، والـذي أراه أن (الألاف) بحـسب قـراءة المحـقق هي (الآلات) وبـذلك يتم اتفاق بين أجـزاء هـذا الذي أعِدّ في الـدار لاستقـبال رسـول الروم.

٨ ـ وجـاء في وصف هذا الموكـب أيـضاً:

«وجـلس (أي رسـول الروم) في مجـلس بين دجـلة والبساتين قد اختيرت له الفروش (كـذا)، ونُصِبَت الدسوت، وأحـاط به الخـدم والغلمان بالطبرزينـات والسيوف. . . والدُسـوت جمع دست وهو مـا يهيَّأ للجـلوس عليه للخليفة أو الوزير أو غـيره من كـبار الناس. ولم يـذكر ابن الجواليقي (الدست) في (المعرَّب)».

وأمـا (الطبرزين) فقد ورد في (المعرّب) وهو فـأس السرج تحمـله فرسـان العجم ويقاتلون به.

٩ ـ وجـاء في وصف حضـور ورد عظيم الروم في دار المملكة المعَزّيَة البويهيّة في الصفحـة السادسة عشرة:

«وأقـيم الديلم من دجـلة وإلى حـضرة صمصام الدولة على مراتبهـم صفين بأجمـل لباس. . وفي أيـديهم الزوبينـات. . والغلمـان الداريّة والخـدم. . وقـوف على الروشن بالبزّة الجميلة».

أقـول: و (الزُوبين) هـو الرمح القصير. . ذكره أدّي شـير.

والرَّوشن معرَّب معروف، ولكنها هنا منظرة يُشرَف منها.

١٠ ـ ويمضي المؤلف في وصـف حـضور عظيم الروم فيقـول:

«وجـلس صمصام الدولة في (السِّدْلي) المُذهَب».

و (السِّدْلي) تعـريب (سه د له) ومعنـاه في الفارسيـة قـبة في ثـلاث قِبـاب متداخلة. ولعله (السـدير) مـن هـذا بعد تعريبه.

١١ - وجاء في الصفحة الثانية والعشرين والتي تليها أعداد كثيرة لما هو مرسوم في (العمل):

أقول: و(العمل) يفيد ما تفيده (الموازنة) في عصرنا.

١٢ - وجاء في الصفحة الرابعة والعشرين قول المؤلف:

«ومن ذلك النفقات التي تطلق دائماً في كل سنة لثمن الجوارح... وثمن النعاج... وصلة الفراشين بسبب القلنداس».

أقول: و(القلنداس) من أعياد النصارى، ويعرف اليوم بعيد رأس السنة الميلادية أو بعيد الختانة، والكلمة لاتينية (calendae) وقد وردت القلندس أو القالندس.

جاء في (الآثار الباقية)[1]: وفيه يجتمع صبيان النصارى ويطوفون في بيوتهم ويخرجون من دار ويدخلون في أخرى.

وجاء ذكره في (مروج الذهب)[2] وكذلك في (عجائب المخلوقات).

١٣ - وجاء في الصفحة التاسعة والسبعين قوله:

«... ومن يلبس (الدَّنيّات)».

وقد علّق المحقق على (الدنيّات) فقال: واحدتها دَنّية وهي قلنسوة بشكل الدَّنّ، محددة الأطراف يلبسها القضاة.

أقول: وللعمائم هيئات خاصة تؤلف مادة مهمة في الأزياء ومنها: الرصافية التي يلبسها الخلفاء[3]، ومنها (القَراقِفات) وواحدها (القراقف)

---

(١) البيروني أبو الريحان محمد بن أحمد (الآثار الباقية عن القرون الخالية)، مكتبة المثنى، بغداد، ص ٢٩٢ - ٢٩٤

(٢) المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م)، (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦٤ م، جـ ٢، ص ٤٠٦ - ٤١٢

والقزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ/١٢٨٣ م)، (عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات)، شركة مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٧٦

(٣) الصابي، (رسوم دار الخلافة)، ص ٨١

وهو ضرب من القلانس المستديرة الضخمة.

ومن المفيد أن أشير إلى أني اجتزأت بهذا القدر، ولم أشأ أن أشير إلى مواد وردت في (الوزراء)، وكنت قد أشرت إليها ومنها (الارتفاع) بمعنى الدخل كما في الصفحة (١١) وكذلك ما ورد في (الوظائف).

وننتقل إلى كتاب (مضمار الحقائق)[١] فنجد فيه:

١ - في الصفحة الثالثة في الكلام على سنة خمس وسبعين وخمس مئة قول المصنف:

«وفيها غَلَت الأسعار بالعراق واشتد المحل... وكانت الغلات كثيرة... غير أن الناس رفعوا أيديهم عن البيع وسبب ذلك أن ظهير الدين أبا بكر منصور بن العطار... كان قد تحكم في دولة الخليفة واستولى على جميع المعاملات الواسطية وضمن البلاد سائرها ومنع البيع...».

أقول: وفي هذا النص فائدة كبيرة تتصل بالوضع الاقتصادي وحرص التجار على خزن البضاعة انتظاراً لأيام الضيق ونقص الغلة، وأن ظهير الدين قد (ضَمَنَ) بمعنى (احتكر) الغلات ومنع البيع.

٢ - وجاء مثل هذا في الصفحة الثانية عشرة في الكلام على (ظهير الدين):

«وكان الناس يبغضونه لِما كان يبدو منه في سني المحل من منع البيع العام على الناس و(الضمانات) الجارية في أيّامه».

أقول: و(الضمانات) هي الاحتكارات.

٣ - وجاء فيها أيضاً:

«... فجعل أستاذ الدار على إخراج (ظهير الدين) عيناً من حيث لا يُعلم به، ونبَّه (الأعوام) على إخراجه، وأوقف جماعته على باب النوبي ينتظرون خروجه».

(١) محمد بن عمرو شاهنشاه الأيوبي (ت ٦١٧ هـ/١٢٢٠ م)، (مضمار الحقائق وسر الخلائق)، القاهرة، عالم الكتب.

أقـول: والمراد بـ (الأعوام) العامّـة. و (بـاب النـوبي) أحـد أبـواب بغـداد، ويُستفـاد من الأخبـار التاريخـية أن القـضاة هم الذين يـدخلون منه ويقبّـلون الأرض عنده قـبل دخولهم على الخليفة.

ذُكِرَ هـذا في (الحـوادث الجامعة)[1]، وفي (الجامـع المختصـر)[2].

٤ ـ وجـاء في الصفحـة التاسعة عـشرة قـول المصنف:

«. . . فلمـا أشرف عليهم ضُربت كوساته وبوقـاته. . .».

أقـول: جـاء في (صبح الأعشـى): «الكوسـات هي صنوجـات من نحـاس تشبـه التـرس الصغير يـدقّ بأحـدهما على الآخـر بـإيقاع ومعها طـبول وشبّابة»[3].

٥ ـ وجـاء في الصفحـة السابعة والعشرين:

«. . . ثم إن السلطـان فَرَّق البنـاء على الأمـراء فأخـذ عمّي عز الدين الجانـب القبلي، وجـمع النّقـابين والحجّـارين، وجـاء الجانـدارية وراء الجفـاتي، وأخـذ السلطان النقـب في الجانـب الشمالي. . .».

أقـول و (البنـاء) المذكور حصـن للإفرنـج.

وقـد فرَّق المستشرق (ديمومبين G - Demombyne) بـين (الجنـدار) و (الجمـدار) فقـال: الأخـير هو خـادم حـجـرة السلطان ويُساعـده (البشمقـدار)[4].

ويـشير ابن خـليل الظاهري في (زبـدة كـشف الممالك) إلى أن وظيفته

---

(١) ابن النوبي، كمـال الدين عبد الرزاق البغدادي (ت ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م)، (الحـوادث الجامعة والتجـارب النافعة في المئة السابعة)، المكتـبة العربية، بغـداد، ١٣٥١ هـ.

(٢) ابن السـاعي، تـاج الدين علي بن أنجـب (ت ٦٧٤ هـ/١٢٧٥ م)، (الجـامع المختصر في عنـوان التواريخ وعيون السادة، تحـقيق مصطفى جـواد، بغـداد، ١٩٣٤ م.

(٣) القلقشـندي، أبو العبـاس أحمـد بن علـي (ت ٨٢١ هـ)، (صبـح الأعشى ١٤ جـزءاً)، المؤسسة المصرية العامـة، القاهـرة، ١٩٦٣ م، حـ٤، ص ٩

(٤) ديمومبين، موديـس، (النظم الإسـلاميـة)، ترجـمة صـالح الشماع وفيصـل السامـر، مطبعة الزهراء، بغداد، ١٩٥٢ م.

تدخل في عداد أمراء (الطبلخاناة)[1] .

ولم يهتد المحقق إلى (الجفاتي) وذكر فوائد على سبيل الاسترجاح .

٦ - وجاء في الصفحة الخامسة والثلاثين قوله :

«. . . وأنه إذا حَمَل لا يردّ رأس فرسه، فألبس نشاهيره لغلام له وأركبه فرساً كان له، أشهَبَ» .

أقول : و (النشاهير) أشرطة تُصَغَّر أو تُكَبَّر يُزَيَّن بها صدر الحصان [٢] .

٧ - وجاء في الصفحة السادسة والثلاثين قوله في تكملة النص السابق :

«وحادَ عن وسط (الطَلَب) الذي له» .

و (الطَّلَب) كان يطلق على الأمير الذي يتوّلى قيادة مئتي فارس في الحرب، ثم تطوّر مدلوله فأصبح يطلق على الفرقة من الجيش كما في النص[٣] .

٨ - وجاء في الصفحة السابعة والخمسين :

«وأوقف الناصر على قبر المستضيء وقوفاً كثيرة وجعل لتربته (الراتب) من الشموع والوظائف من المخزن الشريف» .

أقول : و(الراتب من الشموع) القدر المخصص من الشموع، ومثل الراتب (الوظائف) وقد سبق الكلام عليها .

والمخزن الشريف بيت مال الخليفة الخاص .

٩ - وجاء في الصفحة الثامنة والخمسين :

«. . . لما أراد الخليفة (الناصر لدين الله) حمل الإمام المستضيء

---

(١) ابن خليل الظاهري (ت ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م)، (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك)، تحقيق بولس راوين، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٩٨٤ م، ص ١١٤

(٢) انظر: دوزي، رينهارت، (تكملة المعاجم العربية)، ترجمة محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠ م .

(٣) دوزي، المصدر نفسه .

مـن الدار التي كـان مدفوناً بها إلى التربـة المذكورة في الجـانب الغربي من بغداد، أمر أن تُهيَّأ السفينة المعرفة بـ (الزَّبْزب) وقد غَرَمَ عليها مالاً جزيلاً، وهي عجيبة الصنعة يجـذف بها ملاّحـون عدة، جماعـة يجـذفون في الهـواء من مؤخرهـا، وجماعة يجـذفون في الماء من صـدرها».

أقـول: وهـكذا يـكون (الزبزب) سفيـنة كـبيرة يقـوم بخدمتها مـلاحون كـثيرون، وكأن هذه السـفينة لـسعتها خـصصت لنقـل الأموات من علية القوم. يـدلّنـا على هـذا قـول المؤلف: وفي هـذه السنة تقـدم الناصر بنقض السفينة المذكورة (الزبزب) وقـال: لا حـاجة أن تـكون هذه بدجـلة بـإزاء التـاج الشريف لترقـب من يـموت ليحـمل بها، وإني كلمـا رأيتها تكـدّرت عليّ الحيـاة.

وقـوله: غَرَمَ عليهـا أموالاً بمعنى أنـفق.

١٠ - **وجـاء في الصفحـة السـابعة والسـتين:**

«ذِكـر البَطة الفرنجية الواقعة إلى بحـر دميـاط والظفـر بها، وذلك بعد عقد من الفرنج في أواخـر الـسـنة المذكورة (٥٧٧ هـ)».

أقـول: و (البطّة) هي Bateau بالفرنسية، فقـد جـاء في تتمة النص: كـان السلطان قد عقد هـدنة مع الفرنج فنكثوا قـبل انقضائها... وجـرى عنـد ذلك من الاتفاقات الحـسنة أن (بطّة) من المراكـب الفرنجية مُتْقِلة من بـلد لهم يقـال له: (بوليه) تحتـوي على ألفين وخمس مئة نفس من رجالهم وأبطالهم، وهم على قـصد زيـارة المقدس فألقتهم الريح إلى ثغـر دميـاط فغـرق منهم شطـر.

١١ - **وجـاء في الصفحـة السـابعة والثمانين:**

«فـمضى عـلم الدين إلى بعـض أهـله وحـصل منه على سـيف ركـاب وجَناقات وآلة لأستاذية الـدار».

أقـول: والجناقـات من الكلم الأعجـمي، ولا بـد أن تـكون علامـات تشريفية، وقد أهملها المحـقق.

١٢ - **وجاء في الصفحة الثانية والتسعين:**

«وأخذ جميع ما كان لهما من خيل وبْرك».

أقول: و (البَرْك) متاع البيت وآلته.

١٣ - **وجاء في الصفحة الثالثة والعشرين بعد المئة:**

«وفيها (أي في سنة ٥٨٧ هـ) ماتت العبّاسة إحدى جهات المستضيء».

أقول: و (الجهة) كناية عن زوج الخليفة في العصور المتأخرة العباسية.

١٤ - **وجاء في الصفحة الحادية عشرة بعد المئتين:**

«ثم إن أستاذ الدار أحضر بهاء الدين عارض الجيش إلى داره».

أقول: و (العارض) رتبة عليا في الجيش.

ونتحول إلى (الحوادث الجامعة)[1] فنجد أن كثيراً من الفوائد التي وردت فيه قد مرت بنا في الكتب التي عرضنا لها، ومن أجل ذلك سنعرض لما فيه الفائدة مما لم يذكر في تلك المظانّ.

١ - «وفيه استدعي شهاب الدين محمود بن أحمد الزنجاني مدرّس النظامية إلى دار الوزارة، فأخِذ وهو على (السُدّة) بذكر الدروس، وعزل، وتوجّه إلى داره بغير طرحة ورُتِّب عوضه عماد الدين».

أقول: وقوله: (وهو على السُدّة) أي أنه في موضعه من غرفة الدرس، وكأنّ (السُدّة) تشبه ما ندعوه في عصرنا (المنصة). وقوله: بغير طرحة يشير إلى أن الطرحة شيء يلبسه الشيوخ الأساتذة، وقوله: (رُتِّب عوضه) أي ما يَعنيه الفعل (عُيّن) في عصرنا كأن يقال: عُيِّن فلان عميداً للكلية.

---

(١) ابن الفوطي، (الحوادث الجامعة).

٢ ـ وجاء في الصفحة الحادية والعشرين:

«. . . وقُدِّمَ له فرس بمركب ذهباً (كذا) ومِشدّة، ورُفِع وراءه سنجقان مُذهبان».

أقول: والسنجق هو الراية أو العلم، وهو لفظ تركي.

٣ ـ وجاء في الصفحة الثالثة والعشرين:

«وفي صفر دخل بعض الأتراك إلى دار الوزير مؤيد الدين القمّي، وطلب غفلة السِّتْري»:

أقول: و(السِّتري) هو الموكَّل بالستار لرفعه وإسداله عند الطلب وابن البّواب المشهور عرف بـ (ابن السِّتْريّ).

٤ ـ وجاء في الصفحة التاسعة والعشرين:

«. . . فوصل إليهم الدكز مخبراً أنهم صادفوا (يَزَكاً) منهم على غِرّة وجَرَت بينهم هوشة».

أقول: و(اليَزَك) كلمة تركية كالسريّة عند العرب.

وقوله: (جَرَت بينهم هَوشة) أي حدث لغط وجلبة.

٥ ـ وجاء في الصفحة الثلاثين:

«. . . فلما بلغ ذلك جمال الدين قشتمر ركب بمن معه. . . واعتبَرَ العساكر. . .».

أقول: وقوله: (اعتبر) بمعنى نظر وقدَّر.

٦ ـ وجاء في الصفحة السادسة والأربعين:

«. . . ويصل نشّاب الجرخ إليه. . .».

أقول: و(نُشّاب الجرخ) ضرب من سلاح. . .

٧ ـ وجاء في الصفحة الثالثة والخمسين:

«. . . ونَزَل في شَبّارة من باب البسري إلى الدار المستجدّة».

أقـول: و (الشبّـارة) ضـرب من القوارب.

٨ ـ **وجـاء في الصفحـة الرابعة والخمسين:**

«... ونـقل في هـذا اليوم إلى المدرسة المستنصرية من الرَّبَعـات الشريفة والكتب النفيسة... مـا حِمْـلُه مئة وستـون جمـلاً».

أقـول: والمراد بـ (الربعـات الشريفة) أجـزاء من المصحـف الشريف، وكأن (الربعـة) شـيء من ربع القرآن.

٩ ـ **وجـاء في الصفحـة التاسعة والسبعين:**

«... وقُدِّم له فـرس عربي بمركَب ذهباً ومِشَدّة، وأُعطِي علماً بمشـادّ وجفتايَيْن...».

أقـول: لم أجـد (الجفتايين) في كتـب (المعرّب) وهـو أعجمـي ولعله مثنى (جَفْتـان) بالجـيم المعجمة وهـو ثـوب من القطن، فـارسيٌّ محض يـلبس فوق الدرع كمـا أفاد (أدّي شير)[١] وهـو الذي استعارة الأتـراك فكـان (قفتـان) بالقاف ثـم تحـول إلى (قفـطان).

١٠ ـ **وجـاء في الصفحـة الثمانين:**

«... وبعد أيـام قصد زيارة أخته زوجـة الأمـير علا الدين أبي شجـاع الطبرسي الدويدار».

أقـول: الدُوَيْـدار والدوادار والدواتـدار والدوالدار كـل ذلك من الكلمة العربية (الدواة) المعروفة، ومن اللاحـقة الفارسية «دار» بمعنـى الصاحـب أو القيم، فهو صاحـب الـدواة، وهـو عمل أنشأه السلاجـقة. (كمـا ورد في النجـوم الزاهـرة ١٨٥/٧، وانظر (تأصيل مـا ورد في تـاريخ الجبرتي من الدخيل)[٢] ص ١٠٩ ـ ١١٢ للدكتـور أحمد السعيد سليمـان].

---

(١) أدّي شـير، (الألفاظ الفارسـية المعربة).

(٢) انظر: أحمد السعيد سليمان، (تـأصيل مـا ورد في تـاريخ الجبرتي من الدخـيل).

١١ ـ وجاء في الصفحة التاسعة والثمانين:

«. . . واستدعي في حادي عشري الشهر إلى (البدريّة)».

أقول: وقوله: (حادي عشري الشهر) أسلوب في إثبات العدد المركب شاع في القرون المتأخرة.

١٢ ـ وجاء في الصفحة الثالثة بعد المئة:

«وفيه (أي آخر شعبان) نهض لبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل نَفَران من الباطنية فجرحه أحدهما».

أقول: والمراد بـ(النفران) مثنى (نَفَر) أي رجل واحد كما هو الجاري في عصرنا في العامية العراقية.

١٣ ـ وجاء في الصفحة السابعة عشرة بعد المئة:

«. . . وجُعل له رسم في كل سنة مبلغه (كذا) ثلاثون ديناراً، فلما مات وجدت القراطيس بحالها، ما شذّ منها إلا ما ابتاع به كتباً، وكان يستعطي من الناس ويُدَروز ما يقتات به».

أقول: و(الرسم) هنا هو المكافأة المرسومة أو مخصصات سنوية.

وقوله: (القراطيس بحالها) أي الأوراق التي بها يقبض هذا (الرسم)، وقوله: (بحالها) أي على حالها، وقوله: (ما شذّ منها) أي لم ينقص شيء منها، وقوله: (يُدروز) أي يقعد في (الدروازة) أي في رأس المحلة يستجدي.

١٤ ـ وجاء في الصفحة الثامنة عشرة:

«وفيها دخلت امرأة طرّارة داراً. . .».

و(الطرّارة) صفة للمرأة تُطرّ الدروب وتحتال على الناس، وكان عندهم سجن للطرّارات[1].

---

(١) انظر: ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م)، =

١٥ ـ وجاء فيها أيضاً:

«... وكان لها عند الصائغ فردة سوار...».

أقول: وقوله: (فردة سوار) بمعنى سوار واحد، و(الفَردة) مؤنث فَرْد، وهذا استعمال متأخر شاع كثيراً، وما زال معروفاً في العراق.

١٦ ـ وجاء فيها أيضاً:

«... وهو بعينه رَجُل بِنتها...».

أقول: وقوله: (رجل بنتها) في الكلام على امرأة، يفيد زوج بنتها، وهو استعمال دارج ما زال معروفاً في العراق.

١٧ ـ وجاء في الصفحة التاسعة عشرة بعد المئة:

«... وقلت: إنّ (الفردة الأخرى) من السوار عندهم (أي اللصوص) فركب ومضيت معه فكبَسَ الدار وأخذ (الرَّحْل) فسلّمه إليَّ».

أقول: و(الرَّحْل) مجموع الحلي التي ضُبطت لدى اللص.

١٨ ـ وجاء في الصفحة الحادية والثلاثين بعد المئة:

«... وفيها قطعت يَدُ شيخ جميل الهيئة... كان يسكن الخانات ومعه فشّاشات يفتح بها الأقفال ويسرق أموال التجّار».

أقول: و(الخانات) جمع (خان) معروفة، وقد بدأت تظهر في العربية المتأخرة. و(الفشاشات) جمع (فشّاشة) أداة تفتح بها الأقفال، والفعل (فشَّ) عاميّ مولّد، ومنه في العامية العراقية المعاصرة (بَجَ).

١٩ ـ وجاء فيها أيضاً:

«... وحَضَرَ فلما أفطَرَ قُبض عليه... واحتيط على داره...».

= (تاريخ الكامل في ١٢ جزءاً) مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٩٠ هـ، جـ٦، ص٢٦ في حوادث سنة ٥٣٢

وقوله: (احتيط على داره) من الكلام المألوف في هذه العصور والمراد به، أي جعلت داره تحت الحراسة.

٢٠ - وجاء في الصفحة الخامسة والأربعين بعد المئة:

«و (رُتِّبَ) مشرفاً بعنابر التمور...».

وقد أشرنا إلى الفعل (رُتِّب) بمعنى (عُيِّن) في قول المعاصرين.

أما (العنابر) فلفظ عاميّ فصيحه (الأنابير) جمع الجمع واحده (أنبار) وهو جمع (نَبْر). وما زالت الكلمة بالعين في عامية العراقيين (عنابير) ومفردها (عُمبار) بالعين المضمومة والميم بدلاً سن النون، و (العمبار) المخزن الكبير للحبوب ونحو ذلك.

٢١ - وجاء في الصفحة الرابعة والسبعين بعد المئة:

«ووقع التعيين على السبلدارية فرُتِّبَ أبو القاسم ابن كلالة التاجر في سبيل الخليفة المستعصم».

أقول: كأن (التعيين) بمعنى الاختيار. و (السبلدارية) مصلحة (السُبُل) وهو جمع (سبيل) أي في عامية العراق في عصرنا هذا بـ (السبيل خانة) وهو مشرب يشرب منه السابلة الماء.

٢٢ - وجاء في الصفحة السادسة والسبعين بعد المئة:

«... فخرج جَرق سوق المدرسة وبين أيديهم المحاكون والمغاني».

أقول: و (الجَوق) معروف لجماعة المغنين وأهل اللهو، وهي كلمة معرّبة ذكرها (أدّي شير)(١). أما (المحاكون) فهم (الممثلون الهزليون) في لغة عصرنا يقلّدون ويحاكون كأن يحاكوا أصوات الحيوان، ذكر ذلك الجاحظ.

---

(١) أدّي شير، (الألفاظ الفارسية المعربة).

٢٣ ـ وجاء في الصفحة الثامنة والثمانين بعد المئة:

«. . . وقد فُرِشَ في مسجد قُمريّة زِليّة في وسطها جامات مكتوب فيها (الملك لله)».

أقول: و(الزلّية) معرَّب (زولي)، وهي الزربيّة، وأما قوله (في وسطها جامات) فمعناه: في وسطها رُقَع أي مساحات كُتبَ فيها.

٢٤ ـ وجاء في الصفحة الثالثة بعد المئتين:

«. . . وكَتَبَ (إنهاء) وصدّره بقوله تعالى: الآية».

أقول: و(والإِنْهاء) إخبار وتقرير وخلاصة بمسألة من المسائل.

٢٥ ـ وجاء في الصفحة العشرين بعد المئتين:

«. . . وتوفي الشيخ محمد الركابدار».

أقول: و(الركابدار) هو صاحب الركاب، وكأن ذلك يومىء إلى المختص بالخيل للخليفة أو الأمير مثلاً.

٢٦ ـ وجاء في الصفحة السابعة والأربعين:

«. . . وكان الخطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة المستعصم بالله:

واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين، وعصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح خليل أمير المؤمنين. . .».

أقول: قد مرَّبنا أن (الجهة) كناية عن الزوجة للخليفة أو الأمير أو الملك.

٢٧ ـ وجاء في الصفحة الخامسة والخمسين بعد المئتين:

«. . . وخَرَج فاتبعه الجيران وقبضوه. . . وقتلوه توسيطاً. . .».

أقول: قوله: (قتلوه توسيطاً) أي أحاطوا به وجعلوه في وسطهم، ومثل هذا يقول البغداديون في عصرنا: (جعلوه وسطانياً).

٢٨ - وجاء في الصفحة الثلاث مئة:

«... وتوفي عمر بن جلدك المطالعاتي... كان من فرّاشي سُدّة الخليفة، وكانت المطالعات تبرز على يده من الخليفة».

أقول: (المطالعاتي) هو الفرّاش الذي ينقل (مطالعات) الخليفة إلى الوزير، والمطالعات هي آراء الخليفة محررة في المسائل التي تقدَّم إليه.

٢٩ - وجاء في الصفحة الحادية والخمسين بعد الثلاث مئة:

«... فعمل (يارغو) وقوبل على أمور نُسِبَت إليه».

وقد شرح المحقق للكتاب (اليارغو) فقال:

كلمة مغولية كالمحاكمة اليوم، واليارغوجي الحاكم، وقد منع (مرجان) أحد المماليك في وقفيته النظر في القضايا الشرعية واليارغونية في مدرسته المعروفة ببغداد.

٣٠ - وجاء في الصفحة الخامسة والستين بعد الثلاث مئة:

«وجُدِّد تطبيق صحن المستنصرية و(تَبنيد) حيطانها...».

أقول: وتطبيق الصحن فرشه بالطابوق المربع المعروف، وهذه الكلمة هي الكلمة الفنية التي ما زالت مستعملة في العراق. وأما (التَبنيد) للحيطان فيراد به تقويتها ببناء جدران صغيرة تسند الحيطان بمثابة الأعمدة التي تتخذ لهذا الغرض في عصرنا.

٣١ - وجاء في الصفحة الخامسة بعد الأربع مئة:

«... ونقل قوم عن قوم أشياء لا أصل لها غير (أهوية) العوام...».

أقول: و(أهوية العوام) يراد بها أمزجتهم وما يَهْوَوْن، وهي جمع (هواء) والاستعمال دارج عامي.

٣٢ - وجاء في الصفحة السابعة بعد الأربع مئة:

«... ثم نقل خازناً إلى (الكارخانة)».

و (الكارخانة) دار الضرب.

٣٣ ـ وجاء في الصفحة الثالثة عشر بعد الأربع مئة:

«. . . وفيها أمر علاء الدين صاحب الديوان بعمل جسر وحمله إلى تُستَر مكمَّلاً بسلاسله وآلاته فنُصب تحت البند عند (دِروازة) دزبول . . .».

أقول: والدروازة أي مقدَّم الدرب ما زال شيء منها في بعض حواضر العراق، ذكرها (أدّي شير)(١).

٣٤ ـ وجاء في الصفحة السادسة عشرة بعد الأربع مئة:

«. . . وسارت (الأيلجية) إلى ابنه تخبره. . .».

والمراد بـ (الأيلجية) الرسل، وقد استعملت هذه اللفظة في العهود المتأخرة، والأيلجي هو السفير أو القنصل. وما زال الأيلجي شهرة لأسرة عراقية.

وهكذا أنهي الكلام على هذا الكتاب الممتع المفيد المنسوب لابن الفوطي وأتحول بعده إلى كتاب (الجامع المختصر) في الجزء التاسع المتبقي منه لابن الساعي البغدادي.

١ ـ جاء في الصفحة الخامسة عشرة قول المصنف:

(. . . وعُوِّلَ عليه (أي على أبي الحسن علي المنجاب) الترداد على سيواس لابتياع المماليك الأتراك والزلالي . . .).

أقول: و (الزلالي) جمع زِلِّية وهي الطِنفسة أو الزربية، ويسميها العراقيون في عصرنا (الزولية) وجمعها (زوالي). و (الزِّلِّية) معرّب (زولي) الفارسية، ذكرها أدي شير(٢).

قال الأب أنستاس الكرملي: ذكر ياقوت (الزولية) في مادة

---

(١) أدّي شير، المصدر نفسه.
(٢) أدّي شير، المصدر نفسه.

(القطنية) وذكر (المقادير) وصوابها (المحافير) والعامة تقول (المعافير) وهي زلالي كانت تُسَدَى في (محفور)، وبلسان العوام (معفور) وهو بلد بشط الروم[1].

أقول: وما زالت (المحفورة) للزلية في بعض جهات الموصل.

٢ - وجاء في الصفحة السادسة عشرة قوله:

«... حدثني النصيف السامرّي مشرف ديوان الزمام...».

أقول: قوله: (السامرِّي) منسوب إلى (سامرّا) مقصورة، وهذه النسبة هي الشائعة في العربية العباسية، وقد أحصيت جمهرة من القراء والمحدثين وغيرهم اشتهروا بـ(السامرّي). أما بالنسبة إلى الممدودة (سامرائي) فقد عرفت في عصرنا. وقد ذكر ياقوت سامرا وشامراء [2].

٣ - وجاء فيها قوله أيضاً:

«... فقال: هذا المال لي وللكاتب والمشرف والبراطيل... وأبرطِل بألف...».

أقول: و(البراطيل) جمع (برطيل) وهو الرشوة وقد جاء الفعل منه (أبرطل). وهذا كله باق في العامية الدارجة في عصرنا.

٤ - وجاء في الصفحة السابعة عشرة:

«... يا شيخ والله إنّ الحرامية لا يعتمدون على ذلك».

أقول: و(الحرامية) بمعنى اللصوص مشهورة.

٥ - وجاء فيها أيضاً:

«... أنت رجل محشّف الدماغ...».

وقوله (محشّف الدماغ) من الكلم العامي الدارج بمعنى فاسد

---

(١) أنستاس الكرملي، (أغلاط اللغويين الأقدمين)

(٢) ياقوت، (معجم البلدان).

العقل، والكلمة بنيت من مادة (حشف) والحشف اليابس الرديء من التمر ومثله الحُشافة.

٦ - وجاء في الصفحة العشرين:

«... وفي حادي عشر ربيع الأول (كذا) شهد عبد المنعم بن محمد بن سليمان الباجسرائي...».

أقول: وقوله: (حادي عشر ربيع الأول) ينبغي أن يكون: الحادي عشرين ربيع الأول لأن الحادي عشر معرفة قبل أن يستفيد التعريف من إضافته إلى (ربيع الأول).

وقوله: (الباجسرائي) نسبة إلى (باجسرا) والقصر فيها هو المعروف ولكن النسبة ذهبت إلى الممدود وهو غير معروف في هذا الاسم (باجسرا) وهو بليدة في أطراف بغداد، قال ياقوت: خرج منها جماعة من أهل العلم منهم أبو القاسم عبد الغني بن محمد بن حنيفة الباجسراوي[1]. كذا وقعت النسبة بالواو، ولعل هذا من خطأ الناسخ ولم يلتفت لها (وستنفلد)[2].

أقول أيضاً: (باجسرا) من أسماء المواضع في العراق المصدرة بـ (با) وهذا الصدر يشير إلى الأصل السرياني لهذه الأسماء، و (با) هذه شيء من كلمة (بين)، وتحول إلى هذه الصورة في تركيبه مع مدخوله. ومثل هذا باصيدا وباخمرا وبعشيقا في العراق، ومثل هذا أسماء عدة في بلاد الشام عامة.

وإذا كانت هذه النسبة باجسرائي قد حدثت، فلنا أن نعتمد عليها في قبول (السمرائي) في عصرنا نسبة إلى الممدود، وهو غير معروف في اللغة العباسية.

---

(١) ياقوت، المصدر نفسه.

(٢) وستنفلد هاينريخ فرديناند (ت ١٨٩٩ م)، محقق كتاب ياقوت (المشترك وضعاً والمفترق صقعاً) في ثلاثة أجزاء، مكتبة المثنى، بغداد.

٧ - **وجاء في الصفحة الرابعة والعشرين قول المصنف:**

«... وأعطي الكوس والعَلَم...».

أقول: و (الكوُس) ضرب من الطبل وقد ورد في (الحوادث الجامعة) مجموعاً على (كوسات).

٨ - **وجاء في الصفحة التاسعة والثلاثين:**

«الأمير المستنجدي صرف أوقاته في الشرب حيث لم يبق له شيء من (البَرْك) وركبته الديون».

وقد أشار الكرملي إلى (البرك) وورودها في الفخري ص ٤٠٨ طبعة شالون. والبرك هو الأثاث والمتاع.

٩ - **وجاء في الصفحة التاسعة والخمسين:**

«... ورُتِّبَ خازناً بالديوان العزيز مضافاً إلى إمامة المدرسة النظامية...

أقول: وقوله: (مضافاً) يعني (منسوباً)، والإضافة هي النسبة.

١٠ - **وجاء في الصفحة السابعة بعد المئة:**

«... وكان يتولّى ديوان التركات الحشرية...».

أقول: وقد بسط المحقق الدكتور مصطفى جواد - رحمه الله - القول في (الدواوين) في مقدمة الكتاب، وأشار إلى (ديوان التركات الحشرية) فقال: هو الديوان الذي ينظر في التركات التي لا وارث لها فتصير إلى بيت المال.

١١ - **وجاء في الصفحة السابعة عشرة بعد المئة:**

«... ثم سقط فحُمِلَ إلى موضعه ظنّاً منهم أنه قد غُشِيَ عليه وطال به ذلك فاعتبروه وقد مات».

أقول: وقوله: (فاعتبروه) أي نظروا إليه وكشفوا عنه وتبينوا حاله.

١٢ - وجاء في الصفحة الثامنة عشرة بعد المئة:

«وفي ثالث عشري رجب المذكور... ولي الركن عبد السلام بن عبد القادر عميد بغداد وخُلِعَ عليه.

أقول: و (الركن) لا بد أن يكون لقباً تشريفياً، وعميد بغداد منصب تشريفي كأنه نقيب بغداد في العصور المتأخرة بعد سقوط الدولة.

١٣ - وجاء في الصفحة الثالثة والعشرين بعد المئة:

«... ولما دخل الإفرنج المدينة نهبوا كل ما في البيع من ذهب ونقرة...».

أقول: و (النقرة) قطع من الذهب أو الفضة تتخذ أحياناً عملة.

١٤ - جاء في الصفحة السابعة والعشرين بعد المئة:

«أبو جعفر أحمد بن جعفر صدر المخزن المعمور كان شاباً جميلاً... مُنَزَّك الوجه مليح الشكل».

وقد علق الدكتور مصطفى جواد - رحمه الله - على قول المصنف (مُنَزَّك) فقال:

تقرأ هذه الكلمة على صورتين أولاهما: (مُتَرَّك الوجه) أي ذو وجهٍ مدوّر لأن الترك تغلب على وجوههم الاستدارة، وقديماً قالوا: مدنَّر الوجه، أي شكل وجهه كالدينار، ولاستدارة وجوه الأتراك عُلم أنهم أريدوا بحديث هو (كأن وجوههم المجان المطارَقة).

والصورة الثانية: (منزَّك الوجه) وتأتي من (مَأتَيين): الأول اللغة الفارسية، فالنزاكة فيها بمعنى الظرافة واللطافة، والثاني اشتقاق الكلمة من (نازوك) أحد أمراء الترك في زمن المقتدر العباسيّ...

١٥ - وجاء في الصفحة الثالثة والثلاثين بعد المئة:

«... ومات في سادس رجب عن مرض أيام قلائل وأخرج ليلاً

مجنوزاً في الشموع الكثيرة (والكلام على أبي الفرج المسبّحي المتطبّب النصراني))».

وقد علق الأب الكرملي على قول المصنف (مجنوزاً) فقال: أي صُلِّيَ عليه صلاة الموتى محمولاً في تابوت ومنقولاً إلى البيعة لِيُصلي الصلاة الأخيرة.

١٦ ـ وجاء في الصفحة الرابعة بعد المئتين:

«. . . وأنفذ جِتْرَيْن لكل واحدٍ منهما جِتْر. . .».

و (الجتْر) كالشمسية التي تنشر على رأس ملوك الترك ثم استعملها غيرهم.

قال مصطفى جواد ـ رحمه الله ـ: جاء في حوادث سنة ٦٩٤ في مجمع الآداب لابن الفوطي وأما (لاجين) فإنه دخل مصر ورفع البَيْسَرَي الجتْر على رأسه ولقّب الملك المنصور.

أقول: لا بد أن يكون (الجتر) بجيم مشوبة أعجمية (چتر) وهو شيء في العامية العراقية المعاصرة بلفظ (الجتْري) وهو ضرب من قماش متين يُلبَس فيتّقى به المطر، أو يُتّخذ منه ظُلّة تقي المطر.

١٧ ـ وجاء في الصفحة السادسة والعشرين بعد المئتين:

(. . . وكان يلبس بالشربوش والجاروكة على قاعدة كتّاب العجم. . .).

أقول: (الشربوش) أصله السربوش وهو من (سر) بمعنى رأس، و (بوش) بمعنى غطاء، والمركّب يعني غطاء الرأس.

والجاروكة والجاروخ وزان قاموس ضرب من الأحذية عريضة النصّ ثخينته تحاك حياكة بالصوف، ذكر هذا الكرملي.

١٨ - **وجاء في الصفحة التاسعة والعشرين بعد المئتين:**

«. . . ووُكِّل به في الديوان وبكاتب السلّة. . .».

قال المحقق: المراد بـ (السلّة) هنا ما تُحفظ فيه بعض الكتابات الديوانية بديوان الزمام، وكاتب السلّة هو الذي يرقّمها.

أقول: قال ابن خلكان[1] في ترجمة طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوي: وجمع في خلال انقطاعه سلّة كبيرة في النحو، قيل: (إنها لو بُيِّضَت قاربت خمس عشرة مجلّدة).

فكأن (السلّة) كانت عندهم ما يجمع فيه من المسودّات.

١٩ - **وجاء في الصفحة السادسة والستين بعد المئتين:**

«وفي تاسع ذي القعدة المذكور وُلِّيَ ابن هبة مشينة اليهود. . . وقد علق الأب الكرملي على رأس المشينة فقال: هي رأس المشينة أي رأس الجمع. . .».

أقول: وليس هذا صحيحاً والصواب هو (المِشنة) أو (المِشْنا) بالنون من الآرامية (المِشْنا) وتعني شروح التوراة بالآرامية، فقد كتبت بعض نصوص العهد القديم بالآرامية لجهل الناس (أي اليهود) بالعبرانية، وذلك لربان ظهور السيد المسيح.

وبعد فهذا مجمل بالألفاظ العباسية اجتزىء به عن كثير غيره ورد في هذه المصادر التي أثبتها، ولو أنني واصلت المسيرة فرجعت إلى (الفرج بعد الشدة) و (النشوار) للتنوخي لوقفت على فوائد أخرى.

---

(١) ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ/١٢٨٢ م)، (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، في ستة أجزاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

من العربية في العصور المتأخرة

نشر مصطفى جواد ـ رحمه الله ـ كتاباً في أحداث التاريخ في سنيه الأخيرة أسماه (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة)(*).

وأصل الكتاب(*) مخطوطة فريدة في الظاهرية ناقصة من أولها وآخرها

(*) تحرى فيه مؤلفه رحمه الله:
وفيات العلماء والأطباء والسياح والفلاسفة والمنجمين والمؤرخين والنحاة والفقهاء والمحدثين والكتاب والشعراء والخطاطين والمتصوفة والوعاظ والملوك والسلاطين والأمراء والوزراء والحكام والزعماء والنواب والقواد والساسة. فكشف عن مآثرهم ومعايبهم، ووقائعهم ومسالماتهم، وفتوحهم واندحاراتهم، ومدحهم وقدحهم، وأخلاقهم وعاداتهم، وعدلهم وجورهم، مما يجعل ظامىء التاريخ ريان، وفي خلال ذلك يذكر المناصب ودرجاتها، والاحتفالات وعاداتها والحكم وقوانينه. والتدريس وأنواعه والمدارس، ومراسيم الخلافة العباسية والدولة الإيلخانية، والضرائب وأنواعها، والجزية وطريقة استيفائها، والنقود وأنواعها وسكها، وتاريخ ورق النقد، والجند ونظامهم، والناس وخرافاتهم، والجهاد والحج، وجلادة البشر وإحراقهم وحرية الأفكار إذ ذاك، وحوادث الصيد وحفلاته، والرمي بالبندق وقتل السباع والوحوش، وخراج العراق ومصدره ومآله، والجوامع والمساجد والربط، والأسوار وتجديدها وبناءها، وخزائن الكتب، وكيفية الخلع على الوزراء والنقباء والأمراء والصوفية والمدرسين، والخلفاء وظهورهم للرعية، وعزل الأمراء، وأنواع الدواوين، وحال أهل الذمة من زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠٠ م، والدور العظيمة، والقصور الفخمة، والطرق والمحلات، والجداول الجديدة، والبلدان المستحدثة، وعادات الخلافة في شهر رمضان، والرمي والمقاليع والمجانيق، والساعات المائية وآلاتها وعجائبها، وزفاف الأمراء وعاداته، والسعاة وغرائبهم، والفتوة (أي الكشافة عند المعاصرين) وأخبار الفتيات، والشعبذة وأصحابها، والشعر وتطوره، والتجارة والتجار، والتأديب والتعذيب وألوانها، والطيور وتربيتها والمراسلة بها، والعزاء وصورته، والعيارين =

فلا يعرف مصنفها، غير أن الشيخ محمد رضا الشبيبي - رحمه الله - قد ذهب إلى أن الكتاب بهذا العنوان الذي أثبتناه، وأن مصنفه عبد الرزاق بن أحمد الفوطي البغدادي المتوفّى سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م، وقد تكلم في ثلاث صفحات على الكتاب وأشاد بقيمته التاريخية بعد أن اطّلع عليه اطلاع دَرْس في الخزانة الظاهرية سنة ١٣٣٧ هـ/١٩١٨ م، كما أشاد بالمصنف وجهوده في تاريخ العراق في هذه الأحقاب المتأخرة. ثم جاء الدكتور مصطفى جواد فتكلم في تسع صفحات في (تصدير الكتاب والتعريف به) وجاء بجملة فوائد ذات قيمة مهمة سنعرض لها.

ثم بدا لمصطفى جواد بعد أكثر من عشرين سنة من نشر الكتاب أن الكتاب ليس (الحوادث الجامعة) وعلى هذا لا يكون صاحبه ابن الفوطي، واستدل على ذلك بأدلة ذكرها في مقالة له، واقترح أن يكون الكتاب تاريخ ابن عدلان الموصلي مهتدياً بأدلة مقنعة كما أفاد.

على أن هذا ليس مما يشغلني في هذا الدرس اللغوي الذي أفيده من مادة الكتاب التي تشمل على ما أريد من نماذج العربية في العصور المتأخرة، وليس شيئاً أن يكون في الكتاب نقص من أوله وآخره.

ولنبدأ الكتاب فنقف على فوائد في (تصدير الكتاب) لمصطفى جواد:

قال مصطفى بن جواد رحمه الله:

الحوادث الجامعة تحفة من تحف القرون الخالية وأثر باهر من آثار السلف العظام.

= والعيارات، والطرارين والطرارات وأحوالهم، والغناء والغبار والغرق، وفتح المدارس واحتفالاتها وطعامها، وشروط تعيين القضاة والإنشاء وكتابته، والتأليف في العصر السابع، وغالبة الكتب المؤلفة فيه والمخطوطة، واللحية وعظم حلقها، وأخبار المدعين بالمهدية أو النبوة، والمشاهد وتاريخ تعميرها، والمكوس والتقسيطات، والنساء وأحوالهن، والحوادث الطبيعية الخارقة كالصواعق والزلازل والبرد الكبار، والوفر والحريق، وغلاء الأسعار وتراخيها، والفتن وحوادثها، وسقوط بغداد في يد هولاكو وما يتبعه من نشوء الدولة الأيلخانية إلى سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠٠ م الآنف ذكرها.

ثـم تحـدث مصطفى جواد عن (الكتـاب) والتعريف بـه، فأشـار إلى مقـالة الأستـاذ يعقوب نعوم سـركيس المنشورة في مجـلة العرفان ١٩٢٦ الذي نسب الكتـاب إلى ابن الفوطي كمـا نسبه إليه عيسى اسكنـدر المعلوف.

كمـا أشـار إلى مقـالة لجـرجس صفـا في (المشرق سنة ١٩٠٢) ذكر فيها المستنصرية ووصـف ساعتهـا فأفاد أنـه عن مؤلـف لابن الساعاتي (كـذا) ولـم يـذكر الكتـاب أي (الحوادث الجامعة).

ونشـر الأب شيخو (المشرق ١٩٠٧ م) مقـالة في تكـامل بنَـاء الأيـوان مقـابل المدرسة المستنصرية للساعات، وذكـر أن مصدره (كتـاب قـديم) ولم يـكن ذلك إلا (الحـوادث الجامعة). ثم نـشر جرجـس صفا مقالة ثانية سماها (تعريـف بعض مخطوطات مكتبتي) وذلـك في (المشرق ١٩١٣ م) فوصـف فيها كتـاباً في التـاريخ، ولـم يـكن إلا (الحوادث الجامعة) وكـان قـد قـال في وصفه:

ثم آل أمر هذه النسخة إلى أحمد تيمور باشا شراء فانتسخ عليها نسخاً عدة منها نسخة الأب (أنستـاس مـاري الكرملي)، وعلى هذه انتسخ جماعة منهم مصطفى جواد نسخاً لهم.

وقد نشر من هذه النسخة الأصلية قبل أن تصير في ملك تيمور باشا، الأب شيخو شذرات في (المشرق) سنة ١٩٢٠ م.

ثـم أشار مصطفى جـواد إلى الأدلة التي اعتمد عليها يعقوب سركيس في نسبـة الكتاب إلى ابن الفوطي. ثم تـرجم المحقق لمؤلف الكتـاب وذكر مؤلفـاته. وأشار إلى عقيدة المؤلف ومـذهبه في صفحتـين جـاء فيهما:

إنه كـان يـذهب مذهب المعتزلة من وجوب العدالة على الله ـ تعالى ـ أو إلى الجبر. ولم نـر في كتـابه (الحوادث الجامعة) مـا يستوجب القدح في عقيدته، فـإنه كـثيراً ما استعاذ بالله من سـوء التوفيق، واستنزل رحمـات الله على

الموتى الصالحين وذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالتعظيم والأئمة والصالحين بالخير. . .

ولكن ابن الساعي شيخه ولإشادته بمذهب الشافعي غير مرة، ولنصه على شافعية المترجمين من الشوافع في (كتابه) وإغفاله مذاهب غالب المترجمين من غير الشوافع، ولاستقامة تاريخه ونزاهة لسانه أذهب إلى أنه كان شافعياً.

ثم قال مصطفى جواد رحمه الله:

. . . وتحققنا أيضاً أنه لم يكن شيعياً لأنه عند ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (صلى الله عليه وسلم) وهو ليس بمتعارف عند الشيعة، ولأنه قال في ترجمة أبي الطليق معتوق المعروف بابن شقير المنكر (كان يتشيع) وليس هذا مما يذكره شيعي عن شيعي، بل هو اصطلاح غير الشيعة في ذكرهم الشيعة كما هو مشهور، فأما ذكره بعض الأئمة الاثني عشر بـ (عليهم السلام) فهو أسلوب معروف متبع عند غير الشيعة ولا سيما الشافعية كما ترى في الوفيات لابن خلكان الشافعي وليست الحاجة ماسة إلى الإسهاب في هذا الباب، انتهى كلام مصطفى جواد.

أقول: كنت قد قرأت هذه المقدمة قبل أكثر من ثلاثين سنة، وكنت يومئذٍ طالباً في دار المعلمين العالية فوقفت على قول الأستاذ الجليل صاحب المقدمة من أن عبارة (صلى الله عليه وسلم) عند ذكر الرسول مما لا يستعمله الشيعة، وقد سألته عن هذا وقد كان أستاذنا في مادة النحو، فأكد الجواب، ولكني أخبرته أنني وقفت على كثير من كتب الشيعة يستعملون هذه العبارة فقال: لعلهم استعملوها الآن أو بعد أن طبعوا كتبهم الحديثة، قلت، ومن يضمن أن النساخ الأقدمين لم يستعملوها؟ وقد وجدت مخطوطات كثيرة تستعمل هذه العبارة أو أني وجدت فيها (صلى الله عليه وسلم) أو (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وهذا ما وجدته في أصول (كتاب العين) كلها مخطوطات متأخرة وبعضها من ناسخ إيراني.

وقلت له على سبيل المزح: وقد استعملت أنت عبارة (عليه الصلاة

والسلام) ولم تقل صلى الله عليه وسلم في هذه (المقدمة) لتعلن أنك شيعي فضحك رحمه الله.

أما قوله: (وكان يتشيع) مما لا يمكن أن يذكره شيعي عن شيعي فجائز، وقد يكون مما يؤيد هذه المقولة قول الشيعة مثلاً: (وكان يتسنن) أي يتمذهب بمذاهب السنة، وليس هذا مما يقوله سني في سني آخر.

ولنعرض للكتاب فنقول:

١ ـ جاء في الصفحة الأولى:

«. . . أحد خدم الخليفة إلى المارستان العضدي ومعهم عبد العزيز بن القبيطي، واعتبرت الحوائج التي في المخزن، فسأل صاحب المخزن خازن المارستان كم تكفي هذه الحوائج مرضى المارستان»؟.

أقول: وقوله: (اعتبرت الحوائج) أي نظرت فيها وقدرت.

وقال مصطفى جواد في تعليقه: والمخزن وكان بمثابة بيت المال وديوان الخراج ووزارة المالية.

٢ ـ وجاء في الصفحة الثانية:

«ثم أمر به (أي ابن القبيطي)، فصفع إلى أن وقع إلى الأرض، وتقدم بحمله إلى حجرة المجانين فحبس مسلسلاً».

وقوله: (مسلسلاً) أي مقيداً بالسلاسل.

٣ ـ «وفيه استدعي شهاب الدين محمود بن أحمد بن أحمد الزنجاني مدرس النظامية إلى دار الوزارة فأخذ وهو على السدة يذكر الدروس وعزل وتوجه إلى داره بغير طرحة ورتب عوضه عماد الدين أبو بكر محمد بن يحيى السلامي. . .».

أقول: وقوله (وهو على السدة يذكر الدروس) أي أنه على ما يدعى في عصرنا (المنصة). وقوله (بغير طرحه) أي أن الطرحة شيء يضعه المدرسون في تلك العصور على أكتافهم.

أمـا قـوله: (رتب عوضه) بمعنى عـين بـدلاً منه، فالترتيب يعني (التعيين) في العربية المعاصرة، وقـوله (عوضه) أي عـوضاً منه وهي المستعملة في لغة العصر.

٤ - وجـاء في الصفحـة الرابعة:

«وفي شعبـان تكـامل بنـاء المسجد المستجد المعروف بقمرية. . .».

ورتـب فيه مصلياً الشيخ عبد الصمد بن أحمـد بن أبي الجيش وأثبت فيه ثـلاثون صبياً يتلقنون القرآن عليه، ورتـب فيه معيد يحفظهم التلاقين، ورتب فيه الشيخ حـسن ابن الزبيدي محدثاً. . .

أقـول: وهـذا يـدل أن (الترتـيب) كـلمة فنية تعني (التعيين) في لغة عصرنا. وقـوله: (أثبت فيه ثـلاثون صبياً) معنـاه وخـص به أو سجـل فيه ثـلاثون صبياً تـلامـذة يتلقون القرآن.

وفيه أيـضاً مصطلح (المعيـد) الـذي أحـياه عصرنا فـكان درجـة علمية في جامعاتنا.

٥ - وجـاء في هـذه الصفحة أيـضاً:

«وفيها نفـذ فخـر الدين أبو طالب، والشيـخ أبو البركـات... إلى جـلال الدين منكوبـرتي مع رسـول كـان يتصل منـه وهو يـومئذٍ على خـلاط محاصراً، ونـفذ له معهم تـشريفات وكـراع ولبـاس الفتوة».

أقـول: وقـوله: (نفذ) أي أرسـل.

وأمـا التشريفات فهـي هـدايا تشـمل على خـلع وأسلحة من سـيف ودرع وتـرس كلها بالذهب ونفـائس الجوهـر وأشيـاء أخـرى ذكرها الأستـاذ مصطفى جـواد في تعليقه في الصفحة الخـامسة. ولبـاس الفتوة يـراد بـه شـيء مثل (الكشافة) في عصرنـا وهو سـراويل ومـا يتصل بها.

٦ - وجـاء في الصفحـة السادسة:

«وفي غـرة ذي القعدة خـلع على الأمـير شـمس الدين أصلانتـكين،

وأخرج نائباً عن أمير الحاج، فورد الخبر إلى بغداد أن قوماً من عرب البطنين خرجوا على الحاج، وعدلوا بهم عن الطريق المسلوكة في كل سنة وطلبوا منهم خفارة، واختطفوا من أطرافهم، وأسفرت الحال إلى تقرير اثني عشر ألف دينار تسلم إليهم وينصرفون عنهم فصححت لهم من نفقات السبل ومال المخزن المعد للصدقة».

أقول: والخفارة ما يفرض كالجعالة أجرة لحراستهم تؤخذ عنوة.

وقوله: (فصححت لهم) معناه جمعت وحققت وصودق عليها.

٧ - وجاء في الصفحة السابعة:

«... ثم عزل عن ديوان الجوالي...».

وهو الديوان الذي يشرف على جزية أهل الذمة.

٨ - وجاء في الصفحة الحادية والعشرين:

«ووقفوا تحت الدار الشاطئية ذات الشبابيك...».

وكلمة الشبابيك من الكلم التي بدأت تظهر في هذه الأزمنة المتأخرة.

٩ - وجاء في الصفحة نفسها:

«... وقدم له فرس بمركب ذهباً ومشدة ورفع وراءه سنجقان مذهبان...».

والمشدة مما يزين به الفرس في عنقه. والسنجق هو الراية أو (العلم) بلغة عصرنا.

١٠ - وجاء في الصفحة الثالثة والعشرين:

«وفي صفر دخل بعض الأتراك إلى دار الوزير مؤيد الدين القمي وطلب غفلة الستري...».

والستري هو الموكل بالستار لرفعه وإسباله عند الإيعاز، وابن البواب يعرف بابن الستري لهذا السبب.

١١ - وجاء في الصفحة الخامسة والعشرين:

«... وعمل من أنواع الأطعمة والحلواء ما تعبى في صحنها قباباً،

وحمـل من ذلك إلى جـميع المدارس والأربـطة، وقـرئت الختمة. . . ».

أقول: وقوله: (ما تعبى في صحنها قباباً) لون من عربية سائرة تقرب من عامـية ذلك العصر، وذلك بأسـلوب التعبير عن كـثرة الطعام والحـلواء.

وقـوله: (قـرئت الختمـة) يعنـي (خـتمة) القرآن، وما جـرت عليه العادة أن يتـلى ويجـود في هذه المناسبـة من الآيـات والتراتـيل والابتهـالات. وقد أدركنا شيئاً من هـذه الرسوم تقـام في منـاسبة الختمة في أول هـذا القرن.

١٢ ـ وجـاء فيها أيـضاً:

«وفيهـا (أي في سنـة ثمان وعشرين وست مئة) تـوفي بـركة بن محمـود الساعي المشهور بالسعي والعدو... سعى من واسط إلى بغـداد في يـوم وليلة».

أقـول: (الساعـي) من مهنته السعي والعدو، يحـمل الرسـائل والأخبـار.

١٣ ـ وجـاء في الصفحـة التاسعة والعشرين:

«... فوصـل إليهم الدكـز مخبـراً أنهم صـادفوا يـزكاً منهم على غـرة، وجـرت بينهم هوشـة...» أقـول: اليـزك كـلمة تركية كالسرية عنـد العرب.

وقـوله: (وجـرت بينهم هـوشة) أي حـدث لغط وجلبة، ومـا زالت هذه الكلمة معروفة في كـثير من عاميـات المشرق ومـن ذلك بـلاد الشام عـامة. ولعل (الهوسـة) في العراق منها، وإن دلت على ضـرب من الزجـل يتألف من بيتين يلقى فيها البيت الأول وصـدر الثاني إلقـاء، ثـم يهتف بعجز البيت الثاني على نحو خاص من الترتيل فيه تقطيع وإرسال وحركة ويستعان على ذلك بدبك الأرض.

١٤ ـ وجـاء في الصفحـة الثلاثين:

«... فلمـا بلغ ذلك جمال الدين قشتمر، ركـب بمن معه وصعـد رأس الجبل هنـاك، واعتـبر العساكر فـلم يجـد إلا الأمـراء والمماليك...».

أقـول: وقـوله: (اعتـبر العسـاكر) بمعنـى نـظر وقـدر.

١٥ ـ وجاء فيها أيضاً:

«. . . فاتفقوا على الرحيل ليلاً من غير طبل ولا شغل، والمسير إلى (شهر كرد) فهناك وطأة واسعة وأرض فسيحة تصلح للحرب، فرحلوا همسة من غير حركة تسمع فصبحوا (شهر كرد). . . ».

أقول: وقوله: (من غير طبل ولا شغل) تعبير عامي من عامية ذلك العصر التي وجدت سبيلها إلى اللغة المكتوبة.

وقوله: (فهناك وطأة واسعة) أي أن هناك بقعة موطأة ممهدة قد تكون أوطأ من غيرها. والوطأة هذه من العامية القديمة التي بقي شيء منها في عامية جنوبي العراق.

وقوله: (رحلوا همسة) تعبير أقرب إلى النحو الدارج، وذلك لأن مادة الهمس لا يتوسع فيها على هذا النحو.

١٦ ـ وجاء في الصفحة الرابعة والثلاثين:

«. . . وعين على جماعة مع حسن بن صالح المعمار. . .».

أقول: والمعمار هو البناء، وهذا هو مدلول الكلمة في العربية المعاصرة، في حين أن بناء الكلمة على (مفعال) يعني كثير التعمير والعمارة.

ومن المفيد أن أشير إلى أن (المعمار) قد تجاوزت فيه كتابات المعاصرين مدلولها الصحيح، فصارت تدل على (فن العمارة) فيقال مهندس مختص بـ (المعمار) مثلاً، وهذا توسع لا مسوغ له.

١٧ ـ وجاء في الصفحة الثامنة والثلاثين:

في المحرم، قلد العدل مجد الدين أبو القاسم هبة الله بن المنصوري الخطيب، نقابة نقباء العباسيين. . . وخلع عليه قميص أطلس بطراز مذهباً، ودراعه خاراً أسود. . .

أقول: (الأطلس) ضرب من القماش وهو حرير، وأكبر الظن أنه من

(المعرب) ولكنه غير مثبت في مظان (المعربات).

وكذلك (الخار) ضرب من القماش لا نعرفه ولم أجده في كتب (المعرب).

١٨ - وجاء فيها أيضاً:

«... كان يصحب الفقراء ويأخذ نفسه بالرياضة والسياحة والصوم الدائم والتخشن والتباعد عن العالم...».

أقول: والرياضة ضرب من العمل القاسي الذي يمارسه الصوفي أو الزاهد كتحمل الجوع والسعي في سبيل القيام بأعمال في الأرض وغيرها، وكذلك (خياحة) فهي أن يسيح في البلاد سلاحه الايمان داعياً إلى الله منصرفاً إلى عمل البر.

١٩ - وجاء في الصفحة السادسة والأربعين:

«... ويصل نشاب الجرخ إليه...».

أقول: و(نشاب الجرخ) شيء من السلام يقذف وكأن (الجرخ) لولب يدور فيرمى النشاب. والجرخ كلمة أعجمية (لم ترد في كتب المعرب). غير أننا نعرف الكلمة في اللسان الدارج في القرآن لأداة هي لولب أو عجلة تدور، ومن ذلك سمي (الجراخ) لمن يدير لولباً تربط به قطعة من الخشب فتدور، وفي خلال دورانها يأتي هذا (الجراخ) فيصنع منها بشفرته ما يريد من مقابض مشغولة، وأدوات منحوتة على نحو خاص. ومن هذا سمي بصناعة (الجرخ) و(الجراخة) كل عمل يقوم على إدارة آلة لنحت قطعة من الحديد. ثم عدل عن هذه الكلمة ذات الأصل الأعجمي إلى مصطلح فصيح هو (الخراطة).

٢٠ - وجاء في الصفحة السابعة والأربعين:

«... وكتب الشرابي على جناح طائر إلى الخليفة بصورة الحال...».

أقول: وقوله (على جناح طائر) أي أرسل رسالة وربطها في جناح طائر، وكذلك كان دأبهم، وهذا هو طير الزاجل المعروف.

٢١ - وجاء فيها أيضاً:

«. . . وحضر الشعراء في الديوان وأوردوا قصائد تتضمن الهناء بهذا الفتح والنصر».

أقول: أراد بـ (الهناء) التهنئة. ومن الغريب أن العربية لم تعرف (الهناء) على شهرته، بل وردت كلمة (الهناءة).

٢٢ - وجاء في الصفحة الثامنة والأربعين:

«. . . وقلده سيفاً وأمطاه فرساً وأعطاه كوسات وأعلاماً. . .».

أقول: وقوله (أمطاه فرساً) أي أركبه فرساً، والفعل (أمطى) من (المطا) وهو الظهر للدابة، ومنه المطية.

وأما (الكوسات) فهي أدوات ينفخ فيها كالأبواق.

٢٣ - وجاء فيها أيضاً:

«. . . وتولى قراءته ظهير الدين الحسن بن عبد الله، وكان قد عين عليه لوزارته. . .

ثم خلع الشرابي على ظهير الدين بن عبد الله ثم على ظهير الدين الحسن بن مصطفى وجعله مشرفاً عليه. . .».

أقول: قوله: (عين عليه) بمعنى عين له، وكذلك قوله: (وجعله مشرفاً عليه) بمعنى (مشرفاً له).

٢٤ - وجاء في الصفحة التاسعة والأربعين:

«. . . ونزل عند المسناة في شبارة الخليفة. . .».

أقول: (الشبارة) ضرب من السفن الصغيرة أي مركب صغير أو زورق.

٢٥ ـ وجاء فيها أيضاً:

«. . . ودخلوا من باب الحرم بموجب ما رسم لهم. . .».

أقول: قوله (بموجب) بمعنى بحسب من اللفظ الذي بقي في العربية المعاصرة، وذلك في لغة الدواوين الحكومية وما تقتضيه من وجوه التحرير.

٢٦ ـ وجاء في الصفحة الحادية والخمسين:

«. . . وفيها (أي سنة ٦٣٠ هـ) خنق إنسان نفسه بحبل. . . قيل إنه كان شديد الضائقة. . .»

أقول: وقوله (شديد الضائقة) يعني كان فقيراً جداً.

٢٧ ـ وجاء فيها أيضاً:

«. . . فضاق صدر الشيخ أبي النجيب كيف لم يرضخ له في الوقوف بنصيب».

أقول: وقوله (يرضخ له بنصيب) معناه أن يعطى نصيباً.

٢٨ ـ وجاء في الصفحة الثالثة والخمسين:

«وفي جمادى الآخرة تكامل بناء المدرسة المستنصرية. . .».

أقول: وقوله: (تكامل) بمعنى (كمل)، وهي كثيرة الاستعمال في الكتاب.

٢٩ ـ وجاء فيها أيضاً:

«. . . ونزل في شبارة من باب البشري إلى الدار المستجدة المجاورة لهذه المدرسة (أي المستنصرية). . .»

أقول: قوله: (الدار المستجدة) بمعنى التي جدت أي الجديدة.

٣٠ ـ وجاء في الصفحة الرابعة والخمسين:

«. . . ونقل في هذا اليوم إلى المدرسة من الربعات الشريفة والكتب النفسية. . . ما حمله مئة وستون جملاً».

أقول: والمراد به بـ (الربعات الشريفة) أجزاء من المصحف الشريف وكأن (الربعة) عدة سور أو لعلها (ربع) المصحف!

٣١ - وجاء فيها أيضاً:

«... وتقدم إلى الشيخ عبد العزيز شيخ رباط الحريم بالحضور بالمدرسة وإثبات الكتب واعتبارها... فحضر واعتبرها...».

أقول: قوله: (تقدم إلى الشيخ... بالحضور) معناه أمره وطلب منه، وهذا تعبير كثير الورود في لغة هذا الكتاب.

وقوله: (إثبات الكتب) معناه تسجيلها وتقييدها، وأما قوله (اعتبارها) معناه تقديرها وبيان قيمتها المادية والمعنوية. وهذه الكلمات كثيرة الورود في هذه العربية المتأخرة عربية القرن السابع الهجري.

٣٢ - وجاء في الصفحة الخامسة والخمسين:

«... وخلع على كل واحد منهما جبة سوداء وطرحة كحلية وأمطي بغلة بمركب جميل وعدة كاملة...».

والطرحة قطعة من قماش تلقى على الكتفين وتستر شيئاً من الظهر...

٣٣ - وجاء فيها أيضاً:

«... وخلع على واحد منهما قميص مصمت وعمامة قصب، ثم خلع على جميع المعيدين وهم لكل مذهب أربعة خلعاً بالحكاية...».

أقول: والقميص المصمت الخالص من الصوف أو الكتان أو غيره خالصاً لاشية فيه ولا يخلط مادته غيرها. وأما (العمامة القصب) فكأن فيها طرزاً كالقصب أي خطوطاً!! ولا أدري ما المراد بقوله (خلعاً بالحكاية)؟.

٣٤ - وجاء فيها وفي الصفحة التي تليها:

«ثم خلع على المعينين للخدمة بخزانة الكتب، وهم الشمس علي بن الكتبي الخازن، والعماد علي بن الدباس المشرف، والجمال إبراهيم بن حذيفة المناول...».

أقـول: و(الخـازن) هـو خـازن الكتـب وهو أمـين المكتبة باصطلاح عصرنا، و(المشرف) نحـو من (المراقب)، و(المناول) من يناول الطلاب ما يريدون من الكتب.

٣٥ ـ وجـاء في الصفحـة السادسة والخمسين:

«... ثـم مـد سماط في صحـن المدرسة... فكـان عليه من الأشربة والحلواء وأنـواع الأطعمة... فتنـاوله الحاضـرون تعبئة وتكويـراً».

أقـول: وقـوله: (تعبئـة وتكويراً) معنـاه أنهـم استكثروا من تنـاول الأشربـة والحلواء والأطعمـة، وهو تعبير لا يخـلو من طرافة وغرابـة.

٣٦ ـ وجـاء في الصفحـة السابعة والخمسين:

«... ثم ذكـر المـدرسان، المقدم ذكرهما، الدروس، كـل واحـد منهما على سـدته، والنائبـان كـل واحد منهما تحـت السدة...».

أقـول: والسدة هي المنصـة بلغة عصرنا، وكأن لكـل مـدرس نائباً يقعـد تحت السـدة. وعـلى هـذا يـكون المدرس ثم النائب ثم المعيد.

٣٧ ـ وجـاء في الصفحـة الثامنة والخمسين:

«... ثـم قـسمت الأربـاع فـسلم ربع القبلة الأيمن إلى الشافعية، والربع الثاني يـسرة القبلة للحنفية... وأسكنـت بيوتهـا وغرفها، وأجـري لهم الجراية الوافرة...».

أقـول: أي أن المستنصرية أسست للمذاهب الأربعة على شـرط الواقف فقسمت إلى أربـاع في مساحتهـا فكان لأصحـاب كـل مذهب ربعهم الخاص.

وقـوله: (أسكنـت وغرفها) يعنـي أن (البيـوت) هـي الحجر السفلى، والغرف معروفـة هي العليا. و(الجرايـة) مـا ندعوه بـ(المخـصصات) في لغة عصرنا أو (الراتـب).

وقـد تـأتي أيـضاً (المشاهـرة) للمخصصات الشهرية في الصفحة نفسها. وقـد أدركنا في عربيتنا الدارجة المعاصرة استعمال هذا المصطلح.

٣٨ ـ وجاء في الصفحة الستين:

«. . . فلما وصلوا بعض المنازل بلغهم أن العرب الأجاودة طموا الآبار في منزل سلمان. . .».

أقول: وقولهم (طموا الآبار) بمعنى ردموها، والكلمة من أصل فصيح ولكنها نسيت في الفصيحة المعاصرة وتحولت إلى العامية الدارجة.

٣٩ ـ وجاء في الثانية والستين:

«وفيها (أي سنة ٦٣١ هـ) نقل تاج الدين معلى من صدرية المخزن إلى صدرية ديوان الزمام».

قلت إن (المخزن) ديوان الخراج أو بيت المال كما مر بنا في نص سابق، وصدرية المخزن تعني رئاسته، فرئيسه هو صدر المخزن.

٤٠ ـ وجاء في الصفحة الخامسة والستين:

«. . . ومنهم من هو في خدمات الديوان وله المعيشة السنية (يريد أهل الذمة من اليهود والنصارى) غير بركة يده الممتدة إلى أموال السلطان والرعية من الرشى والبراطيل. . .».

أقول: والبراطيل جمع برطيل بمعنى الرشوة وهي كلمة مولدة لا نعرفها في فصيح العربية. وهي التي نجدها في العامية المعاصرة.

وفي هذا النص ذكر ما يؤخذ من الجزية من أهل الذمة وهي ـ كما في هذا الكتاب ـ مبلغ قليل بالنسبة إلى ما يجني هؤلاء من أرباح وأموال طائلة في أعمالهم التجارية وفي أعمالهم التي يعملون فيها في مرافق الدولة فمنهم المحاسب والطبيب والناقد وغير هؤلاء.

٤١ ـ وجاء في الصفحة السابعة والستين:

«. . . ومكحلته (أي الطبيب من أهل الذمة) مملوءة قراضة. والقراضة هي ما يقرض من الدينار وكانوا يتعاملون بها».

٤٢ - وجاء فيها أيضاً:

«ومنهم (أي أهل الذمة) أرباب المعايش من العطارين والمخلطين والسكارين أصحاب المكاسب الظاهرة والارتفاقات الكثيرة بأموال التجار المسلمين. . .».

أقول: ولعل النص هو: والكسارين وأصحاب المكاسب الظاهرة. . . وأما قوله: (المخلطين) فهم باعة الأبزار المختلفة المخلوطة كبذر البطيخ مخلوطاً مع الزبيب وغيره.

وأما قوله (الكسارين) فأغلب الظن هم باعة ما يدعى في عصرنا بـ (المكسرات) كالفستق والبندق والجوز واللوز وغيرها.

وهؤلاء ليسوا من أصحاب المكاسب الظاهرة والارتفاقات أي استغلال أموال التجار المسلمين، ولذلك وجب إثبات واو العطف كما أشرت.

٤٣ - وجاء في الصفحة نفسها تكملة لنص:

«. . . وأخذهم من الحجر بالمدة (الكلام على أهل الذمة) وما يعفون في ميزان الذهب وميزان الأرطال، وما يغشون في الحوائج ويدغلون. . . ويسرقون الذهب ويجعلون عوضه المس. . .

أقول: وقوله: (وأخذهم من الحجر بالمدة) أي ما يفيدون من الربا إزاء وضع الملك في حجرهم إلى أمد معلوم، وهو ما نسميه بـ (الرهن). وقوله: (وما يعفون في ميزان الذهب) أي ما يأخذونه من حصتهم في وزن الذهب وما يغشون فيه، وقوله (يدغلون) أي يغشون ويخدعون. وقوله: (يسرقون الذهب ويجعلون عوضه المس) أي يضعون (المس) وهو (الماس) في اللغة المعاصرة، وكأن المس ضرب من الصدفة الذي يغشون به الذهب.

٤٤ - وجاء في الصفحة الثامنة والستين:

«. . . ثم ما زالوا (أي أهل الذمة) يؤخذون بالصغار ولبس الغيار الذي أوجبه الشرع عليهم».

أقـول: و (الغيـار) ضـرب من اللبـاس خـاص بـأهل الذمـة.

٤٥ ـ وجـاء في الصـفحـة الحادية والسبعين:

«... ثـم عملت دعوة عظيمـة بـلغت الغرامـة عليها عشرة آلاف دينـار».

أقـول: والغرامـة تعيـن النفقة ومـا يـصرف على الدعوة.

٤٦ ـ وجـاء في الصـفحة الثالثة والسـبعين:

«وفيهـا (أي سنة ٦٣٢ ـ) قـتل رجـل نصرانـي...، قـتله غـلام له... فوقـع الاقتصـار على تخـليده السجن.

أقـول: وقـوله (تخـليده السجن) يعـني بإصطلاح عصرنا(السجـن لمؤبـد).

٤٧ ـ وجـاء في الصـفحـة السابعة والسبعين:

«... فتلقـاه بالإكرام والمد والإقـامات، وعمـل له دعـوة عظيمة بـلغ الخـرج عليها زيـادة على اثني عشـر ألف دينار...».

أقـول: يبـدو أن (الإقـامات) هـي شيء من قـبيل الاحتفـالات وحـسن الاستقبـال في عصرنا.

وأمـا قـوله بـلغ (الخـرج عليها) فمعنـاه بـلغ الإنفـاق أو الصرف، ويبـدو أنها كـلمة شائعة في هـذه القرون المتأخـرة.

٤٨ ـ وجـاء فيها أيـضاً:

«... وخـلع عليـه خـلعة أحـضرت من المخـزن، وهـي قـباء أطلس وسربـوش».

أقـول: (السربـوش) كـلمة مـا زال النجـارون القـدماء يعرفونها وهـو شـيء يـكون في رأس العمود فيه صنعة وشغل دقيق، وكأن (السربـوش) في النـص غطاء للرأس، ولـم يـذكر في كتب (المعرب).

٤٩ ـ وجاء في الصفحة التاسعة والسبعين:

«... وقدم له فرس عربي بمركب ذهباً ومشدة، وأعطي علماً بمشاد وجفتانين...».

أقول: لم أجد (الجفتان) في كتب (المعرب) وهو أعجمي من غيرشك، ولعله (خفتان) بالخاء المعجمة وهو ثوب من القطن، فارسي محض يلبسه فوق الدرع كما أفاد (أدي شير) وهو القفتان بالتركية ثم القفطان.

٥٠ ـ وجاء في الصفحة الثمانين:

«... وبعد أيام قصد زيارة أخته زوجة الأمير علاء الدين أبي شجاع الطبرسي الدويدار...».

أقول: (والدويدار، والدُواتدار والدوالدار) كل ذلك من الكلمة العربية دواة، ومن اللاحقة الفارسية (دار) بمعنى الصاحب أو القيم. فهو صاحب الدواة، وهو عمل أنشأه السلاجقة كما ورد في (النجوم الزاهرة) ١٨٥/٧، وانظر (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل) ص ١٠٩ ـ ١١٢ للدكتور أحمد السعيد سليمان.

٥١ ـ وجاء في الصفحة الثالثة والثمانين:

«... وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب ووراءهما بيذقتان من شبه...».

أقول: (والطاسة) عامية ما زالت معروفة في العراق، وهو إناء صغير من معدن في الغالب. وقوله من (شبه) أي من معدن خليط مركب من فضة ونحاس أو من برنز ونحاس لونه أصفر باهت.

٥٢ ـ وجاء في الصفحة التاسعة والثمانين:

«... واستدعي في حادي عشري الشهر إلى (البدرية)...».

أقول: وقوله: (حادي عشري الشهر) أسلوب في العدد المركب شاع في القرون المتأخرة.

٥٣ - وجاء في الصفحة نفسها:

«... وأعطي خمسة أحمال كوسات ونقارات وما يناسب ذلك من الأعلام وغيرها...».

أقول: لقد سبق القول على (الكوسات) فأما (النقارات) فأكبر الظن أنها ضرب من الطبول.

٥٤ - وجاء في الصفحة التسعين:

«وفيها (أي سنة ٦٣٤ هـ) وصل أمير الحاج... ومعه العرب الأجاودة الذين تعرضوا لأذية الحاج...».

أقول: والمراد بـ (أذية) الإيذاء.

٥٥ - وجاء في الصفحة الحادية والتسعين:

«... وفيها أمر الخليفة بعمل مزملة بالقرب من قبر أحمد بن حنبل... فلما تكامل بناؤها فتحت وجعل فيها الحباب وملئت من الجلاب...».

أقول: و (المزملة) في النص تعني حجرة فيها الحباب للماء يستقي منها السابلة من الناس ويشربون. والمراد بـ (الجلاب) الماء البارد وما زال هذا في العامية في عصرنا للماء البارد. وأصل الجلاب شيء آخر فهو العسل أو السكر عقد بوزنه أو أكثر من ماء الورد، ذكره أدي شير.

وقوله (الحباب) جمع حب وهو كوز من فخار للماء، معرب أصله (خمب) في الفارسية ذكره أدي شير وغيره. وذكر في المعجمات المطولة كاللسان.

ولنرجع إلى (المزلة) لنقول إنها في الأصل وعاء كبير يدثر بالقماش ويلف عليه ليبقى الماء بارداً.

٥٦ - وجاء في الصفحة الرابعة والتسعين:

«... ومن الغد عرضت عليه الهدايا من رقيق الترك والخدم

والحبوش. أقـول: والمراد بـ (الحـبوش) أي الخـدم السود والحبـوش كالأحبـاش.

٥٧ - **وجـاء فيها أيـضاً:**

«... وشهرت حـوله السيوف وسعـى السكيانية (كـذا) وبـأيديهـم الحراب والأطبار، والجاووشيـة وبأيـديهم الجوالكين....».

أقـول: وردت (السكيـانية) كـذا في النص، فقـال المحقق: كـذا في الأصل. ولكني أقـول: ربمـا كانـت هذه هي السكمانية، التي مـا زلنا نعرفها في اللسان الدارج، ففيه (السكماني)، هـو المجيد في إصـابة الهدف إذا مـا رمـاه ببندق أو سهـم أو نحـو ذلك.

و (الأطـبار) جمع (طـبر) وهـو سـلاح جـارح ذو رأس كالفأس حـاد، ومـا زال معروفاً في اللسـان الدارج.

وأمـا الجاووشيـة: فهـم جماعة من رتـب الجيش والعساكر واحدها جاووش، وهـي كلمة تـركية، ولا أدري مـا الجوالكين؟

٥٨ - **وجـاء في الصفحـة الخامسة والتسعين:**

«وفيها (أي في سنة ٦٣٤ هـ) استحجـب عبد الرحـمن بن يحـيى بن المخرمي....».

أقـول: وقـوله (استحجـب) مبنـياً للمجهول بمعنىٰ صـار حاجباً مثل (استوزر).

٥٩ - **وجـاء فيها أيـضاً:**

وفيهـا تـوفي الملك العزيز محمد بـن غازي بـن يوسف بن أيـوب بن شـادي صاحب حـلب، وكـان توفي أبـوه الملك الظاهر غازي وهـو طفل فعهد إليه، وجعـل أتابكه ومربيه والقائم بـأمره وتـدبير دولتـه خـادماً اسمـه طغرل...

أقـول: والأتـابك كلمـة تركية من (أتـا) بمعنى الأب والشيخ المحترم لسنـه واللقب التركي (بـك) بمعنى الأمـير.

والأتابك في الاصطلاح مربي الأمير ومدير المملكة، ويطلق على أمير أمراء الجيش لقب (أتابك العساكر).

وفي (الروضتين) ١/ ٦٥ قال شهاب الدين حيص بيص يمدح سيف الدولة غازي بن زنكي صاحب الموصل:

أتابك إن سمت في المهد غازياً فسابقة معدودة في البشائر

٦٠ - وجاء في الصفحة السابعة والتسعين:

«وفيها توفيت ست شمائل واسمها شجر الدر. . .».

أقول: كلمة (ست) تعني سيدة، وكذلك في العامية، وما زالت إلى الآن وكأن (شمائل) مع (ست) قبلها أي السيدة شمائل لقب لشجرة الدر.

٦١ - وجاء في الصفحة الثانية بعد المئة:

«وفيها (أي السنة ٦٣٥ هـ) دخل دار الوزارة مملوك من مماليك الخليفة وهي مغتصة بالزحام. . .».

أقول: وقوله: (مغتصة) بمعنى غاصة، ولم يرد (اغتص) في الاستعمال.

٦٢ - وجاء فيها أيضاً:

«. . . فانزعج الحاضرون. . . وتطالت الأعناق. . .».

أقول: الفعل (انزعج) فصيح ولكنه لم يرد في العربية القديمة بل كثر استعماله في عربية القرون المتأخرة، أما قوله (تطالت) فليس له وجه في الاشتقاق، والصواب: تطاولت، ولعله مولد على الخطأ أو أنه من خطأ المطبعة.

٦٣ - وجاء في الصفحة الثالثة بعد المئة:

«وفيه (أي آخر شعبان) نهض على بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل نفران من الباطنية فجرحه أحدهما. . .».

أقـول: وكـلمة (نـفر) في هـذا النص تـدل على الواحـد كما هي الحال في الدارجة الحـديثة في حـين تـدل الكلمة في فصـيح العربية على بضعة رجـال مثـلاً.

٦٤ - وجـاء فيها أيـضاً:

«... وتفـرد أبـو عـلي الحسَن بن المختـار العلوي بـديوان عـرض العساكـر البغداديـة، فصـار حينئذٍ للجـيش عـارضان...».

أقـول: و (العـارض) للجـيش هـو رئيس الجيـش وأميرهـم المقدم.

٦٥ - وجـاء في الصفحـة السادسة بعد المئة الدوبيت:

«أفـدي تمـراً تحـار فيه الصنعة يسخـو بـذي وهـو أمـين ثقة
مـاذا عجب يحفظ مـالي ويرى روحـي تـلفت بـه ولا يـلتفت»

أقـول: وهـذا الدوبيت وهو نـظم جـد في العربية سمـي بهذا الاسم من الفارسية والعربية ومعنـاه المزدوج أو البيتـان.

٦٦ - وجـاء في الصفحـة الثالثة عـشرة بعد المئة:

«... فانقلب البلد ومـاج أهـله...».

أقـول: وقـوله: (انقـلب البلد) تعـبير مـولّد وهـو كنـاية عن الضجيج والزحـام، ومـا زال هـذا التعبير كـثير الورود في العامية المعاصرة.

٦٧ - وجـاء في الصفحـة السادسة عـشرة بعد المئة:

«... وصحـب الفقراء ودروز معهـم في الأسـواق...».

أقـول: وقـوله (دروز معهم) معنـاه استجـدىٰ النـاس واستعطاهم. وهذه عـامية لا نعرفها إلا في عامية القرون المتأخرة.

٦٨ - وجـاء في الصفحـة السابعة عشرة بعد المئة:

«... وجعـل له رسـم في كـل سنة مبلغـه ثـلاثون ديناراً، فـلما مات وجـدت القراطيس بحـالها مـا شذ منها إلا مـا ابتاع به كتـباً، وكان يستعطي من الناس ويـدروز ما يقتات به».

أقـول: و (الرسم) في هـذا الموضع يعني مكافأة مرسـومة أو مخصصـات معينة سنوية. وقـوله (القراطيس بحـالها) أي الأوراق التي بهـا يقبض هـذا الرسم، وقـوله (بحـالها) أي عـلى حـالها، كمـا يقـال في عصرنا.

وقـوله: (مـا شـذ منها) أي مـا (نقص) وهـذا التعبير بهـذه الدلالة يـرد عـدة مرات في هـذه العربية المتأخـرة.

وقـوله: (يـدروز) بمعنـى يستجـدي، وقـد مـر الكلام عليه.

٦٩ ـ وجـاء في الصفحـة الثامنة عـشر بعد المئة:

«وفيهـا دخـلت امرأة طـرارة داراً. . .».

والطرارة هي التي تـطر الدروب وتحتـال على النـاس، وكـان عندهم سجـن الطرارات، ابن الأثـير ١/٢٦ في حـوادث سنة ٥٣٢ هـ.

٧٠ ـ وجـاء فيها أيـضاً:

«. . . وكـان لها عند الصائغ فـردة سـوار. . .».

أقـول: (فـردة سوار) بمعنـى واحـدة، استعمـال قـديم يخـيل للناظر فيه أنـه عـامي لشيوعه في العامية المعاصـرة.

٧١ ـ وجـاء فيهـا أيـضاً:

«. . . وهـو بعينه رجـل بنتها. . .».

أقـول: وقـوله (رجـل بنتها) بمعنى زوج بنتها، من اللغة الدارجـة.

٧٢ ـ وجـاء في الصفحـة التاسعة عشـرة بعد المئة:

«. . . وكـلما صعدت صـاحبة الدار وهمتهـا أني نـائمة».

أقـول: وقـوله: (وهمتهـا) جعلتهـا تتوهـم أي تتصور، وهي من التعابير السائرة الدارجـة.

٧٣ ـ وجـاء فيهـا أيـضاً:

«. . . وقـلت إن (الفردة الأخـرى من السوار) عندهـم فركب ومضيت

معه، فكبس الدار وأخذ الرحل فسلمه إلي».

أقول: و(الرحل) مجموع الحلي التي ضبطت لدى المستحوذ عليها.

٧٤ ـ وجاء في الصفحة الحادية والعشرين بعد المئة:

«... واستناب فيه أحد أمرائه...».

أقول: والفعل (استناب) معناه جعله نائباً مثل استحجب واستوزر.

٧٥ ـ وجاء في الصفحة السادسة والعشرين بعد المئة:

«وفيها تحيل قدم غرباء كانوا في حبس الوزير، وهو دار بدرب البطيخ ونقبوه وخرجوا ليلاً».

وقوله: (تحيَّل) بمعنى احتال وهو استعمال هذا العصر، و(الحبس) هو (السجن) وجمعه (حبوس)، وقوله: (نقبوه) أي أحدثوا فيه نقباً وهو مخرج تسللوا منه.

٧٦ ـ وجاء في الصفحة التاسعة والعشرين بعد المئة:

«... وكان قد أحب الزراعة وضمن قرايا في الحلة...».

أقول: وقوله (قرايا) بمعنى (قرى) من اللغة الدارجة التي نعرفها في عصرنا.

٧٧ ـ وجاء في الصفحة الحادية والثلاثين بعد المئة:

«... وفيها قطعت يد شيخ جميل الهيئة... كان يسكن الخانات، ومعه فشاشات يفتح بها الأقفال ويسرق أموال التجار...».

أقول: والخانات جمع (خان) معروفة، وقد بدأت تظهر في العربية المتأخرة. و(الفشاشات) جمع (فشاشة) أي أداة تفتح بها الأقفال، والفعل (فش القفل) عامي مولد، ومنه الفعل (بج) في عصرنا في المعنى نفسه.

٧٨ ـ وجاء فيها أيضاً:

«... وحضر فلما أفطر قبض عليه وعلى جميع أصحابه واحتيط على داره...».

أقـول: قـوله (احـتيط على داره) أي جعـلوها مـراقبة محـروسة.

٧٩ - وجـاء في الصفحـة الخامسة والأربعين بعد المئة:

«... ورتـب مشـرفاً بعنابـر التمرد...».

أقـول: وقـوله: (ورتب) بمعنـى (عـين) في لغـة عصرنـا وقـد مـر الكلام عليها، و(المشـرف) هـو (المديـر) في لغـة العصر أيـضاً. و(العنـابر) عـامية (أنـبار)، وقـد توهمـت (أنـبار) أنهـا مفـرد لا جـمع، ثـم جمعت (أنـابير) وقـد تحـولت (أنـبار) في العامية (عـنبر) و(عـنبار) فجـمعت (عنـابر).

٨٠ - وجـاء في الصفحـة السـادسة والخـمسين بعد المئة:

«... واستقـضى عماد الدين أبـا صالح...».

أقـول: واستقـضى معناه: جعـله قـاضياً له، وهـو نظير (استوزر واستحجـب).

٨١ - وجـاء في الصفحـة الخامسة والستين بعد المئة:

«ذكـر من حـضر للعزاء والهنـاء».

أقـول: والعـزاء يعني: التعزية، والهناء يعني: التهنئة.

٨٢ - وجـاء في الصفحـة الرابعة والسبعين بعد المئة:

«ووقع التعـين على السـبلدارية فـرتب أبـو القاسم بن كـلالة التاجـر في سـبيل الخليفة المستعصم».

أقـول: (والسبلدارية) تـفيد مـا يسمى في عصرنـا (مصلحـة) السبل، وهـو جمع (سـبيل)، أي (مـزملة) المـاء، أو مـا يـسمى في عـامية عصرنا بـ (السبيل خـانة).

٨٣ - وجـاء في الصفحـة السـادسة والسبعين بعد المئة:

«... فخـرج جـوق سـوق المدرسة وبين أيديهـم المحاكون والمغاني...».

أقـول: و(الجوق) هنـا جماعة الغنـاء واللهـو، وهـي كـلمة معربة ذكرهـا أدي شـير.

أمـا قـوله (المحاكـون) فهـم الممثلون الهـزليون في لغـة عصرنا الذين يقـلدون ويحـاكون كأن يـحاكوا أصـوات الحيوانـات، ذكر ذلك الجـاحظ في (البيان).

٨٤ ـ وجـاء في الصفحـة الحادية والثمانين بعد المئة:

«أقـول: ولـيس من وجـه لقوله: (بحربهـا) ولعلهـا (بجريها) والجري الوكيل والضامن!».

٨٥ ـ وجـاء فيها أيـضاً:

«... ولمـا احتـرق جـامع البصرة في سنـة أربع وعشرين وست مئة استهـدم معظمه أعـاد عمارته...».

أقـول: وقـوله: (استهـدم معظمه) بمعنى تهـدم، وحقيقة الفعل في العربية: أنهـم قـالوا: استهـدم البنـاء أي تهيأ للانهـدام.

٨٦ ـ وجـاء في الصفحـة الخامسة والثمانين بعد المئة:

«... أن النساء (نـساء الروم) يتعممن كالرجـال، والرجـال يلبسـون السراقوجـات...».

لم يـشرح المحقق السراقوجـات، ولعله ضـرب من الطرابيش أو مـا يشبه ذلك.

٨٧ ـ وجـاء في الصفحـة السادسة والثمانين بعد المئة:

«... أن مـدينة أنطاكيـة ليس بها دار بسـطح مسطح بـل مسنم كالجمل...».

أقـول: قـوله: (مسنم) أخـذ من سنـام الجمل، كمـا قـالوا في العربية المعاصرة: تسنـم المنصب بمعنى اعتـلاه.

٨٨ ـ وجاء في الصفحة الثامنة والثمانين بعد المئة:

«. . . قد فرش في مسجد قمرية زلية في وسطها جامات مكتوب فيها (الملك لله). . .».

أقول: (الزلية) معرب (زولي) وهي الزربية، وأما قول (في وسطها جامات) فمعناه في وسطها (رقع) أي مساحات مكتوب فيها. . .

٨٩ ـ وجاء في الصفحة الثالثة والتسعين بعد المئة:

«. . . وزين البلد بالتعليق والمغاني فرحاً بعافيته. . .».

أقول: وقوله: (بالتعليق) معناه تعليق ما يسمى في عصرنا (لافتات) تحمل كتابات تعظيم وتبجيل.

٩٠ ـ وجاء في الصفحة الرابعة والتسعين بعد المئة:

«. . . فوجد أحد التركيين فقرر فأقر».

أقول: وقوله: (قرر) مما بقي في العامية المعاصرة وخلت منه الفصيحة.

٩١ ـ وجاء في الصفحة الخامسة والتسعين بعد المئة:

«. . . فكبست الدار فلم يوجد فيها غير نساء صاحبها فوكل بهن. . .».

أقول: و(كبس الدار) من مصطلحات هذه العصور التي ورثناها في العربية المعاصرة، وقوله (فوكل بهن) أي وقفن وحبسن. وقد شاع التوكيل فيمن يطلب بحاجة أو جريمة، وهو الوقف والحبس قبل أن ينظر في المسألة، وقبل أن ترفع المسألة إلى القاضي.

٩٢ ـ وجاء في الصفحة السابعة والتسعين بعد المئة:

«. . . ثم طلب من فخر الدين أن يكتب خطه بمبلغ من العين. . .».

أقول: قوله: (طلب منه أن يكتب خطه) بمعنى أن يكتب على نفسه بأنه مدين بكذا وكذا.

٩٣ ـ **وجاء فيها أيضاً:**

«وأقسم بالأيمان المعتبرة شرعاً وعرفاً. . .».

أقول: و (المعتبرة) معناه: الأكيدة المعروفة بين الناس.

٩٤ ـ وجاء في الصفحة الثالثة بعد المئتين:

«. . . وكتب بإنهاء وهدده بقوله تعالى. . .».

أقول: والإنهاء إخبار وتقرير وخلاصة بمسألة من المسائل.

٩٥ ـ **وجاء في الصفحة الثامنة عشرة بعد المئتين:**

«وفيها هرب ثلاثة نفر كانوا محبوسين في مطمورة واسط. . . فحضر واحد منهم عند صاحب الديوان فخر الدين أحمد بن الدامغاني وعرفه أن رفيقيه فعلا ذلك وكررا له: إن لم توافقنا قتلناك، فسأله عن ذنبه فعرفه أنه قتل عماً له، ثم أبرأه ولي دمه منه، فأمر بحبسه سياسة».

أقول: وقوله: (أمر بحبسه سياسة) بعد إبراء المدعي له، يشبه المصطلح الحديث في المحاكم هو الحبس للحق العام.

٩٦ ـ **وجاء في الصفحة العشرين بعد المئتين:**

«. . . وتوفي الشيخ محمد الركابدار».

أقول: والركابدار تعني صاحب الركاب، وكان ذلك مختصاً بالخيل للخليفة أو الأمير مثلاً.

٩٧ ـ **وجاء في الصفحة الثانية والعشرين بعد المئتين:**

«. . . ولحق هو بصهر له. وكان دزداراً بقلعة (كره)».

أقول: يبدو من قرائن النص أن (الدزدار) هو ما يدعى بـ (قاطع طريق) أو (منشق متمرد) يقوم بأعمال غير شريرة.

٩٨ ـ **وجاء فيها أيضاً:**

«. . . فتقدم النفاط في الضوء. . .».

و (النفـاط) حـامل الضوء، راجـع: (تـاريخ الحكمـاء) للقفطي ص ١٤٥.

٩٩ ـ «وفيها حدث بأكثر أهل بغداد أمراض في حلوقهم وخوانيق....».

أقـول: لعـل (الخـوانيق) مـا يشبه مـرض الخنـاق المعروف.

١٠٠ ـ وجـاء في الصفحـة السادسة والعشرين بعد المئتين الزجـل الآتي:

«أي أم عـنـقـود اعـذريـنـا مـات عـنـقـود ومـا دريـنـا
لمـا دريـنـا كلنـا قـد جينـا لا تـحـردين مـنـا فتـخـنقـيـنـا»

وحكايـة هذا الزجـل هي:

وفيها (أي سنة ٦٤٦ هـ) حـدث بـأكثر أهـل بغداد أمراض في حـلوقهم وخوانيق ومـات بـذلك خـلق كـثير، وذكرت امرأة أنها رأت في المنـام امرأة من الجن تكنى (أم عنقـود)، قـالت لها: إن ابني مـات في هـذه البئر، وأشارت إلى بـئر داخل سوق السلطان، ولم يعزنـي فيه أحـد فلهـذا أخنقكم. فشـاع ذلك في النـاس، فقـصد البئر المذكورة جماعـة من العوام والنسـاء والصبيـان ونصـبوا عنـد البئر خـيمة وأقـاموا هنـاك العزاء، وكـان النساء ينحـن، ويقـلن (البيتين).

و (العـزاء) هنـا يـفيد البكاء والنـوح.

١٠١ ـ وجـاء في الصفحـة الثلاثين بعد المئتين:

«... وانهـدمت قلعـة الكرخيني، وامتـلأت الزابـات، وتجمر الماء بـدجـلة، وزادت زيـادة عظيمة، وغرقـت الشطانيـات بالجـانب الغربي من بغـداد».

أقـول: وقـوله (تجمـر الماء) بمعنى زاد وهـجم، وهذا من الكلم العامي. و (الشطانـيات) تـفيد الدور والمباني الكائنة على ضفـة النهر.

١٠٢ ـ وجـاء في الصفحـة السادسة والثلاثين بعد المئتين الدوبيت الآتي:

«كم تتعبني بصحـبة الأجـسـاد كم تشـهـرني بـلذة الـمـيعـاد

جد بي بمدامة تقوي رمقي والجنة جد بها على الزهاد»

١٠٣ - وجاء في الصفحة السابعة والثلاثين بعد المئتين:

«... ولا يقرأ بين يديه قراء الألحان، بل جماعة فقراء يقرؤون تلاوة...».

أقول: وهذا يعني أن (جماعة الفقراء) هؤلاء كانوا لا يستحلون القراءة بـ (الألحان) وهي القراءة (المجودة) في عصرنا.

١٠٤ - وجاء في الصفحة السابعة والأربعين بعد المئتين:

«... وكان الخطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة المستعصم بالله:

واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين وعصمة الدنيا والدين أم خليل الستعصمية صاحبة الملك الصالح خليل أمير المؤمنين...».

أقول: وكلمة (الجهة) كناية عن زوجة الملك الصالح، وفي هذه العصور شاعت هذه الكلمة لتدل على زوج الخليفة أو الأمير أو الملك.

١٠٥ - وجاء في الصفحة التاسعة والأربعين بعد المئتين:

«وفيها أنفذ الخليفة إلى الوزير علي بن عمر بن جليك شدة من أقلام».

أقول: وشدة الأقلام، تعني ربطة من الأقلام، وهي كلمة عامية نستعملها في عصرنا.

١٠٦ - وجاء في الصفحة الثانية والخمسين بعد المئتين:

«... وكان متمهوساً بحديث الجن...».

أقول: أراد (مهووساً) وهو من الكلم السائر الدارج.

١٠٧ - وجاء في الصفحة الخامسة والخمسين بعد المئتين:

«... وخرج فاتبعه الجيران وقبضوه وحملوه إلى باب النوبي، فقتل توسيطاً».

أقول: وقوله: (وقتل توسيطاً) أي جعلوه (وسطانياً) كما نقول في عاميتنا.

١٠٨ ـ وجاء في الصفحة السابعة والخمسين بعد المئتين:

«... ورتب كاتب شرائج الطيور الحمام... وضبط أنسابها في الدساتير».

أقول: وهذه فائدة تاريخية.

١٠٩ ـ وجاء في الثانية والستين بعد المئتين:

«وفيها كتب أقضى القضاة سراج الدين النهرقلي إلى الوزير...».

أقول: و (أقضى القضاة) منصب دون قاضي القضاة.

١١٠ ـ وجاء في الصفحة الثامنة والستين بعد المئتين:

«... أنا وجدته (أي دملج ذهب وزنه خمسون مثقالاً) ولكم خرجته...».

أقول: وقوله (خرجته) بمعنى صرفته وأنفقت ثمنه، وهي عامية ما زالت معروفة في اللسان الدارج في العراق.

١١١ ـ وجاء في الصفحة التاسعة والسبعين بعد المئتين:

«... وكان (كنبوش) فرسه إبريسماً».

أقول: وليس في كتب (المعرب) هذه الكلمة.

١١٢ ـ وجاء في الصفحة الثلاث مئة:

«وتوفي عمر بن جلدك المطالعاتي... كان من فراشي سدة الخليفة وكانت المطالعات تبرز على يده من الخليفة إلى الوزير».

أقول: و(المطالعاتي) هو الفراش الذي ينقل مطالعات الخليفة إلى الوزير، كما ذكر، والمطالعات هي آراء الخليفة محررة في المسائل التي تصل إليه.

١١٣ ـ وجاء في الصفحة الثالثة بعد الثلاث مئة:

«. . . وما زال الخلفاء يجلسون فيها للفرجة. . .».

أقول: والفرجة هي التلهي بالنظر والاستمتاع بذلك، وهي مولدة في هذه العصور المتأخرة، وما زالت معروفة.

١١٤ ـ وجاء في الصفحة الخامسة والعشرين بعد الثلاث مئة:

«. . . ونصبوا المناجيق والعرادات واستظهروا غاية الاستظهار. . .».

أقول: والعرادات من أسلحتهم التي يقذفونها كما يبدو، وقوله: (استظهروا غاية الاستظهار) أي واستعدوا بالعدة التامة.

١١٥ ـ وجاء في الصفحة التاسعة والعشرين بعد الثلاث مئة:

«. . . ما عدا النصارى فإنهم عين لهم شحان حرسوا بيوتهم».

وقوله: (شحان) جمع شحنة وهو موظف خاص مسؤول عن عوام الناس وظلاماتهم.

١١٦ ـ وجاء في الصفحة الثانية والثلاثين بعد الثلاث مئة:

«. . . وعزالدين بن أبي الحديد كاتب السلة».

أقول: وكان على المحقق الفاضل أن يشرح المراد بـ (كاتب السلة).

١١٧ ـ وجاء في الصفحة الثالثة والثلاثين بعد الثلاث مئة:

«. . . وأدر عليهم الأخباز والمشاهرات».

أقول: والأخباز جمع (خبز).

١١٨ ـ وجاء في الصفحة الثامنة والأربعين بعد الثلاث مئة:

«. . . وضرب بها دراهم نقرة وفلوس».

أقول: والدراهم (النقرة) ضرب من الدراهم، وهي فضة، وهذه الكلمة ما زالت معروفة في لغة الفرس.

١١٩ ـ وجاء في الصفحة الحادية والخمسين بعد الثلاث مئة:

«. . . فعلم له يارغو وقوبل على أمور نسبت إليه».

وقد شرح المحقق (اليارغو) فقال:

(اليارغو) باللغة المغولية هي كالمحاكمة اليوم، واليارغوجي الحاكم، وقد منع مرجان في وقفيته النظر في القضايا الشرعية واليارغونية في مدرسته المعروفة ببغداد.

١٢٠ ـ وجاء في الصفحة السابعة والخمسين بعد الثلاث مئة:

«. . . واستجد حوله (أي حول القصر) بستاناً. . . غرم عليه مالاً كثيراً. . .».

أقول: وقوله (غرم) بمعنى أنفق.

١٢١ ـ وجاء في الصفحة الخامسة والستين بعد الثلاث مئة:

«وجدد تطبيق صحنها (أي صحن المستنصرية) وتبنيد حيطانها. . .».

أقول: وتطبيق الصحن فرشه بالطابوق المربع العريض وهو معروف. وكلمة (تطبيق) ما زالت معروفة من مصطلح البنائين في العراق.

وقوله (تبنيد حيطانها) أي تقويتها ببناء جدران صغيرة تسند الحيطان تكون بمثابة الأعمدة التي تسند الجدران.

وكلمة (تبنيد) مصدر (بند) من أصل فارسي وهو (البند) وما زالت الكلمة معروفة لدى البنائين بهذه الدلالة.

١٢٢ ـ وجاء في الصفحة الثالثة والسبعين بعد الثلاث مئة:

«وسميت (أي المدرسة) بـ (العصمتية)».

أقول: وهذه النسبة للكلمة المختومة بالتاء عامية جدت في هذا العصر.

١٢٣ ـ وجاء في الصفحة الخامسة بعد الأربع مئة:

«. . . ونقل قوم عن قوم أشياء لا أصل لها غير أهوية العوام. . .».

أقـول: وأهـوية العوام جمـع (هـوى) على التوهم كأنه (هـواء) وهـذا من غلبة العامية.

١٢٤ ـ وجـاء فيها أيـضاً:

«... فـلما كـشفوا التراب وجـدوا صبياً مقتـولاً وعليه قـميص وفي جيبه كعاب كـان يـلعب بها».

أقـول: وقـوله (في جيبه) يـفيد الجيب بمعناه الذي نعرفه اليوم وليس (الجـيب) القديم الذي هو الشق في صـدر القميص الذي يدخـل الرجـل فيه الرأس.

وقـوله (كعـاب) يفيد ضربـاً من عظـم معروف في العراق كـان الصبيان يلعـبون بها إلى سنين لـيست بعيدة. وجـمع (الكعب) على (كعـاب) من العامـية التي مـا زالت معروفة.

١٢٥ ـ وجـاء في الصفحـة السابعة بعد الأربع مـئة:

«... ثم نـقل خـازناً إلى الكارخـانة».

أقـول: والكارخـانة دار الضرب.

١٢٦ ـ وجـاء في الصفحـة الثالثة عشـر بعد الأربع مـئة:

«... وفيها أمـر عـلاء الدين صـاحب الديوان بعمـل جـسر وحمـله إلى تسـتر مكمـلاً بسـلاسله وآلاته فنصـب تحت البنـد عنـد دروازة دزبـول».

أقـول: و(الدروازة) أي مقـدم الدرب، ومـا زالت معروفة في العراق وبـلدان الخـليج، ذكرهـا أدي شـير.

١٢٧ ـ وجـاء في الصفحـة السادسة عشـرة بعد الأربع مـئة:

«... وبيع من أملاكه وأسبابه جـملة صالحة، ودوشخ وألقي تـحت دار المسنـاة».

أقـول: و(الأسـباب) بمعنى الأثـاث ومـا يملك في البيت من مـواد،

وهـذه مـولدة مـا زالت معروفة في بعض جهـات العراق.

وقـوله: (دوشخ) أي ضـرب وقـتل، ولا بـد أن تـكون (الدوشخـة) بـآلة جـارحة، والكلمة أعجمية لم أجـدها في كتـب (المعرب)، وقد وردت في الكتـاب غير مـرة، والآلة الجارحـة هي (الدوشاخـة).

١٢٨ ـ وجـاء فيهـا أيـضاً:

«وسـارت الأيلجـية إلى ابنه تخبـره. . .».

والمراد بـ (الأيلجـية) الرسـل، وقد استعملت هذه اللفظة في العهود المتأخـرة بمعنى السفـراء والقناصل.

١٢٩ ـ وجـاء في الصفحة الثامنـة عشـر بعد الأربع مـئة:

«. . . وكـان جـواداً. . . من أكـابر المتصرفين بـواسط وغيرها».

أقـول: و(المتصرف) هـو من كـان حـاكماً نافـذ الرأي رئيساً. ومنـه استعمل العراقيـون في مـطلع تأسيس الملكية هذا المصطلح للحاكم في (اللواء) أي (المحـافظة) في العهود الأخيـرة.

١٣٠ ـ وجـاء في الصفحـة الثلاثين بعد الأربع مـئة:

«وفيهـا أبطلت الفلوس النحـاس. . .».

أقـول: لـم نتبين في الكتـاب هذا النـوع مـن (الفلوس) لنضبط تاريخـه.

١٣١ ـ وجـاء في الصفحة الحادية والثلاثين بعد الأربع مئة:

(. . . فجعل من جملة فراشي الأردو (كذا)).

أقـول: و(الأردو) كـلمة هندية تعني المعسكر.

١٣٢ ـ وجـاء في الصفحـة الثلاث والثلاثين بعد الأربع مـئة:

«. . . وسـلم إلى العميد زيـن الدين ضـامن تمغـات بغداد».

أقـول: والعميـد لـقب تشريف وهو رئـيس وزعيم، وفي هـذا النص هو ضـامن أي مـستأجر لـ (تمغـات بغـداد) و (الضامـن) بمعنـاه الدارج اليوم كأن يقـال (ضـمن بستـاناً).

١٣٣ - وجـاء في الصفحـة التاسعة والأربعين بعد الأربع مـئة:

«. . . وذهـب من أمـوال التنـاه شـيء كـثير. . .».

أقـول: التنـاه جـمع تـاني مثـل التنـاء جـمع تـانيء، وفي العربية أن (التنـاء) هـم المقيمـون، ولكنهـا هنا كما يبدو من قـرائن النص تـفيد الزراع.

١٣٤ - وجـاء في الصفحـة الحادية والخمسين بعد الأربع مـئة:

«. . . فيمـا هـو على ذلك وردت الأخبـار بوصول الأمـير. . . لتصفح أحـوال العراق».

أقـول: والمراد بـ(التصفح) التفقد، ومـا يسمى (التفتيش) في لغـة عصرنا.

وهـكذا ينتهي هذا السفر التاريخي الممتـع العامـر بفوائده الجمـة. .

من (هـوية) الأدب العربي الحديث

قـد يذهـب الظن بالقارىء وهـو ينظر إلى (الهويـة) بادىء ذي بـدء إلى أني أميـل إلى أن ألصق بالأدب الحديث سمـة خـاصة تميزه عن الأدب العربي في عصوره المختلفة. وقـد يـكون لي شـيء مـن هـذا، ولكني استدركت من أمري مخافة أن يحمـل القارىء كـلامي هـذا على عامـة أدبنا الحديث. وكان من أجـل ذلك أني سبقت كلمة (الهويـة) بـ(من)، وأهـل النحو وعامة المشتغلين بالعربية على عـلم بما تفيده هذه الأداة السابقة. أريـد أن أقـول إن الأدب العربي الحديـث الذي نعاصره صنفان مختلفان؛ أولهما: الأدب الذي يجري فيه أصحـابه على النحو الذي نعرفه في الشعر الموزون المقفى، وهؤلاء مؤمنـون أن الجدّة فيما يمـليه علينا العصر من فـكر من دون أن يقطع هذا الجديد في الفكـر صـلة الرحم بـين أدبهم وبين الموروث القديم. وثانيهما: الأدب الذي أخـذ به جمهرة الشبان منذ أجـيال عـدة، وهـو الشعر الذي لا ينتظمه وزن يجـري في القطعة الأدبية كالبحور التي سـار عليها أصحـاب الموزون المقفىٰ، ولا تنتظمه قافية واحـدة. وهـو أيـضاً أدب القصة والرواية التي اضطرب فيها جـمع كـبير من أهـل الأدب الجديد. وجـملة هذا يؤلـف هذا الصنف الثاني الذي لا يتصـل بالصنف الأول بـأية صـلة.

وسأقـف على هـذا الصنف الثاني لأشيـر إلى (هـويته) التي ليس لها مـا كان للصنف الأول من (هـوية). إن هويّة الصنف الأول هي (الهويـة) العربيـة

القديمة التي لم تتنكر، لما كان للأدب القديم في مادته اللغوية ونمطه في الأداء، وليس الجديد في الدلالة التي اضطلع بها هذا الصنف غريب الصورة والعرق عما كان للأدب العربي في عصوره المختلفة. غير أن (هوية) الصنف الثاني فشيء طرأ علينا، وفي هذا الطارىء غرابة. ولا أريد أن أنال في وصفي لهذا الجديد الطارىء بالغرابة، ولكني أقول: إن لهذه الغرابة صفات أمدت (الهوية) الغريبة بما جعلها متميزة عن الموروث الذي درجنا عليه فكان الشعر الموزون المقفى.

من صفات هذه (الهوية) الأجنبية الغريبة أنك لا تصل إليها فلا تهتدي، وأنت تقرأ الجديد من الشعر، إلى قدر واضح من الدلالات. وأنت لا تصل من ملامح الإيماءات الجديدة إلى شيء تستقر فيه إلى فكرة بعينها، ولا تطمئن إلى أن (الكلمة) فيه تهديك إلى ما كان لها، ولا تستطيع أن تصل إلى ما أراد صاحبها أن يفرغه فيها، أو أن ينبسط منها ظل تستريح إليه. ثم إن الكلمة فيه أسيرة في موضعها فلن يكون في طوقك أن تصحبها وهي مجاورة أختها إلى شيء تخرج فيه من هذه (البنية) الغامضة. ولعل هذه التركيبة قد تجاوزت ما كنا نجمله في مسألة (الغموض). والمزاول لهذا الضرب من الأدب الجديد صاحب فن جديد، وما أدري ألنا أن ندعوه (شاعراً)؟.

ليس لنا أن نصل إلى ذلك، ألا ترى أن هذا الجديد قد قطع بينه وبين أوصال الشعر القديم التي كان منها غنائية أسميناها (عاطفة). وربما ذهب هؤلاء إلى اعتبار هذه (الغنائية) مما حمل الضيم على الأدب القديم. وكأن هذه (الغنائية) التي أباها أصحاب النمط الجديد اقتضت الوزن والقافية فكانت من لوازمه، ومن هنا نشأ مصطلح (الشعرالحر). وساد هذا المصطلح، وكتبت له السيرورة، حتى غلب، فوجد أصحابه أن جديدهم قد تجاوز مرحلة ما كان عليهم أن يتشبثوا بهذه التسمية، ذلك أنهم اطمأنوا الى أنه قضي على النمط العتيق، فأية حاجة إلى أن يحتموا بهذه التسمية؟ لقد أدركوا أنهم حملة الراية، وأنهم انفردوا في الميدان. وبعد فليس عجيباً ان يُستوحش هذا (المصطلح). لقد انتهت ثنائية القديم والجديد فامّحت

مصطلحات قديمة، لأن الجديد غير محتاج إليها، ألا ترى أن (القصيدة) مادة عتيقة في أدب أصحابنا الجدد، وأن الذي يمارسونه من الأدب يبتعد عن الكلام القصيد أو المقصَّد الذي يندرج في التقطيع والوزن. لقد دعوا هذا الوزن وهذه القصيدة (رتابة)، وكلمة (الرتابة) من الجديد الذي يحمل السأم والجمود وربما أدّى إلى (الغثيان). وليس غريباً أن نرى هؤلاء الجدد من أصحابنا يستعملون مصطلح (الكتابة) بدلاً من (النظم). إن فتى الفتيان فيهم يقول: أنا أكتب الشعر، ولا يقول: (أنظمه)، لأن النظم عناية وفن وغناء ووزن، وليس به حاجة إلى هذا الحشد من الكلم الذي يدخل في موسيقى اللفظ، وفيه غنى عن كل ذلك الذي يقيده، أو قل لا يستطيع إدراكه.

لقد أوحى أصحاب الجديد إلى جمهرة القراء أن في جديدهم رائحة بل عطراً من أدب غربي، وليس من سبيل لهم أن يستنشقوا هذه النسمات، ومادتهم مقيدة في بحور الشعر القديمة تجري في سلسلة من قافية واحدة. رتيبة. وكأنهم بهذا مؤسسون لمذهب جديد، ولكننا واثقون أن الكثير من أصحاب الجديد لا يعرفون اللغات الأعجمية التي ادّعوا أنها مادتهم.

وربما فطن نفر منهم إلى أن الأدب محتاج إلى ضرب من الكلم الموزون ليكون بعيداً عن لغة العلم، فذهبوا إلى القول بأن الشعر الجديد يقتصر من الوزن على (التفعيلة)، وما كان في طوقهم أن يثبتوا هذا الذي تراجعوا فيه. ثم قالوا: إنها الموسيقى الداخلية تشمل بناء (القصيدة) الجديدة. وربما تجاوزتُ الحدود فاستعرت كلمة (القصيدة) في الكلام على ما كان قد جرى في كتابات نقاد الأدب الحديث.

قلت: لقد اطمأن أصحابنا هؤلاء إلى أنهم وحدهم جمهرة الأدباء، فكانت لهم لقاءاتهم وندواتهم ومجتمعاتهم ومجلاتهم وكتبهم. وقد أصابوا خيراً في سعيهم فوجدوا طائفة من الأساتيذ تعضدهم وتؤيدهم وتكبرهم أيما إكبار، فراحوا ينكرون على أصحاب الصنف الأول الذي كنا قد ألمعنا إليه صفة الشعراء وقالوا: إن القصيدة (العمودية) ولدت ميتة، وأن النمط

الجديد من الشعر هو اللون الذي يمكن أن يكون مواكباً للحضارة المعاصرة. وقد تحجب أن تكون جملة هذا المرصوف من كلم في سطور عدة هو المتنفس الجديد في عالم تعمره (تكنولوجيا) معقدة؟.

لقد أدرك الغربيون أن الكلم المرصوف الذي يدعى شعراً شيء قد تجاوزه الزمن. وليس من سبيل لمسايرة الحضارة المعاصرة بفلسفتها الجديدة إلا باتخاذ ما يدعى قصة أو رواية أسلوباً يسايرون به هذا الجديد المعقد في الفكر وسائر أنماط السلوك. ألا ترى أن الشعر قد أصبح شغل جماعات خاصة يتخذون منه مادة يُشغلون بها عن وعثاء هذه الحياة المعاصرة. غير أننا نحن العرب لم نحسَّ من أعباء الحياة المعاصرة ما يحسه الغربيون الذين ضاقوا ذرعاً بالمشكلات الجديدة، فما زلنا نحتفظ ببقية من حب الفن الغنائي، وإن كنا ننكر (الغنائية) في الشعر الحديث. وبسبب من هذا ما زال هذا الجديد الذي يُحمَل على الشعر دأب المتأدبين جمهرة الناشئة في كل بلد. وربما وجدت كل يوم نفراً يدلي بدلوه بين الدلاء فينشر من هذا (الجديد) من الأدب الحديث، وأنت قد يفجؤك هذا النفر فهم سواء بين معرفة ونكرة.

أقول: إنهم سواء في هذا الذي يقرزم به الناشئة كل يوم. لقد حسب هؤلاء أن الوصول إلى الجديد أمر غير عسير، ومن أجل هذا حُمل إلى هذه الصنعة حشد ممن لم يتهيأ له دربة، ولم يتزود بزاد من لغة وثقافة.

لقد أثر عن (فولتير) الفيلسوف والأديب الفرنسي أنه قال: لم أبدأ الكتابة قبل أن أقرأ كتاب (ألف ليلة وليلة) أربع عشرة مرة. هذه العبارة تشير إلى أن الأديب محتاج إلى أدوات جمة، فأين نحن من هذا؟.

وبعد، فإن انقطاع الجديد عن صلته بالقديم الموروث أفقده (هويته)، فهل لي أن أقول: إن إثبات الهوية من (الأصالة)، وهل تكون الأصالة بغير كدّ وجدّ؟ ﴿فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ [الرعد: ١٣/١٧].

نظرات في (تدريس العربية) بجامعات الوطن العربي

إننا معاشر العرب نواجه الحضارة المعاصرة، وهي تتسم بسمات كثيرة منها (العالمية)، ونحن مضطرون، رضينا أم أبينا، أن نأخذ بكثير من ألوان هذه الحضارة مع الاحتفاظ بما كان لنا من إرث حضاريّ قديم فكيف السبيل إلى ذلك؟

لا بد من أن يكون لنا، نحن العرب، الوسائل التي تحقق هذه المهمة، وتلكم الأداة الكفيلة هي (التعريب). وليس جديداً أن نهتدي إلى هذا فقد جدّ الغيارى من أهل الجد في مطلع هذا القرن في سلوك هذا النهج القويم، غير أن تلك المساعي غير كافية، ولم يكن لهؤلاء الغيارى من خطة واضحة، ولا كانوا على اتصال وثيق بينهم. كان نفر من هؤلاء يعمل في جهة من الجهات، في حين أن نفراً آخر كان يعمل في جهة أخرى، وليس من صلة بين أولئك وهؤلاء. ومن أجل ذلك لم تؤدّ جهود هذه العناصر إلى نتائج وافية بالغرض المطلوب.

ولقد آل الأمر إلى أن تكون جملة أقطار عربية قد سلكت الدرب سلوكاً متردداً متلكّئاً في تحقيق هذا الغرض، في حين بقيت أقطار أخرى بعيدة عما يشغل القوم في الطائفة الأولى لأسباب سياسية وغير سياسية، وإذا كان نفر كبير من أهل العلم قد أدركوا قيمة هذه المشكلة الثقافية وقدّروا

خطرها، فليس من شك أن نفراً آخر غير قليل ما زال بعيداً عن إدراك هذه المشكلة، وهو راض بل مقتنع، بأن اللغة الأعجمية، إنكليزية أو فرنسية، هي الأداة الصالحة في هذه العملية الثقافية الكبيرة، وأن الخطر كل الخطر أن يصار إلى العربية. ولقد سمعت شيئاً من هذا في كل مكان، في أقطار المشرق وأقطار المغرب العربي. ولقد أوحى هؤلاء إلى المتعلمين، أو قل إلى أولياء أمورهم، أن يروا، بل أن يعتقدوا، أن (العلم الجديد) لا يمكن أن يعلّم بالعربية.

وإني لأذكر أني رأيت أحداً من هؤلاء في الكويت، وهو رجل متعلم، فأخبرني أنه ذاهب إلى العراق ليصحب ابنته ويعود بها بعد أن قبلت في الكلية الطبية، وبلغه أن التدريس فيها بالعربية بحسب قرار الحكومة العراقية. فقلت له: ولم تفعل ذلك؟ فأجاب أنه يرى أن لا سبيل إلى أن تعطى العلوم الطبية بالعربية، وأنه لا بد من لغة إنكليزية! ومن أجل ذلك عمد إلى التوجه بابنته إلى إحدى الجامعات الأجنبية في الوطن العربي كبيروت مثلاً.

كان هذا الرجل متعلماً بل مشرفاً تربوياً في وزارة التربية في الكويت. فما بالك بغير المتعلمين من سواد الشعب؟ وقد لا تستغرب أن تستمع في مدينة الجزائر لإسكاف تسأله عن ابنه ماذا يدرس في الجامعة؟ فيجيبك مبتئساً متأسفاً أنه يدرس موضوع الـ (Cartographie) في الجامعة، وللأسف (وهذا ما قاله) هو في القسم المعرّب. فقلت له: ولم هذا الأسف، ألم تكن أنت ممن ناضل الاستعمار وأخذ عليه أنه أبعد الجزائريين عن لغتهم الأم؟ فقال: نعم، غير أن الطالب لا يتعلم بالعربية الشيء الضروري الكثير، ويقصر إن كان تعلمه بالعربية مقارنة مع زميله الذي درس العلم في القسم الفرنسي.

مثل هذا تلقاه في كل مكان في وطننا الكبير. والخطر كل الخطر أن يكون من أهل الاختصاص في العلوم الجديدة طائفة من هؤلاء.

إن التعريب لدى هذه الطائفة من أهل العلم عمل عسير من قِبَل أنهم

لا يعرفون العربية[1]. فكيف يتهيأ لهم أن يعلِّموا هذه العلوم الجديدة بعربية سليمة معاصرة؟

أقول: إن تعريب وسائل العلم ليس عسيراً لو تهيأت العناصر المؤمنة بهذه المهمة بادىء ذي بدء، ثم لو كانت هذه العناصر تعرف العربية وتلتزم بأصولها التزامها باللغة الأعجمية. ألا ترى أن أيّاً من أصحاب الاختصاص، حملة الدرجات العلمية العالية، لو كتب بحثاً له في الإنكليزية للمشاركة بمؤتمر علمي أو حلقة دراسية لما أُخِذَ عليه تجاوز في الإنكليزية يمسّ الفروع بله الأصول، وأنه يجتهد مع هذا أن تكون لغة بحثه في الإنكليزية مما يرتضيه زميله الإنكليزي أو غيره من أهل العلم في عصرنا هذا. هذا يعني أنه أدرك إدراكاً صحيحاً أن البحث العلمي في العلوم الحديثة لا بد له من أداة صالحة يتم فيها الحفاظ على الأصول. فأين هذا من حال هؤلاء إن طلب إليهم أن يكتبوا بالعربية؟.

أولاً: التعريب قديماً

١ ـ لقد أدرك الأقدمون هذه المشكلة فتوجهوا إليها مزودين بما تقتضيه من وسائل العلم فكان التعريب عندهم على النحو الآتي:

(التعريب) من بين معانيه المختلفة، مصطلح يعني تعريب الكلم الأعجمي فتنطق به العَرَب على مناهجها، قالوا: عَرَّبْتَه العرب، وأعربته أيضاً. ولقد جروا في فهمهم لهذا المصطلح على نحو واضح ومنهج سديد.

قال الجواليقي في (المُعَرَّب):

«أعلم أنهم كثيراً ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية إذا

(١) قلت إن بين أهل الاختصاص في العلوم الحديثة من لا يعرف العربية. وليس هذا كافياً، فهم يرون أن إتقان العربية ليس ضرورياً، وآلية ذلك أنهم يبيحون لأنفسهم استعمال العامية في التدريس. وقد استفحل الأمر فصار أهل العلوم الإنسانية من أصحاب هذه الألسن الدارجة، يستعملونها في محاضراتهم. ولو قد اعترضت عليهم لأجابوا أنهم ليسوا مدرسي لغة عربية، كأن اللغة الفصيحة واجب مدرس العربية ليس غير. ومن العجيب أن هؤلاء يلتزمون بالأصول اللغوية وهم يستعملون اللغة الإنكليزية أو الفرنسية مثلاً، ولكنهم لا يفعلون ذلك إن تحولوا إلى لغتهم العربية، وهذا شيء غريب لا نفهمه.

استعملوها، فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجاً، وربما ما بَعُدَ مخرجه أيضاً».

والإبدال لازم لئلا يدخلوا في كلامهم ما ليس من حروفهم. وربّما غيّروا البناء من الكلام الفارسي إلى أبنية العرب[1]. وهذا التغيير يكون بإبدال حرف من حَرْف، أو زيادة حرف، أو نقصان حرف، أو إبدال حركة بحركة، أو إسكان متحرّك، أو تحريك ساكن، وربّما تركوا الحرف على حاله لم يغيّروه. فما غيّروا من الحروف ما كان بين الجيم والكاف، وربما جَعَلُوه جيماً، وربما جَعَلوهُ كافاً، وربّما جعلوه قافاً، لقرب القاف من الكاف، قالوا: (كُرْبُج) وبعضهم يقول: (قَرْبُق). قال أبو عمرو: سَمِعتُ الأصمعي يقول: هو موضع يقال له: (كُرْبَك)، قال يريدون: (كُرْبَج). وأبدلوا الحَرْف الذي بين الباء[2] والفاء فاءً، ورُبّما أبدَلُوه باءً قالوا: (فالوذ) و(فِرِند). وأبدلوا السين من الشين فقالوا للصحراء: (دست) وهي بالفارسية (دشت)[3].

وهكذا صَنَعُوا في حروف أخرى فأبدلوا اللام من الزاي في (قفشليل) وهي المِغرَفة، وأصلها (كفجلاز). وقد غيّروا في الكلام الأعجمي ليأتي مناسباً للكلم في العربية. ثم إنهم ألحقوا الأبنية الأعجمية بأبنيتهم العربية. ومما ألحقوه مثلاً (درهم) ألحقوهُ بـ(هِجْرَع)، و(بَهْرج) ألحقوه بـ(سَلْهَب)، و(دينار) ألحقوه بـ(ديماس)، و(إسحاق) بـ(إبهام)، و(يعقوب) ألحقوه بـ(يَرْبُوع)، و(جَوْرَب) بـ(كَوْكب)، و(شُبارِق) بـ(عُذَافِر)، و(رُزداق) بـ(قُرطاس).

---

(١) كأنَّ الإشارات القديمة إلى (المعرّب) تشير إلى أن الأصل (فارسي)، وذلك لأن النقل من الفارسية كان كثيراً بالقياس إلى ما عرّبه العرب من غيرها من اللغات الأعجمية. ومما تجب الإشارة إليه أن (المعرّب) الذي انصرف إلى أغراض علمية من الأصول الفارسية قد شاع في العصور القديمة، وأخذه غير العرب من العرب أنفسهم. وقد يكون من الطريف أن تجد الفرس استخدموا هذه (المعرّبات) العربية في كتابتهم باللغة العربية وهي ذات أصول فارسية.

(٢) يريد به الصوت الشفوي بين الباء والفاء، وهو الباء الأعجمية التي ترسم باء معجمة بثلاث نقاط تحتية في الفارسية، يقابل حرف الـ(P) في اللغات الغربية.

(٣) أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي، المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، ص ٦ ـ ٧

وربّمـا زادوا في الكلم أو نقصوا منه ليجيء مناسباً لأبنية العرب. وممـا تـركوه على حـاله فـلم يغيّروه (خُراسـان) و (خُرّم) و (كُرْكُم).

٢ ـ هوِّن عليك أخي القارىء، فقـد أكـون قد أطلت عليك في هذا العَرْض الجـافي القديم، غير أني قصـدت إلى شـيء ذي فـائدة يتصل بجهـد المعرِّب في عصرنا هـذا. أريـد أن أقـول: كـان المعرِّب القديم مـدركاً قضية التعريب إدراكاً واسعاً. فهـو قـد وجـد نفسه بإزاء أدوات جـديدة أعجمية فماذا يصنع؟ لـقد وجـد أن العربية ذات أبنية كـثيرة، وأنـه لا بـد واجـد في هـذا الحشـد من الأبنيـة مـا يوافق الأبنيـة الأعجمية، فـضم هـذا الجديد الوافـد إلى أبنيتـه العربية إن وجـده على أوزان تـلك الأبنـية، فـإن لم يجـده كـذلك عمـد إلى شيء من التغيير قـليل أو كـثير، لـيأتي الجـديد الوافـد موافقاً فيضـم إلى العربية. هـذا من نـاحية الصيغ. ثـم نـظر إلى الأصوات فـاتبع الطريقة نفسهـا، أما وجـد الكلم الأعجـمي موافقاً، فـإن لـم يـكن كـذلك غير الصوت مـا يشبهه أو يقرب منه. وهـكذا دَرَجـوا في تعريب الكلم الأعجـمي، فكان لهم من ذلك قـدر كـبير من (المعرّب) مما اقتضته حـاجة عَرَضَتْ لهم في الحيـاة اليومية، ومـا تدعو إليه من أدوات وآلات وأطعمة وأشربـة، ومـا يـدخل في بـاب الصنعة والحرف من ذلك. ثم كـانت حـضارة العرب في العصور الإسلامية ومـا اكتسبته في منطلقاتها وتقبلها للروافـد الحضارية الأخـرى. وحـسبك أن تعلم أن العربية كـانت طوال قـرون عـدة لـغة العلم والحضارة في العالم المتحـضر القديم. لقد عَرَفهـا وكـتب بها العرب مسلمون وغير مسلمين، وعرفهـا وكتـب بها غير العرب من المسلمين وغيرهم. بـل قـل إن طائفة كـبيرة من هؤلاء العلمـاء قد ثقفوها ووقفوا على أسرارها فأحبّوهـا وجعلوهـا لغتهم المفـضلة، وبهـا عُرفوا لأنهم كتبوا بها ولم يخطّوا حرفاً بغيرهـا.

٣ ـ لقد درج العلماء طـوال العصـور المتصـلة على هذه السنن في (التعريب) فـماذا كـان لهم من نتائج؟ أقـول: على الرغم ممـا وضع الأقـدمون من منهج في تعريب الكلم الأعجـمي مراعين الأبنيـة والأصـوات العربية إلا أنهـم لم يسلموا من أوهـام كـثيرة منها:

أ ـ أنهم لم يدركوا إدراكاً كافياً الكلمة السامية المشتركة، وأن بين العربية وجملة لغات، هي اللغات السامية باصطلاح الباحثين من القرن الثامن عشر إلى يومنا هذا، علاقات قرابة ترجع إلى أصل قديم مشترك هو السامية الأم التي لا نعرف عن أوليتها شيئاً، وقالوا بعجمة كل لفظ من هذه اللغات وأنه دخيل في العربية وقد عُرِّب فيها.

ألا ترى أنهم وهموا فعدّوا (كنيسة) مثلاً من (المعرّب) وفاتهم أن مادة (كنس) معروفة في العربية، ومنها، (كِنَاس) الظبي وهي مادة سامية تعني السكن والاستقرار؟.

وقالوا (جُدَّة) النهر أي شاطئه من المعرَّبات. و(الجُدَّة) أي الطريق، لا أشكّ في عروبيّتها، ثم في إنها من المشترك الساميّ.

ولقد عرض هذا لهم فساءت نتائجهم، وإن كانوا قد وضَعوا لهم منهجاً واضحاً مبنياً على العلم في قواعد التعريب.

ومن الغريب أن نفراً من أهل هذا العصر، وجلهم من أصحابنا النصارى من أهل الدرجات العلمية الدينية، قد سلكوا مسلكاً غربياً مناقضاً للعلم في ادعاء (سريانية) قدر كبير من الكلم العربي. وهذا الخطأ لا يغتفر لهم بعد أن درج علم اللغات السامية المقارن، ووضع العلماء معجمات في الموضوع هي موطن الثقة ومقطع الرأي ومعدن العلم. وإذا التمسنا العذر للعلماء الأقدمين في جهلهم بهذه اللغات ووقوعهم في الخطأ فلا نلتمسه لهذه الطائفة من أهل العلم في عصرنا هذا.

لقد ابتعد هؤلاء عن العلم الصحيح حين ادعوا سريانية موادّ كثيرة مثل: قرأ وشعر وسبح وصلّى وزكّى، وغير هذا كثير. وليس من شك في أن هذه المواد عربية، وإن كان لها أصل ساميٌّ قديم. لقد فات هؤلاء أن المواد التي شاعت في الآرامية السريانية وعرفت بها نحو: الكنيسة والأبيل والقسّ والقدس، وطائفة أخرى من المواد السريانية، هي سامية أيضاً، وإن اختصت بها الآرامية السريانية. ولهذا النفر من الباحثين مصنفات أوردوا فيها ما ذهبوا إليه من سريانية كلم كثير عرفته العربية منذ أقدم عصورها.

ب ـ ومما يوجّه إلى القدامى من نقد في باب (المعرّب) أنهم خلطوا بين الأصول، فلم يميّزوا بين ما هو سامي وبين ما هو أصل فارسي. وهذا يعني أنهم لم يعرفوا هذه اللغات معرفة العالم الذي يستطيع أن يفصل بين الأصول فيدرك الحقيقة فيقطع بالعلم الصحيح. ومن أجل ذلك كان الدارس لا يخرج برأي مفيد وهو يرجع إلى تلك المصادر القديمة مثل (المعرّب) للجواليقي، و (شفاء الغليل) للخفاجي. على أن المحدثين الذين أشرنا إليهم ممن ادّعوا سريانية كثير من الكلم العربي هم على غِرار أولئك القدامى في ابتعادهم عن العلم الصحيح. ومن هؤلاء القس يوسف حبيقة البسكنتاوي في كتابه (اللغة السريانية في لبنان وسورية)[1]، والبطريرك مار أغناطيوس أفرام الأول برصوم في كتابه (الألفاظ السريانية في المعاجم العربية)[2]. وغيرهما.

على أننا الآن على علم أكيد بالكلم الدخيل، وذلك للجهود المضنية التي بذلها علماء الساميات في معرفة الأصول. وبهذا يتضح لنا أن (المعرَّب) هو ما كان من لغة غير عربية وغير سامية. ومن هذا مثلاً ما استعاره العرب من الفارسية أو ما أخذوه من الإغريقية. وأرجع فأقول: أدرك العرب، مادة (التعريب) على هذا الوجه فقالوا مثلاً إن كلمة (الفردوس) التي استعملت في لغة التنزيل من (المعرّب)، أي أنها من أصل غير عربي (هو إغريقي) أخذها العرب فبنوها على هذا البناء فصارت عربية. ومثل هذا فلسفة وموسيقى وجغرافيا وغيرها كثير.

ثانياً: التعريب اليوم

أقول: لو أننا فهمنا (التعريب) على نحو ما فهم الأوائل من علمائنا العظام فعرّبنا الأعجمي بشيء من العلاج في الأصوات والأبنية العربية لكان

---

(١) يوسف حبيقة البسكنتاوي (اللغة السريانية في لبنان وسورية)، ٢ ج (جونية، مطبعة الأرز، ١٩٠٢ ـ ١٩٠٤ م).

(٢) مار أغناطيوس أفرام الأول برصوم، (الألفاظ السريانية في المعاجم العربية) دمشق ١٩٤٨ ـ ١٩٥١ م).

لنا مـادة مهمة نضيفها إلى المواد الأخـرى العربية التي نقـابل بهـا المصطلح الأجنـبي، ولتوفر لنا قـدر كـبير من المادة اللغوية على هـيئة مصطلحـات فنية علمية يـكون مادة لمـا يـسمى (التعريب) في عصرنـا هذا. وإنني لأدعو إلى أن نـأخـذ بهذا السبيل ذي الشقين: الأول تعريـب المصطلح الأجنـبي على طريقة المتقدمين التي أشرنا إليها، والثاني الإفادة من المواد العربية الخالصة نصنع منهـا المصطلح الجديد.

إننا نواجـه في عصرنا هذا مشكـلة تـدريس العلوم الحديثة بالعربية. ومـا أظن أن المشكلة على قـدر كـبير من الصعوبة لو أحـسنا الوصول إليهـا. ولسنـا بدعاً بين الأمم إذا أردنـا أن نسلك هذا الطريق. ذلك أن الأمـم، المتقدمة منها وغير المتقدمة، سـلكت هذا السـبيل. فالفرنسي يـدرس العلوم بالفرنسية، والألمانـي بالألمانية، والروسي بالروسية، واليوغسـلافي بلغتـه الخـاصة، والياباني باليابانيـة، والتركي بالتركيـة، والإيـراني بالفارسية، ألا تـرى أن الحـق يفرض علينا أن نعلم أن عربيتنا أكثـر تقبّلاً للعلم الحديث من كـثير من اللغات ولا سيمـا الشرقية منها؟

وقـد نـكون فرّطنـا قـليلاً في التمـاس المصطلحات في العربية لنظائرها في اللغات الغربية واجتهـدنا بـكل الوسائل أن نجـد لها من الكلم العربي مـادة جـديدة. وإذا كـان أوائلنا قد اشتقّوا مـن المهرجـان والنوروز فعلّيْن همـا (مَهْرَجَ ونَوْرَزَ) فـلم نتلكّأ في حـاضرنـا، فلا نقبل بالتعريب على طريقة السلف فنوفر قـدراً من المصطلح (العالمي)؟.

أقـول: (العالمي) لأن كـثيراً من مصطلحـات العلوم أصبحـت عالميـة، فـليس (Atomic) مثـلاً مصطلحـاً إنكـليزياً. ذلـك أن الألمـاني والفرنسي والروسي والبلغـاري واليابانـي والتركي والإيـراني يستعمله ويتخـذه مصطلحـاً في لغتـه الخـاصة.

ولا أريـد أن أسـرف في سـلوك هـذا السبيل، ولكنـي أقـول: إن تـوفير المصطلحـات بهذه الطريقة، بـالبحـث في العربية عن الكلم الفصيح مما استعمله القـدماء، أو ممـا لم يستعملوه، أو ممـا نـراه مقابـلاً للمصطلح

الأجنبي، كل هذا يوفّر لنا ما نحن نفتقر إليه أشدّ الافتقار.

وإذا كنا نواجه مشكلة التعريب ابتغاء أن تكون لغتنا المعاصرة لغة العلم الحديث في هذا العالم الذي يقذف كل يوم بالجديد، فإن ذلك آت من أن لغتنا مرت بهذه التجربة فكان لها مصطلح قديم، وأول هذا المصطلح هو المصطلح الإسلامي. إن اللغة الإسلامية هي العربية الإسلامية التي جاء بها الإسلام في (كتابه) و(سنته)، ثم اتسع نطاقها في العلوم الإسلامية وعلى رأسها علوم القرآن والحديث.

ثم كانت تجربة أخرى مرت بها العربية، حين واجه العرب بعد أن انتقلوا من بلادهم إلى بلاد غيرها، فاتصلوا بأمم شتى. وكان من أثر ذلك أن أخذ العرب من علوم هذه الأمم ومعارفها فاضطروا إلى إيجاد لون جديد هو المصطلح العلمي الذي حفلت به العربية في العصور العباسية.

وعلى هذا تأتي التجربة الحديثة في عصرنا هذا فتبرز مشكلات عدة أولاها أننا في حالة جديدة تتسم بأن العرب عامة يعانون من الازدواج اللغوي وأن لكل طائفة منهم لساناً دارجاً عامياً، بل ألسن عامية دارجة، وأنهم يتعلمون الفصيح تعلماً. وهذا التعلم قد بدأ عملية منظمة في مدارس ومعاهد بعد زوال الإمبراطورية ونشوء ما يدعى بالحكم الوطني في هذه الأجزاء العربية التي انسلخت عن الإمبراطورية العثمانية. لقد بدأ في هذه الحقبة التعليم النظامي للعربية في مدارس خاصة هي ابتدائية ثم إعدادية وثانوية ثم كليات ومعاهد عالية فكيف كان ذلك؟

من المفيد أن نشير إلى أن تعليم العربية في هذه المدارس والمعاهد قد سبقه مرحلة أخرى كان فيها هذا التعليم نمطاً آخر في المعاهد الدينية والحلقات التي تعقد في المساجد التي كانت تتخذ معاهد التعليم العربية والعلوم الدينية وطائفة قليلة أخرى من العلوم الدنيوية. وتعليم العربية في هذه المعاهد الدينية وحلقات المساجد له نظامه الخاص، فالطالب يستمع من شيخه مادة النحو والصرف والعروض والبلاغة وشيئاً من الأدب في كتب خاصة وحواش وتعليقات. والطالب في هذه المعاهد يقرأ في الكتاب

والشيخ الأستاذ يشرح ويفسر ويضيف، أو يملي على الطالب، والطالب يكتب ما يملى عليه، فإن كان مع الطالب جماعة من الطلاب فهم يستمعون ويكتبون ما يُملَى عليهم، وقد يستفهمون ويسألون وهكذا ينتهي الدرس، وتمد حصل الطالب إن كان وحده. أو الطلاب إن كانوا دفعة مجتمعة، مادتهم الدراسية في أي من علوم العربية.

وقد كان الكتاب الدراسي التعليمي في هذه الحقبة المتأخرة التي سبقت التعليم النظامي في المدارس الرسمية كتاباً في النحو من كتب ابن هشام أو حاشية أو تعليقاً لشيخ من أولئك الشيوخ المتأخرين، وقد يكون الشيخ أزهرياً مصرياً أو شيخاً شامياً أو عراقياً أو أحداً من شيوخ المغرب العربي في القرويين أو الزيتونة مثلاً. وفي هذه الكتب كتب للنحو، وأخرى للصرف، وحاشية في العروض، وأخرى في البلاغة. وإذا أتم الطالب هذا القدر من هذه المادة اللغوية انتقل إلى علوم القرآن والحديث، ثم يغادر مجموع ذلك إلى علوم الدين كالفقه والأصول والعقائد والأحكام، وقد يشدو شيئاً من علم الكلام.

إن المنهج العلمي في هذه الكتب المتأخرة وفي الحواشي والتعليقات يتسم بطابع خاص يقوم على اختلاط العلم اللغوي بشوائب لا تمت إلى العلم اللغوي بصلة كما سنتبين ذلك. والطالب في درس النحو والصرف يبدأ بكتاب صغير قد يكون (الآجرومية) في الأقطار المغربية، وقد يكون حاشية صغيرة لأحد الشيوخ في مصر أو الشام أو العراق، ثم يعرف الطالب كتاب (قطر الندى) لابن هشام أو (شذور الذهب) لابن هشام أيضاً، ثم ينتقل الطالب لألفية ابن مالك في أحد شروحها كشرح ابن هشام المسمى (أوضح المسالك)، أو شرح ابن الناظم بدر الدين، أو شرح أبي حيان المسمى (المنهج السالك) أو (شرح السيوطي) مثلاً.

ومن المعلوم أن الطريقة في جملة هذه الكتب طريقة تقريرية تملي على الطالب المادة بحدودها وتقسيماتها وتفريعاتها مع تحليلات وتفسيرات ليست من اللغة. ولعل اللون المنطقي هو المتحكم في هذه التحليلات

والتفسيرات. وقد يتحول الموضوع النحوي أو الصرفي إلى مادة منطقية بعيدة عن المادة اللغوية. وهذا النحو في هذه الكتب المتأخرة قد جمع إلى المادة اللغوية مواد أخرى ليست لغوية تؤلف الإطار العام للتأليف اللغوي.

إن العلم اللغوي في هذه الحقبة التي أشرنا إليها تلك التي سبقت التعليم الجديد في المدارس الحديثة، إرث لمادة لغوية درج فيها اللاحق على خطى السابق، وكان هذا النحو قد سلخ من عمره اثني عشر قرناً. لقد كان السلف الأوائل قد وضعوا البداية النحوية لتكون مادة تدفع غائلة اللَّحْن الذي تفشّى في لغة المعربين من العرب بسبب مخالطتهم للأعاجم المتعربين الذين انضموا إلى المجتمع الإسلامي. من غير شك أن نحواً وضع ليفي بهذا الغرض لا بد أن تكون مادة تعلمه موضوعية كما نقول في عصرنا هذا[١].

غير أنه ما لبث أن صار أحد فروع المعرفة ابتداءً من أوائل القرن الثالث الهجري. وهذا يعني أنه صار مادة للدرس والاجتهاد، وصار له أصحابه ممّن عرفوا بالنحاة. ثم كان أن صار أولئك طبقات على مرّ العصور، ثم تحوّل من موادّ يسيرة يراد بها غرضاً تعليمياً هوَ عصمة اللسان من غائلة اللحن[٢] إلى مواد جديدة لا يراد منها أن تكون ضوابط يسيرة

(١) أقول: لعل العربية كانت قد تحولت إلى شيء آخر من الألسن الدارجة، أو قل: إنها ربما تخففت من (الشكل الإعرابي) لولا القرآن الكريم، فقد التزمت لغة القرآن بهذا (الشكل)، وكان من الواجب أن يحافظ على نص لغة التنزيل بلفظها وشكلها وإعرابها، ومن ثم حوفظ على سائر التراث الأدبي بمادته وشكله وإعرابه، فانتهينا إلى العربية الجديدة التي كان من الطبيعي أن تبقى محافظة على (الشكل الإعرابي) كما حوفظ عليه في لغة القرآن والحديث والشعر القديم.

(٢) قلت في الهامش السابق أن الإعراب في (شكله)، أي الحركات، نظام عرف في العربية منذ أقدم عصورها وظهر في الشعر الجاهلي والألوان الأدبية الأخرى النثرية كالأمثال وفي الرجز وغيرها. ثم جاء الإسلام فكان كتاب الله الكريم قد احتفظ بهذه الأدوات الصوتية في أواخر الكلم. ولولا هذه اللغة الشريفة لكان أمر الإعراب حلية أو زينة من شأنها أن تزول. ويقوّي هذا الرأي عندي أن غير العربية من اللغات السامية كانت تحفل بالإعراب في عصورهاالأولى حتى إذا درج عليها المتكلمون تخففوا من هذا القيد فاستحالت إلى لغات ساكنة الآخر. ويدلنا على هذه الحقيقة التاريخية ما بقي من أثر الإعراب في جملة مواد لغوية في الآكدية القديمة والعبرانية والآرامية القديمتين.

لغرض تعليمي معروف. ولقد أدى هذا إلى أن صار النحو مادة معقدة عسيرة، تبعد عن تناول المشكلة اللغوية. ذلك أنها اقتبست من المنطق الأرسطي وأساليبه ما أحال المادة اللغوية إلى شيء آخر. لقد تحول النحو إلى مادة جدلية تستند على العلة والمعلول، ومن هنا كان النحو (علم الإعراب)، وإلى هذا أشار الزمخشري في مقدمة كتابه (المفصل) إلى أن علم النحو هو الإعراب، وأدى هذا إلى أن صار طالب النحو يبحث في حركة آخر الكلمة. ولم يكتف النحاة بهذا بل بحثوا في علة الإعراب، ومن هنا قرروا أن الاسم معرب لأنه كيت وكيت وأن كل ما أشبَهَه كان معرباً. ومن أجل هذا شابه الفعل المستقبل الاسم فكان مضارعاً له.

ورب سائل يسأل: وما ضير هذه النظرة على الحقيقة اللغوية؟ والجواب عن هذا أن شيئاً كثيراً يتصل بمادة الفعل قد أهمل. ألا ترى أنهم جعلوا حدّ الفعل: الحَدَث المقترن بزمن! غير أننا لا نعرف وجه (الزمن) في باب الفعل في أيّ من كتب النحو القديم. ثم لم يكتفوا بالعلة الأولى حتى اخترعوا الثواني والثوالث من العلل. ثم كأنهم لمحوا أن الكلمة العربية (معربة) أصالة، لذلك اهتموا بالإعراب فنظروا إليه على أنه (أثر يجلبه العامل). ولا بد من الوقوف عند هذه النظرة لنبيّن أثر المنطق فيها.

أقول: كان الإعراب النتيجة التي أدى إليها (العامل)، وهو السبب، فإذا لم يَروا هذا الأثر قدّروه، فكان الإعراب التقديري، وهو شيء متخيّل ستوهم مبني على افتراض وجود (العامل المؤثر)، فإن كانت الكلمة مما لا يقبل الحركة التي يجلبها العامل، أي من الكلمات الساكنة الآخر، أو تلك التي لها حركتها الدائمة، سميت مبنيّة. وهي لا بد من أن تخضع لنظام جمهرة الكلمات في العربية التي تقبل الحركة في آخرها المسماة (معرَبة)، ومن هنا كان الإعراب (المحلي). وهذا يعني أن الكلمة في العربية لا تفلت من حكم الإعراب.

أقول: إن المتتبّع لمواد النحو في كتبه القديمة، وأقصد بالكتب القديمة تلك التي درستها أجيالنا السابقة في باب (علوم الجادة)، وهي

التي تدخل في آلات المتعلمين حتى جيلنا السابق، أن المتتبع لهذه الكتب يجد مواد وطرائق بعيدة كل البعد عن النهج السليم في تحرير النحو في عصرنا، ولا سيما في اللغات المتقدمة الغربية. ولا أرى حاجة لضرب الأمثلة على ذلك.

إن هذه الكتب القديمة، وجلُّها شروح للألفيّة وشروح وتعليق على شواهدها لتختلف عن نظرات النحويين المتقدمين من طبقات النحاة الأوائل، فأين هذه من آراء الخليل بن أحمد وسيبويه وأضرابهما من النحاة المتقدمين؟

ومما حمل الضيم على الدراسات النحوية في عصرنا أنها اتخذت ألفية الإمام ابن مالك وشروحها الكتب الجامعية التي يدرسها الطلاب فضاقوا بها ذرعاً، والشكوى مريرة، والطالب يقرأ والمدرس يشرح كزميله الشيخ. ومن نتائج هذه الدراسة أن الكتب المدرسية في المدارس الثانوية والإعدادية وحتى الابتدائية اتبعت شيئاً مما جاء في تلك الكتب التي يقرؤها الدارسون في الدراسات العليا.

ولا يحسبن القارىء أني أدعو إلى أن يعزف الدارس عن هذه الكتب القديمة في الدرس النحوي. على أنني تكلمت عن مجانبة أولئك النحاة الذين خلفوا المتقدمين في هذا الفن اللساني اللغوي الصحيح. أريد أن أقول: إن دارس النحو في عصرنا ينبغي له أن يدرس النحو العربي درساً تاريخياً، فلا بد أن يعرف النحو القديم، وكيف بدأ، وما أنجزه الأوائل فيه كالخليل بن أحمد وسيبويه والمبرد وابن السراج والمازني والكسائي والفراء. وهو ملزم أن يعرف مذاهب أولئك، بصريين وكوفيين، وأثر كل منهم في المسيرة اللغوية. ولا بد للدارس من أن يعرف ويلم بما أثر في النحو في بدايته بما ليس من علم اللغة، وكيف استحب النحويون أن يفيدوا من المنطق وما يتصل بأسبابه من علم الكلام وغيره. ثم إن الدارس ملزم أيضاً أن يعرف طبقات النحويين طوال العصور وكيف تهيّأ للنحو أن يتسع في شروحه وتعليلاته حتى وصل إلى ما وصل إليه في شروح الألفية والحواشي والتعليقات الكثيرة التي حولت

الشيء الكثير من المادة النحوية اللغوية إلى علم آخر قد يبتعد في بعض الأحايين عما هو علم لغوي.

أقول: إذا كان هذا من مهمة الدارس النحوي ومما يشغله في عصرنا هذا، ولا سيما في الدراسات الجامعية العليا، فهو في الوقت نفسه ملزم أن يعرف النحو العربي بما يجب أن يكون عليه ليكون علماً لغوياً جديداً يتصل بالمعنى اللغوي في عصرنا هذا.

ولا يحسبن القارىء أيضاً أني أدعو إلى أن يأخذ الدارس النحوي الجديد بكل نظر جديد وافد من الغرب، ولكني أدعو إلى أن يكون دارس النحو الجديد رجلاً واعياً يؤمن بـ (الموضوعية)، فيدرس النحو العربي في مادته العربية، وما تمليه عليه حقيقة العربية ومسيرتها التاريخية، على أن لا يكون هذا الدارس واقفاً بادىء ذي بدء موقفاً معادياً للجديد الوافد من الغرب مثلاً على شدة موضوعيته.

هذا يعني أن على الدارس الجديد مثلاً أن يعرف أن للغربيين مدارس لغوية ومذاهب وآراء. ومن العلم أن يكون هذا الدارس على صلة جيدة بهذا الجديد، وأن تدفعه صلته هذه إلى أن يلم بالنافع المفيد الذي يخدم عملية التعلم التربوية لهذه اللغة.

ولا أريد أن يكون هذا الدارس الجديد للنحو مبهوراً مأخوذاً بالجديد يريد أن يحمله على العربية دون أن يتبصر فيه. فينظر ماذا يجب أن يؤخذ؟ وماذا يجب ألا يؤخذ فإذا كان له هذا النظر يكون قد أفاد من العلم اللغوي الحديث، وإن لم يكن له ما نريد من هذا النظر، فإنه يكون قد حمل الضيم على العربية المعاصرة[1]. على أن من العلم أن يكون لنا نحو جديد قائم

(١) لقد هبّ بآخرة جماعة من المثقفين العرب يكتبون عن (البنيوية) في مصطلح المشارقة أو (الهيكلية) في مصطلح المغاربة فعرضوا لها في علم اللغة وفي النقد الأدبي وفي كثير من وجوه المعرفة. أما أهل اللغة فتكلموا على النحو التحويلي أو التوليدي، كما كتب فيه رأس هذه النظرية وهو تشومسكي العالم الأمريكي. قلت: إنهم هبّوا بآخرة، وكأن هذا العالم وجد فجأة أو قل ولد فجأة، وأن آراءه ونظرياته هي بنت أمس القريب. وما دري القارىء أن هذا العالم الأمريكي قد غبر عليه أكثر من ثلاثة عقود يكتب في هذه الموضوعات وألّف كتباً عدة شرّق فيها وغرّب.

على فهم جديد للعربية. وهذا الفهم الجديد يتخذ من العربية التاريخية أساساً يقوم عليه البناء الجديد. وهذا الأساس هو المادة اللغوية بعيدة عما ران عليها من شوائب بعيدة كل البعد عن طبيعة اللغة.

لقد أدرك جماعة من الدارسين العرب أن العربية في عصرنا لم تملك من وسائل الدرس الحديث شيئاً، فهي قديمة في مادتها، وإن ألبست لبوساً جديداً هو مظهر خارجي لا يتجاوز الظواهر الثانوية. غير أن هؤلاء لم يأتوا بجديد مفيد. وذلك لأنهم لم يستطيعوا الإفادة من الجديد ومما يجب أن يدرس. لقد شغلوا أنفسهم بالكلام على النظريات الحديثة التي كتب فيها الأوروبيون من فرنسيين وإنكليز وغيرهم من علماء السويد وما يسمى بمدرسة براغ، وما أضافه العلماء الإسكندنافيون وغيرهم، ثم ما قام في العالم الأمريكي الجديد من دراسات كثيرة اعتمدت في الغالب على إنجازات الأوروبيين. إن العلم بكل هذا مفيد، على أن يكون الباحث العربي مدركاً إدراكاً كافياً للطريقة التي بها يستفاد من هذا الجديد الوافد.

وقفة على دروس العربية

لا بد من أن ندرس العربية ونعلّمها للتلاميذ الصغار ثم للطلاب بطريقة جديدة نافعة. وإذا كنا نحترم التراث القديم فمن حق التراث علينا أن نصونه ونحفظه بطريقة عقلانية، وأن يكون بيننا وبين التراث صلة رحم قوية تتجاوز الحماسة الجوفاء إلى شيء آخر نصل به التراث القديم بمسيرة حياتنا. وصون

= وكأن أصحابنا حين رأوا هذه الفوائد مما يتصل بالنحو التوليدي، راحوا يفتشون ويخبطون في طريقة الإفادة منها في نحو العربية، فصاروا يؤلفون ضروباً من الجمل في أي باب من أبواب النحو، ليقولوا لنا إن الجملة قد تنصرف إلى أنماط شتى من وجوه القول. وقد ألجأهم ذلك إلى أن يأتوا بما ليس مقبولاً ولا منطوقاً به. لقد أغفلوا عن قصد أن العربية نمط واحد في بلاد العرب كافة من المغرب إلى المشرق هي اللون الفصيح، وأن لا سبيل إلى إدخال الألسن الدارجة في الحساب، التي هي في مادة علم اللغة الحديث لغات مهمة، بل هي أهم من العربية الفصيحة لأنها اللغة التي يدرج بها الناس وبها فكرهم وسلوكهم. ومن الغريب أن هؤلاء عمدوا إلى تزكية الخليل وسيبويه وغيرهما من الأوائل، لأنهم وجدوا في أقوالهم شيئاً ترتضيه (البنيوية) الجديدة. أقول: إن الخير كل الخير في معرفة البنيوية الجديدة والاجتهاد فيها أن نأتي بشيء يفيد في درس العربية الجديدة التي ما زالت مناهج تعلمها بعيدة عن العلم.

التراث يفرض علينا أن نطرح عنه الغث الباطل ونجرّد الأصيل الكريم. ومن هنا يكون علينا أن ندرسه بما يقتضي العلم. وإذا كانت العربية رأس هذا التراث فمن واجبنا أن نتوجه إليها بكل نافع من أساليب الدرس. ومن العجب أننا نأخذ أنفسنا بكل جديد في العلم فندرس العلوم التطبيقية كما قررها أهل العلم الكبار وأهل النظر ونطرح النظريات القديمة التي تجاوزها العلم الجديد، نؤمن بهذا ونباشره في الطب والفلك والفضاء والفيزياء والكيمياء، والعلوم الإنسانية كالفلسفة والاجتماع والجغرافية والتاريخ، ولكننا لا نؤمن به إذا أردنا أن ندرس مادة لغتنا في ألوانها المختلفة.

أ ـ إن النحو والصرف والعروض والبلاغة وما يتصل بالعربية أداءً ورسماً من العلوم اللسانية التي سبيلها إقرار ما ورد فيها من أساليب في القول والنطق والكتابة، دون أن نفلسف هذا الذي درج عليه الناس بداهة. وحبذا لو أن علماء العربية جروا على مقولة سيبويه حين سئل عن سبب بناء (أيّ) على الضم إذا أضيفت وحذف صدر صلتها فأجاب: أيّ كذا خلقت، وذلك في قولهم: إذا مررت بهم فسلّم على أيُّهم أفضَلُ. والتعلّم يبدأ أول ما يبدأ بقراءة وتلاوة وتعلم الأصوات. ومن أجل ذلك ينبغي أن ندرس أول مادة نواجه بها الطفل ونسميها (القراءة) في مدارسنا الأولى. وهذه المرحلة تفرض علينا أن نعلّم الطفل إخراج الأصوات مخرجاً حسناً فنجتهد كل الاجتهاد في إزالة ما علق في لسانه من أصوات عامية لا تتفق والأصوات الفصيحة. ذلك أن لكل صوت في العربية الفصيحة نطقاً خاصاً، وإن كان هذا الصوت يتأثر في إخراجه بالطريقة التي جرى عليها الناس في ألسنتهم الدارجة. ومن الطبيعي أن يكون للقروي أصوات تختلف عن أصوات ابن المدينة. ومن عدم العناية بالأصوات صار كل قطر ينطق الضاد أو الظاء على طريقته، وآل الأمر إلى أن يضيع صوت الضاد[1]. ومثل هذا صوت الجيم قد تغير بين قطر وآخر.

(١) من المفيد أن نشير إلى أن صوت الضاد قد انبهم أمره والتبس بصوت الظاء منذ قرون عدة. ودليلنا على ذلك أن غير واحد من علماء العربية في القرون الرابع والخامس والسادس وما بعد ذلك قد صنفوا مصنفات تجمع الألفاظ التي وردت بالضاد ونظائرها التي وردت بالظاء ليهتدي بها المعربون.

فالجيم اللبنانية غير الجيم في الخليج. ومثل هذا القاف وغيرها من الأصوات. وقد يكون من المفيد أن نتذكر أن (الجيم) صار من الأصوات الشمسية فإذا قالوا: يوم الجمعة، تكاد لا تسمع صوت اللام لدى كثير من المعربين في عصرنا، وقد نسمع هذا التجاوز في نطق المتعلمين ومدرسي العربية ولا سيما في العراق.

ب - وفي هذه المرحلة يشعر التلميذ بالأصوات المصوتة، قصيرها[١] وطويلها، وهي الفتحة والكسرة والضمة، وأصوات المد، وهي الألف والواو والياء. وفي هذا الإشعار إيحاء للصغير بأن هذه الأصوات القصيرة هي كالأصوات الطويلة في طبيعتها وصفاتها وطريقة إخراجها وما يتصل بخارجها في الفم. وهذا الإشعار لا يتجاوز الإيحاء ولفت النظر والانتباه إلى ذلك بطريقة التكرار وسماع الكلمات مقطَّعة مخرَجة إخراجاً حسناً. وهذا أول تعلم الإلقاء والأداء والتلاوة قبل أن يكون الطفل قد رسّخ فيه البيت والمحيط عادات غير مقبولة في الأصوات. كما يُبدأ مع الطفل اعتباراً من السنة الثانية بتأليف جُمَلٍ قصيرة لا تتجاوز الكلمتين. حتى إذا تجاوز السنة الثانية يصار إلى جُمَل أطول منها تتألف من كلمتين مع ما يكملها من جار ومجرور أو ظرف أو شيء غير ذلك. على أن تكون هذه الجمل قريبة كل القرب مما ألفه وسمعه في البيت أو الشارع أو السوق مثلاً.

---

(١) أقول: لا بد من البدء بتصحيح الخطأ الذي وقعنا فيه تأسّياً بما جرى عليه الأقدمون. فقد عدّوا الأصوات القصيرة (حركات) وتسميتها حركات يبعدها عن أن تكون لها قيمة صوتية. ومن اجل ذلك كانت رسوماً ثانوية تثبت فوق رسم الصوت الصامت (الحرف الصحيح) أو تحته، حتى إذا درج الطفل المتعلم شيئاً ما غابت هذه العلامة من الكتابة. وهذا خطأ كبير وقع فيه المتقدمون فوقعنا نحن فيه، فصار المتعلم المبتدىء لا يهتدي إلى الصواب إذا لم ترسم هذه (الحركات)، ومن هنا نشأ الخطأ واللبس. إن من حق هذه الأصوات أن يكون لها مكان في بناء الكلمة، لا أن تضاف فوق الحرف أو تحته فيخفف منها فتزول فينشأ ما ينشأ من الخطأ. إن هذه الأصوات القصيرة كنظائرها الطويلة، وهي كالأصوات الصامتة في تقرير دلالة الكلمة. فأنت تعرف أن (الطَرَف) غير (الطَرْف) وغير (الطِرْف) ومثل هذا سائر مواد العربية. أقول: كان على المعلم أن يشعر الطالب في عملية التعلم بالقيمة الصوتية المهمة لهذه الأصوات، وعلى هذا كانت تسميتها بالحركات إشعاراً للمتعلم بأنها ليست ضرورية، ومن أجل هذا غابت في الرسم.

علـى أن تستوفي هذه الجمل الأصوات الصامتـة شيئاً فشيئاً وهـي مرسومة في الكتـاب رسماً واضحاً تستوفي فيه صـرر الصوت إذا كـان في أول الكلمة متصـلاً بما بعده، أو في وسط الكلمة موصولاً بمـا قبله ومـا بعده، أو في آخر الكلمة موصولاً بما بعده أو منفصلاً عنه نحـو: بـاب، بيت، أربع، عـجب.

وبتكـرار هذه الكلمات في جـمل موجـزة مقرونـة بصور جميـلة يهتدي التلميذ المتعلـم إلى رسـم الأصوات. فطريقـة الرسم للأصوات العربية وكـيف يـكون ذلك في الكتابة، وأعني بـه مـا يسمى في اللغة المدرسية المعاصرة (الإمـلاء)، مشكلـة معقـدة ينبغي التدبّر لها في عملية التعلم[1] منـذ المرحـلة الأولى في المدارس الابتدائية.

جـ ـ إن الكتـاب المدرسي في السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من سـني الدرس ينبغي أن يـكون كتاباً للقراءة والتلاوة وإجـادة الأداء كمـا أشرنا في تعلم الأصوات وضبطها، وهو في الوقت نفسه كتـاب لتعليم مـا يسمى بـ(التحرير والإنشاء أو تـكوين الجمل). ويجـب أن يـكون هذا الكتاب، ولا سيما في السنتين الثالثة والرابعة، معيناً للمتعلم في تـكوين الجمل، ومـن ثم ينبري مقـلداً ومحاكيـاً هذا النمط من التأليف فيبـدأ في تـأليف جمله الخـاصة. وهذه الجمل من غـير شك جـمل موجـزة قصيرة واضحة تـرمي إلى المعنى بيسر ومن غير تعقيد كالتقديم والتأخـير.

---

(١) إن كـثيراً من المواد العربية تؤلف مشـكلة في الرسـم (الإمـلاء)، فـرسـم الهمزة مضطرب كـثيراً لاختـلاف ليس في طوق المبتدىء أن يـلم به، والهـمزة لـم تحـظ من العلماء المتقدمين بما كـان لها من قيمة صوتية، ولـذلك تخففوا منها فلم يرسموها في كتابتهم. وآيـة ذلك مـا نجـده في المخطوطات العربية في رسم الهمزة، فهـي إما أن تحـذف إذا كـانت في آخـر الكلمة نحـو (سمـاء) فترسم (سمـا) أو تـرسـم يـاء إن كـانت مكسورة في درج الكلمة نحـو (حـدايق) أو تكـون ألفاً في أول الكلمة غـالباً. ثم إنها لم تسمّ بهذا الإسم فكـانت تسمى الألف. وللتميز بينها وبين ألف المد يقـال الألف اللينة تمـيزاً لها عن الألف التي هـي الهمزة. ومن أجـل ذلك كـانت العنايـة بـرسـم الهمزة ضـرورية من حـيث أنهـا صوت كـسـائر الأصوات الصامتة، ومن حق رسمها أن يثبت في الكلمة وأن يتفق على صورة لتيسير هذا الرسم بـدلاً من القواعد المعقدة الكثيرة. الا تـرى أنهم يكتـبون: و (رؤوس) ورءوس؟.

د ـ ولا بـد لنا أن نقف على مـادة الصرف والنحـو، وقـد قـدمت موضوع الصرف لأن التقديم شيء يقتضيه الترتيب العلمي كمـا سنرى. قـلت: لا بـد من البدء بالصرف فما حقيقة هذه المادة؟ إن الصرف يعرض للكلمة وتركيبها على صورة من الصور ومـا يعرض لها من تغيير في بنيتها وإبـدال في أصواتها. وإذا كـان الأمر كـذلك فـلا بـد من البدء بـأصغر وحدة تشتمل عليها الكلمة الصرفية، تـلكم هي الأصوات ومعرفتها.

وقـبل أن نتناول هذه المادة وفـق مـا يقتضيه العلم الجيد النافع نـرى من المفيد أن نـبين مـادة الصرف في الدراسة القائمة التي يتبعها الدارسون في عصرنا في المدارس كما هي مـدونة في كتبهـم المدرسية. إن مـادة الصرف في الكتب المدرسية مبثوثة في كتـب النحو لا تتبع نظاماً في توزيعها وترتيبها. فقد تجـد المادة الصرفية بـإزاء المادة النحوية ثم تنقطع هذه المادة الصرفية وتتحول مـادة الكتـاب إلى النحـو ثم تعود مـرة أخـرى إلى الصرف. ورُبمـا وجدت المادة الصرفية جـزءاً من الموضوع النحوي. ولعل هذا نـاتج عن أن الكتـاب المدرسي الجديد يتبع في سـرد مادته الكثيرة في القديم. ألا تـرى أن الكتـاب القديم حـين يعرض لاسم الفاعـل يعرض في الوقت نفسه إلى عمل اسم الفاعل فـيكون الموضوع صرفياً ونحـوياً؟

ولم يـفطن أحـد من المصنفين للكتاب المدرسي في مـادة الصرف أن يعرض لشيء من الأصوات، مع أن عـلم الأصوات من أهـم مـا يمكن أن يرجع إليه الدارس في تفهم كـثير من المواد الصرفية[1]. عـلى أن الإشارة إلى شـيء

(١) لقد كتـب في الأصوات العربية جمـاعة من المستشرقين في عصرنا فرجعـوا إلى مـا كتبه العرب المتقدمون كالخليل وسيبويه وابن جـني ومن خـلفهم من علمـاء اللغة وغيرهم، ثـم أضافوا إلى ذلك مـا وصل إليـه عـلم الأصوات في عصرنـا ومـا استعين عليه بمعامل الصوات (المختبرات) فـدرسوا العربية المعاصرة، ومـا يبرز فيها من مشكـلات صوتيـة تتصل باللهجـات وغيرهـا. ثم كـتب غير واحد من الباحثين العرب وعلى رأسهم، إبـراهيم أنيس وجماعة من أساتـذة دار العلوم في القاهرة، وكأن كـل واحد من هؤلاء يعيـد مـا ذكره الآخـر في الكلام على الصوت الإنسـاني وطريقة إخـراجه، والجهـاز الصوتي وأجـزائه، وعلاقة الصوت بعملية التنفس شهيقاً وزفيراً، ثم الأجـزاء العضوية التي يتم فيها إخـراج الصوت (المخارج والأحـياز) فـوائد أخـرى تتصـل بصفـات الصوت وغيرها. أقـول: كـل ذلك حـسن وجـيد، ولكن مـا فائدة ذلك في اللغة التطبيقية؟ وإذا عرفنـا كـل ذلك فهل عرفنا الأصوات على حقيقتها إذا علمنا أن الأصوات =

على أن هذه الجمل تتألف من الرصيد اللغوي الذي يعرفه المتعلم في بيته ومحيطه ثم يزاد عليه شيئاً فشيئاً. وقد يقال: إن الرصيد اللغوي مختلف في البيئة الواحدة، ذلك أن ابن القرية له رصيده اللغوي الذي يختلف عن رصيد نظيره ابن المدينة. ومن هنا وجب على واضعي هذه الكتب للسنوات الأربع أن يحسبوا حساب الرصيد اللغوي المشترك الذي يجمع أبناء القطر الواحد.

على أن يلتفت المعلم إلى أن عملية القراءة وتعلُّمها يجب أن يصحبه تعلُّم للتجويد[1]. وأريد بالتجويد أن يتدرب المتعلم على حسن الإلقاء. وبهذا يتم لمتعلم القراءة قدر واف من الضبط اللغوي أداءً ومعرفة وفهماً وإلقاءً. ومن غير شك فإن المتعلم يهتدي طوال هذه السنوات الأربع إلى لون من القواعد النحوية يألفه قبل أن يشار إليه بالاسم على أنه (نحو) أو (قواعد) كما يسمى في لغة المدارس في عصرنا.

ألا ترى أن تعلم القراءة على هذا النحو، والتوفر على هذه الفوائد التي أشرت إليها في الأصوات والدلالة يجعل العربية وحدة ثقافية تضيف إلى معارف المتعلم فوائد عدة لا أرى الحاجة تدعو إلى تكرارها؟ وقد يكون من أبرز هذه الفوائد إثراء معجم المتعلم وهو مبتدىء في أول الطريق.

ويستمر تدريب المتعلمين على القراءة الجيدة النافعة التي تهدف إلى تحقيق أغراض عدة هي حسن الأداء وما يقتضيه من إحسان إخراج الأصوات، والتدريب على تأليف الجمل وزيادة المعرفة اللغوية باستعمال مجموعة من الكلم تزداد كلما تقدم المتعلم في تدرجه في المدرسة، حتى إذا وصل إلى السنة الخامسة أضيف إلى الأغراض التي تهدف إليها مادة المطالعة غرض آخر هو معرفة القواعد النحوية والتطبيق الصرفي اللذين يشتمل عليهما كتاب النحو والصرف.

---

(١) لقد بات مفهوماً لدى كثير من الناس أن (التجويد) تلاوة القرآن بضرب من التغني والتطريب. أقول: ليس هذا هو المراد بالتجويد ذلك أن التجويد إحسان التلاوة والقيام على إخراج كلمات الله تعالى إخراجاً حسناً.

يسير من علم الأصوات ضروري في الدراسة الثانوية، كأن يشار إلى الجهر والهمس، والأصوات القمرية والشمسية ونبذة موجزة عن مجاميع الأصوات، نحو الأصوات الحلقية والأصوات الشفوية. وما يكون منها من طرف اللسان، وغيرها.

وإذا كانت الدراسة الصوتية أمراً لا بد منه فقد يكون من الواجب أن يبدأ بشيء من ذلك في دراسة مادة الصرف بدءاً من المرحلة الثانوية. على أن تكون هذه الدراسة مصححة لكثير من الخطأ الذي جرى عليه المتقدمون وتبعهم اللاحقون إلى أن أظلنا العصر الحديث.

إن دراسة المواد الصرفية في عصرنا في الكتب المدرسية الحديثة لا تختلف في جوهرها وموادها وتفريعاتها عن علم الصرف في الكتب القديمة. ومن دراسة الصرف أن نعرف بدءاً شيئاً من الأصوات. والأصوات كما هو معلوم قسمان: الأصوات الصامتة (Consonne) والأصوات المصوِّتة (Voyelle). وهذا يعني أن نقلع وفق هذه الدراسة عن مصطلح (الصحيح) و (المعتل)، وذلك لأن الحروف الصحاح بحسب علماء اللغة الأقدمين هي الحروف غير الواو والألف والياء. وهذا ما هو معمول به إلى يومنا هذا في الدراسات المدرسية في مراحلها المختلفة. وهذا يعني أيضاً أن الألف والياء والواو، وهي حروف (العلة)، تقابل (الصحاح).

= تختلف بين بيئة وأخرى، وبين جماعة وأخرى؟ وقد يكون الاختلاف بين فرد وآخر، وبين عصر وعصر. فإن لم يكن من ثمرة دراسة الأصوات معرفة شيء من مشكلات العربية، ولا سيما المسائل الصرفية، فلا فائدة من هذه الدراسة. وفي الحال تكون الدراسة الصوتية حشو ذهن الطالب بمسائل لغوية صوتية معقدة متشابهة يحفظها الطالب في المرحلة الجامعية وسرعان ما ينساها.

قلت: إن الأصوات تختلف بين قطر وقطر، ومدينة وأخرى، والمدينة والقرية، وفرد وفرد، وعصر وآخر، فهل لنا أن نقول: إن علمنا بالأصوات علم يمكن أن يطمأن إليه؟ وكيف يمكننا أن نقول: إن الصوت الفلاني كيت وكيت، مع علمنا أن هذه الأصوات كما هو واقع جار متأثرة بالألسن الدارجة؟ وحتى المادة العلمية التي سجلها الأوائل في الأصوات، كيف يمكننا أن نقول إنها صحيحة جيدة أو أنها أصوات العرب عامة في قبائلهم المختلفة وبلادهم المترامية الأطراف؟ على أن أهم فائدة لهذه الدراسة الصوتية ينبغي أن تكون عملية تطبيقية، وذلك بفهم المشكلات اللغوية كما سنرى.

ووجه الوهم في هذا التقسيم أن الصرفيين العرب قد خلطوا بين أصوات اللين والمدّ في نحو: (قالَ ويَقُولُ ويَبيعُ) وبين الواو والياء في نحو: (وَجَدَ ويَسَر). وقد يكون الخلط أكثر من ذلك لدى الأوائل الذين عدّوا الفعل المهموز نحو: (أَمَرَ وسأَلَ وقَرَأ) في باب المعتل (انظر كتاب (العين) للخليل، و(التهذيب) للأزهري). ومن المعلوم أن الواو في (وَجَد) والياء في (يَسَر) والهمزة في المهموز، أيّاً كان موضع الهمزة، كل ذلك من الأصوات الصامتة. وكان الحق أن يعدها الأوائل مع طائفة الحروف (الصحاح) غير المعتلة.

ولعل من باب الوهم أيضاً أن العرب خلطوا في الرسم أيضاً. فقد كانت الألف، وهي صوت مدّ لين، ترسم على هذا النحو (ا) كما في (قال). وهذا الرسم يؤدي الهمزة عندهم قبل أن يكون لها رسم خاص هو رأس العين بعد اقتطاع ذنبه (عـ). وكانت الواو، وهي صوت مدّ ولين، ترسم على هذا النحو (و) كما في (يقول). وهذا الرسم هو نفسه في (وَجَد). وكانت الياء، وهي صوت مدٍّ ولين، ترسم على هذا النحو (يـ) كما في (يَبيعُ) وهو نفسه في (يَسَر). ولو أنهم خصصوا لهذا الألف الذي في (أَمَرَ)، وللواو كما في (وَجَدَ)، وللياء كما في (يَسَرَ)، رسوماً أخرى، غير تلك التي تؤدي المدَّ واللين كما في (قالَ ويقولُ ويبيعُ) لاختلاف هذه عن تلك طبيعة وصفات ومخارجَ وأحيازاً، لكنا اليوم أسعد حالاً وأيسر في فهم كثير من مشكلات العربية[1].

---

(١) لعل الأقدمين قد جعلوا الرسم للألف والواو والياء من حيث كونها أصوات لين نظير الألف في (أَمَرَ) والواو في (وَجَدَ) والياء في (يَسَرَ) لأنهم وجدوا أن أصوات اللين في (قالَ ويقولُ ويبيعُ) تكون أحداث مصادرها: (القَوْل والبَيْع) فذهبوا إلى أن المدّ في هذه الأفعال أصله الواو والياء في (قَوْل وبَيْع)، ومن هنا حدث الخلط بين طبيعتين مختلفتين. فكيف يصار إلى حل هذه المشكلة؟ أقول: ينبغي أن نقطع بمسألة الأصل والفرع فنقول: إن (قال وباع) فعلان يتألفان من صوتين صامتين بينهما صوت مدّ ولين، وليس من علاقة أصل وفرع واشتقاق بين الفعل والمصدر (قَوْل وبَيْع) فكلاهما أصل، ولكل أصل بنية خاصة وطريقة خاصة في عدة الأصوات وبنائها وترتيبها، وبهذا نحفظ للقيم الصوتية حقها. ولو أنهم أدركوا هذه الحقيقة لاستطاعوا أن يخالفوا في الرسم فيكون للصوت المصوت رسم خاص كما يكون للواو الصامتة والياء الصامتة رسم خاص فيبتعد الخلط وتتضح المسائل.

هـ - على أن التصحيح الذي تتكفل به الدراسة الصوتية المعاصرة لا يقتصر على المشكلة الآنفة. ذلك أن مما يتصل بها من حيث كونه أصواتاً مصوّتة هو موضوع ما عرف بـ (الحركات). ولا بد لنا من أن نقف وقفة خاصة فنؤكد أن هذه (الحركات) هي أصوات مدّ قصيرة كان ينبغي أن تُضَم إلى طائفة الأصوات عامة. وهذا يعني أن عدة الأصوات تصبح تسعاً وعشرين مع الهمزة ثم تكون اثنين وثلاثين مع الفتحة والكسرة والضمة[1]، على أن يكون لها رسم يدخل في بناء الكلمة أي إن هذه الأصوات (الحركات) ترسم في (كُتِبَ) كما ترسم الكاف والتاء والباء.

ومن جراء الخلط بين أصوات اللين، أي المد، وبين كونها أصواتاً صامتة كما بيّنا، قالوا في باب الإعلال مثلاً إن: (قالَ) أصلها (قَوَلَ)، و (باعَ) أصلها (بَيَعَ)، وأن الواو والياء تحركتا وانفتح ما قبلهما فقلبتا ألفاً. ونحن نقول: إن الألف في (قال) و (باع) ليست من الواو في (قَوَل)، ولا من الياء في (بَيَعَ). وإذا كان المصدر (قَوْل) و (بَيْع) فلا يعني هذا أن الفعل من المصدر جرياً على مقولة سابقة افترضوا فيها أن المصدر أصل، وأن الفعل فرع منه على رأس النحاة البصريين[2]. وقد قلت في حاشية الصفحة السابقة إن العلاقة بين الفعل والمصدر في هذه الأفعال المسماة (جوفاء) علاقة معنى ودلالة وليست علاقة تأصيل. وأقول هنا: إن درس علم الأصوات

---

(١) أقول: إن إدراك الأوائل أن الحركات عناصر ثانوية لا تمللك هذه القيمة الصوتية التي لها في الحقيقة العلمية دفعهم إلى تسميتها (حركات) أولاً، والاعتقاد أنها ثانوية ثانياً، ومن ثم ليس مهماً ألا تثبت في الرسم، وكان من ذلك ما كان من الخلط والخطأ. ألا ترى أن (كتب) لولا هذه (الحركات) لصح لها أربع صور هي (كَتْبٌ) و (كُتُب) و (كَتَبَ) و (كُتِبَ)؟ ولعله لجهلهم قيمتها الصوتية الحقيقية لم يتضح لهم موضعها، فكأنها علامة أو إشارة توضع فوق (الحرف) أو تحته. ولم يهتدوا إلى أنها أصوات يلي كل منها الصوت السابق له كما في (كُتِبَ)، فهي: كُ/تِ/بَ أي الكاف تليها الضمة والتاء تليها الكسرة والباء تليها الفتحة.

(٢) وكان الكوفيون يرون العكس، وعندهم أن الفعل أصل والمصدر فرع منه. ولا يهمنا أمر هذا الخلاف في عصرنا هذا. ذلك أن المصدر والفعل كلاهما مادة واحدة فهما حدث، وهذا الحدث قد يحدده زمن خاص إذا كان فعلاً، وقد يكون هذا الحدث غير مقترن بزمن خاص، ولكن الاستعمال يكسبه شيئاً من الدلالة الزمنية، وهذا هو المصدر. انظر إعمال المصدر كقولك يسرني مجيئك (اليوم أو غداً) فالدلالة مستفادة من بناء الجملة.

في عصرنا هذا ينبغي أن يصار فيه إلى حل هذه المشكلات ونحوها لا أن يكتفىٰ فيه بالقول بالمخارج والأحياز وطبيعة الأصوات وصفتها وطريقة إخراجها وما يتصل بذلك من أعضاء جهاز النطق.

و ـ إن باب الإعلال باب كبير في العربية أقيم كله على هذا الخلط في الأصوات، فكان في جملته مصطنعاً مفتعلاً. ولنضرب على ذلك مثلاً فنقول: قالوا أصل (مبيع) (مبيوع) فكيف توصلوا إلى (مبيع)؟ لقد اتبعوا طريقاً طويلاً كله عبث وافتعال فقالوا: نقلت حركة الياء إلى الباء وهو الصحيح الساكن، فالتقى ساكنان فحذف الواو، وهو واو الصيغة ثم أبدلت ضمة الباء إلى كسرة لمناسبة الياء فصار (مبيع).

وقد تقول: لم حذفت الواو لالتقاء الساكنين، ولِمَ لم تحذف الياء كعادتهم في حذف الساكن الأول؟ ولو عدوا الواو ساكناً وهو ضم طويل؟ ولم كانت الياء حرف علة متحركة تحولت إلى مد طويل في (مبيع)؟ كل هذا للوصول إلى ما أرادوا. ولقد فاتهم أن ينظروا إلى الأبنية على أنها مواد تاريخية، وأن العربية لسان مجاميع بشرية كثيرة مختلفة بعضها عن بعض. وهذا يعني أن من العرب من كان يقول: مديون ومبيوع ومصوون[1]. وهذا يعني أن الأمر يتصل باللغات الخاصة، أي (اللهجات)، فالذي يقول (مديون) هو غير الذي يقول (مدين)، وهذا يعني أيضاً أن بناء (مدين) تطور لبناء (مديون) عند قبيلة أو مجموعة من القبائل، في حين أن (مديون) وهي لغة جماعة أخرى، لم يكتب لها التطور المفترض.

إن الدراسة الصوتية تفرض علينا أن نقول للطالب: إن (مدين) ليس من (مديون) وأن كلاً منهما بناء قائم بذاته. وذلك ما يفرضه علينا علم الأصوات الذي يميّز بين الياء في (مدين) والياء في (مديون)، لأن كلا منهما صوت يختلف عن الآخر. ومن ثمار علم الأصوات أننا نقول لطالب الصرف

(١) انظر: جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، (لسان العرب)، ١٥ ج (بيروت: دار صادر، ١٣٠٠ هـ)، مادة (صون) و(دين) و(بيع)، وانظر أيضاً: أبو الفتح عثمان ابن جني، (الخصائص)، تحقيق محمد علي النجار، ط ٢، ٣ ج (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٢ - ١٩٥٦ م).

في عصرنا ـ لو تهيأ لنا ذلك ـ: إن الفعل (ازدَحَمَ) والفعل (ادّعَى) والفعل (اذدَكَرَ) كل ذلك من بناء (افتعل) مثل (اختلط) ولكن بسبب من الحرص على المماثلة في طبيعة الصوت أبدلت تاء (افتعل) دالاً بعد الزاي والدال والذال. وفي باب الإبدال أمثلة كثيرة نستطيع أن نجد علة الإبدال في المماثلة الصوتية، فالصوت المجهور يلتئم مع نظيره وكذلك المهموس.

وبعد هذه البسطة من الكلام على الصرف وكيف يجب أن ينظر إليه، مستفيدين من علم الأصوات، يحسن بنا أن نقف على أكبر مادة في تاريخ العربية هي مادة النحو.

قلت: إن مادة النحو قد ظلمت كثيراً في الدراسة اللغوية المتبعة في مدارسنا ومعاهدنا وكلياتنا. وقد أشرت إلى النحو القديم منذ أن حُرِّر في مصنفات كـ(كتاب سيبويه)، و(المقتضب) للمبرد، و(أصول ابن السراج)، وغير هذا من الكتب التي كتبها اللاحقون بهذه الطبقة من الأول، وكتب المتأخرين، كالألفية وشروحها، وغير ذلك من المواد التي يجب على دارس النحو أن يلم بها وافياً، ليعرف تطور الكتابة النحوية، وليلم بمنهج الأوائل ومنهج المتأخرين من النحاة. ولا بد للطالب في الدراسة العالية (الكليات) أن يعرف النحو في هذه المظانّ، على أن هذا غير كاف، لأن تطور العلم اللغوي يستدعي من الدارس الجديد أن يعرف النحو الجديد الذي يتفق والعلم الجديد. وعلى هذا يكون أمام الطالب لونان من الدرس النحوي، الأول: هو النحو التاريخي يدرس في مظانه القديمة دون أن يكون الدرس نقداً أو مقصوراً على النقد. والثاني: النحو الجديد وهو النحو الذي نصف به الكلمة العربية مفردة، والجملة العربية، ومكان الكلمة وموضعها النحوي فيها.

في هذا الدرس الجديد الثاني نعزف عن الجمل المصطنعة المفتعلة التي كنا نواجهها في الكتب القديمة فلا يرى الطالب مثلاً الشاهد النحوي:

قومي ذرى المجد بانوها وقد علمت بكنه ذلك قحطان وعدنان

ولا ما صيغ على غراره من قولهم: (زيد هنداً ـ أو هند ـ ضاربها هو).

وإذا كـان الشاعر القديم مضطراً أن يـقول مـا قال من اللغة المفتعلة بسبب الوزن فـليس قـوله نظاماً يتبع، فنصوغ مثـالاً نحوياً على غـراره.

ونعـرف كـذلك عن قولهم إن: (زيـد قـام) زيـد مبتدأ خـبره جملة (قـام) من الفعل وضميره المستتـر، بـل نقـول: إن (زيـد) فـاعل للفعل (قـام) وهـو نظير قولنا (قام زيد) وليس في التقديم والتأخير مسألة نحوية. ذلك أن هذا يتـصل بالأساليب ومعانيها من حـيث الاهتمام بالمقدم فعلاً كـان أو اسماً.

ولـيس لنا أن نقـول في قـوله تعالى: ﴿وإن أحـد من المشركين استجـارك فأجـره﴾ [التوبـة ٩/٦]. إن ﴿أحـد﴾ فاعل لفعل محـذوف يفسره المذكور والتقدير: (وإن استجـارك أحـد من المشركين استجـارك فأجِرْه). وذلك لأنهـم افترضوا أن في ﴿استجـارك﴾ الثانـي ضميراً هو الفاعـل يعود على ﴿أحـد﴾ المتقدم. أمـا نحن فنقـول: إن هـذا من العبث وأن ﴿أحـد﴾ هـو الفاعل لـ ﴿استجـارك﴾ المتأخـر قـدم عليه لغرض من أغـراض الأسلوب، ولكلام الله أسـرار يهدي إليها طبيعة هذه العربية ذات الأساليب المختلفة.

ومـن العبث أن نقـول ببـاب التنازع كما في قـولهم: (قعد وقـام أخـوك) إن الفاعل متنـازع عليه من الفعلين. فقد عـده البصريون للفعل الأول لأوليتـه، وعـده الكوفيـون للفعل الثاني لقربـه، وقـال كـل منهم أنه يحتمـل الفعل الذي لـيس الاسم الظاهر فاعـلاً له ضميـراً هـو فاعـله. ولو افترضنـا أن مثـالاً وقـع في لغة النـاس على هـذا النحو لكـان الفاعل لكليهما معاً في رأينـا الجـديد. ونرفـض بـاب التنازع كمـا نرفض بـاب (الاشتغـال) في قـولهم: الخبز أكلتـه. قـالوا الخبـز نصب على الاشتغـال لأنـه مشغول عنه أي إن الفعل قـد شغـل بضمير الخبر المتقدم نصبه. اللهم إن هـذا من العبث الكبير، فالخبز مفعول للفعل المتأخـر.

ثـم أليس من العبث أن يقـول الطفل الغرير في قـوله: يلعبُ الولد، أن الفعل مرفوع لتجرّده عن الناصب والجـازم. ألا تـرى أن في قـوله (لتجـرده) إشعاراً بـأنه أُملي عليه أن يقـول بـ (العامـل النحوي)، أي إن سـبب الرفع هو (التجـرّد)؟ وكـيف لهذا الطفلَ أن يـدرك السـبب والعلـة والمعلول؟ ثـم كيف له

أن يـدرك (التجرّد)؟ إنهم ألبسوا هذا الطفل لبـوس المنطقي المتفلسف، وهـل يطيق هذا الصغير هذا المنطق؟ ويسمون للمتعلم، ابتداءً من المبتدىء الصغير وهـو الطفل، مسميـات لا يـدركها. فالمضـارع شـيء بعيد كـل البعد عن إدراك المتعلم الكبير بـله الطفل الصغير.

قـالوا: إن المضـارع مـا ضارَع الإسم أي شـابهه. ولا نـرى نحن الدارسين في هـذا العصر وجهـاً للشبه بين الفعل وهـذا الاسم. وكأنهم أدركـوا هذا الاضطراب فقـالوا أيـضاً أشـبه اسمَ الفاعـل الثلاثـي في حركاته فـإن (يـضرب) مثـل (ضـارب) في الحركـات. وهـل رأيت أخـي القارىء مثـل هذا العبث؟ ثم قـالوا: أشبهه في الإعراب لأن الإعراب أصـيل في الأسمـاء، والبنـاء أصيـل في الأفعال، فـلما أعرب (المضارع) شابَهَ الأسمـاء فسُمِّي مضارعاً أي مشابهـاً، كـل هذا من العبث.

وأكثـر عبثاً من ذلـك أنهم لم يهتموا بزمـن الفعل اهتمامـاً كـافياً فالماضي هـو زمن قـضي ولا تعرف لهذا الماضي حـداً في نحـوهم. كما لا تعرف حـدود الحـاضر أو المستقبل. فـأين المستقبل القريب وأين المستقبل البعيد؟ وكـيف يـكون الفعل مستقبلاً بالقياس إلى فعل آخر في الجملة عينها وكلاهـما ماض قـديم؟ ألم يُعرب العرب في جاهليتهم وإسـلامهم وفي كتـاب الله تعالى وحـديث رسوله صلى الله عليه وسلم عن خـصائص زمنية كهـذه؟ لـم يـدرك النحـوي القديم من هذا شيئاً، أفتـرى أن العجب كـل العجب أن يـظل هذا النحـو قائماً فـلا يصـلح شيء منه ولا يؤتـى بجـديد مع النافع من القديم الموروث؟.

ز ـ هـذا قـليل من كـثير يتصل بمـادة النحو بما أثـقل من مواد ليست من النحو وبمـا كتب في أسلـوب قـائم على عنـاصر ليست لغوية، هـي أقرب إلى أهـل المنطق المتفلسفين. ونجتـزىء من ذلك بالأمثـلة التي سقناها لنتفرغ إلى شيء عن المعجم العربي فنقـول: إن المعجم العربي قـديم بـاق على قـدمه، ولم تستطع الجهـود الكثيرة أن تحـرر معجماً جـديداً. ومن صفـات المعجم القديم أنه وعـاء فيه من الفوائد مـا لا حـصر له. فقد تـكون فيه الكلمة ودلالتها

واستقامتها ومشتقـاتها ومعانيها الكثيرة المختلفة ومـا يتصل باللهجـات من ذلك. وقـد يـكون ذلك مما لا حـاجة إليه، أي من الموضوع المصطنع الذي قـذف به الوضاعون على نحـو مـا وضع في الثقـافة العربية في الشعر والنثـر والأخبار والحديث وغير ذلك من الألوان الأدبية التـاريخيـة.

أقـول: إن المعجـم القديم وعـاء حوى الكثير من المعارف المفيدة وغير المفيدة. وإذا كـان وعـاء فقد يـكون من صفـاته عـدم التنظيم. فأنـت لا تستـطيع أن تهتـدي فيه إلى الفائدة المرجوّة بيسر، وقـد تستوفي المادة ولا تجـد ضالّتـك. والكلام كـثير في هـذا الباب. والذي نـدعو إليه أن يـكون لنا معجمـات هـي:

- معجم تـاريخي يؤرخ للكلمة فيتعقبها في مسيرتها إلى أن تظل حيّة أو أن تموت مفيداً من النصوص المعتمدة الموثوق بها.
- المعجم الجديد للعربية المعاصرة. ذلك أن هذه العربية على فقرها قد اشتملت على جـديد لا نستطيع أن نحمله على الخطأ بحجـة (قـل هـذا ولا تقل ذلك).
- المعجم المدرسي، وهـو جهـد كـبير يـلزمه ضـبط للرصيد اللغوي في القطر، وفي الأقـطار المختلفـة، لنضبـط مـا يمكن أن يؤلـف مـادة هذا المعجم فيـرجع إليه الدارس الجديد.
- المعجمـات الخـاصة وهي معجمـات العلوم والفنون والآداب.

مقدمة في (المعجم التربوي)(1)

أذكر أننا درسنا مادة (تاريخ التربية) في مقرّر طلاب التربية من أجل الإعداد إلى مهنة التدريس الثانوي. غير أن أجزاء هذه المادة كانت شيئاً بعيداً عنّا، فهي تضرب أصولها في التاريخ الغربي. وما زالت أذكر كتاب (تاريخ التربية) لعبد الله مشنوق الذي ينقل الطالب العربي عامة والمسلم خاصة إلى بيئة غربية وإلى التعليم القديم الذي كانت الكنيسة مضطلعة به. وقد فات أساتيذ التربية - سامحهم الله - أننا نحن المسلمين قد عرفنا هذه المعارف، وقد شغل أسلافنا بنظم التربية وبتقويم الطالب وإعداده في العلم، وكتبوا في الطرائق الفنية التي توصل المعارف إلى الشداة.

(1) المعجم التربوي مشروع مقترح، وهو يندرج في جملة المعجمات الخاصة التي اقتضتها المعارف القديمة والمعارف الجديدة. ومن الحق أن تقول إن أهل العلم من اللغويين وغيرهم قد شاركوا طوال العصور في هذا الجهد اللغوي التاريخي. لقد فطن المتقدمون للمصطلح فدونوا فيه مصنفاتهم، ولنا أن نقول إن مصنفات ألفاظ القرآن وألفاظ الحديث هي أصول المصطلح الإسلامي. ثم اتسعت آفاق النظر إلى مختلف مصطلح العلوم، وليس (تعريفات) الشريف الجرجاني إلا شيئاً من المصطلح الفلسفي القديم. ثم جاءت عصورنا الحاضرة وجدت فيها الحاجة إلى وضع معجمات للعلوم كافة، وهي ما تفتأ تزيد، ذلك أن معارف جمة قد نشأت في العقود المتأخرة. ألا ترى مثلاً أن علوم الفضاء قد أضافت آلافاً من المصطلحات الجديدة لمسائل علمية بنيت على نظريات في الفيزياء والرياضيات عرفت قبل هذه الحقبة، ولكن النظر الجديد قد حولها إلى نظريات جديدة منها ما يدخل في الفيزياء النووية وغيرها. وما زال المصطلح الجديد يزيد آلافاً عدة كل عام.

إن (المصطلح التربوي) خاص بالتربية، وهو غير مصطلح علم النفس على قرب العلاقة بينهما.

وقد فطن بآخرةٍ نفر من الدارسين إلى مشاركة المسلمين في هذا العلم (التربوي) فكتبوا كتباً في (التربية الإسلامية) وكان من هؤلاء الدكتور أحمد شلبي والدكتور أحمد فؤاد الأهواني، وخليل طوطح وآخرون هنا وهناك.

ومن المفيد أن أقول: إن مصطلح (التربية) جديد، وهو يندرج في المصطلحات الجديدة التي جدت في اللغة العربية كسائر المصطلح العلمي في المعارف المختلفة. غير أننا في هذا الجانب اللغوي مقلدون نقلة، نترجم الشائع المعروف في اللغة الإنكليزية. ومن العلم أن نقول: إن أوائل الترجمات في باب المصطلح الجديد كانت من أصول فرنسية، وما زالت إلى يومنا كذلك في بلدان الشمالي الإفريقي، فأما في بلدان المشرق العربي فقد تحولت حركة الترجمة من الفرنسية إلى الإنكليزية. ولعل شيوع الأصل الفرنسي في المصطلح العربي في بلدان الشرق كان مما توارثه المشارقة من العهد العثماني، ذلك أن الأتراك العثمانيين قد اتخذوا الفرنسية لغة الثقافة التي اتصلوا عن طريقها بالثقافة الغربية عامة.

أقول: إن المصطلح العلمي الحديث في العربية المعاصرة ينظر فيه إلى اللغة الإنكليزية، وكأننا نترجم إلى لغتنا العربية المصطلح الإنكليزي أو الأميركي، في حين يصنع المغاربة في الشمالي الإفريقي صنيعنا هذا، فهم يترجمون المصطلح الفرنسي إلى العربية. ومن هنا اختلف المصطلح بين المشارقة والمغاربة، وكلٌ منهم يتعصب لما ذهب إليه، وكلهم مقلّد ناقل مترجم. ومن المفيد أن أشير إلى مثل واحد من هذه المفارقة الغريبة، وذلك أن أهل المشرق قالوا: (كومبيوتر)، وهو الاسم الأميركي الإنكليزي (Computer) في حين ذهب أهل المغرب إلى (الرتّابة)، وهو من غير شك مقابل للمصطلح الفرنسي (Ordinateur)وقد استظرف إخواننا أهل المغرب صيغة التأنيث لأنهم نظروا إلى الجهاز على أنه (آلة) فأنّثوه، في حين اكتفى المشارقة بالترجمة الحرفية فذهبوا إلى (الحاسوب)، مع العلم أن الترجمة غير وافية، ذلك أن الجهاز الذي ندعوه (كومبيوتر) يقوم بأعمال كثيرة أحدها الحساب.

ولنرجع إلى المصطلح التربوي، ولنبدأ الكلام على كلمة (تربية)، وهي أمّ الباب، فنقول: لقد حولناها من مصدر للفعل (ربّى) إلى مصطلح جديد ينظر فيه إلى المصطلح الغربي (education)، فالتربية مصدر كالتزكية والتنمية والتسوية. لقد حولناها إلى مصطلح جديد ينصرف إلى معرفة جديدة وقديمة. ومن غير شك أن (التربية) بنية جديدة تتجاوز المعرفة والتعليم إلى اهتمامات أخرى على أنها تبقى محتفظة بالمعنى الأصيل للتربية، وهو التقويم.

قلت: إن (التربية) مصطلح جديد قد وصلنا إليه، ونحن ننظر إلى المقابل الإنكليزي، ومن هنا لم يكن مناسباً أن نستعمله ونحن نتكلم مثلاً على (التعليم) القديم لدى المسلمين(١). لم يعرف المصنفون القدامى (التربية) مصطلحاً في كلامهم على التعليم وطرائقه، فأنت تقرأ في (مقدمة ابن خلدون) جملة فصول(٢) في هذا الحقل مما يخص طلب العلم وطرائق التعليم، ولكنك لا تقف على التربية في جملة هذه الفصول، مع العلم أنها كلها تدخل فيما ندعوه اليوم (فنون التربية). بدأ ابن خلدون هذه الفصول بقوله في أولها: «في أن كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل»، وقوله: «في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم»، وقوله: «في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته»، وقوله: «في أن العلوم الآلهية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرّع المسائل»، وقوله: «في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه»، وقوله: «في أن الشدّة على المتعلمين مضرة بهم»، وقوله: «في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم».

وأنت في هذه الفصول تقف على جملة من المفاهيم التي تدخل في علمنا المعاصر في مادة (قوانين التعلم) التي عرفناها في مشاركات التربويين

(١) (التربية في الإسلام) لأحمد فؤاد الأهواني (ط. دار المعارف بمصر).
(٢) (مقدمة ابن خلدون)، الفصول: التاسع والعشرون، والثلاثون، والحادي والثلاثون، والثاني والثلاثون، والثالث والثلاثون، والرابع والثلاثون. وهذه الفصول نجدها في الطبعات المختلفة.

الأمريكيين وعلى رأسهم (ثورندايك). ولست ببعيد عن كثير مما جاء في فلسفة الفيلسوف الأمريكي (جون ديوي) مما يتصل بالتربية وعلاقتها بالحياة والنمو. ثم إنك واجد في هذه الفصول وغيرها إشارات وملاحظات تتناول التفاصيل والمسائل الفرعية، ومن ذلك قوله[1]:

«فصل في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً، وخصوصاً الكتابة والحساب» و «أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية» و «أن اللغة ملكة صناعية».

وهو يقرر أيضاً: «أن الصنائع لا بدّ لها من التعليم»[2].

وهو يشير في فصل (تعليم الولدان)[3] إلى (التعليم الأول) وهو ما يكون في سنّ الصبا، أي قبل البلوغ، وإلى (التعليم الثاني) وهو ما يعقب التعليم الأول.

وكأن ابن خلدون في هذا الفصل يربط بين علم النفس والنظرية (التربوية)، وهو يتعقب فيه طرائق التربية في مختلف البلدان، كما لا تعدم أن تجد الوصايا العملية التي ينبغي للمعلم أن يتوفر عليها.

وهو يعرض للعلوم المختلفة وأثرها في تقديم المتعلم وما تضيفه إلى ملكاته العقلية، ومن ذلك علم الهندسة والحساب[4].

ولا يغفل ابن خلدون في ذلك كله أن يربط العلم بالعمران البشري، والعمران البشري هو لب الإضافات الخلدونية في نظريات علم الاجتماع، وهو الحضارة بأوسع معانيها في مصطلحنا المعاصر[5].

ومن المفيد أن أختم هذه الإلمامة التربوية من الفكر الخلدوني بقوله في فصل (إن التعليم للعلم من جملة الصنائع):

«إن الحضر لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمسكن والبناء وأمور

---

(١) المقدمة (ط. كاترمير) ص ٤١٧، ٤٤٧، ٥٥٤
(٢) المصدر السابق، ص ٣٩٩
(٣) المصدر السابق، ص ٥٣٩
(٤) المصدر السابق، ص ٤٨٣، ٤٨٦
(٥) المصدر السابق، ص ٤٢٩ - ٤٣٠

الدين والدنيا، وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم، فلهم في ذلك كله آداب يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به من أخذ وترك حتى كأنها حدود لا تتعدى. وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم»[1].

إن جملة هذه الملاحظات التي اشتملت عليها هذه الفصول الخاصة بالتعليم والتعلم تؤلف الكثير مما ورد عن المتقدمين في هذه الفنون التربوية.

وقد سبق ابن خلدون غير واحد ممن صنّف في التعليم، وأول من صنف في هذا محمد بن سحنون[2] المتوفى سنة ٢٥٦ هـ، وهو كتابه الموسوم بـ (آداب المعلمين)[3]. ويشتمل هذا الكتاب على:

١ - ما جاء في تعليم القرآن العزيز.
٢ - ما جاء في العدل بين الصبيان.
٣ - باب ما يكره محوه من ذكر الله.
٤ - ما جاء في الأدب وما يجوز في ذلك وما لا يجوز.
٥ - ما جاء في الختم وما يجب في ذلك للمعلم.
٦ - ما جاء في القضاء بهدية العيد.
٧ - ما يجب للمعلم من لزوم الصبيان.
٨ - ما جاء في إجارة المعلم ومتى تجب.
٩ - ما جاء في إجارة المصحف وكتب الفقه.

أقول: وكلمة (آداب) جمع (أدب) التي وردت في عنوان الكتاب من الكلم الفني، فهي تشير إلى ما يجب أن يتوفر في المعلم من صفات، وما

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٣٣.

(٢) هو محمد بن عبدالسلام المتوفى سنة ٢٥٦ هـ. انظر: معالم الإيمان ٢/٧٩، الوافي بالوفيات ٣/٨٦.

(٣) آداب المعلمين (ط. تونس بتحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب سنة ١٣٤٨ هـ)، وقد أعاد نشره الدكتور أحمد فؤاد الأهواني في ذيل كتابه (التربية في الإسلام). ومن المفيد أن أشير إلى أن (آداب) وكذلك (أدب) قد احتملت معنى ما ينبغي أن يملكه المعلم من العلم والصفات. ولعل هذا يصدق في إطلاق هذه الكلمة على (أدب الكاتب) لابن قتيبة، و(أدب الكتاب) للصولي.

يضطلع به من واجبات، ومثل هذا قد ورد لدى ابن خلدون في الشذرات التي اقتبسناها من فصول (المقدمة)[1].

ومن المفيد أن نشير إلى كلمة (أدب) التي انصرفت في حال إفرادها إلى معنى (العقاب) الذي يُنزله المعلم بالمتعلم في حال تقصيره، وهو الباب الرابع في كتاب محمد بن سحنون.

وممن صنف في هذه المواد أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بابن القابسي[2] وهو كتابه الموسوم بـ (الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين)[3]. وقد أفاد القابسي من كتاب (ابن سحنون) وأشار إليه.

و (المتعلم) في هذين الكتابين وغيرهما هو التلميذ الصغير، أو الطالب في مصطلحنا المعاصر، وربّما دُعي هذا (المتعلم) الصغير صبيّاً. وقد نستفيد هذا من ورود كلمة (الصبيان) في هذه المصنفات القديمة، ومن ذلك كتاب الونشريسي (سياسة الصبيان)[4].

وأما (المعلم) فأكثر ما ينصرف إلى معلم الصبيان، و (رسالة المعلمين)[5] للجاحظ تؤيد هذا، ذلك أن الجاحظ قد أتى على أخبار المعلمين مع الصبيان التي نبز فيها المعلم وأشار إلى (سلبياته).

ولعل (المتعلم) و (المعلم) من مواد هذا المعجم التربوي الذي نتتبع فيه المسيرة التاريخية. ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن (المعلم) قد يكون صاحب (الكُتّاب)، و (الكتاب) في تاريخ التعليم الإسلامي قديم، فقد جاء في الأخبار أنه كان معروفاً في عهد عمر بن الخطاب، كما ورد هذا في مادة (أبجد) من (تاج العروس)[6] فقد جاء فيه: «أن عمر بن الخطاب -

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ط. كاترمير) ص ٤٣٣

(٢) وفيات الأعيان (الطبعة الأوروبية) ترجمة رقم ٤١٩

(٣) نشر الكتاب في ذيل (التربية في الإسلام)، للأهواني.

(٤) لا يمكن حمل كلمة (سياسة) هنا على المصطلح التربوي، وذلك لأنها لم ترد إلا في اسم هذا الكتاب.

(٥) كتاب (المعلمين) تحقيق إبراهيم خليل جرس، عكا ١٩٨٠ م.

(٦) (تاج العروس - أبجد).

رضي الله عنه ـ لقي أعرابياً فقال له: هل تحسن أن تقرأ القرآن؟ قال نعم. قال: فاقرأ أمّ القرآن، قال: والله ما أحسن البنات فكيف الأم؟ قال: فضربه ثم أسلمه إلى الكتّاب، فمكث فيه ثم هرب، وأنشأ يقول:

أتيتُ مهاجِرينَ فعلّموني ثلاثة أسطرٍ متتابعاتِ
كتاب الله في رَقٍّ صحيح وآياتِ القُرآنِ مفصَّلاتِ
فخطّوا لي أبا جادٍ وقالوا تَعَلَّم سَعْفَصاً وقَريَّشاتِ
وما أنا والكتابة والتهجّي وما خطّ البنين من البناتِ»

ويُستفاد من هذا، ومما ذكره ابن حزم أن ظهور (الكتاتيب)، وهي مكاتب الصبيان، كان في العصور المتقدمة الإسلامية فقد ذكر:

«مات رسول الله والإسلام قد انتشر وظهر في جميع جزيرة العرب من منقطع البحر المعروف ببحر القُلزم ماراً إلى سواحل اليمن كلها إلى بحر فارس إلى منقطعة، ماراً إلى الفرات، ثم على ضفّة الفرات إلى منقطع الشام إلى بحر القُلزم. وفي هذه الجزيرة من المدن والقرى ما لا يعرف عدده إلاّ الله كاليمن والبحرين وعُمان ونجد وجبلي طيّ وربية وقضاعة والطائف ومكة. كلهم قد أسلم وبنوا المساجد، ليس منها مدينة ولا قرية ولا حلّة لأعراب إلاّ وقد قرىء فيها القرآن في الصلوات وعُلّمه الصبيان والرجال والنساء وكتب»(١).

ثم أضاف: «ثم مات أبو بكر، ووليَ عمر ففتحت بلاد الفرس طولاً وعرضاً، وفتحت بلاد الشام كلها والجزيرة ومصر كلها، ولم يبق بلد إلاّ وبنيت فيه المساجد ونُسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة بالقرآن، وعُلِّمه الصبيان في المكاتب شرقاً وغرباً»(٢).

وقد أشرنا إلى أن (المعلم) أول من اضطلع بمهمة التعليم الإسلامي القديم. ولا بد أن نأتي في هذا (المعجم) على طائفة العاملين في التعليم. ولنا أن نستعين بما أثبته الإمام تاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ في

---

(١) (الفصل في الملل والنحل) لابن حزم (ط عبد الرحمن خليفة) ١/٦٦

(٢) المصدر السابق ١/٦٧

كتـابه (معيد النعم ومبيد النقم)[1]، وقـد أثبت:

١ ـ معلم الكُتّـاب ومـا ينبغي أن يتوفر فيه من الفضائل[2].

٢ ـ المعيد[3].

٣ ـ المفيد (وقد لقّب بالمفيد جمـاعة من الرجـال عرفوا بذلك، ومنهم الشيخ المفيد من رجـال الشيعة).

ويعتمد على (المفيد) فيمـا يحصل به فائدة من الدرس: من بحـث زائد على بحـث الجماعة ونحـو ذلك. وإلاّ ضاع لفظ الإفادة وخصوصيتها[4].

٤ ـ المدرس: وحـق عليه أن يحسن إلقـاء الدرس وتفهيمه للحاضرين. ثـم إن كـانوا مبتدئين فـلا يلقي عليهم مـا لا يناسبهـم من المشكلات، بـل يدرّبهم ويأخـذهم بالأهـون فالأهـون، إلى أن ينتهوا إلى درجـة التحقيق. وإن كانوا منتهين، فـلا يلقي عليهم الواضحـات بـل يـدخل في مشكلات الفقه، ويخـوض بهم عبابه الزاخـر[5]...

٥ ـ المنتهي من الفقهـاء، وعليه من البحـث والمناظرة فـوق مـا على من دونه... وهو من فقهـاء (المدرسة)[6].

أقـول: و (المدرسة) وهـي مؤسسـة عرفها تـاريخ التعليم لـدى المسلمين تـلي (الكتّـاب) في المنزلة.

٦ ـ خـازن الكتب:

وحـق عليه الاحتفاظ بالكتب وترميم شعثها، وحبكها عند احتياجها للحـبك، والضنّـة بها على من ليس من أهلها، وبـذلها للمحتاج إليها، وأن يقدّم في العارية (أي الاستعارة) الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتـب على الأغنياء...

---

(١) (معيد النعم ومبيد النقم) لتـاج الدين السبكي، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٠

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٨

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٨

(٥) المصدر السابق، ص ١٠٥

(٦) المصدر السابق، ص ١١١

وقد عرف جماعة من الرجال العلماء بهذه المهمة وكان منهم ابن الفوطي المؤرخ البغدادي، الذي كان خازناً في المدرسة المستنصرية ببغداد.

وقد يكون مناسباً أن نتوقف قليلاً في الألقاب العلمية الحديثة الشائعة في الجامعات العربية في عصرنا فنقول: الألقاب العلمية في جامعات المشرق العربي هي: المعيد (أو المدرس المعيد) والمدرس، والأستاذ المساعد والأستاذ المشارك والأستاذ، وقد يكون لقب الأستاذ المشارك غير معمول به في بعض من هذه الجامعات. وليس الأمر كذلك في بلدان المغرب العربي، وذلك لتأثر إخواننا بالشمال الإفريقي بما هو معروف لدى الفرنسيين.

إن ألقابنا الجامعية في المشرق العربي صُنعت أو صيغت على المعروف الشائع في الجامعات الأمريكية والجامعات الإنكليزية أحياناً على الخلاف اليسير بين الأمريكيين والإنكليز في هذا الشأن.

ولقد خُيّل للدارسين في البلدان العربية أن هذه الألقاب هي ألقاب العلماء الجامعيين في كل مصر من أمصار المعمورة، ولم يعرفوا أن الغربيين، عامة مختلفون في هذه المواد فألقاب الفرنسيين الجامعية غير هذه، وغير ما لدى الألمان منها، وهي عند الألمان غيرها عند الروس مثلاً.

أقول: إذا كان الغربيون مختلفين في هذه (الرسوم) فلِمَ يتحرّج أصحابنا العرب في الانفكاك منها؟ ولِمَ لا يفكرون أن يكون لهم شيء خاص بهم نظير ما عند الأمم الأخرى من الصين واليابان وأندونوسيا وإلى أوروبا بأقطارها المختلفة ثم أمريكا وكندا. إننا نحن العرب نشعر أن ليس في طوقنا أن نكون غير مقلّدين. لقد كان لنا ألقاب علمية في تراثنا وقد مرّ بنا ذلك، وليس (المعيد) في عصرنا مأخوذاً مما كان لنا في التراث التربوي، ولكننا اجتلبناه مع غيره من الألقاب الأعجمية من أمريكا وبريطانيا.

أتقول: إن هذا ليس مهماً أو ليس ذا شأن، ولكني أقول: كان علينا أن نصل ما انقطع بيننا وبين تراثنا من وشائج رحم.

ثم نأتي إلى المراحل التعليمية، وهي مما ينبغي أن يشتمل عليها (المعجم التربوي) فتندرج فيه كل مادة في موضعها بحسب النظام المتبع في

المعجم. وهـذه المراحـل: هـي المرحلة الأولية والمرحـلة الابتدائية، وقـد يكونان مـرحلة واحدة هـي المرحلة الابتدائية، ثـم الإعدادية، وكانت تـدعى المتوسطة في بعض بـلداننا، ثم المرحلة الثانوية أو التوجيهية باختـلاف هذه البلدان.

ومـن هنا يتعلق الأمر بالامتحـانات، وكـثيراً مـا تنتهي المرحـلة الابتدائية بامتحـان عام هو البكلوريـا الابتدائية، عـلى أن هـذا قـد زال وألغي في كـثير من البلدان، وكان هنـاك امتحانان عامّان للبكلوريـا في المرحـلة الإعدادية (المتوسطة سابقاً)، والمرحـلة الثانوية أو التوجيهية. وقد اقتصر على امتحـان للبكلوريـا في المرحـلة الثانوية وألغي مـا كان منه خـاصاً بالمرحـلة الإعدادية.

وإذا كـانت لدينا هذه الامتحـانات، فـلا بـد من وجـود (شهـادات)، وهـي شهادة ابتدائية وأخـرى ثانوية. ثم نتحـول إلى المرحـلة التعليمية الثالثة وهي الدراسة الجامعية التي تشتمل على مرحـلتين هما: الدراسة الجامعية الأولى التي يمنح فيها الطالب درجـة البكلوريـوس (وقـد كـانت الليسانس قـديماً)، والدراسـة الجامعية الثانية وتشتمل على مرحـلة الماجستـير ومرحـلة الدكتوراة. وقد يضـاف إلى هـذه الدراسات العليا درجـة جامعية هي الدبـلوم وفيه الدبـلوم الأول، ودبـلوم الدراسة العليا العالي وربمـا جعلوه (المعمّق) وهـي ترجـمة المغاربة لـ (approfondi).

وأذكـر أن الزمـلاء أعـضاء مجمع اللغة العربية الأردني قـد عرضوا لجمـلة هذه المواد الأعجمية وناقشوا ما ينبغي أن يـكون مقابـلاً لها بكـلام عربيّ مبين. ولم تـكن هذه السابقة قد انبثقت لهـم من عند أنفسهم، ولكنهم نظـروا في طـلب لأحـد الإخـوة السعوديين من محـبّي التعريب أراد فيه من مجمع اللغة العربية الأردني، وربمـا صنع الشيء نفسه مع المجامـع العربية الأخـرى، أن يـكون لنا بنـاء ثقافي مستقل، وربمـا خـطر له أن نرجع قـليلاً إلى تراثنا لنفيد منه مـا أمكن الأمر من ذلك.

لـقد اضطرب المجمعيـون في هذه الألقاب فبـدا لهم أن يـأخذوا بـلفظ (الإجـازة) التي أخـذ بها أهـل الشام طوال سنين خـلت. وظن أصحابنا أن

(الإجازة) هي (الإجازة) القديمة التي عرفناها في تراثنا، وفاتَهم أنها ترجمة للكلمة الفرنسية (Licence). وتحدثوا في (العالِمية) التي كان (الأزهر) يمنحها للرتبة العالية من طلابه والتي طويت وهجرها الأزهريون، ومن عجب أن علماءنا في (الأزهر) ـ حفظهم الله ـ قد استظرفوا (الدكترة) وصاروا يبتئسون من (العالِمية)، ويحرصون على أن ينادوا بهذا اللقب الأعجمي وهو (الدكتور).

وإني لأعجب من حرصنا نحن العرب على هذه الألقاب، وقد أخذت على نفسي أن أتخلّى عن هذا البهرج فلم يكن ذلك في طوقي لحرص غيري على ألا أكون إلا حاملاً لهذا اللقب. إن الطريق الأمثل للوصول إلى شيء من هذه الألقاب بالعربية لا يكون إلا باتفاق العرب وذوي العلم منهم على شيء يفكّهم من هذا الأسر.

الكتاب التعليمي:

وهو الكتاب المدرسي الذي يراعى فيه أحسن الطرائق في إيصال المعرفة بحسب ما تقتضيه حال المتعلم ودرجة تقبله، والمرحلة التي هو فيها. وهذا النوع من الكتب ليس خاصاً بعصرنا الذي أخذت فيه النظرية التربوية ما يجب أن تأخذه من النظر وإعمال الفكر، بل إن أسلافنا نظروا في هذا، ألا ترى أن أبا العلاء المعري، وقد كان ممن يقصده الطلاب للدرس في علوم العربية، وضع كتبه في النحو والعروض للمبتدئين ثم للذين تجاوزوا مرحلة المبتدىء، ثم للذين انتهوا من العلم إلى درجة عالية.

وإني لأعد كتاب (الجمل) لأبي القاسم الزجاجي من هذا النوع من الكتب التعليمية. ومن أجل ذلك حظي لدى الأندلسيين والمغاربة بعناية، فتوجهوا إليه بالشرح والتعليق بغية أن تكون الشروح والتعليقات مستهدفةً التوجه إلى أهل العلم المتقدمين.

وليس (أدب الكاتب) لابن قتيبة إلا كتاباً تعليمياً اشتمل على فوائد لزيادة معرفة الطالب غير المبتدىء في اللغة والمعارف العامة، ثم كتاب (تقويم اليد)، وهو فوائد في موضوعات تتصل برسم الحروف وغيرها. كما يشتمل على

كتـاب (تـقويم اللسان)، وهـو الإشارة إلى خـطأ المعربين في الاستعمال ذهاباً إلى مـا تستعمله العامة خـروجاً على سـنن العربية.

ومـن هذه الكتب كتـاب (الكـامل) للمبرّد الذي أعـده ليـكون كتاباً جـامعاً للعربية، ففيه النحو والصرف واللغة والعروض والأدب ولا تعـدم أن تجـد فيه حـواشي تـاريخية اقتضتها النصوص التي جـاء بهـا شواهـد.

وقـد حـفلت المكتبة القديمة بالكتب العلمية الأخرى في النبات والشجـر وغيرها.

ومن المفيد أن أعرض للكتب التي قـصرهـا أصحابها على التعليـم والتعلم ومـا يتصل بـذلك من قـريب أو بعيد مستقرياً المواد والمصطلحات التي تؤلـف مواد (المعجم التربوي) حـتى إذا انتهيت من هذا الجانب التاريخي تحولت إلى كتـب أهـل التربية في عصرنا مفيداً منها الجديد في هـذا المصطلح، مجتهـداً قـدر الإمكان أن أفصل مـا يتصل بعلم النفس من المصطلح.

ومـن الكتب القديمة:

١ - (تهـذيب الأخـلاق وتطهير الأعراق) لأحـمد بن محمد بن يعقوب (مسكويـه)(١) المتوفى سنة ٤٢١ هـ.

٢ - (أيهـا الولد) للإمـام أبو حـامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ(٢).

٣ - (تعليم المتعلم لـطريق العلم) لـبرهان الدين الزرنوجـي المتوفى سنـة ٥٧١ هـ.

٤ - (تـذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم) لمحمد بن إبـراهيم... ابن جمـاعة المتوفى سنة ٧٣٣ هـ(٣).

وبعد فهذه نبذة يـسيرة قدَّمت بها للمعجم التربوي الذي اضطلعت بوضعه وتحريره.

---

(١) انظر (إرشاد الأريب) لياقوت ٤٩/٢ و(الإمتاع والمؤانـسـة) ٣٢/١ و١٣٦

(٢) أنظر (معجم المطبوعات) لسركيس.

(٣) انظر (فوات الوفيـات) ١٧٤/٢، و(النجوم الزاهـرة) ٢٩٨/٩

اللغة في برامج التنمية

قبل أن أبدأ الكلام على مادة هذا البحث الذي يبدو غريباً لجمهرة كبيرة من القراء، لا بد لي أن أقول: إن الناس فريقان في النظر إلى (التجربة)، ولا سيما في (المشرق العربي)[1].

فريق يؤمن أن العربية قادرة على الوفاء بالمتطلبات الحديثة، وما جاءت به الحضارة المعاصرة من الجديد، وأن من العلم أن نخلص لهذه اللغة، فنوفر الجديد بالكلم العربي أصواتاً وأبنية، وألا نستأهل بأخذ الدخيل.

وفريق يرى أن لا قبل للعربية في استيعاب الجديد وتهيئة المصطلح الدقيق الذي كان من الكثرة بحيث أصبح لا مفر من أن نأخذه كما هو في الإنجليزية في أقطار المشرق العربي، أو الفرنسية في أقطار المغرب العربي. وهؤلاء أصحاب الاختصاصات العلمية كالكيمياء بأنواعها، والفيزياء بأنواعها، والهندسة، وعلوم الطب والصيدلة، وعلوم الفلك، وعلوم الفضاء، وغير هؤلاء كثير. وقد يصرّح هؤلاء برأيهم هذا أو يكتمونه مراعاة واتقاء لنتائج غير محمودة.

(١) أتيح لي أن أشارك في (الملتقى الدولي الفرنسي العربي للمصطلحات) الذي انعقد في مدينة (الرباط) في الثالث من تموز إلى الثامن منه عام ١٩٨٣، وقد شاركت فيه ببحث في (المصطلح بين القديم والحديث). وقد بدا لي أن أهل المغرب الكبير قد أدركوا هذه المشكلة إدراكاً وافياً، وتبين لهم أن لا بد من تهيئة القاعدة اللغوية الصلبة للوفاء ببرامج التنمية. وكأنهم سبقوا (المشارقة) في استيعاب هذه المسألة الخطيرة.

● **إن حجة الفريق الأول**، وهم أعضاء المجامع والمعنيون بالتراث القديم، أن العربية مرت بتجارب سابقة فكان لها أن واجهت حضارات مختلفة ذات أصول عريقة لا تشبه الأصول العربية، فخرجت من تلك التجارب أو قل: المحن بخير مما خرجت أية لغة من اللغات القديمة، فوفت بالعلوم المختلفة التي وجدوها عند الإغريق وغيرهم واستوعبوها بلغة عربية ذات (أصالة). وهذا كله معروف للمعنيين بالتراث العلمي عند العرب. لقد سلكوا في هذا طرائق عدة: منها أنهم تخيروا للجديد الكلمة العربية، ومنها ما أسموه بـ (التعريب) أو (الإعراب) وهو أنهم عمدوا للكلمة الأجنبية، فإن وجدوا أن أصواتها تتفق والأصوات العربية احتفظوا بالأصوات الأصول، ثم نظروا إلى صيغتها، فإن لم يجدوا فيها ما يبتعد عن الأبنية العربية أخذوها لموافقتها أبنيتهم، فإن لم يتفق لهم ذلك عمدوا إلى تغيير طفيف بشيء من حسن الصنعة ليُصار إلى بناء عربي. وكان لهم من ذلك على سبيل المثال: الموسيقى والجغرافية والفلسفة والميتافيزيقا والهيولي والتطيغوريا والغرامطيقا وغير ذلك من ألفاظ العلوم والفلسفة. وهكذا عُدَّت تلك التجارب ناجحة كل النجاح.

فإذا كان في طوق العربية القديمة ما أعان على توليد اللغة العلمية، فلِمَ لا ننطلق في هذا النهج ولغتنا تتعاورها مشكلات العصر الجديد، حتى خيل لمن يملك الوسائل ومن يفتقر إلى الإيمان والعزم أنها عاجزة عن الوقوف أمام هذا السيل الآتي من المادة اللغوية الوافدة.

● **وحجة الفريق الآخر أن العربية لا يمكن أن تفي بهذه المتطلبات الكثيرة،** وأنها غير قادرة على النهوض بهذا العبء. وأن الجديد من (المصطلح العلمي Terme Technique) كثير جداً، وأن الذي يجدّ في كل سنة بحسب نشرات الدوائر ذات العلاقة في (الأمم المتحدة) يُربي على ستة آلاف مصطلح قد يستقر منها بعد حقبة ليست بالطويلة ما يقرب من أربعة آلاف وخمس مئة. فهل ترانا قادرين على الوفاء بهذا العمل الكبير؟

وهؤلاء نراهم في المشرق والمغرب، فالمشارقة لا يرون سوى

الإنجليزية لغـة للعلوم، والمغاربة لا يـرون سوى الفرنسية، وأن العربية عاجـزة أمامهما، وهـم يواجهـون الفريق الأول الذي تحزبه حماسة وعزم، على أن (الحماسـة) قـد تـكون مضللة في بعض الأحـايين، وسنعرض لشيء من هـذا.

لقد جهـل هذا الفريق ذو الحماسة إلى اللغة الأجنبية، أن إيصـال العلم بالعربية تفرضه عملية (التنمية) الواسعة ذات البرامج المُعَدّة للنهـوض بالفرد وكيانـه وشخصيته وبنائه بناء سـليماً مزوداً بالعلم. ذا صحـة وكمال في الجسم والعقل، وجمـلة ذلك تهيئته إلى الانطلاق في مناحي الحياة الإنسانية المعاصرة في الزراعة والصناعـة وسائر متطلبات العصر. وهـذه (الأشتـات) التي لا بـد منها تؤلف (البنية الأساسيـة) في عمليـة التنمية التي تفرض على القائمين بها أن يعملوا على تكوين (الهوية الوطنية) والقومية لبلدهم، إذا كـان هذا هو النظر السديد الذي اتفق عليه ذوو العقـول الراجحـة، فهـل ترانا نقبـل أن نؤدي هذه الحضارة المعاصرة ومتطلباتها الكثيرة بـلغة أجنبية؟

لـيس الوفاء بالحضارة المعاصرة مسألة (مصطلح جـديد)، وذلك لأن (الهوية الثقافية) تستدعي حضور اللغة القومية، بما حفـلت من تـراث ازدهر بالإسلام ونظرياته الإنسانيـة الشاملة. وعلى هـذا لا محـيد لنا من أن تـكون (العملية التربوية) بالعربيـة لنـكون قـادرين على إقـرار (هويتنا) وبنائها بنـاءً جـديداً يحضر فيه القـديم رفداً وبركـة، فيهـيء للجديد أرضاً مبـاركة فيجود الغرس، وهـذا هو عنصر (الأصـالة).

* * *

على أن من الحق أن أقـف قـليلاً لأتوجـه لهذا الفريق الذي لم يستوعب خطر هـذه التجربة اللغوية فيندفع جهـلاً إلى القول بالتزام اللغة الأجنبية.

أقـول: إن الإنجليزيـة في عصرنـا لغة واسعة الانتشـار، وإن الجديد في العلم وسـائر أفانين الحضـارة المعاصرة يؤدّى بها، غير أن الكثير منَ أمم الأرض قد أدركت هذا ولكنهم لم يُبتَلوا بمثل مـا ابتلي به العرب من التعصب للإنجليزية، وذلـك لأنهـم مدركون لهذا الخطر الذي يفرض عليهم أن يتمسكوا بلغاتهم لتسلم لهم هوياتهـم القومية فساروا على هـذا النهـج، ولم يحسوا أنهم

قصّروا في حق العلم. بخلاف أصحابنا العرب ذوي الاختصاصات العلمية الذين يشيعون أن إيصال العلم الحديث بالعربية لا يحقق الإتقان والإجادة وهم يقولون: «إن المستوى ينخفض (كذا)»!.

- أقول: لم لا يقول البرتغالي والإيطالي والبلغاري والروسي ما يقول أصحابنا ـ غفر الله لهم ـ! وهل ترى أن الياباني الذي يستعمل اللغة اليابانية في جميع مراحل التعليم مقصّر في العلم الجديد، وأنه متأخر عن الأمريكي أو الإنجليزي؟

وأذكر أني رأيت مسؤولاً في وزارة التربية في جمهورية كوريا الجنوبية وسألته عن لغة التعليم في المعاهد العالية، فأجاب باستغراب، وهل تظن غير (الكورية) تستعمل. على أن هذا النظر لا يمنع من معرفة الإنجليزية أو الفرنسية وإتقانهما لتكونا أداتين يستعين بهما المتخصص على التجويد في الاختصاص.

- نعم إنني أقرر أن الجهد الذي نتطلبه للوفاء بهذا العمل الجسيم كبير جداً، وذلك لعلمي أن الوافد من لغة العلم ولا سيما في الإنجليزية قدر كبير. وقد أدرك خطورة هذا الأمر الفرنسيون، على أنهم يرون أن لغتهم عامرة وافية، فقد شعروا أن أهل الاختصاصات الدقيقة مضطرون أن يستعملوا الإنجليزية، فيكتبوا بها مباحثهم بادىء ذي بدء ليشاركوا المتقدمين من العلماء في أمريكا وكندا وإنجلتره. إن هذا ليقض مضاجع الفرنسيين وهم يرون صنيع علمائهم هذا، ولكنهم يبذلون ما يبذلون لتستعيد الفرنسية تألّقها وازدهارها اللذين اتصفتْ بهما طوال قرون طويلة امتدت حتى الحرب العالمية الثانية.

- ثم أقول أخيراً إذا كان هذا هو دأب الفرنسيين وحرصهم على أن يظل للغتهم وحضارتهم كيانها، وإذا كانت أمم الأرض كافة وفيها الآخذ بطرف من هذه الحضارة كما فيها العريق في هذا الأمر، أفلا يكون غريباً أننا لا نملك شيئاً من هذه النظرة الأصيلة؟

وإذا كان التركي المعاصر، والإيراني المعاصر، يجعل كل منهما من

لغتـه أداة في جـميع مراحـل التعليم، فكـيف نتقاعس نحن في هـذا المضمار، ولغتنـا تحفـل بضروب من عبقرية الأصالة؟

* * *

ولا بـد من عودة إلى أصحـابنا من الفريق الأول الذيـن أحمد لهم غيرتهم على العربية وسعيهم في إغنائهـا بالجديد ولكني أقـول: **إنهم يفتقدون استيعاب هذه اللغة للجـديد ومكانها في عملية (التنمية) الواسعة المعقدة.** وبنفسي شيء ممـا لا أرتضيه من (حماسهم)، ذلك أن **(الحماسة) أبعدتهم عن (المهم)** في مسألة (العناية باللغة)، وهـي كونها العمود الذي تقـوم عليه (التنمية). وآيـة عـدم إدراكهم لهذه المسألة الحيوية **إلحاحهـم أن يـكون لكل جـديد تأتـي به الحضارة المعاصرة مقـابل عربي.**

- أقـول: إن هـذا حَسَن على ألاّ نبـالغ فيه، وذلك لأن طائفة من الكلم قد عمَّت بصيغتها الأعجمـية واشتهرت ودخـلت كل اللغات. ولنـا أسوة بالعلماء الأوائل من سلفنا الذين ابتدعوا (التعريب) على نحـو مـا أشرت إليه في أول هـذا البحث فقـالوا: موسيقى وفلسفة وغير ذلك.

ثم نجتهد نحن في عصرنا هذا فنتنكر لأسلوب القدماء في تيسير المشكلة بالتعريب ونحـاول أن نضع كلمـات عربية نقابل بهـا الجديد الأجنبـي ونكلف أنفسنـا عناء أي عنـاء، ثـم نـرى أنفسنا وقد اضطررنا أن نـسلك مـسلك القدمـاء من علماء (التعريب)، ومـسلك غير العرب في عصرنـا هـذا، فندخـل كلمة (التكنولوجيـا) في مصطلحاتنا و (التلفزة)، ويـأتي ذلك في مقررات (مجـامع اللغة)، فنعربهما بـدلالة إدخـال الألف واللام عليهما، كما عرَّبنا (الديمقراطية) و (الفيدرالية) وغيرهما بـدلالة جعلهما على طريقـة المصادر الصناعية في العربية كما في: الماهـية والنوعية والكمية والنسبية وغيرها كـثير.

- أقـول: إذا كنـا نقـبل هذا الأسـاس، وهو (التعريـب) على طريقة الأوائل - على ألاّ نفتح الباب في هـذا على مصراعيه - نكـون قد حقّقنا تقدُّمـاً كبيراً، ولنا أسوة بغيرنا من الأمم المتقدمة وغيرها مما دُعي بـ (العالم الثالث) أو (الدول النامية).

● وأقول أيضاً: لو أن أصحابنا أدركوا مكان (اللغة) في عملية (التنمية) لطامنوا من حماستهم بعض الشيء وعمدوا إلى (التعريب)، وأقلعوا عن نهجهم في إيجاد المصطلح العربي من مادة عربية، وهو نهجهم الذي ينكرون معه طريقة الأقدمين في (التعريب).

وربما كان هذا النهج المتشدد دافعاً لكثير من أهل الاختصاصات أن يصنعوا مصطلحهم بأنفسهم وكله من الكلم العربي، وذلك لأن الكثير من المجمعيّين حين يعرض لما أنجز هؤلاء لا يقرونهم فيبدأ جدل ونقاش، وقد يتبرم هؤلاء بدأب المجامع هذا. وإني لأذكر أن أحد المجامع ـ وأنا أحد أعضائه ـ قد نظر في مصطلحات التربية البدنية التي وضعها المعنيّون بالتربية فعرضوها على المجمع فاستدعى أحد خبراء التربية البدنية وناقشوه في الذي قدم إليهم فكان جدل طويل انتهى إلى قبول طائفة ورفض أخرى، وما أظن أنهم على حق في الذي رفضوه. ومثل هذا حدث في مجامع أخرى، وقد كنت مشاركاً لما دار من نقاش.

* * *

والذي أراه أن على المجمعيّين أن يكونوا أقلَّ تشدداً، وأن يكون مقبولاً كل مصطلح جَرَى على أبنية العربية ولم يجرح شيئاً من أصولها. وينبغي ألا يكثر الكلام على مطابقة المصطلح لما تواضعوا عليه، وذلك لأن المصطلح ضرب من المجاز يتواضع عليه، وكما أن المجاز فيه حقيقة، أو قل يتصل بالحقيقة في وجه من الوجوه، فكذلك المصطلح.

ألا ترى أن مصطلحاً يشيع ويكتب له البقاء، ولكنك لو عالجته بمعيار الصدق والمطابقة لم تحصل على شيء من ذلك، فقد قالوا: (الكيمياء العضوية) على ضرب من هذا العلم يتمثل بكيمياء العناصر غير المعدنية أي العضوية (Biochemistry)، وقد كان هذا المصطلح للحقيقة العلمية قبل أكثر من أربعين سنة، أما اليوم فقد دخل في هذه (الكيمياء) مواد (غير عضوية) عولجت في هذا الضرب من العلم، ومع هذا فقد بقي الاسم (مصطلحاً) وإن كان لا يشتمل ما استجد من شعب هذا العلم.

● **وقد رفض جمهرة من أهل التاريخ القديم في عصرنا مصطلح (اللغات السامية)** وقالوا: هي لغات عربية قديمة تتشابه بينها وكلها عربية. وما أظنهم فعلوا خيراً وذلك لأن (السامية) هو مجرّد مصطلح أو قل اسم من الأسماء، فإن قصر هذا في الدلالة على مجموع هذه اللغات فليس ذلك بشيء. وما أريد أن أتوسع في هذا ولكني أقول: إن تسمية هذه اللغات بالعربية لا يخدم العربية[1].

وقد نجح العرب في أول هذا القرن في وضع مصطلحات فكان لها **السيرورة والشيوع**، وربما اجتهد في ذلك واحد من الناس فكان له ما أراد، وهذا يصدق في (الكيمياء) و(الفيزياء) وأشياء أخرى.

● **ولنعد الآن إلى مادتنا وهي (اللغة قاعدة في برامج التنمية) فنقول:** لقد تنبهت الحكومات العربية لمشاريع التنمية، وأعدّت لها البرامج مستفيدة مما لديها من موارد، ومما تحصل عليه من جهات عدة على سبيل القروض معتمدة على الطاقة البشرية النافعة فيها، وما تستطيع أن تهيئه من الخبرات الفنية. وقد اقتضاها هذا أن تعمل على ضبط القواعد الأساسية التي تقوم عليها الدراسات التي يصار منها إلى وضع البرامج.

وقد اقتنعت بهذا الحكومات العربية في المشرق والمغرب[2] **فكان من ذلك (دوائر المواصفات والمقاييس الإقليمية)، وكانت (المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس).**

وقد يكون القارىء العادي بعيداً عما تضطرب به هذه (الجهات) الفنية من نشاط علمي، وَلِلُّغة مكان أي مكان في هذا النشاط. قلت إن

---

(١) قلت إن إطلاق (العربية) على مجموعة اللغات القديمة كالبابلية (الأكدية والآشورية) واللغة الآرامية والكنعانية والفينيقية وغيرها، غير سديد إذا جعل التشابه في المواد والنحو والصرف دليلاً، وذلك لأن عناصر التشابه هذه متوفرة في اللغة العبرانية فهل ترانا نسمي (العبرانية) عربية على هذا التعليل غير العلمي؟!.

(٢) ربما كانت بلاد المغرب الإفريقي قد سبقت في هذا المضمار، فكان لها الخبرة البشرية في ضبط هذه المواد اللغوية الفنية مستعينة بالأجهزة الجديدة كالحاسوب (الكومبيوتر)، وكان (المكنز) وهو (بنك المعلومات)، ثم قام المشارقة منطلقين في هذا السبيل فأنشىء هذا الجديد من التنظيم العلمي استعانة بالأجهزة الحديثة.

القارىء العادي لا يدرك من هذا الأمر كثيراً، ولم يخطر بباله أن تكون هذه الدوائر ذات علاقة بالمسألة اللغوية، وأن فيها شيئاً من الأسس التي تقوم عليها مشاريع (التنمية) في كل بلد.

ومن هذا ما عرض لأحدهم مستغرباً وجود العلاقة بين العامل اللغوي والتنمية، فانطلق مستغرباً بل معترضاً قائلاً: لقد أقام الأرمن في (حلب) من مدن سورية صناعة متقدمة ولم يعان هؤلاء من وجود مشكلة في اللغة.

والجواب على هذا غير صعب، ذلك أن هذا الرجل ومن على شاكلته بعيدون عن إدراك أن (التنمية) عمل ضخم تعدُّ له برامج وخطط، هذا في البلد الواحد، وهذه البرامج تقوم على وحدات ومقاييس ينبغي أن تكون موحدة مع نظائرها في البلاد العربية، ثم مع نظائرها في العالم بأسره. لقد فرض هذا العصر بما جاء به من تقدم صناعي لغة خاصة فنية لها مفرداتها ومصطلحاتها وطرائق التعبير فيها. ومن أجل أن يكتب لبرامج التنمية في الأقطار العربية النجاح ينبغي أن تكون موحدة منسجمة مع المشهور المتعارف عليه في البلدان المتقدمة. ومن أجل ذلك كان اللجوء إلى تأسيس هذه (الدوائر) التي أطلق عليها دوائر أو مؤسسات (المواصفات والمقاييس) ضرورة ملحة. وكان على هذه المؤسسات أن تستعين بالفن اللغوي وبالخبرات الفنية اللغوية للوصول إلى ما تريد.

إن هذه الدوائر الفنية تعنى بشعب العلم المختلفة التي تدخل في الصناعة والزراعة فتدرس الموصفات والمقاييس، ويدخل في هذا الدرس النظر في المصطلح وانطباقه على المراد في عملية (التقييس Standardization).

ولا بد لنا من بسط المراد بـ (المواصفات) التي تبدو جديدة في بنائها واستعمالها بخلاف (المقاييس) التي هي معروفة لكثير من الناس منذ أزمنة بعيدة. إننا في عصرنا هذا نختار الكلمة العربية، ونحن مدفوعون إلى هذا الاختيار بسبب الكلمة الفنية (التقنية)[1] التي عرفت في اللغات الغربية

---

(١) وقد شاعت (التقنية) وقد اختلفوا فيها هل هي على وزن (تنمية) أم بتشديد النون وفتح التاء والقاف، وكان الغرض منها أن تقابل (تكنولوجيا). وقد زعموا أنها من (تِقْن) بكسر فسكون =

ولا سيما الإنجليزية. وعلى هذا ليست (المواصفات) شيئاً من (الأوصاف) للشيء في الاستعمال اللغوي المألوف، ولكنها شيء نقابل به الكلمة الغربية (Specifications)، ونريد بها أيضاً (Standard Specification) أي المواصفات المقيسة أو القياسية. وقد يجتزىء الغربيون بلفظ (Standard). وأظن أن جمهرة من القراء العرب بدأت تدرك كلمة (ستاندرد) في الكلام على بضاعة وبيان قيمتها في التعامل التجاري فيقال: هي (ستاندرد) (كذا) أي أنها ثابتة الحدود لا تتغير فهذه هي (المواصفة) وهي (ستاندرد). وقولنا ثابتة الحدود قد يعني الأبعاد في الطول والعرض وما يتصل بهذا، وهذا هو (التقييس) الذي أشرنا إليه.

والفطنة إلى (التقييس والمواصفة) ربما كانت قديمة، فأصحاب الحرف يصنعون موادهم كالنجار والحداد وغيرهما وفق أبعاد ألفوها لعلهم لا يغيرونها إلا إذا اقتضى ظرف أو حاجة شيئاً من التغيير. وهذه أفكار قديمة ألفها الناس وفرضتها الحياة وفق المتطلبات في ظروف مختلفة.

ثم تعقدت الحياة، وأقبل هذا العصر بمستجداته الحضارية، فكان للمواصفة حاجة ضرورية ليكون الشيء ثابتاً وفق المتطلبات العالمية وليس الإقليمية، وذلك بتطور الصناعة ونقل الزراعة إلى عمل تنموي يجري وفق حدود اتفق عليها في سائر بلدان العالم.

وقد جدَّ التفكير بالمواصفة الوافية في عالمنا العربي بالمواد الغذائية ليكون ما يقدَّم إلى المستهلك وافياً بالأغراض الضرورية بعيداً عن الغش.

- ولا بد لي أن أقف قليلاً على هذه الناحية لأشير إلى أننا ربما قصرنا في الرقابة على أن يكون ما يقدم للمستهلك من طعام وشراب وافياً بالمصلحة في عصرنا هذا. غير أننا إذا نظرنا إلى تراثنا وجدنا نظام (الحِسبة) وصاحبه هو (المحتسب)، والمحتسب قد يكون كأمين العاصمة في عصرنا أو رئيس البلدية أو (المحافظ) فهو موكل بمراقبة المقاييس

= وهو الماهر الحاذق في صنعته ثم قل استعمال (التقنية) فظهرت (التكنولوجيا) معرّبة بدلالة الألف واللام فيها للتعريف.

والأوزان والمكاييل وضبطها في حدودٍ ثابتة متفق عليها. وللمحتسب عُمّاله ورجاله الذين يجوبون الأسواق فيفحصون الخبز مثلاً، فيتبينون درجة اختماره وإجادة خَبْزِه وإعطائه من الحرارة القدر اللازم لئلا ينقص الاختباز، فيظل فيه طراوة العجين فيثقل وزنه على حساب المستهلك. ومثل هذا يقال في الخل ونسبه تخمره، واللحم وكونه طرياً غير قديم مضراً بالصحة، وهكذا يقال في سائر الأطعمة والأشربة. ويتجاوز المحتسب هذا النظر في الأطعمة إلى أسعار الملابس والحاجات الأخرى وكونها جيدة سائرة على المتعارف من (المواصفات).

هذه نبذة يسيرة إلى واجبات المحتسب وما يدخل فيما نسميه في عصرنا بـ (المواصفات) في حدود عمله.

إن توحيد المصطلحات إقليمياً وعالمياً يفرض علينا أن نهتم بالمصطلحات التي تدل على المدلولات كالأوزان والمكاييل وألفاظ القياس والمساحة، وكيف تضبط بها السلع. ومن هنا كان الاهتمام بالعنصر اللغوي من مهمات دوائر المواصفات والمقاييس.

إن الكلام في (المواصفات) يستدعي تعاون جهات عدة فيها غرف الصناعة وغرف التجارة وغرف الزراعة والفنيون الصناعيون والتجار والمزارعون ليتأتى من ذلك ضبط متطلبات الحياة المعاصرة.

وهكذا فإن ميدان (المواصفات واسع) يدخل الصناعة على سعتها، والزراعة والشؤون العلمية في العلوم المختلفة، وإننا محتاجون إليها في صناعة أدوات الوزن والقياس وفي المصطلحات الفنية التي في شؤون الحياة العامة اليومية.

* * *

خاتمة:

هذه نبذة موجزة في (المواصفات) عرضت لها، وأنا معني بالعربية وتاريخها وتطورها، لأقول: إن اللغة قاعدة مهمة في الحياة لأنها الفكر الفعال في إدامة هذه الحياة، وهي كذلك في كل عصر.

الفهرس

الموضوع	الصفحة